نزيه مؤيّد العظم

رحلة في العربية السعيدة





رحلة في بلاد العربية السعيدة

من مصر إلى صنعاء

نزيه مؤيد العظم

الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م



بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فقد كان بودي أن أجعل فاتحة هذه الرحلة في البلاد العربية السعيدة صورة حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين الإمام يحيى بن الإمام محمد حميد الدين ولكن جلالته ويا للأسف لم يأذن لي كما انه لم يأذن لغيري من الناس الذين زاروا صنعاء اليمن أن يأخذوا صورته ، وليست هذه الصورة التي نراها لجلالته بين حين وآخر في بعض الصحف والمجلات الا صوراً خيالية وضعتها مخيلة مخترعيها وهي لا تشابه جلالته في كثير ولا قليل ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله لذلك استعضت عن وضع صورة جلالته بوضع صورة خط يده الشريف وقد التمست من جلالته أن يحرر لي ذكرى لزيارتي الى مارب والبلاد السبئية لتبقى كوثيقة تاريخية على ممر الايام ، وقد تكرم حفظه الله وتوج لي هذه الوثيقة التاريخية ببعض الاسطر من خط يده الكريمة فجعلتها فاتحة لهذه الرحلة المباركة وها أنذا أثبتها بالزنكوغراف في الصفحة التالية .

وقبل أن أبدأ بوصف رحلتي في البلاد العربية السعيدة ارفع الى حضرة صاحب الجلالة الجالس على عرشها شكري الجزيل على العطف والعناية والرعاية الملكية التي شملني بها كل مدة اقامتي في اليمن .

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرى زيارتي الى مارب والبلاد السبئية مصدقة بخط يد جلالة مولانا امير المومنين الامام يحي بن الامام محمد حميد الدين المتوكل على الله رب العالمين ومختومة بخاتمه الكريم ايدهم الله امين

المحرم ١٣٥٥

قد اذنا للهمام الاعز نزيه بك عافاه الله بالعزم الى مارب وما اليها من البلاد السبئية وعزم في حفظ الله وبلغ ما أمله من ذلك وعرض علينا بعض ما كان غير معلوم لدينا.

٦ المحرم سنة ١٣٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء الكتاب

الى حضرة والديّ صاحب الجلالة أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين الامام يحي بن الإمام محمد حميد الدين ، وصاحب الفضل والسعادة تقى بلك المؤيد العظم .

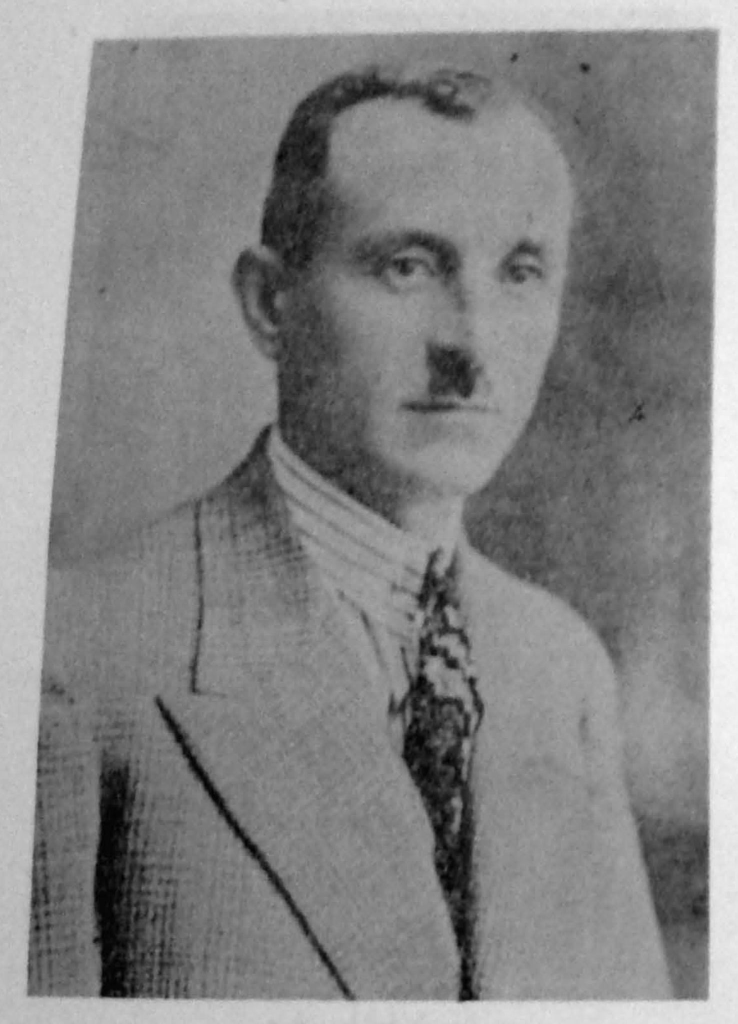
في نفسي شجون زاخرة لا تعرب عنها الكلمات واي لفظ صدر عنها فانتما معناه ومغزاه على حد قول الشاعر

الدهر لفظ وأنت معناه

أجتزي بهذا واتقدم الى مقامكما بالتحيات الطيبات المباركات وجزيل الاخلاص والاكبار والاجلال .



تقى بك المؤيد العظم



نزيه المؤيد العظم



المستر شارلس كرين

توطئة

عرفت المستر شارلس كرين المثري الاميركي الكبير وصديق الشعوب المظلومة العظيم عندما قدم الى سورية بعد الحرب العالمية على رأس لجنة الاستفتاء التي أوفدها الحلفاء لدرس حالة البلاد العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية ولتقف على رغبات أهلها في تقرير مصيرهم وقد قابلته يومئذ في فندق دامسكوس بالاس بمدينة دمشق الشام وكان لي معه حديث طويل ومناقشات شديدة حول الانتداب إذ كنت في مقدمة الذين رفضوا الانتداب رفضاً باتاً بالرغم من جميع الدعايات التي كان يقوم بها مدعو الوطنية في ذلك العهد الذين طلبوا انتداب أميركا وان لم تكن أميركا فبريطانيا ورفضوا انتداب فرنسا رفضاً باتاً ووصموا دون حياء أو خجل كل من يرفض الانتداب بانه من أصدقاء فرنسا.
تعجب المستر كرين من موقفي هذا وقال لي بصراحته المعروفة ولطفه المشهور انك أول شخص قابلته في هذه البلاد من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت ومن القائلين برفض انتداب أميركا وغيرها من الدول ولكنه سر من موقفي وصراحتي معه وتمكنت عرى الصداقة بيننا لأول اجتماع وأعطاني عنوانه وأخذ عنواني وفي أواخر سنة ١٩٢٦ قابلته بمصر في أثناء إلتجائي اليها بعد الثورة السورية فطلب اليَّ أن ارافقه في رحلة إلى الحجاز واليمن فرضيت بالقيام بهذه الرحلة وبالفعل سافرنا في آخر كانون الأول سنة ١٩٢٦ الى الحجاز فقضينا هنالك مدة في ضيافة صاحب السمو الأمير فيصل السعود ثم ولينا وجهنا شطر

اليمن الميمون فوصلنا إليه في منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٧ وحللنا ضيوفاً في رحلتنا هذه على صاحب الجلالة الامام يحيى حميد الدين المتوكل على الله رب العالمين وكنا كل مدة مكثنا باليمن موضع حفاوته وعطفه وقابلناه مراراً وأوضح له المستر كرين عن الاستعمار والمستعمرين الشيء الكثير وقدم له من النصائح الثمنية ما جعلني احترم هذا الرجل كثيراً وثبت لي بصورة أكيدة حبّه للعرب وتفانيه في نصرة الضعيف .

وعقب عودتنا من اليمن طلب إليّ الكثيرون من الاصدقاء الاوفياء أن أكتب لهم شيئاً عن رحلتي هذه فكتبت بعض المقالات في الجرائد المصرية والفلسطينية والسورية وفي تلك الاثناء ارتحلت الى اليمن ثانية وثالثة ودرست أحواله كثيراً فواصلت الكتابة عنه في جريدة الجزيرة الدمشقية فصار لي من هذه المقالات وصف لرحلتي من أولها إلى آخرها وقد حبّذ إليّ كثير من اخواني طبع هذه المقالات في كتاب خاص ونزولاً عند ارادتهم وضعت هذا الكتاب ورائدي فيه وصف البلاد العربية السعيدة وصفاً صحيحاً كما رأيتها وشاهدتها وقصدي من ذلك الخدمة العامة والله من وراء القصد .

في عرض البحر الاحمر

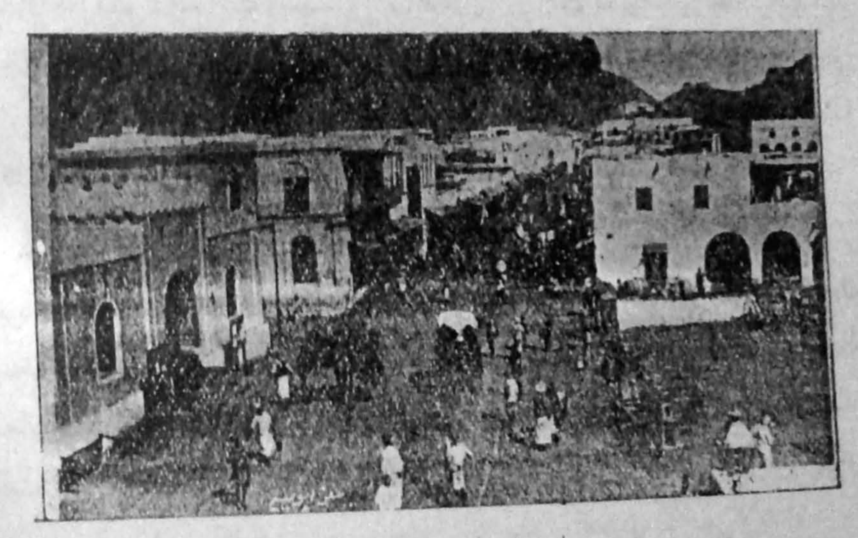
عدن واهميتها التجارية والعسكرية

قمت منذ بضعة أعوام برحلة من مصر الى صنعاء اليمن فركبت باخرة ايطالية من بور سعيد وعبرت بها قناة السويس تلك القناة العجيبة التي أبدعتها يد الانسان فقربت المسافات وسهلت المواصلات وجاءت معجزة من معجزات هذا الزمان ولكنها أوجدت ويا للأسف بين بعض الشعوب أحقاداً ومنافسات لا محل لذكرها الآن ، وهي في ذاتها حقيرة لصغر حجمها وضيقها ولكنها عظيمة بمركزها لأنها الطريق المختصر الموصل بين الشرق والغرب.

خرجت الباخرة من القناة الى بحر الله الواسع ذلك البحر الذي سموه أحمر لوجود شعاب صخرية كثيرة تتخللها شعب مرجانية حمراء على بعض سواحله الصخرية كجدة وعدن والخليج العربي و يرى الانسان على سطح مياه هذه الشعاب في معظم جهاتها أوراق نبات مائي لونها أحمر قاتم وربما كان لهذا النبات تأثير في ما يعيش حوله من الاصداف الحمراء والاسماك المرجانية التي توجد بين الصخور بكثرة ويزعم البعض انه سمي البحر الأحمر لان الإنسان يشاهد قبل شروق الشمس وقت الجزر الذي يحصل يومياً لوناً أحمر قاتماً مشرباً بالزرقة ويظل كذلك الى ان يتصل بكتلة الماء الكبرى في عرض البحر العظيم .

اجتازت باخرتنا هذا البحر في أربعة أيام ولم تعرِّج فيها على ميناء واحدة من موانيه الكثيرة كينبع وجده على الساحل الاسيوي وبور سودان وسواكن

ومصوع على الساحل الافريقي وذلك لان هذه البلاد ـ ما خلا بور سودان ـ ما زالت منذ القرون الأولى على فطرتها الطبيعية فلا صناعة فيها ولا تجارة ولا تقصدها السفن إلا في أزمنة معينة وظروف خاصة . وصلنا الى عدن وهي اليوم ميناء انكليزية بحت في المساء ، وبعد التفتيش الصحي والجمركي ومراقبة جوازات السفر سمح لنا بمغادرة الباخرة والنزول الى البر فدخلنا المدينة آمنين وقصدت تواً الى فندق كبير يسمى «جرند اوتيل» فوجدته على الطراز الأوروبي الحديث وجلّ ساكنيه من البريطانيين والاجانب . بكرت في الصباح فنزلت من الفندق وأخذت أطوف في ذلك القسم من المدينة الذي يقال له التواهي وهو مركز البريطانيين والاوربيين وبعض الجنود وقد عبّدت طرقه تعبيداً جيداً وفرشت بالاسفلت وبنيت منازله على طراز يخفف وطأة الحر الشديد وغرست على جوانب الطرق بعض الحدائق وأقيمت ملاعب كرة القدم والتنس وغيرها من الالعاب الرياضية .



احد شوارع مدينة عدن

ومن ثم صعدت الى مدينة الوطنيين التي يقال لها بالانكليزية (كريتر) أي فوهة البركان وهي تبعد عن التواهي بضعة كيلو مترات فوجدتها منظمة تنظيماً حسناً وفيها كثير من الوكالات الاجنبية التي تبتاع البن والجلود بكثرة وتعدهما للشحن الى الغرب . وأهل عدن خليط من الهنود والزنوج والصومال والعرب

وتنحصر تجارة البلد في الهنود واليهود والغرباء ، ولا يزال السكان الاصليون متمسكين بعاداتهم القديمة وخرافاتهم الغريبة فقد شاهدت في أحد الأعياد موكباً يوهم بعض رجاله الناس أنهم يأكلون النار ويسيرون فوقها ويضرب بعضهم أنفسهم بالخناجر والمدى ويقوم البعض بالرقص ولعب الخيل ويشترك في حضور هذه الحفلات جميع الطبقات نساء ورجالاً ، ومما يؤسف له ان اكثرية الوطنيين العرب أصبحوا خداماً للاجانب فلا يتعاطون من الاشغال إلا الدنيئة كالخدمة في المنازل وصيد السمك والحمالة ومسح الأحذية ونقل البضائع وخصوصاً الفحم والكاز من السفن التجارية الى البر وفي الحقيقة ان عدن قاعدة للفحم تفد إليها جميع البواخر المارة بالبحر الأحمر لتمون نفسها منها . وعلاوة على انها قاعدة للفحم فهي ايضاً قاعدة للحرب وقد أسس البريطانيون فيها مطاراً لطياراتهم يسيرونها الى اليمن ولحج وحضرموت وغيرها من البلاد المحمية كما أنهم أقاموا على جبالها العالية قلاعاً حصينة عززوها بالمدافع الضخمة لتدرأ عن عدن كل هجوم من البر والبحر وتحول دون اجتياز البواخر عند اللزوم مضيق باب المندب .

ويوجد الى الجنوب الغربي من مدينة عدن سلسلة من الجبال العالية بنى الاقدمون بين شعابها السدود والصهاريخ العظيمة يسع الواحد منها الالوف المؤلفة من الغالونات ويأخذ بعضها برقاب بعض فحينما يمتلىء الأعلى تفيض مياهه الى الاسفل وهكذا دواليك الى أن تمتلىء باجمعها .

ويجري الماء الى هذه الصهاريج من الأمطار التي تمطر في الجبال فيبقى مخزوناً فيها الى ايام القيظ فيستعمله الناس لقضاء حوائجهم .

ويوجد على احدى الروابي القريبة من مدينة عدن هيكل أقامته طائفة من المجوس يصلون فيه ويضعون جثث أمواتهم على سطحه فتأتي جوارح الطير وتلتهمها بسرعة عظيمة .

أقمت في عدن عدة أيام انتظر باخرة تقلني الى الحُديدة وتسافر عادة بين عدن والحديدة بواخر صغيرة كل عشرة أيام مرة وقد اسعدني الحظ فركبت أفخر

باخرة لدى شركة القهوجي (وهي شركة هندية للملاحة) واسمها افريقيا وحمولتها ٥٠٠ طن وتتقاضى هذه الشركة عن الراكب في الدرجة الأولى ٤٥ روبية وفي الدرجة الثانية ٣٠روبية وعلى الظهر عشر روبيات ، ولا تقدم الباخرة طعاماً لركابها بل جميعهم يزودون انفسهم بطعام كاف لسفر ثلاثة أو أربعة أيام ومع أن المسافة بين عدن والحديدة لا تزيد على ٢٣٥ ميلاً تجتازها السفن الكبيرة في أقل من يوم فسفينتنا اجتازتها في يومين ونصف يوم وقد قيل لنا انها تبقى أحياناً خمسة اوستة أيام اذا كان البحر مضطرباً .



الصهاريخ القياضة

الامير سيف الاسلام محمد
يستقبل ضيوفه خير استقبال



المرحوم
محمد سيف الاسلام
النجل الثاني
للإمام يحيى
وعامله على التهامة
والحديدة.

وبعد صراع عظيم بين السفينة والبحر أقبلنا على الحديدة وهي في الحق جميلة جداً من الخارج وكان الوقت صباحاً وقد القت الغزالة أشعتها الذهبية على جدران المدينة البيضاء فانعكست تلك الأنوار انعكاساً يأخذ بمجامع القلوب وكأن هذا المنظر الجميل لذّ لسفينتنا فأخذت تسير الهوينا وتقترب من البر ببطء لا مزيد عليه وذلك لأن عمق الماء كان يتناقص شيئاً فشيئاً والرياح تشتد اشتداداً عظيماً وكان أحد بحارتنا يقيس عمق الماء بآلة خاصة كلما اقتربنا من المرفأ ولا أستطيع أن أسميه مرفأ لأنه حوض صغير يشبه حمامات البحر

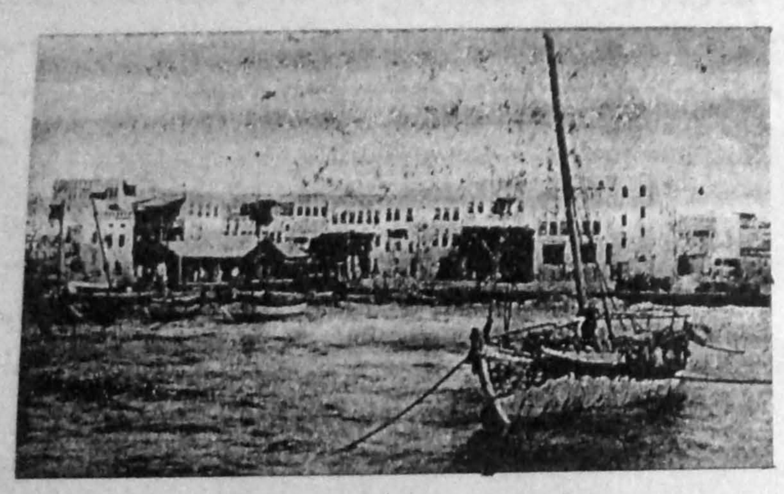
الاصطناعية في المدن الكبيرة ولا يمكن لأكثر من عشرين زورقاً شراعياً أن تلتجىء إليه ابان الزوابع والعواصف .

القت السفينة مرساها على مسافة بعيدة من المرفأ خشية الأمواج الكبيرة التي كانت تتقاذفها وكنت منتظراً ان تأتينا المراكب من البر حالاً لأني طيرت قبل يوم وصولنا برقية لاسلكية الى عامل الحديدة المرحوم محمد سيف الاسلام أنبئه فيها بمجيئنا ولكن لسوء الحظ خاب ظني ولم يأتنا أول مركب إلا قرب الساعة التاسعة والنصف ولم يحضر الطبيب عليها فلم يأذن لنا القبطان بالنزول فكتبت رسالة الى سيف الاسلام وأرسلتها مع ربان المركب وبيّنت لسموه فيها حقيقة الخبر فذهب الربان بها إليه وبعد قليل شاهدنا المراكب الشراعية تتطاير إلينا على جناح الريح فامتطينا احداها وسر نا باسم الله وكان ربانها يقودها بدقة غريبة كما يقود الفارس جواده وليس من العجيب أن يحسن البحار العربي هذا العمل، لأن الحديدة مشهورة منذ القديم بسفنها الشراعية وهم الى هذا اليوم يصنعونها بكثرة ولها عندهم أسماء متعددة مرتبة بالنسبة لحجم المراكب فيقال لأصغرها الهورى ثم القطيرة فالزعيمة فالسنبك فالساعية فالبغلة فالسفينة . وما كدنا نبتعد بزورقنا الشراعي عن سفينتنا «افريقيا» حتى قابلتنا سفينة شراعية فأشار ربانها الى رجل ألقى بنفسه منها في اليم وأخذ يسبح بخفة ويقبل نحونا فالتقطه بحارتنا وإذا به رسول سمو سيف الاسلام يحمل لي رسالة منه يقول فيها أنه لم يأخذ برقيتنا اللاسلكية التي أرسلتها اليه من الباخرة ويذكر ان الوصول الينا صعب بسبب شدة الرياح وإنه أمر باعداد السنابيك وسيرها إلينا رغم جميع الصعوبات وحرر الى قبطان المركب تحريراً خاصاً يأذن له فيه بان يسمح لنا بالنزول الى البر رغم عدم مجيء الدكتور .

في ميناء الحديدة

وصلنا المرفأ والتعب قد أنهكنا فنقلنا بعض الرجال من المركب الى البر حملاً على الاكتاف فقابلني محمد افندي رضا مدير شرطة الحديدة وقال انه موفد من قبل الامير محمد سيف الاسلام لاستقبالنا فصعدت واياه الى مقر سمو

سيف الاسلام فتبادلنا التحيات الطيبة والمجاملات المألوفة وشربنا شيئاً من القهوة ثم ذهبنا الى الدار المعدة لنزولنا وأول شيء لفت نظري في الطريق بعض الدور المهدومة فسألت مدير الشرطة الذي رافقنا الى الدار عن سبب انهيارها فقال هذا عنوان المدنية الغربية وأثر من آثارها الفنية فقلت أفصح ! فقال هذه بقايا ضرب الطليان والبريطان للمدينة في سنة ١٩١٢ وسنة ١٩١٥ أي قبل الحرب العظمى وبعدها .



ميناء الحديدة يرسو فيها أحد المراكب الشراعية

وصلنا الى الدار المعدة لنزولنا فوجدناها داراً فسيحة ذات ثلاثة أدوار الدور الأول مخصص للحيوانات والثاني والثالث للسكن وتشبه دور الحديدة بعض دور جدة في الحجاز وجميعها مبنية بالحجر والكلس ذات نوافذ كبيرة وكثيرة لتخفف وطأة الحر .

جلست في احدى النوافذ فرأيت منها مكتب المرحوم محمد سيف الاسلام حاكم الحديدة وهو قصر فخم ذو أربعة أدوار يرفرف على بابه علم أحمر اللون في وسطه سيف وإلى جوانبه خمسة نجوم وهو علم الحكومة المتوكلية .

طلبت الى الطاهي أن يأتني بكأس من الشاي (ويطلقون عليه في اليمن كلمة شاهي) ولما جاء بها إليَّ شربتها مرغماً لان ماء الحديدة مالح ولا تذهب

ملوحته حتى مع الشاي والسكر وبينما كنت جالساً اسرح البصر في الحديدة وضواحيها واذا برئيس البلدية يأتي لزيارتنا والترحيب بنا وبعد ما استراح قليلاً وشرب الشاهي نزلنا بصحبته الى المدينة فطفنا في ازقتها وشوارعها وأسواقها فوجدنها صغيرة بالنسبة الى بلادنا ولكنها نظيفة وذلك بهمة رئيس بلديتها السيد عبد القادر الشرامي وهو شاب في مقتبل العمر ذكي ونشيط وشاهدت في أثناء طوافي مخازن البن وهي عبارة عن خانات كبيرة لها صحن فسيح في أطرافها غرف كبيرة تعمل في بعضها النساء في تنظيف البن وتقشيره وتحضيره للخزن أو للشحن وصاحب المخزن يجلس عادة على كرسي كبير يشبه السرير على باب مخزنه يدخن أركيلته .

وبعد الظهر دعانا سمو الامير رحمه الله لزيارته زيارة رسمية في مقره فرحب بنا بما عهد به من البشاشة واللطف وقال انه تلقى أوامر مشددة من مولانا الامام بوجوب اكرامنا والعناية بنا وتأمين راحتنا ، واعتذر لنا مقدماً عما قد يبدر منه أو من أهل البلاد من التقصير نحونا قائلاً انهم لا يزالون على فطرتهم الطبيعية .

العناية بزراعة البن والتنباك والقطن في اليمن

الزامل أي النشيد الوطني

بحثت مع سموه عن الزراعة والصناعة فقال ان من أهم مزروعات اليمن البن والتنباك والحبوب لذلك فهو يهتم بها اهتماماً زائداً ويعممها في جميع البلاد الواقعة تحت نفوذه وحكمه وقد توصل بعد التجارب الكثيرة الى غرس أنواع متعددة من البن والتنباك في جهة زبيد وغيرها من البلاد التي لم تكن معروفة فيها فنمت نمواً حسناً وقال ان جلالة مولانا الامام يهتم جداً بغرس القطن ويجلب البذور من مصر واميركا وغيرهما من البلاد وقد نمت هذه الأنواع الجيدة الغريبة عن البلاد نمواً حسناً في بعض الاصقاع وسيكثرون من غرسها تدريجياً كما جلب الامام بعض الآلات والأدوات لحلج القطن وأخذ يشجع الشعب على غرسه ولا بد من أن يأتي يوم يعمم فيه زرعه في جميع أطراف البلاد .

هذا ولقد دهشنا من فخامة قصر سيف الاسلام وترتيبه وزخرفة أبوابه ونقوش

نوافذه وزينة جدرانه بالآيات القرآنية والاشعار العربية ودهان سقوفه بادهنة زيتية لم أشاهد مثلها في جميع دور الحديدة واليمن فسألت أحد الاهلين عن أمر هذا القصر فقال : بنى هذا القصر أحد أغنياء حضرموت الذي جاء الحديدة كتاجر، ولما طاب له المقام فيها استوطنها وجلب العمال الذين بنوه له من خارج اليمن فجاء آية في الابداع بالنسبة الى دور اليمن وقصورها .

وقد زارنا أمير جيش الحديدة (أي قائد الجيش العام) القائمقام العسكري سليم بك فاخوري فسألته عن أصله وعن المدرسة التي تلقى فيها دورسه



محمد سيف الاسلام
والى جانبه مؤلف هذه الرحلة
وهما يفتشان بئرا زراعية

فأجاب : ان أصله من الناصرة من آل الفاخوري وانه درس العلوم العسكرية في القسطنطينية وبقي في تركيا ١٤ عاماً ضابطاً وبعدها جاء الى اليمن وكان كل مدة الحرب العظمى فيها وهو مسرور جداً بخدمته في الجيش المتوكلي أي جيش الإمام المتوكل على الله. فسألته هل الخدمة العسكرية في اليمن اجبارية أم اختيارية فأجاب انها اختيارية أيام السلم ولكن جميع أهل البلاد جنود بطبيعة الحال أيام الحرب وقد ألفوا القتال واستعمال البنادق منذ نعومة أظفارهم والحكومة تدفع للجندي ستة ريالات في تهامة وخمسة في الجبال مشاهرة وتعطيه ألبسة مرتين في السنة . كما انها تقدم له طعاماً وشراباً أما اللباس الرسمي فهو ثوب من الشيت الأبيض أو المصبوغ بالأزرق ولباس الرأس عمامة صغيرة يختلف لونها باختلاف ذوق صاحبها فمنها البيضاء ومنها الزرقاء ومنها الملونة والمزركشة . وأما الأحذية العسكرية الضخمة فليست معروفة في اليمن فبعضهم يلبس الصندل الخفيفة وبعضهم لا يلبسون شيئاً .

وقد شاهدت استعراض الجند يوم الجمعة بعد الصلاة ويجرى استعراض الجند يوم الجمعة في بلاد اليمن من أقصاها الى أقصاها فعندما يعود العامل (أي الحاكم) في أي منطقة من مناطق اليمن من صلاة الجمعة يمر الجيش أمامه والحق يقال انني وجدت في هذا الاستعراض مسحة خاصة من الرونق والبهاء وقد رأيته باديء بدء ماشياً مشيته العسكرية وموسيقاه تعزف أمامه بعض الأنغام التركية ورؤوس الجنود تلمع فوقها العمائم . ثم رأيته يعود أمام العامل ثانية وهو يمشي مشيته العادية وينشد أناشيد وطنية يقال لها الزامل ويرقص بالسيوف والخناجر رقصاً جميلاً، أما نشيد الزامل فهو رهيب جداً يشبه الحداء عند العرب والدروز وللامام زامل خاص ولسيف الاسلام زامل خاص تنشده عقفته (أي حرسه) في أثناء خروجه للصلاة او طوافه في أطراف البلاد وهذا زامل عقفة سيف الاسلام:

سيف الاسلام الذي يدق على المراتب
طالعة سعد السعود
من يعاند دولته

من كبير لا قل كافر يسجنه

هو عمود ترتعب منه الجزائر والمراتب والنصارى واليهود

وجميع المسلمين قايم وقاعد .

* * *

طاعته واجبة علينا

فرض واجب

بعد توثيق العهود

لا بد لمن شل رأسه او يعاند

يستقي نار الوقود

تحت أمره الجن تخدم والمناصر

ما تعلق بالجنود .

الطبقات الاجتماعية

السادة والتجار والعمال والبربر

مستشفى الحديدة

مرض أحد خدمنا فسألنا اذا كان يوجد طبيب في البلد فقيل لنا : نعم يوجد طبيب ايطالي ويوجد مستشفى للحكومة يشرف عليه هذا الطبيب وهو موظف رسمي في حكومة الامام ويتناول راتبه من بيت مال المسلمين، والحكومة تنفق على المستشفى وتأذن لجميع الأهلين بدخوله مجاناً كما أنها تعطي الفقير منهم الأدوية مجاناً وقد زرت هذا المستشفى فوجدته في غاية من النظافة والترتيب وفيه غرفة فنية للعمليات الجراحية وأدوات جراحية كاملة وصيدلية كبيرة مملوءة بالعقاقير ويساعد الطبيب الإيطالي بعض المساعدين من الاحباش جلبهم حضرته معه من مصوع . استدعينا هذا الطبيب فوجدناه على غاية من الظرف واللطف أنيس المعشر رقيق العبارة وبعد أن طبب مريضنا وأعطاه الأدوية اللازمة دار حديث طويل بيننا وبينه سألناه فيه عن الصحة العامة في اليمن فأجاب : صار لي عدة سنوات أخدم في حكومة الامام وقد طفت كثيراً في بلاد اليمن ووقفت على أحوال أهلها وأمراضهم ولا شك أنهم أقوياء جداً وأجسامهم تقاوم جميع الأمراض مقاومة عنيفة لأنه لا طب فيها ولا دواء منذ القديم والأمراض المتفشية في اليمن تفشياً مريعاً هي الجدري وحمى التيفوئيد والملاريا والاهالي فقراء ولا يحصلون على قوتهم الضروري إلا بشق الانفس وانهم يتزوجون نساء متعددة وان وفيات أطفالهم تبلغ ثمانين في المائة . وقال ان أهالي اليمن ثلاث طبقات

الطبقة الأولى وهم الشرفاء من نسل الحسن والحسين وهم محترمون في نظر الاهلين جدا وكل من رآهم يقبل أيديهم والطبقة الثانية وهي الوسطى تتألف من التجار والعمال وما أشبه ، والطبقة الثالثة تتألف من البربر وهذه منحطة للغاية ومعظم افرادها يشتغلون بنقل البضائع من البحر واليه على ظهورهم ويقال لهم الاخدام ومواطنوهم لا يزوجونهم من بناتهم ولا يتزوجون منهم وأصلهم مجهول ولكن هيأتهم تدل على أنهم من بقايا البربر الذين افتتحوا بعض أطراف اليمن قديماً .



الحديدة كما تبدو من ساحلها الشمالي

والحديدة في هذه الأيام هي ميناء اليمن الوحيد الذي تقف عليه بعض البواخر التجارية وأما المخا التي كانت فيما مضى ميناء أعظم من الحديدة فقد أكل الدهر عليها وشرب وأصبحت حقيرة للغاية لا تمر بها البواخر التجارية الكبيرة ابداً وتنحصر صادرات اليمن في البن والجلود وبعض أصناف الحبوب وأما وارداته فكثيرة كالاقمشة بانواعها والتنباك والكاز والزيت والكبريت وجميع المصنوعات الاوروبية «خردوات» ومعظم هذه الواردات تأتي عن طريق عدن فالحديدة ، وبعضها يأتي عن طريق البر الى عدن فلحج فاليمن .

واكثرية سكان الحديدة من المسلمين الشوافع إلا أن بينهم بعض الزيود والغرباء من سوريين وهنود وهؤلاء يحترفون التجارة .

خرجت ذات يوم في الأصيل بعد أن خفت وطأة الحر لان الحر في الحديدة شديد جداً (وكنت في أواسط شهر كانون الثاني أنام على سطح الدار التي نزلنا بها من شدته) وأخذت أطوف شوارع البلد باحثاً مدققاً فاسترعى نظري في بعض الأسواق المعدة لبيع المأكولات والحلويات كثرة الذباب بشكل رهيب وفي أثناء طوافي رأيت مشهداً غريباً جداً، رأيت رجلاً مكتوف اليدين يحرسه بعض الجند وقد شدوا الى ظهره طبلاً صغيراً وأخذ أحد الجنود يضرب على ذلك الطبل وكان جمع غفير من الأولاد والرجال يتبع هذا الموكب كيفما سار ساخطاً صاخباً منادياً بخ بخ يا شارب الخمر.

تطبيق الجزاء الشرعي على السكير

فسألت عن أمر الرجل فقيل لي انه سكير وقد القي عليه القبض وهو يعاقر بنت الحان وسيق الى المحكمة الشرعية وهو سكران فحكمت عليه بالجلد والتشهير وطريقة التشهير هي على هذه الصفة فقلت في نفسي يا حبذا لو كانت تطبق هذه القاعدة على السكارى في بلادنا .

المحكمة الشرعية في الحديدة

وعلى ذكر المحكمة الشرعية أقول أني زرتها في أثناء طوافي المدينة لأطلع على كيفية المحاكمة واصدار الأحكام وصادف يوم زيارتي لها أن تقدم إليها رجل يشكو أحد اقاربه لاغتصابه داره وكان القاضي الشرعي يجلس في صدر المحكمة ويجلس الى جانبه كاتبه وامامهما المدعي والمدعى عليه ولا أثر للمحامين والحمد لله فيها وبعد أن استجوب القاضي بدقة زائدة المدعي والمدعى عليه وطرح عليهما أسئلة كثيرة سجلها الكاتب الشرعي في سجل خاص لفظ القاضي حكمه في نهاية الجلسة التي لم تستغرق اكثر من نصف ساعة ولا أثر للتكلف او التصنع في هذه المحكمة ولا يدخلها التماس ولا محسوبية من بين يديها او من خلفها وحكمها مبرم ويحصل الانسان عليه في جلسة أو جلستين على الاكثر وينفذ في الحال .

خرجت من المحكمة وأردت أن آخذ بعض الصور الفوتوغرافية في المدينة فتبعني جمهور غفير من الأولاد والرجال بعضهم يقول صورني صورني وبعضهم ينادي باعلى صوته بخشيش بخشيش وويل للمرء ان غلط وأعطى أحدهم شيئاً فانه يصبح عرضة لهجوم الجمهور عليه ولا يتخلص من بين أيديهم الا بقوة الجند ولذلك اعتاد جلالة الامام أن يصحب ضيوفه ببعض الجند في أثناء طوافهم باليمن واذا صور المرء أحداً فانه للحال يطلب صورته واذا أفهمه انه لا يمكن اخراج الصورة فوراً يغضب ولا يصدق .



جندي يماني
والى جانبه شرطيان في الحديدة

شيوخ من البدو

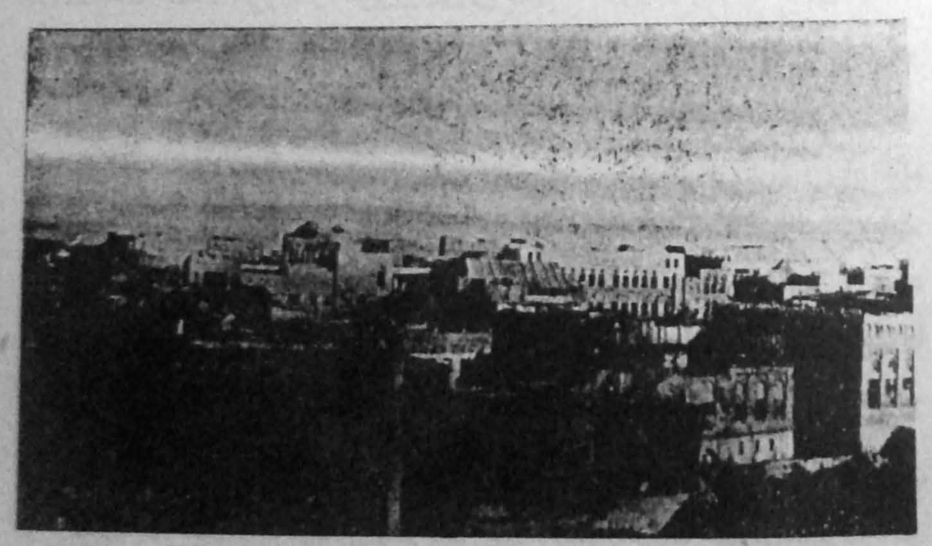
مررت في أثناء طوافي بدائرة الشرطة فعرجت على المدير لأرد له الزيارة فوجدت عنده كلا من الشيخ اسماعيل البغوي شيخ عشيرة الجمادي بقبيلة القحرا والشيخ ابراهيم الصغير شيخ عشيرة الضامر بقبيلة القحرا فعرفني حضرته بهما قائلاً انهما هما اللذان أسرا الكولونيل جاكوب سنة ١٩١٩ في باجل عندما كان ذاهباً من الحديدة الى صنعاء لمقابلة جلالة الامام . والكولونيل جاكوب هو أحد الضباط الانكليز المستشرقين والمرتبطين بوزارة الخارجية البريطانية فسألتهما لماذا أسرتما ضيف الامام ؟ وهل هذا العمل مشروع في عرفكما ؟ فأجابني اتصل بنا ان هذا الرجل جاسوس انكليزي أتى لبلادنا ليتآمر علينا

وعليها ، فخيفة من شره وحرصا على البلاد والعباد أبقيناه عندنا رهينة ريثما تفاهمنا مع جلالة الامام عن حقيقة أمره ولما جاءنا رسول الإمام ينبئنا بانه ضيف أتى للمشاورة والمخابرة مع جلالته أطلقنا سراحه في الحال .

أعجبني والحق يقال منطق الرجلين ومنظرهما والبستهما وسذاجتهما وهما حليقا الشاربين حليقا اللحيتين - على السنة - عاريا الجسدين خلا مئزرين يشدانهما الى وسطهما قصد التستر ، ولونهما أسمر نحاسي وعضلاتهما مفتولة تدل على الشدة والبأس وقبيلتهم مشهورة منذ أيام الترك بعدم الطاعة وعظيم السطوة وهي تقطن التهامة وجميعها من الشوافع وقد انقضّ الشيخ اسماعيل البغوي على الامام يوم ثورة الزرانيق وانضم مع عشيرته اليهم ففتك رجال الامام بعشيرته وقتلوه شر قتلة لخيانته وغدره .

جولة في الحديدة

خرجت من دائرة الشرطة واتممت طوافي بالمدينة فرأيت بعض الصناع والعمال يشتغلون بفتل الاحبال الغليظة ولفها ويصنعون الحبال من نبات القنب الهندي ، ويشبه هذا النبات القنب عندنا ويتبعون في صناعته نفس الطريقة التي يتبعها صناعنا في عمل الحبال من قشر القنب ويستعملون هذه الحبال الغليظة



مدينة الحديدة

في السفن الكبيرة . على شاطىء البحر مكان فسيح

وبالقرب من مكان صناعة الحبال يوجد على شاطىء البحر مكان فسيح يعمل فيه النجارون طيلة النهار في بناء المراكب الشراعية ويجلبون الخشب لبناء هذه المراكب من آنس وغيرها من الاصقاع اليمانية المشهورة باحراجها الكبيرة ، وبالقرب من هذا المكان رأيت أيضاً صناعة الكلس ويقولون للكلس في اليمن نورة ويصنعونه من بعض الحجارة البحرية التي تقذفها الامواج الى الشاطىء بنفس الطريقة التي يصنعون بها الكلس عندنا اي بواسطة الأتون البسيط وهذه هي أهم الصناعات التي شاهدتها في الحديدة .

بعد انتهائي من هذه المشاهدات أقبل الظلام فسألت أحد المارة اذا كان يوجد مقاءٍ في الحديدة فأجاب نعم وأشار لي الى جهتها. فيممت وجهي شطر تلك الجهة فأقبلت على عدة مقاه قريبة بعضها من بعض فانتخبت اكبرها واكثرها أنواراً وجلست فيها فوجدت الناس جالسين فيها بنسبة أجناسهم وبلادهم رأيت الهنود المسلمين جالسين في ناحية والهنود «البنيان» اي غير المسلمين جالسين في ناحية أخرى ووجدت أهل تهامة جالسين وحدهم بعيدين عن الزيود والزيود جالسين وحدهم بعيدين عن الجميع ولم أشاهد أحداً يلعب الورق او النرد او الطاولة فسألت عن سبب ذلك فقيل لي ان محمد سيف الاسلام رحمه الله منع جميع الألعاب منذ تسلم زمام الحكم في الحديدة وتهامة وذلك خوف انتشار الميسر.

وأخبرني محدثي أن جميع الألعاب كان مسموحاً بها أيام الترك وأيام كان السيد حسين عبد القادر عاملاً للامام بالحديدة وفي أيام الترك كانت المشروبات الروحية أيضاً تقدم الى الزبائن في القهاوي بصورة علنية للمسيحيين واليهود والمسلمين على السواء وكان عدد نفوس الحديدة وقتئذ يربو على السبعين الفاً ومعظمهم من الغرباء وأما اليوم فانها لا تزيد على ١٢ الفاً بحسب الاحصاء الاخير.

عدت من القهوة الى الدار وانا افكر فيما رأيت وما سمعت من الغرائب في

ذلك النهار وجلست الى طاولة صغيرة فدونت مذكراتي عن ذلك اليوم ثم تناولت شيئاً من الطعام وصعدت الى سطح الدار لانام ولكن جيوشاً من البعوض هاجمتني وحرمتني النوم فاضطررت لوضع ناموسية واستلقيت ثانية في الفراش فنمت عندئذ نوماً هادئاً.

ضيوف الإمام

وفي الصباح نهضت مبكراً وشاهدت شروق الشمس خلف جبال تهامة ثم شربت قليلاً من الشاي وأكلت الطعام ونزلت الى الدار ، وعلى ذكر الطعام أقول اننا كنا ضيوفاً على جلالة مولانا الامام فكنا نعامل أفضل معاملة وقد تكرم صاحب السمو محمد سيف الإسلام رحمه الله فارسل إلينا الخدم والحشم لخدمتنا والجند لحراستنا ومساعدتنا وكانوا يقدمون لنا كل يوم اللبن والبيض والقهوة والشاي والسكر والارز واللحم والخضار وجميع ما نحتاج اليه من اللوازم الضرورية وهذا هو شأنهم في تكريم ضيوفهم فانهم يقدمون جميع لوازمهم واذا لم يكن مع الضيف طاهٍ فانهم يرسلون له طباخاً خاصاً يعمل له طعامه حسب ارادته لا حسب عادة أهل البلاد.

منازل الحديدة

تأملت وأنا جالس الى النافذة في منزلنا والمنازل التي تحيط به فلاحظت أن جميعها مبنية من الآجر الأحمر والطين والكلس وجدرانها مكلسة من الداخل والخارج بالنورة (أي الكلس الذي يصنعونه من حجارة البحر) ومن حسنات النورة أنها بيضاء ناصعة البياض لا تلصق بالألبسة اذا اتكأ المرء عليها ولاحظت ان أرض غرف المنزل من الداخل مصنوعة من العدسة وكذلك السطوح وهي كبيرة ومتسعة ومسطحة ولها مزاريب كثيرة .

وسقوف البيوت في اليمن مصنوعة من الخشب المدهون بالوان بارزة جميلة والابواب مصنوعة من الخشب أيضاً ومحفورة حفراً جميلاً وكذلك أخشاب النوافذ فهي أيضاً محفورة حفراً جميلاً وعليها حواجز خشبية (أخصاص)

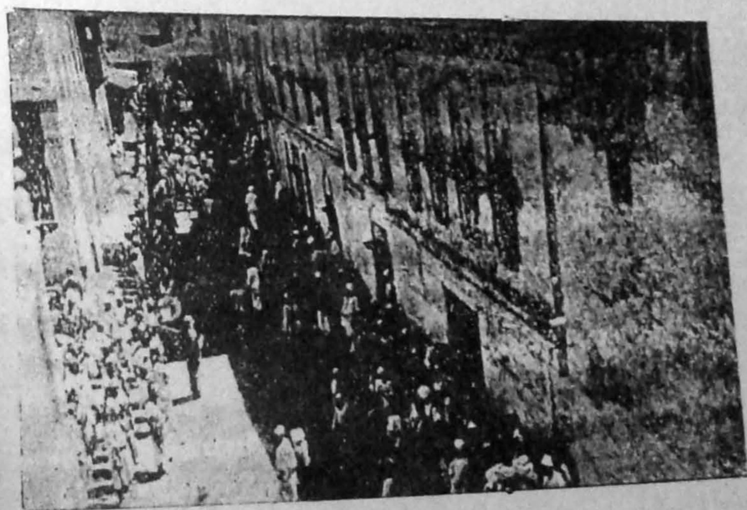
كالحواجز التي تستعمل في دمشق وزجاجها في أغلب الاحيان ملون وهم يرغبون اللون الاحمر والاخضر والازرق كثيراً وجميع المنازل مبنية على طراز هندسي يمكن معه دخول الهواء بكثرة لان صيف الحديدة حار جداً .

وفي داخل المنزل توجد فسحة مفتوحة ممتدة من السطح الى الدور الأول لجلب الهواء ويستعمل الدور الأول غالباً كمخزن واما الدور الثاني والثالث والدور الرابع في بعض الاحيان فتستعمل جميعها للسكن ويوجد في جدرانها كثير من الخزائن اي (الدواليب) تستعمل لوضع الملابس ويصعد الى الدور الثاني غالباً بدرج مبني من الآجر والطين واما سلم الدور الثالث والرابع فتصنع من الخشب وهذه السلالم عريضة تحيط بها نوافذ كثيرة لتضيئها .

الاجانب في الحديدة

خرجت من الدار لأتمم طوافي في البلد فطفتها جميعها وهي تتألف من عدة شوارع اقيمت على جانبها المنازل وثلاثة اسواق تجارية متصل بعضها ببعض تحيط بها المنازل من كل ناحية، تعرض في هذه الاسواق البضائع المختلفة من اقمشة الى تنباك الى نشا وسكر وخردوات .

ويوجد في الحديدة تاجر واحد يوناني الّف شركة دعاها شركة ليفراتو وهو



شارع من شوارع الحديدة

يبتاع معظم محصول البن في اليمن ويصدره الى أميركا وفرنسا وبريطانيا وتوجد شركة ايطالية وهذه شبه حكومية وتوجد ايضاً وكالة روسية وهذه ايضاً حكومية سياسية اكثر منها تجارية ويقوم رجالها بدعاية شيوعية واسعة النطاق ولا يوجد تاجر أوروبي واحد خلاف هذه الشركات الاجنبية الثلاث ولكن هناك كثير من التجار الهنود المسلمين والبنيان وبعض التجار من الاتراك وواحد من السوريين .

ومن دواعي الا سف انه بالرغم من اقبال اليمانيين على ابتياع الاقمشة المصنوعة في سورية بكثرة كالصايات الحريرية والديما لا يهتم السوريون بتوسيع تجارتهم مع اليمن ولا يقومون بأي نوع من الدعاية لها ولا أبالغ اذا قلت ان السواد الأعظم من سكان اليمن من الطبقة الوسطى يلبسون ديما بلادنا وجميع الاشراف والسادة من الطبقة العليا يلبسون صاياتنا الحريرية ويباهون بها ومع ذلك فنحن مقصرون جداً في الدعاية لمصنوعاتنا وذلك ناتج أولاً عن فقدان من يمثلنا تمثيلاً خارجياً رسمياً في تلك البلاد وثانياً لأن تجارنا كما يقول المثل العامي : «يريدون قطا من خشب يصطاد ولا يأكل» فلا يقومون بدعاية ما لبضاعتهم ولا يشرفون على الأسواق بأنفسهم حتى ولا يوجد لهم وكلاء في الحديدة ولا في عدن واني على مثل اليقين بأنهم لو اهتموا قليلاً بهذه الشوؤن لاستولوا على أسواق اليمن بأجمعها . ومتى أدرك القارىء الكريم ان سكان اليمن يبلغ عددهم نحو خمسة ملايين يدرك أهمية التجارة مع تلك البلاد وأهمية أسواقها .

زيارة المسجد الكبير

بعد طوافي في الأسواق عرجت على المسجد الكبير ويقولون له الجامع وقد بنته امرأة من أهل مسقط منذ ثلاث مائة سنة ويقال لها فاطمة ابنة الزراف وهو خلو من السجاد والبسط وغيرها ولكنه متسع وجميل ولا يوجد فوق محرابه نقوش وغيرها بل يوجد شبه دولاب صغير له نافذة زجاجية تحفظ فيها بعض الآثار القديمة من عهد النبي ﷺ ، وقد جلب هذه الأشياء الوالي محمود نديم بك من الحجاز ارضاء للشوافع أيام الدولة العثمانية .

الصيد البحري

خرجت من الجامع وسرت نحو البحر فرأيت جماهير من صيادي السمك يحملون صيدهم ليبيعوه في الساحة العامة وصيد السمك في الحديدة مهنة لا يستهان بها والسمك جيد ورخيص للغاية لأن الطلب عليه قليل لرخص اللحم .

وصلت بطوافي الى المينا وزرت رئيس المينا ويدعى احمد ابراهيم ويلقب بأمير البحر وهو رجل مسنّ يتقن التركية جيداً واخاله من أصل تركي .

في المكتب الرشدي

ثم زرت المكتب الرشدي المتوكلي ومديره سليم بك الفاخوري وأساتذته احمد افندي الكثرى والفقيه حمود الكستبان ومحمد افندي صادق البخاري وسليمان صادق البخاري وغيرهم ويبلغ عدد الطلاب فيه نحو مائتين يتعلمون القراءة والكتابة والصرف والنحو والقرآن والفقه والحساب والجغرافية الى غير ذلك من العلوم الابتدائية. وقد أبدى لي سمو سيف الاسلام محمد رحمه الله رغبته الشديدة في جلب بعض المعلمين من سورية ليدرسوا الأولاد ويشرفوا على هذا المكتب وغيره من المكاتب ، وعند عودتي الى مصر أقنعت الأخ الصديق المجاهد عادل الحامدي الطرابلسي بلزوم ذهابه الى اليمن وتسلم



موسيقى الجيش في الحديدة وفي مقدمتها مدربها خالد أفندي بن محمود المنصور وهو رجل حلبي الأصل

مديرية مكتب الحديدة فلبى طلبي حفظه الله وسافر لليمن فوراً وأخاله لا يزال هناك الى يومنا هذا .

خرجت من المكتب بعد ان استعرضت طلبته وحادثت بعضهم فوجدتهم على جانب عظيم من الذكاء الفطري والنباهة الغريزية ثم ذهبت الى ادارة الجمرك فقابلت القاضي محمد الحجري وتحادثت معه طويلاً بشأن الرسوم . والحجرى رجل من القبائل المعروفة ذكي ونشيط وشجاع وكان المرحوم محمد سيف الإسلام يحبه محبة جمة ويستعين به عند الملمات والشدائد وقد عينه مديراً للجمارك فقام بهذه الوظيفة أحسن قيام وكان يعامل الناس باللين واللطف وقد سمعت عنه أعطر الثناء والمديح من جميع التجار الذين صادفتهم .

مرفأ فرنسي يبنى بجوار الحديدة

الطليان يضربون المرفا والخط الحديدي بالقنابل

جمرك الحديدة

والجمرك في الحديدة منظم ونظيف ، وهو يتألف من (وكالة) فيها فسحة واسعة مكشوفة للشمس والهواء، وعلى جوانب هذه الفسحة بنيت عدة بنايات وغرف كبيرة وصغيرة وكل غرفة أو بناية معدة لخزن نوع من أنواع البضائع والحاجيات.

ويأخذون في الحديدة رسماً جمركياً قدره اثنان ونصف في المئة على جميع الصادرات وأما الواردات فلا يأخذون عليها رسماً بل يأخذون هذا الرسم وقدره اثنان ونصف في المئة أيضاً في مكان الاستهلاك.

في مدرسة الصناعات

ذهبت من الجمرك الى ظاهر المدينة فزرت مدرسة الصناعات التي كان بناها الترك أيام الدولة العثمانية فوجدتها قد تهدمت ولعبت بها يد الزمان والانسان، إذ قامت حولها معارك بين جيش الإمام وجيش الادريسي بعد الحرب العامة ، فدكت بعض معالمها دكاً ودرست أطلالها درساً.

ولكن سيف الإسلام محمد رحمه الله اعتنى ببعض أبنيتها وحدائقها وبنى

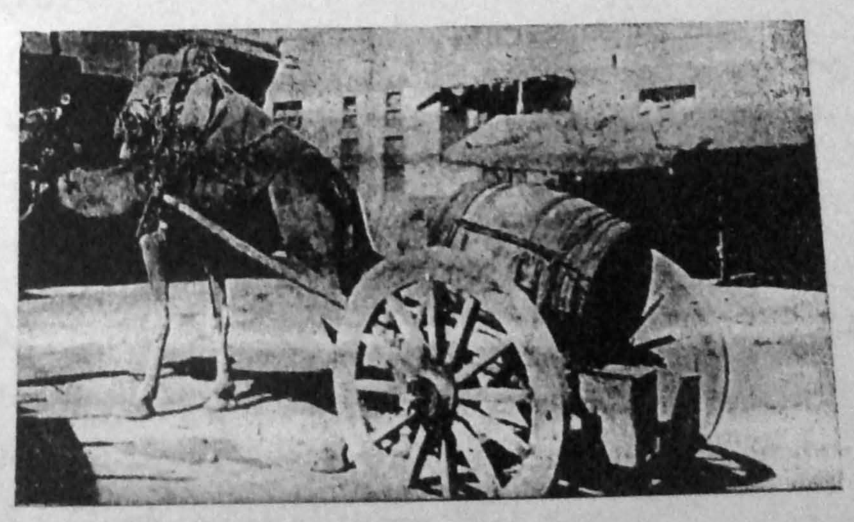
بناية صغيرة في الحدائق وأقام فيها (شادروانا) أي بحيرة، وغرس بعض الأشجار والنباتات وحصّن الحدائق بحصون من القش والنباتات اليابسة ليمنع عنها تيارات الرمال الجارفة التي تكتسح الحديدة وأطراف تهامة بين آونة وأخرى وبهذه الطريقة دفع عنها هجوم الطبيعة

وبالقرب من حديقة مدرسة الصناعات يوجد مركز التلغراف اللاسلكي ويراسل هذا المركز مصوع وأسمرة في الساحل الافريقي ويدير التلغراف اللاسلكي بعض الأخصائيين من الطليان ويدعون اللاسلكي باليمن بطار الهواء

عند آبار المياه

وبجوار طار الهواء توجد عدة آبار للماء تدعى آبار الحلى ويبلغ عمقها خمسة أمتار وتعوّل الحديدة على هذه الآبار للشرب وهي أقل ملوحة من ماء الآبار في المدينة لأنها أبعد عن شاطىء البحر.

وقد أقام سيف الاسلام رحمه الله عليها حرساً من الجند وبنى لهم بناية



عربة لنقل الماء من آبار الحلى الى الحديدة.

خاصة يقيمون فيها لحراستها، وتبعد هذه الآبار عن الحديدة نحو كيلو مترين

وينقل الناس الماء منها على الحيوانات والعربات ويستخرجون منها الماء بدلاء يدوية على الطريقة القديمة المعروفة عندنا، ولو اهتمت الحكومة قليلاً بها لامكن رفع الماء منها بالمضخات وسحبها الى المدينة بأنابيب حديدية وبذلك توفر على الناس عملاً كثيراً وعناء عظيماً.

في رأس الكثيب

يوجد على بعد عشرة أميال من الحديدة رأس في البحر يقال له رأس الكثيب وقد استحصل الفرنسويون في أيام الدولة العثمانية على امتياز يخولهم بناء مرفأ فيه وقد أصابوا جداً باختيارهم اياه لأنه موقع طبيعي واسع يصلح لبناء مرفأ أمين ودخوله سهل على المراكب الشراعية الصغيرة والسفن التجارية الكبيرة.

وقد باشر الفرنسيون عملهم فيه فجلبوا بعض الآلات والأدوات وحفروا أرض الحوض وزادوا في عمقه حتى صار في امكان أعظم السفن أن ترسو فيه كما مدوا بجانبه خطا حديدياً ضيقاً كالخط الحديدي بين دمشق وبيروت الى الطنمية وهي قرية صغيرة بالقرب من باجل وسارت القطارات على هذا الخط بالفعل مدة وجيزة ولكن لما أعلنت ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٩١٢ أرسلت بعض سفنها الحربية وضربت هذا المكان فخربت جميع ما بناه الفرنسيون ، وقد شاهدت بأم العين بعض بقايا القاطرات المكسرة.

وفي أيام الحرب العظمى اقتلع اليمانيون الخط الحديدي واستعملوه في بعض أبنيتهم. والخلاصة أن تهامة اليمن قد خسرت مشروعاً كبيراً كان في الامكان أن يعود عليها بالأرباح الطائلة والخيرات الكثيرة.

السفر الى صنعاء

بعد مضي ثلاثة أيام على وصولنا الى الحديدة وهذه هي أقل مدة لضيافة طلبنا من سيف الاسلام رحمه الله الاذن لنا بالسفر الى صنعاء ويعد القتيا والتي

اجابتنا الى طلبنا.

ولكن يجدر بي قبل أن أترك الحديث عن الحديدة أن أوفي صاحب السمو الملكي المرحوم محمد سيف الاسلام شيئاً من حقوق الصداقة التي تربطني به فأصفه للقارىء الكريم وأذكر بعض أعماله ليرى الخسارة الجسيمة التي أصابت اليمن بفقد هذا الرجل الفذ العظيم فأقول:

الامير سيف الإسلام

نشأ رحمه الله في صنعاء، وتربى في حجر جلالة والده الامام، وتلقى دروسه على علماء أعلام فبرع في العلوم الدينية والحديث والشعر وكان على جانب عظيم من الذكاء والدهاء فولاه والده على الحديدة لما لهذا المرفأ من الأهمية السياسية في نظر اليمانيين ونظر الأجانب على السواء. وقد أحسن سموه إدارة وظيفته كل الاحسان وكان صلة الوصل بين حكومة اليمن وبعض الحكومات الأجنبية كالانكليز والروس، وقد حال رحمه الله في ظروف عديدة دون وقوع كوارث كثيرة ومهد بحكمته ودهائه السياسي الطريق لعقد المعاهدة الانكليزية اليمانية واهتم بالمدارس فجلب لها المعلمين من الخارج، واهتم بالزراعة فجلب أدوات زراعية حديثة وأقام عدة حدائق في الحديدة والزيدية وغيرهما من البلاد جرب فيها غرس بعض النباتات الغريبة عن اليمن كالشاي والقطن الكلاريدس والتن الخ.

وكان رحمه الله شفيقاً رحيماً حكيماً يكلم الناس على قدر عقولهم، وقد اجتذب اليه قلوب جميع الرعية بهذه الاخلاق والطباع الحميدة، وكان لفقده رنة أسف وأسى في اليمن لم نسمع بمثلها منذ القديم. وقد كتبت لجلالة مولانا الإمام يوم وفاته كتاب تعزية ومن الاطلاع على جواب جلالة الإمام يظهر للقارىء الكريم فداحة المصيبة التي انتابت اليمن بفقد ذلك الراحل العظيم. قال جلالته بعد التحية ما نصه:

وقد تناولنا كتاب تعزيتكم في المصاب العظيم والخطب الجسيم بوفاة من اختار الله له ما عنده عند ما بلغ أشده فنقله الى جواره وهو لم يبعد عن عهد



صاحب السمو المرحوم محمد سيف الاسلام ومحرر هذه الرحلة ذاهبان لتفتيش حقل زراعي قرب الحديدة.

الشباب وطرواة الاهاب والتقدم بين ذوي الأحلام الراسخة وعلو الجناب وهذا حال الدنيا وشأن من فيها من الأحياء، ولم نتذرع بغير الصبر ولا تمسكنا الا بالرضا والتسليم لحكم من له النهي والأمر، ونسأل الله تعالى للفقيد العزيز واسع الرحمة ولكم المكافأة بالحسنى على الوفاء وحسن العزاء والسلام.

كيف مات سيف الاسلام

وأخذت أيضاً كتاباً من صاحب السمو الحسين نجل مولانا الامام الذي تولى الحكم على الحديدة بعد أخيه المرحوم محمد سيف الاسلام وهو كتاب رقيق

ينعى فيه اخاه ويصف شدة المصاب عليه وعلى اليمن. قال حفظه الله ما نصه :

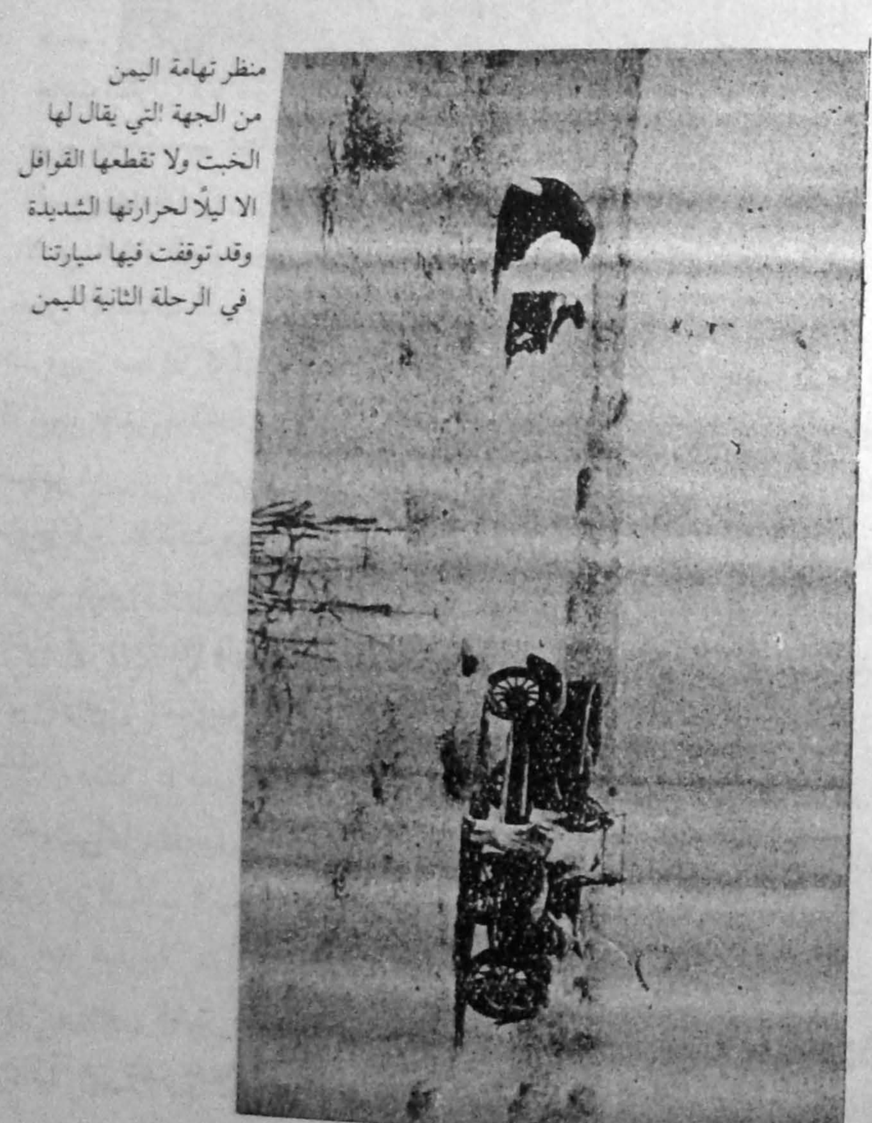
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فانّا نحمد الله اليكم على حلو القضاء ومرّه اذعاناً لحكمه وطاعة لأمره وان كان القلب خافقاً والدمع دافقاً والكرب مطبقاً والأسى محدقاً من خطب عظيم أناخ بالمعالي ورزء جسيم هو علم لمكارم العالي وفاة بدر الدين ونابغة المجددين المصلح الكبير والمجاهد في سبيل الملك القدير الشفيق على كل أحد من العباد المجد في نشر رايات الارشاد والمجتهد في النهوض الى اوج السعادة بالبلاد سيف الاسلام وحسنة الايام محمد نجل أمير المؤمنين الذي ان فارقت ذاته الدنيا فقد خلدت منها صفاته العليا وان فقد شعبه ووطنه مساعيه الجليلة فما فقد آثاره الجميلة وان رفعت عن دار الاكدار روحه الطاهرة فما ارتفعت منها بلسان ذكراه العاطرة أفاض الله على تربته الزكية سحائب رحمته الصيبة وسلم على روحه الزكية تحية من عند الله مباركة طيبة وجعل في أعلا الغرفات وطنه وأجزل له ثواب من سنّ سنة حسنة.

وانه رحمه الله وغفر له وأكرم مثواه مات شهيداً: شهيد الرأفة والرحمة شهيد الانسانية والمروءة شهيد الشجاعة والنجدة وذلك انه خرج في ١٦ من شهر ذي الحجة للتنزه في جزيرة بقرب الساحل وكان يجيد السباحة ومعه رفقاؤه للاستحمام في نحو الساعة الخامسة فبينما هم كذلك اذا اضطرب البحر وكان من رفقائه ثلاثة قد أوغلوا الى القعير فحال الموج بينهم وبين رجاء السلامة فألقت نفسه العالية جثمانه الطاهر في لجج البحر المتلاطم لينقذ أولئك من مخالب المنايا فأنقذ الأول ثم الثاني ثم لما عاد الى الثالث تعلق به فقضى الرب ما سبق في علمه ونفذ حكمه ولا معقب لحكمه فالحمد لله على ما قضاه وان أورى القلوب وأجرى العيون وإنّا لله وإنا إليه راجعون.

تهامة

في اليوم الذي عزمنا فيه على شد الرحال الى صنعاء أرسل لنا صاحب السمو المرحوم محمد سيف الإسلام حرساً من الجند وعدة بغال لتحمل

حوائجنا وسارت البغال مساء لتتمكن من قطع تهامة ليلاً، وتهامة هي السهل الممتد من البحر الاحمر حتى أول الجبال ويختلف اتساعه اختلافاً بيناً في أماكن متعددة فيبلغ في بعضها من عشرين كيلو متراً الى خمسة وعشرين فثلاثين كيلو متراً، وتقطعه القوافل ليلاً تجنباً لحرارته الشديدة، وتلطف سمو الأمير كذلك فأرسل الينا سيارة لتوصلنا الى باجل، ومن البديهي ان السيارات في الحديدة غير موجودة إلا عند سموه وعند الشركة الإيطالية التجارية، وفقدان السيارات ناشىء عن فقدان طرق صالحة لسيرها.



منظر تهامة اليمن من الجهة التي يقال لها الخبت ولا تقطعها القوافل الا ليلاً لحرارتها الشديدة وقد توقفت فيها سيارتنا في الرحلة الثانية لليمن

امتطينا السيارة على بركة الله وكانت في مجموعها سيارة دولية ورغم أنها من مصنوعات معامل فورد كانت عجلاتها الأمامية من صنع ايطاليا، وكاوتشوكها الداخلي من صنع فرنسا، وواحدة من العجلات الخلفية انكليزية وأما الأخرى فكانت اميركية، وصندوقها الخشبي وسقفها كانا مصنوعين من بقايا صناديق زيت الكاز الانكليزية والاميركية والايطالية، ولما كان الدهر قد أناخ عليها بكلكله فما كادت تخرج بنا من الحديدة حتى صارت تسير سير المتثاقل وقد اضطررنا الى اصلاحها و(تربيطها) وتغيير مائها وتزييتها مرات كثيرة فأدركنا الليل قرب قرية صغيرة من قرى التهامة يقال لها دير سهيل فنزلنا منها وقررنا قضاء تلك الليلة الى جانب الطريق لأن سيارتنا لم تكن على استعداد لسير الليل إذ لا مصابيح لها ولا طريق معبدة تسير فيها فقضينا ليلتنا نفترش الأرض ونلتحف السماء ولما أصبح الصباح نهضنا مبكرين فشاهدنا الى جانبنا بعض الاشجار الغريبة التي لا توجد الا في البلاد الحارة وهي نوع من أنواع الميموسا (Mymosa) وشاهدنا أيضاً بعض الاعشاب البرية وبعض النباتات المحلية كالدخن والذرة فسألت أحد القرويين عما إذا كانت الجمال والماشية تأكل من تلك الاعشاب البرية وتلك الاشجار الغريبة فأجاب بالايجاب وقد شاهدنا بالقرب من القرية بئر ماء يبلغ عمقها ٥٥ متراً ويستعمل ماؤها للشرب فقط وهو أفضل من ماء الحديدة اذ لا ملوحة فيه. تذكرت ههنا أقوال بعض المستشرقين من الفرنجة وأقوال بعض أبناء العرب الذين زاروا بلاد اليمن وقالوا عن تهامة في مؤلفاتهم ان تربتها قاحلة ماحلة أي (Stérile) فأيقنت من هذا الكلام انهم لم يكونوا على علم بما يقولون لأن الأراضي الماحلة بالمعنى العلمي هي التي لا حياة فيها ولا ينبت فيها نبات.

وليس من العجيب ان تجد أمثال هذه الاغلاط في كثير من المؤلفات الغربية ولكن من العجب العجاب ان نجد السائح او الرّحال الاجنبي يمر ببلاد لا يعلم من لغتها شيئاً ولا يدرك من عادات أهلها وأخلاقهم الا النزر اليسير فيمكث فيها شهراً او بعض الشهر يجتمع فيه غالباً ببعض التراجمة ومن حذا حذوهم من المرتزقة في تلك البلاد فيسألهم أسئلة كثيرة ويدون أقوالهم في مذكراته ثم



السيارة التي أقلتنا من الحديدة عبر التهامة

يذهب الى بلاده ويضع تلك الأقوال في مؤلف ضخم فيشوه سمعة أمة بأسرها بقلة درايته وسوء عنايته.

سيدات يلبسن القبعة والاثواب القصيرة

وشاهدت في تهامة أشجاراً برية تشبه النخيل ولاحظت أن الهواء لا ينقطع فيها الا في الصباح. ويوجد فيها آبار قديمة على أبعاد مختلفة ولا يستعمل ماؤها لغير الشرب لأنها عميقة واستخراجه منها بكميات كبيرة صعب ولكن لو وجد المال الكافي لدى القرويين لتمكنوا من استعمال المضخات الميكانيكية أو (الطلمبات) الهوائية في استخراج هذا الماء الكثير واستعماله في غرس النخيل والقطن وغيرهما من نباتات المناطق الحارة التي لا شك أنها تنمو في تهامة نمواً جيداً كما هي الحال في بعض جهات كاليفورنيا التي تشبه تهامة كل الشبه والتي تمكن الاميركيون بعلمهم ومالهم أن يحولوها من صحراء جرداء مقفرة الى غوطة مشجرة مأهولة بالحيوان والانسان.

وقد شاهدت كثيراً من المزروعات في أطراف تهامة القريبة من الجبال كالذرة بأنواعها البيضاء والصفراء والحمراء والسمسم (ويسمونه هنا جلجل أو جلجلان)، وشاهدت ايضاً نباتاً يقولون له (السنى) ويستعملونه كمسهل وهو

امطينا السيارة على بركة الله وكانت في مجموعها سيارة دولية ورغم أنها من مصنوعات معامل فورد كانت عجلاتها الأمامية من صنع ايطاليا، وكاوتشوكها الداخلي من صنع فرنسا، وواحدة من العجلات الخلفية انكليزية وأما الأخرى فكانت اميركية، وصندوقها الخشبي وسقفها كانا مصنوعين من بقايا صناديق زيت الكاز الانكليزية والاميركية والايطالية، ولما كان الدهر قد أناخ عليها بكلكله فما كادت تخرج بنا من الحديدة حتى صارت تسير سير المتثاقل وقد اضطررنا الى اصلاحها و(تربيطها) وتغيير مائها وتزييتها مرات كثيرة فأدركنا الليل قرب قرية صغيرة من قرى التهامة يقال لها دير سهيل فنزلنا منها وقررنا قضاء تلك الليلة الى جانب الطريق لأن سيارتنا لم تكن على استعداد لسير الليل إذ لا مصابيح لها ولا طريق معبدة تسير فيها فقضينا ليلتنا نفترش الأرض ونلتحف السماء ولما أصبح الصباح نهضنا مبكرين فشاهدنا الى جانبنا بعض الاشجار الغريبة التي لا توجد الا في البلاد الحارة وهي نوع من أنواع الميموسا (Mymosa) وشاهدنا أيضاً بعض الاعشاب البرية وبعض النباتات المحلية كالدخن والذرة فسألت أحد القرويين عما إذا كانت الجمال والماشية تأكل من تلك الاعشاب البرية وتلك الاشجار الغريبة فأجاب بالايجاب وقد شاهدنا بالقرب من القرية بئر ماء يبلغ عمقها ٥٥ متراً ويستعمل ماؤها للشرب فقط وهو أفضل من ماء الحديدة اذ لا ملوحة فيه. تذكرت ههنا أقوال بعض المستشرقين من الفرنجة وأقوال بعض أبناء العرب الذين زاروا بلاد اليمن وقالوا عن تهامة في مؤلفاتهم ان تربتها قاحلة ماحلة أي (Stérile) فأيقنت من هذا الكلام انهم لم يكونوا على علم بما يقولون لأن الأراضي الماحلة بالمعنى العلمي هي التي لا حياة فيها ولا ينبت فيها نبات.

وليس من العجيب ان تجد أمثال هذه الاغلاط في كثير من المؤلفات الغربية ولكن من العجب العجاب ان نجد السائح او الرّحال الاجنبي يمر ببلاد لا يعلم من لغتها شيئاً ولا يدرك من عادات أهلها وأخلاقهم الا النزر اليسير فيمكث فيها شهراً او بعض الشهر يجتمع فيه غالباً ببعض التراجمة ومن حذا حذوهم من المرتزقة في تلك البلاد فيسألهم أسئلة كثيرة ويدون أقوالهم في مذكراته ثم



السيارة التي أقلتنا من الحديدة عبر التهامة

يذهب الى بلاده ويضع تلك الأقوال في مؤلف ضخم فيشوه سمعة أمة بأسرها بقلة درايته وسوء عنايته.

سيدات يلبسن القبعة والاثواب القصيرة

وشاهدت في تهامة أشجاراً برية تشبه النخيل ولاحظت أن الهواء لا ينقطع فيها الا في الصباح. ويوجد فيها آبار قديمة على أبعاد مختلفة ولا يستعمل ماؤها لغير الشرب لأنها عميقة واستخراجه منها بكميات كبيرة صعب ولكن لو وجد المال الكافي لدى القرويين لتمكنوا من استعمال المضخات الميكانيكية أو (الطلمبات) الهوائية في استخراج هذا الماء الكثير واستعماله في غرس النخيل والقطن وغيرهما من نباتات المناطق الحارة التي لا شك أنها تنمو في تهامة نمواً جيداً كما هي الحال في بعض جهات كاليفورنيا التي تشبه تهامة كل الشبه والتي تمكن الاميركيون بعلمهم ومالهم أن يحولوها من صحراء جرداء مقفرة الى غوطة مشجرة مأهولة بالحيوان والانسان.

وقد شاهدت كثيراً من المزروعات في أطراف تهامة القريبة من الجبال كالذرة بأنواعها البيضاء والصفراء والحمراء والسمسم (ويسمونه هنا جلجل أو جلجلان)، وشاهدت ايضاً نباتاً يقولون له (السنى) ويستعملونه كمسهل وهو

يشبه كثيراً عرق السوس ويعرف في بلادنا وفي مصر (بالسنكي).

بعد تناول ما تيسر من الطعام في صباح ذلك اليوم ركبنا سيارتنا وسرنا باسم الله الى (يريم) فوصلنا اليها قبل الظهر ووجدنا حاكمها السيد عبد الكريم بن اسماعيل كوكبان في انتظارنا امام سراي الحكومة وقد صفّ ثلة من الجند على باب السراي فاستعرضناها ودخلنا الى السراي في اثر العامل وكان أحد الجنود يحمل سيف العامل ويسير امامه وآخر يحرسه من خلفه. سرنا في السراي الى ان وصلنا الى غرفة فسيحة حيث اداروا علينا اكواب (الشاهي)، ثم سألنا العامل: (اتقشرون؟) فلم نفهم قصده، فسألته وما معنى تقشرون؟ فقال ألا ترغبون في شرب شيء من القشر؟ فلم ندرك ايضاً ما يقصد، فاستردته ايضاحاً، فأمر حضرته جندياً قريباً منه، ان يجلب لنا القشر، وما هي الا لحظة حتى عاد الجندي يحمل بيده ابريق فخار صغيراً يتصاعد منه البخار، وصب منه فنجاناً وضعه الى فشربته بصعوبة كأني اشرب دواء ولكن وجدت فيه طعماً كطعم القهوة فقلت هل هذه هي قهوتكم؟ فأجاب : نعم هذه قهوتنا ولكنها ليست مصنوعة من البن كما هي العادة عند الترك وغيرهم بل من قشره، وهنا أدركت معنى (تقشرون) أي تشربون القشر.

وفي جميع اطراف اليمن لا يشربون القهوة بل يشربون القشر. بعدما تقشرنا جميعنا مدت الأسمطة وجيء إلينا بالطعام وكان ارزاً ولحماً ودجاجاً وخضراً وحلوى، وضعت جميعاً بعضها الى جانب بعض، فجلسنا حول السماط ورحنا نزدرد الطعام بأيدينا، وكنت مراراً أختنق وأنا أبتلع اللقمة، لأن في الأطعمة كلها كميات كبيرة من الفلافل الحارة، ويميل اليمانيون بطبيعتهم الى تناول المأكولات الحارة ويلتهمونها بسهولة!

خرجت من السراي بعد تناول الطعام وطفت حولها متجولاً فشاهدت موكباً من الناس سائراً نحو بيوت مصنوعة من القش تشبه بيوت الشعر عند البدو الرحل، فتبعت ذلك الموكب ولما وصل الى البيوت خرجت منها نساء كثيرات، واخذن يزغردن بأصوات عالية غريبة، والتف الجمهور حول بيت من تلك البيوت وأخذ بعض الرجال يرقصون بالعصي والسيوف والمدى على ضرب

الطبول كما أخذ البعض ينشد أناشيد مختلفة بأنغام لطيفة، ولكني لم أتمكن من فهم شيء منها.

حفلة زواج

وشاهدت أيضا بعض الفتيان والفتيات راكبين على الهجن، كل فتى وفتاة على هجين. وكان بينهم فتى وفتاة لا يتجاوز سنهما الثانية عشرة راكبين هجينا وأمامهما طفلان صغيران. فسألت عن أمرهما فقيل لي هما عريس وعروس قادمان من بيت العروس، فقلت وما شأن الطفلين الراكبين أمامهما؟ فقيل لي



عروسان يمانيان

هذه اشارة معنوية لطلب البنين، وقد زاد جمال هذا الموكب الوطني وبهاءه اختلاف الأزياء وتنوعها فبعض الرجال كانوا عارين من الثياب خلا مئزر في وسطهم وبعضهم كانوا يلبسون ألبسة مزركشة ملونة وبعض السيدات كن يلبسن سراويل طويلة وقمصاناً طويلة الأكمام ولكنهن سافرات الوجوه وبعضهن كن كالرجال عاريات إلا من مئزر بسيط، وبعضهن كن لابسات أكماماً قصيرة (ديكولته) وبعضهن وضعن على رؤوسهن حجاباً اسود وبعضهن وضعن فوق هذا الحجاب قبعة (برنيطة) مصنوعة من قش القمح والشعير ذات حجم كبير لترد أشعة شمس تهامة المحرقة، وهي من صنعهن وقد علمتهن الحاجة التي هي أم

الاختراع ان لا يتقيدن بعادة أو قانون بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجهن.

دامت الاناشيد ودام الرقص مدة طويلة ثم مدت الاسمطة فأكل جميع المدعوين هنيئاً وشربوا مريئاً وعند الغروب تفرقوا الى منازلهم بعدما هنأوا والدي العروسين وتمنوا للعروسين كثرة البنين والحياة الطيبة.

الزامل

عدت بعد مشاهدة هذا الموكب الى السراي وتناولت طعام العشاء ثم صعدت الى السطح لاقضي الليلة في ضوء القمر والنجوم وأتمتع بالنظر الى السماء وأنفرد بنفسي قليلاً، ولكنني وجدت على السطح المقابل لسطحنا شرذمة من الجند ومعها موسيقاها، ولما بلغت الساعة الثامنة زوالية أخذت الموسيقى تعزف بعض الانغام التركية وكانت على بعد بضعة كيلو مترات منا قلعة حصينة قائمة على رأس رابية وهي معسكر لاحدى فرق التهامة وكان الجنود فيها يعزفون أيضاً بعض الانغام التركية كلما توقفت موسيقى السراي عن العزف واستمر العزف هكذا نحو نصف ساعة ثم أخذ الجنود بالقرب مني ينشدون (زاملهم) الخاص - أي نشيد فرقتهم - وهو كما يأتي:

(والعز يا صبيان قومي ما يأتي الا بالغصايب[1]
والذي يجنى بأول شبابه ما حصله والرأس شايب
(قرار) يا من تمنى حربنا لا بد ما يطلب عوافي[2]
أو ينادي بالصلاح)[3]

شعرت وايم الحق بينما كان الجنود ينشدون نشيدهم الوطني ان كل شعرة في رأسي قد وقفت وكاد قلبي يخرج من فمي، كأني قادم على معركة حربية عظيمة وذلك بالرغم من أنني لم أفهم كلمة واحدة مما كانوا ينشدون ولكن الانغام والنبرات كان في مقدورها أن تدفع حتى الجبان الى القاء نفسه في أشد المعارك هولا وفظاعة.

---

(١) بالقوة (٢) العفو (٣) الصلح

ولما انتهى جند السراي من النشيد بادر جند القلعة الى مجاوبتهم، وبعد الانتهاء من الاناشيد أتى دور ضرب الطبول فضرب جند السراي الطبول ضرباً يستفز الشعور ويهيج الاعصاب، فجاوبهم جند القلعة بضرب كضربهم ثم ختمت الحفلة عندنا وعندهم، بالمناداة بكلمة «وامتوكلاه» على نغم.. (بادشاهم جوق يشا!) اشارة الى دوام صحة صاحب الجلالة الامام يحيى حميد الدين المتوكل على رب العالمين.

وفي هذه الساعة الرهيبة لا يسمع المرء في بلاد اليمن من أقصاها الى أقصاها إلا نداء الجنود في ثكناتهم وقلاعهم وحصونهم: «وامتوكلاه» وبعدئذ يضرب بوق النوم فيذهب جميع أهل المدن الى النوم ويصبح الخروج من المنازل الى الازقة والشوارع محظوراً على الجميع ما خلا الجند!

لفظت سيارتنا في باجل أنفاسها الاخيرة فترحمنا عليها وركبنا البغال، والبغال هي أفضل حيوانات الركوب في اليمن، أولاً لأنها قوية وثانياً لأنها تتسلق الجبال الشامخة الوعرة بسهولة تامة خلافاً للخيل التي تصعد الجبال الوعرة ولكن بصعوبة. ويجلبون البغال الى اليمن من بلاد الصومال بحراً.

سرنا على البغال مسافة أربع ساعات في سهول واسعة خصبة مغروسة



عروس ترقص صباح عرسها

سمسماً وذرة وأقبلنا نحو الظهر على قرية صغيرة مبنية من القش يقال لها (البحيح) وهنا شاهدت جمعاً من السيدات من ذوات القبعات قد أحطن بفتاة صغيرة لا تتجاوز سنها الثالثة عشرة وكن يغنين لها ويضربن على الدفوف وهي ترقص رقصاً جميلاً فسألت عن أمرهن فقيل لي هذه عروس ترقص صباح عرسها تسلية لضيوفها وزوارها!

تناولنا طعامنا في قهوة ويقال للقهوة في تهامة (مقهاية) وقضينا فيها ساعة من الزمان طلباً للراحة والمقاهي في الحديدة وتهامة هي المطاعم والفنادق اذ لا يوجد في بلاد اليمن جميعها فندق واحد بالمعنى الذي نفهمه نحن معاشر السوريين بل فنادق اليمن هي مقاه وخانات يأوي اليها المسافر هو وراحلته! . .



صورة لبعض سكان تهامة اليمن وقد وقفوا يستعرضون موكبنا الغريب لديهم وتظهر فيها هيئاتهم المختلفة

الرق لا وجود له في اليمن

بينما كنا جالسين في المقهاية أقبل علينا كثير من الاهلين للفرجة فلاحظت أنهم يختلفون اختلافاً كبيراً من جهة اللون والهيئة وتركيب البنية عن أهل الحديدة ويغلب على ظني أنهم انقى دماً من سكان الساحل وهذا أمر بديهي لأنهم لم يختلطوا كثيراً بأهل القارة الافريقية الذين كانوا يأتون الى سواحل اليمن

بقصد التجارة وبيع الرقيق. وما دمت في ذكر الرقيق، فانه يحضرني الآن انني كنت قرأت في بعض الصحف والكتب ان تجارة الرق ما زالت موجودة في اليمن وهذا افتراء باطل فلا أثر للرق في بلاد اليمن في هذا الزمن، لان الامام حفظه الله منع هذه التجارة منذ تولى الحكم، وكان عنده عبد يدعى صمصام فاعتقه لوجه الله وزوجه من فتاة كانت في خدمته ووظفه في احدى الوظائف.

طبيعة اليمن الفاتنة

بيوت اليمن تشبه القلاع

ركبنا بعد الظهر من البحيح الى (عبال) وهي محطتنا الثانية وكان برفقتنا حرس من الجند فاقترب مني أحدهم واخذ يسالني عن بلادنا وعن الحكم فيها وعن الاسلام والمسلمين والترك ومصطفى كمال فكنت أجيبه على اسئلته أجوبة مختصرة توافق عقليته وأشار لي في الطريق الى جبل وعر عال واقع الى الغرب، وقال: هذا هو جبل برع، وفيه كثير من البن والقات والموز وغير ذلك من النبات، وقد وقع فيه بعد الحرب العامة - أي حينما كانت الحديدة وتهامة بيد السيد الادريسي - معارك كثيرة بين جنود الإمام وجنود الادريسي وفي أربع مرّات متواليات انتصرت جنود الادريسي على جنود الإمام ولم تمكنها من احتلال القلعة الكائنة في رأس الجبل. ولكن منذ بضع سنوات احتل الإمام الساحل وأحاط بجبل برع من الجهات الأربع وحاصر قوة الادريسي فقتل معظمها وفر منها القليل. ويقال انه قتل في هذا الجبل نحو الفين من جنود الإمام وثلاثة آلاف من جنود الادريسي. وبعد البحث الدقيق عن أسباب الحرب الطاحنة التي وقعت بين الامام والادريسي مدة من الزمن ظهر لي أن البريطانيين كانوا يحرضون الادريسي على قتال الامام ويمدونه بالمال والسلاح والعتاد، ويغرونه بعدم التخلي عن تهامة التي تركها الترك فراراً من جنود الامام فاحتلتها السيد الادريسي من غير مقاومة، ولا يزال البريطانيون الى هذا اليوم يحرضون ملوك العرب وأمراءهم على التقاتل لتضعف قواهم ويصبحوا لقمة سائغة لكل أجنبي طامع!

قضينا ليلتنا في عبال في (مقهاية) فسيحة أعدت خصيصاً لنزولنا وكانت مبنية من الحجر والقش، وتوجد الى جوانبها بعض (المصاطب) ينام عليها المسافرون ويربطون حيواناتهم الى مذاود في وسطها وهذه (المقهاية) كغيرها من مقاهي اليمن خالية من كل شيء يقال له أثاث أو رياش ولا يوجد فيها سوى بعض الكراسي المعمولة من قشور النباتات، وهي تشبه (الفوتيل).

وفي الصباح نهضنا مبكرين وركبنا البغال ووجهتنا (الحجيلة) فوصلنا اليها بعد بضع ساعات وكانت تبدو لنا طيلة الطريق مياه جارية وأشجار وأطيار كثيرة غريبة وطروش عظيمة من الماعز والبقر والغنم، والحجيلة قرية صغيرة فيها دار للحكومة وعامل ومركز للجند ومركز للتلغراف وهي واقعة في أول الجبال وبيوتها مبنية من الحجر لا من القش.

ابتداء من الحجيلة ينقسم الطريق الى فرعين : فرع يذهب الى (وسل و(مناخة) وهو وعر ولا يسلكه غير البغال، وفرع يذهب عن طريق بيت (القابلي) ويقال له (طريق القوافل) لأن قوافل الجمال الذاهبة الى صنعاء والعائدة منها تسير فيه وهو أبعد من الأول وأسهل منه! وقد عبد منذ برهة جلالة الإمام طريقاً جديدة للسيارات عن طريق معبر فصار بالامكان قطع المسافة بين الحديدة



سيارة مسافرة الى صنعاء عن طريق معبر في وديان جميلة

وصنعاء بيوم واحد بعدما كانت تستغرق ستة أيام على البغال.

بعد ما استرحنا من عناء السفر وأطعمنا بغالنا قليلاً سرنا الى وسل بين الجبال والأودية ولم يكن هنالك طريق نسير عليها لأن الأمطار والسيول جرفت الطريق وجعلتها أثراً بعد عين منذ عدة سنين وكنا نهتدي الى بقايا الطريق بأحد جنودنا الذي اتخذ لنفسه وظيفة دليل وقد شاهدت في الطريق أحراجاً عظيمة وأطياراً غريبة وقردة كبيرة من نوع (البابون) ودام طريقنا في صعود بين تلك الجبال الوعرة بضع ساعات ولكننا لم نشعر بطول الوقت لأن وطأة الحر الشديد التي كادت تخمد أنفاسنا في تهامة خفت هنا كثيراً ومنظر الجبال الشاهقة وصوت تغريد الأطيار الناطقة كالدرة والببغاء كل ذلك حوّل اهتمامنا عن وعثاء الطريق الى جمال الطبيعة فمضت الساعات دون أن نشعر بها ودون أن نعبأ بالتعب.

قضينا ليلتنا في (وسل) الى جانب مقهاية كبيرة ووسل قرية صغيرة، بيوتها من الحجر، وتختلف عن غيرها من البيوت التي رأيناها حتى الآن كثيراً، فهي تشبه القلاع وفي جدرانها (رمايات) ونوافذها صغيرة وقليلة بعكس نوافذ الحديدة وسلالمها لولبية ضيقة وهذا شأن البناء في جميع القرى الجبلية في اليمن فهي تشبه القلاع، لأن اليمانيين منذ الأزل كانوا في قتال دائم بعضهم مع بعض، ولذلك كانوا يختارون تلالاً منيعة يبنون عليها مساكنهم ويحصنونها على الطريقة الآنفة الذكر، فلو مر المرء ولو على بعد بضع مئات من الأمتار، في جانب القرية فانه لا يكاد يتبينها، أولاً لأنها من لون الجبل المبنية عليه، وثانياً لأنها في الغالب تبنى في زاوية مستورة من التل لكي لا تتعرض للأبصار كثيراً، وغرف معظم منازل الجبال صغيرة وذات منافذ قليلة، وقد قست مرة احدى الغرف في قرية معبر فوجدت ارتفاع بابها ثلاثة أقدام ونصف وفي الغرفة عادة ثلاث أو أربع نوافذ صغيرة وكبيرة، أما الصغيرة فطولها سبع قراريط والكبيرة فطولها ثلاثة عشر قيراطاً وعرضها ثمانية، وطول الغرفة ثلاثة عشر قدماً وعرضها ثمانية اقدام وارتفاع سقفها سبعة أقدام.

نهضت في وسل مبكراً وصعدت الى سطح عال فشاهدت منظراً لم أر مثله في حياتي (إلا في قمة جبال الشيخ ورأس ظهور أبو الحن في جبل سرغايا)

الذي كان يمر تحتي بسرعة زائدة،

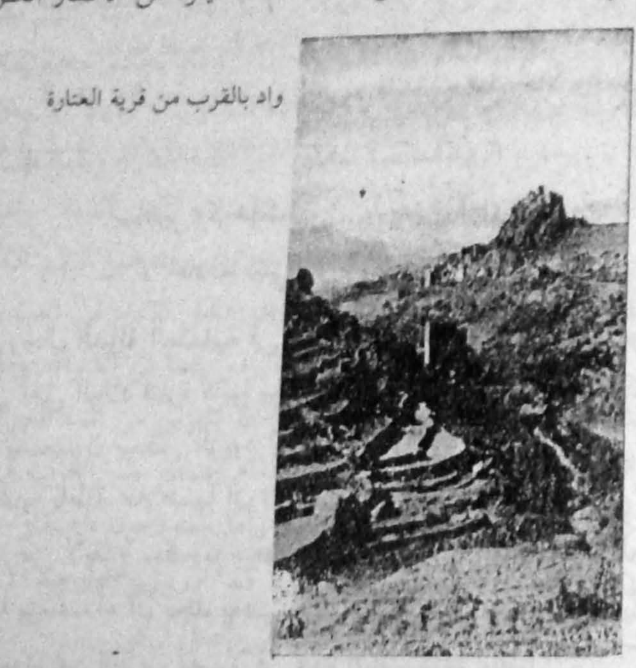
وذلك اني وجدت نفسي أعلى من الغيم الذي كان يمر تحتي بسرعة زائدة، ورأيت حولي جبلاً عظيمة تناطح الجوزاء يعلو رأسها فوق السحاب تيهاً واستكبراً، وكان القمر يرسل أشعته الضعيفة من خلال الغيوم في الجهة الغربية يكسبها لوناً تحار في جماله العقول، وان هي إلا برهة من الزمن حتى ودعتني انفيه النقية من حشاشة أنواره الضعيفة وبزغت من الشرق أشعة الغزالة القوية الكثيفة وجدت تبدد جموع تلك الغيوم وتضيء الجبال والأودية والسهول فتظهر عظمة الخالق الجبار في هذه الديار.

وتعلو قرية وسل عن سطح البحر ٤٤١٠ أقدام وقد سرنا منها عقيب طلوع الشمس وكانت طريقنا فوق جبال وعرة شاهدنا في وديانها وعلى منحدراتها شجر القات وشجر البن والصبارة والياسمين البري والرياحين وأنواعاً مختلفة من الأزهار ذات الروائح العطرية الذكية وأنواعاً كثيرة وغريبة من الأطيار وفي جملتها البلبل والعندليب والهزار.

وصلنا نحو الظهر الى قرية صغيرة بين وسل ومناخه ويقال لها العتّارة فشاهدت قربها منظراً خالف الأمثال السائرة، وأثبت انه لا بد لكل قاعدة من شواذ اذ يقولون في الامثال «ان الصيف والشتاء لا يجتمعان على سطح واحد» وهنا شاهدت صيفاً وشتاءً وخريفاً في آن واحد. رأيت حقولاً من القمح والشعير بعضها خضراء يانعة وبعضها صفراء يابسة وبعضها تزرع زرعاً جديداً، وقفت بالقرب من تلك القرية الجميلة وسرحت نظري في ذلك الوادي الصغير فإذا به آية من آيات الجمال، تظهر فيه مقدرة الآله العظيم المتعالي، فالفصل فصل شتاء، ولكن لا برد هنالك ولا أمطار، ونحن فوق جبال عالية كجبال بلودان، هواؤها عليل وماؤها سلسبيل وشجرها كثير وبناؤها جميل، تنساب بين هضابها عين ماء لا تسقي من الزرع الا القليل، ولكنها تشفى العليل وتروي الغليل.

ودعت هذا المنظر وبودي لا اودعه وصعدنا في طريقنا الى مناخه، فرأيت جبالاً مزروعة ذرة وحنطة وشعيراً ولا يكاد الانسان يرى فيها قطعة صغيرة صالحة للزرع لم يحولها القرويون الى حقول زراعية غرسوها حنطة أو شعيراً أو قاتاً أو

بنا وهذا مما يدل على ان اليمانيين منذ القديم أهل جد ونشاط وإذا رأيناهم اليوم متأخرين عن غيرهم من الأمم فلا شك ان ذلك يعود الى الامبراطورية العثمانية التي أهملت شأن اليمن كما أهملت غيره من الاقطار العربية كل



واد بالقرب من قرية العتارة

الاهمال وكانت تعتبر بلاد اليمن مستعمرة حقيرة وتعامل أهلها معاملة سيئة، ولم يكن لها همّ غير جباية الضرائب وارسالها الى العاصمة العثمانية اشباعاً لبطن عاهلها ورجاله. واذا طاف المرء بلاد اليمن من أقصاها الى أقصاها لا يجد للدولة العثمانية أثراً من آثار المدنية غير الحصون والقلاع وبعض المستشفيات العسكرية والأسلاك البرقية ومدرسة أو مدرستين للصناعة. وكان رجال العهد البائد في تركيا لا يرسلون الى اليمن إلا كل مغضوب عليه من الموظفين الملكيين والعسكريين، غير ناظرين الى المقدرة العلمية والأهلية الشخصية، فكان هؤلاء الموظفون يسيئون استعمال وظائفهم ويرتكبون الموبقات والمحرمات ويتناولون الهدايا والرشوات، وهذا مما أثار خواطر اليمانيين وجعلهم في احتراب دائم مع الحكومة العثمانية ولم يتمكن الترك من صيانة الأمن في اليمن مدة حكمهم، أما اليوم فبفضل صاحب الجلالة الامام يحيى حميد الدين ورجال

حكومته الأفذاذ أصبحت بلاد اليمن من افضل بلاد العالم أمناً ، ويمكن للمرء أن يسير بمفرده في طول البلاد وعرضها فلا يعترضه أحد ولا يعتدي عليه أحد. والسر في ذلك شدة حرص الإمام على تطبيق قواعد الشريعة الإسلامية الغراء على جميع من تحدثه نفسه بالاخلال بالأمن أو التعدي على الغير، ولا فرق عند جلالته بين الحقير والرفيع والفقير والغني ، فالقاتل يقتل حالاً والسارق تقطع يده بلا رحمة أو شفقة، والزاني يجلد ويشهر. وهلم جرا . . .

أساطير وترهات . . . يذيعها الاوربيون

لا خلاف ديني بين الزيود والشوافع

وكان رجال الدولة العثمانية في جميع أيام حكمهم لليمن يسعون الى بذر الشقاق بين أهل البلاد فتارة كانوا يستميلون اليهم الشوافع ويضربون بهم الزيود وتارة كانوا يستعينون ببعض الزيود لضرب الشوافع، وقد بثوا داخل بلاد اليمن وخارجها دعاية باطلة خلاصتها أن الزيود والشوافع لا يحب بعضهم بعضاً وانهم يتحينون الفرص لايقاع بعضهم ببعض ، وان هنالك اختلافاً في العقائد الدينية بينهم. ومما يؤسف له ان نجد بعض كتاب العرب في هذا الوقت يأخذون بهذه الدعاية فيكتبون عن العرب فصولاً في هذا الباب كلها أباطيل.

أنا لا أنكر أن هنالك بعض اختلافات مذهبية ثانوية بين الشوافع والزيود ولكني لا أعيرها أية أهمية، لأنه لا شأن لها من الوجهة القومية ولا من الوجهة الدينية واليك بعض الأمثلة:

يجوز عند الزيود تحليف اليمين للمدعي والمدعى عليه ولا يجوز عندهم أن يقال آمين في نهاية قراءة فاتحة القرآن الكريم. وفي الطلاق، لا يعتبر الزيود قول الرجل لامرأته طلقتك ثلاثاً الا بمثابة قوله طلقتك مرة واحدة فيجب على من أراد طلاق امرأته ثلاثاً ان يعيد هذه العبارة ثلاث مرات ، ولا يعترف الزيود بخليفة ما لم يكن من آل البيت الى غير ذلك من الاختلافات اليسيرة. والزيود جمع (زيدي) نسبة الى زيد بن علي ومذهب زيد بن علي فرع من فروع مذاهب المعتزلة، فلا يجوز والحالة هذه ان يطعن في الزيود من الوجهة الدينية وما من

عاقل من المسلمين يجرؤ على الطعن في مذهب زيد بن علي وقد قال احد الأدباء الذين زاروا اليمن في كتاب كتبه عن رحلته ان حكم الامام يحمي في اليمن حكم زيدي لا حكم عربي وان الشوافع ليسوا راضين عنه وانهم محرومون من الوظائف وهذه الأقوال مبالغ فيها كثيراً فجلالة الإمام يحكم جميع البلاد على السواء ولا يفرق بين حقوق رعيته لاختلاف مذهبم او دينهم وهو لا يحترم الشوافع فقط بل يحترم اليهود أيضاً الذين هم أقلية ضئيلة ويعاملهم كمعاملة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في صدر الإسلام لأهل الذمة. وأما الشوافع فهو يحترمهم كثيراً ويعتمد على بعض كبار رجالهم وقد عين منهم الكثيرين في وظائف مختلفة، فالمزجاجي من الشوافع وهو عامل الإمام في لحية واخوه عبد الله عامل في زبيد ومحمد باسلامه عامل آب وهو أيضاً من الشوافع ومأمور خزينة الإمام من الشوافع واسمه الحاج لطف. كما أن كثيرين من أئمة الجوامع هم من الشوافع، والمثال على ذلك الشيخ طاهر امام جامع بئر العزب في صنعاء. وجميع من ذكرت هم من الموظفين الكبار وأما الموظفون الصغار من الشوافع المستخدمون في اليمن لا يحصى عددهم، كما ان وزير خارجية الامام القاضي محمد راغب هو من الشوافع أيضاً وينسب الى أصل تركي.

ويجدر بالذكر هنا أن معظم الكتاب الذين كتبوا عن اليمن عقيب الحرب العامة لا تخلو كتاباتهم من الدعايات والأغراض وذلك لأن بعض الدول الأجنبية أخذت تتزاحم على هذه البلاد ولا تمر سنة إلا ونجد في صنعاء مندوبين كثيرين أوفدتهم دول مختلفة أو شركات أجنبية لمفاوضة جلالة الإمام في بعض الشؤون السياسية والاقتصادية وقد اتفق انني عندما زرت صنعاء في احدى رحلاتي المتعددة كانت فيها وفود ألمانية واميركية وايطالية وبريطانية وروسية وبكل أسف أقول ان هذه الدول وتلك الشركات وجدت لنفسها خارج بلاد اليمن بعض الدعاة المأجورين الذين أخذوا يكتبون عن اليمن أشياء كثيرة تسويداً لصفحته ومعظم هذه الأشياء افتراء واختلاق.

عفواً أيها القارىء الكريم لقد شططت بك عن سبيل الرحلة وطرقت أبواباً سياسية وذلك لتكون على بينة مما يحاك للبلاد العربية المستقلة من الدسائس

الأجنبية لتمزيقها والاستيلاء عليها.

هؤلاء يهود من أهل الذمة

يطيلون سوالفهم ويحللون الخمر ولا يحملون السلاح

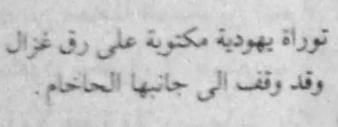
ويحظر عليهم أن يركبوا الخيل لأنها علامة الفروسية!!

وفي الطريق ظهرت لنا مناخة، وهي تشبه صهوة الفرس من حيث شكل بنائها ولما وصلنا اليها ذهبنا تواً الى دار الحكومة فوجدنا العامل وثلة من الجند في انتظارنا وقد اعدت لنا في «السراي» نفسها غرف للاستراحة والنوم، ولكن رغبتنا في رؤية البلدة، حملتنا على تقصير مدة الاستراحة، فما كدنا نستريح قليلاً، حتى خرجنا لمشاهدة البلد.

تبعنا في الطريق جم غفير من الرجال والأولاد، وقد لاحظت أن بينهم اشخاصاً يختلفون عن غيرهم، سواء بالسوالف الطويلة، او بالالبسة و«الجنبيات» - أي الخناجر - وبينما كنت اشهد أهل تهامة وأهل القرى التي مررت بها في أول الجبال يلبسون عمائم مختلفة، وجدت هنا جماعة يلبسون عمائم وغيرهم يلبسون (لبدا) بعضهم لف عليها قطعاً من القماش ولا يشدون الى وسطهم كغيرهم من أهل البلاد الجنبيات أي المدى ولا يحملون عتاداً ولا سلاحاً، فسألت عنهم فقيل لي هؤلاء يهود من أهل الذمة، فقلت ولماذا يرخون سوالفهم ولا يحملون سلاحاً؟ فقيل لي: اما اطلاق السوالف فعادة من عادتهم وأما حمل السلاح فمحظور عليهم من قبل الحكومة، ومحظور عليهم ايضاً ركوب الجمال والخيل، لأنها علامة الفروسية ولكن يسمح لهم بركوب البغال والحمير بشرط انهم اذا قابلوا أحداً من السادة ينزلون عنها احتراماً لهم وتعظيماً.

طفت أسواق البلد فوجدتها ضيقة وحقيرة وشاهدت في مخازنها كثيراً من الاقمشة والتبغ والتنباك والخردوات الأوروبية وأكثرها من مصنوعات المانيا وكميات وافرة من السكاكر والحلوى والفواكه. وصلت الى طرف البلد الشمالي الشرقي فوجدته في عزلة عن البلد وتختلف هندسة أبنيته عن غيرها من الأبنية وهي أصغر منها وأحقر فسألت عن هذا الحي الحقير فقيل لي: هذا هو حي

اليهود وقد شاهدت فيه كثيراً من السيدات والأولاد فرأيت ألبستهم تختلف عن ألبسة أولاد المسلمين ونسائهم فالسيدات اليهوديات يسدلن على رؤوسهن نقابا اسود ويلبسن فوق هذا النقاب قبعة (مزركشة) بالقصب والفضة وتبقى وجوههن سافرة بينما المسلمات القرويات وحدهن سافرات وأما المسلمات في المدن فيضعن حجاباً يستر رؤوسهن وعيونهن ووجوههن وتنسدل اطرافه حتى الكواهل فلا يظهر منهن شيء محرم أو محلل وقد لاحظت أن اليهوديات القرويات تختلف هيأتهن كثيراً عن هيئة السيدات المسلمات وذلك لاختلاطهن بغير جنسهن أيام الدولة العثمانية.





توراة يهودية مكتوبة على رق غزال وقد وقف الى جانبها الحاخام.

أردت أن اصور ولداً يهودياً فغضب أحد أولاد المسلمين الذي كان مرافقاً لموكبي المختلط وشتم اليهودي بقوله له: اذهب يا خبيث، يا شارب الخمر! فغضب اليهودي لهذه الاهانة وقال لرفيقه المسلم! تعال معي نذهب الى العامل فاشكوك اليه وهذا الغريب - وأشار الي - يشهد عليك، واذا كنت شجاعاً حقاً فاعترف أمامه بهذه الشتيمة! فلم يجسر الولد المسلم أن ينبس ببنت شفة أمام هذا التهديد لأن قانون اليمن الخاص بمعاملة أهل الذمة صارم جداً. فكل من

يشتم ذمياً او يعتدي عليه يسجن ويغرم بتقديم ذبيحة اما بقرة أو جمل او نعجة لتذبح وتوزع على الفقراء. ويا حبذا لو كان اليهود الصهيونيون الذين أموا فلسطين يتخذون من هذه المعاملة درساً وعظة.

ويوجد لليهود في مناخة كنيس خاص ولهم أيضاً مدارس خاصة وهم يمارسون صلاتهم وعبادتهم على الطريقة التي يريدونها ويعلمون أولادهم وبناتهم في مدارسهم كما يشاؤون لا وفقاً لبرامج الحكومة المحلية. وتوجد في كل معبد من معابدهم توراة قديمة مكتوبة على رق الغزال باللغة العبرية وعندهم أيضاً بعض كتب التوراة من مطبوعات النمسا أرسلتها لهم الجمعيات الصهيونية من الخارج ولقد سألت كثيرين من اليهود الذين قابلتهم في اليمن هل هم مسرورون من معاملة المسلمين لهم أم لا؟ فأجابني الجميع أنهم مسرورون جداً وانهم يتمتعون بحقوق لا يتمتع بها المسلمون أنفسهم فهم لا يدفعون ضرائب ولا أعشاراً ولا فطرة ولا رسوماً بل يدفعون الجزية وهي شيء زهيد بالنسبة الى ما يدفعه المكلف المسلم الى حكومته من أنواع الضرائب المختلفة، وجميع الصناعات اليدوية في أيديهم فترى النجار والحداد والصائغ والبناء والمعمار والتاجر والصيرفي الخ منهم، وهم يصنعون الخمر ويشربونها فلا تمنعهم الحكومة ولكنها لا تأذن لهم أن يبيعوها للمسلمين.

اليماني يجوع في سبيل «القات»

مجلس القات، كيف يمضغونه، وما هي لذته

عدت من طوافي في البلد وذهبت الى دار العامل لأرد له الزيارة فوجدت عند باب داره بعض الجنود، فطلبت الى أحدهم أن يبلغه اني بالباب أريد زيارته، وما هي الا لحظة حتى عاد الجندي قائلاً: تفضل! فدخلت خلفه، الى ردهة كبيرة ولكنها مظلمة لفقدان النوافذ فيها! ولشدة النور في خارجها وضعفه في داخلها صرت أتخبط في الظلام لا أعرف طريقي فقادني الجندي كما يقود صحيح البصر الأعمى الى درج لولبي ضيق يشبه درج المآذن عندنا فصعدته بعناء الى أن وصلت الى الدور الثالث وهنالك كانت بعض الأشعة تنبعث من


مناخة

نوافذ صغيرة ورأيت باباً كبيراً مقفلاً فقرعه الجندي فما لبث أن فتح فدخلته فوجدت حضرة العامل وحوله بعض كبار الموظفين في الحكومة ووجوه البلد وكانوا جالسين على طنافس صغيرة مفروشة بسجاد عجمي وجميعهم يدخنون (الأركيلة) ويمضغون القات[1]، فقلت السلام عليكم: فأجاب الجميع عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ونهضوا على الأقدام، وتقدم العامل إليَّ وصافحني مرحباً بي ترحيباً جميلاً وأجلسني الى جانبه وقال: أرجو غض النظر عن استقبالك هنا، أي في هذه الغرفة الصغيرة، فنحن بمجلس القات! فقلت اني مسرور جداً بأن أشاهد القات ومجلسه. فقدم لي حضرته رزمة من القات وقال: (هيا كل!) وهم يقولون أكلَ القاتَ وَخزنَه بمعنى مضغه فشكرته على هديته وأخذت بضع أوراق من هذا النبات العجيب ووضعتها بفمي وأخذت أمضغها فوجدت فيها طعماً غريباً لم أذق مثله في حياتي ولكني لم أجد فيه لذة ما بل بالعكس نفرت منه نفسي.

---

(١) يلعظون «القاف» كالجيم المصرية

سرحت طرفي في تلك الغرفة الصغيرة فرأيت فيها أربع نوافذ جميعها مقفلة وفي وسطها اناء (صدر) كبير من النحاس الأصفر وضعت عليه الاراكيل، وتصنع الاراكيل في الغالب من النحاس، ويعنون بها عناية عظيمة ويسمونها (مداعة) ولها عندهم أسماء متعدد منها المدعي (بكسر للميم والعين) والمزة الى غير ذلك من الأسماء الغريبة وأما (النربيش) المستعمل في اليمن فيبلغ طوله نحو أربعة أمتار وله غلاف من الحرير المزركش يباهي صاحبه به ويبرهن عن مقدار ذوقه في اختيار الألوان الجميلة وكان الدخان في غرفة العامل يتصاعد من هذه الأراكيل بكثرة وقد فسد هواء الغرفة من النفس المحصور ودخان الاراكيل فشعرت بانقباض في صدري فسألت العامل لماذا لا تفتحون هذه النوافذ فيتغير هواء الغرفة؟ فقال من البرد، اننا نخشى البرد كثيراً وجبالنا كما تراها باردة والبرد مضر بالصحة، وأردف قائلاً: وهل عندكم في بلادكم برد كبردنا، فقلت نعم ان بلادنا أبرد من بلادكم كثيراً وفي الشتاء تهطل الثلوج على جبالها مراراً ومع ذلك فنحن نفتح نوافذ بيوتنا كل يوم أكثر من مرة لتغيير هوائها. فقال حضرته ان برد اليمن مضر فاذا تعرض له الانسان فلا شك انه يمرض فوراً. فسكتّ لهذا الجواب بالرغم من عدم قناعتي به وحولت نظري الى بعض الجلوس فرأيتهم منهمكين بمضغ القات وأمام كل واحد منهم رزمة كبيرة والى جانبها ابريق فخاري ومبصقة فضية، أما الابريق فيستعمله ماضغ القات لغرغرة فمه بين حين وآخر وأما المبصقة فيستعملها للبصاق ولطرح بقية أوراق القات التي يمضغها والتي لا يبلعها بل يمص ماءها ثم يطرحها من فمه في المبصقة. ويدوم مجلس القات من بعد الغذاء ظهراً حتى المساء.

والقات نبات غريب فيه مادة مخدرة ويقال له بالانكليزية (كاتا اديوس) أو (فورسكالي) ومن خصائصه انه يؤثر في الأعصاب فيخدرها فيشعر المرء ببسط وانشراح. ويقول الاطباء انه مضر بالصحة كثيراً لأنه يقلل من شهية الإنسان للطعام ويزيد فيه الميل الى شرب الماء ويضر بالاسنان ويسودها، وبالمعدة فيقلل من عصيرها وبالنسل فيضعفه. وبالرغم من جميع هذه المضار وبالرغم من علم أهل اليمن بها فهم يمتدحونه وينشدون القصائد بمزاياه ويستعملونه

بأجمعهم ما عدا صاحب الجلالة الامام يحيى فقد منعه طبيبه الخاص عن استعماله منذ عدة سنوات ولا يزال جلالته ممتنعاً عنه الى هذا اليوم.

وبكل أسف أقول ان اليمانيين يضيعون ثروتهم ووقتهم في القات لا فرق في ذلك بين سيد ومسود وغني وصعلوك وتجد الصانع الذي يشتغل كل نهاره بفرنك واحد ينفق معظمه على القات ويهتم للحصول عليه أكثر من اهتمامه للحصول على قوته الضروري. وقد سمعت الكثيرين يقولون انهم يفضلونه على الطعام والشراب.

ويغرس شجر القات كما يغرس البن في الأودية المرتفعة التي لا تتعرض لحرارة الشمس الحادة إلا بضع ساعات في اليوم وتوجد منه أنواع مختلفة تختلف أسماؤها باختلاف المكان الذي ترد منه وتغرس فيه فهنالك قات الوادي والقات التعزي والبرعي والريمي نسبة الى قرى الوادي: وتعز وبرع وريما ويشبه القات بعض الشبه الحور الصغير عندنا ويبلغ طول شجرته أحياناً خمسة أمتار ويمتاز بعض الانواع عن بعضها بالحلاوة والطول. والقات أثمن وأغلى نبات في اليمن وتساوي الرزمة الصغيرة من غصونه نحو ثلاثة فرنكات. ومن ألطف ما سمعت عن القات ان اللصوص أيام الدولة العثمانية كانوا يتعرضون للقوافل وينهبونها ولكنهم كانوا دوماً يسمحون لتجار القات ان يمروا في طريقهم دون أن يتعرضوا لهم بأذى.

جلست في مجلس القات نحو ربع ساعة كدت أفقد فيها صوابي لشدة الدخان واحتباس الهواء وأخيراً استأذنت العامل بالانصراف فأذن لي بعد ان استوضحني عن راحتنا وعن مأكلنا ومشربنا وهل نحن في حاجة الى أي مساعدة؟ فقلت اننا والحمد لله على غاية ما يرام وعدت الى السراي.

ثورة الزرانيق على اليمن

أولاد الأمراء والوجوه رهائن عند الامام

رأيت من نافذة غرفتي في السراي صبية يلعبون في صحن دار متسعة ظننتها لأول وهلة مدرسة ولكن سرعان ما تبدل هذا الظن إذ رأيت بالقرب منهم جندياً حاملاً بندقيته، ووافقاً لحراستهم. وقد دهشت لهذا المشهد الغريب وسألت البعض عن أمر هؤلاء الصبية، فقيل لي هؤلاء من الرهائن!

وقد اعتاد أئمة اليمن وغيرهم من أمراء العرب وملوكهم في العصور الأولى ان يحكموا البلاد على طريقة الرهائن فكانوا يأخذون ممن يولونه الحكم في صقع من الأصقاع ولداً من أولاده أو أخاً من اخوته فيحفظونه عندهم رهينة لكي يأمنوا شر ذلك الحاكم أو العامل فلا يقدم على العصيان أو التمرد إذا قويت شوكته وعظمت دولته حفظاً لحياة ابنه أو اخيه، ويأخذون أيضاً الرهائن من معظم وجوه البلاد النائية وشيوخها ليأمنوا شرهم. وقد عاب البعض على جلالة الامام هذا النوع من الحكم ونعتوه (بالدمل) ولكنهم لو أنصفوا لعذروه عليه لأن بلاد اليمن بقيت في حكم الدولة العثمانية ٤٠٠ سنة وهي في فوضى دائمة، القوي يأكل الضعيف والناس في حرب مستمرة بعضهم مع بعض ، وهم بطبيعتهم ميالون الى الغزو فلا يستطيع الحاكم أن يخضد شوكتهم الا بشيء من الارهاب والشدة. وطريقة الرهائن هي من جملة الطرق التي استعملها الامام حتى قضى على الفوضى في البلاد. وهي معروفة عند الغربيين ومستعملة عندهم الى هذا اليوم ويسمونها (بالاقامة الاجبارية ـ ريزيدانس فورسيه).

مدير المال

قابلت في مناخه مدير المال فسألته عن واردات قضائه فقال ان مناخه مركز لقضاء (حراز) وهذا القضاء من أغنى أقضية اليمن واكبرها، وفيه شيء كثير من البن والقات وخصوصاً في الجبل القريب المدعو (صعفان) وقال ان عائداته تبلغ في السنة ٣٠,٠٠٠ ألف ريال نمساوي أي ثلاثـة آلاف جنيه انكليـزي، ويقصدون بالعائدات واردات الجمرك، وأما بقية الضرائب فتبلغ ألوفاً متعددة من

الريالات تختلف في بعض السنين بحسب جودة الموسم وكثرة الامطار أو قلتها.

وتستوفى الضرائب عيناً أو بدلاً، ومنها الاعشار والزكاة والويركو وجميع البضائع التي تدخل مناخه يستوفون عنها اثنين ونصفاً بالمائة ضريبة جمركية، هذا إذا لم تكن مرسلة (ترانزيت) الى صنعاء.

اطلعت على دفتر حسابات مدير المال فاذا به من دفاتر الترك القديمة ويقيد حضرته حساباته فيه من دخل وخرج بالعملة الفضية والعملة الذهبية. ولم تعن حكومة اليمن الى هذا اليوم بطبع أوراق خاصة بمعاملاتها وهي لا تزال تستعمل دفاتر الدولة العثمانية وأوراقها.

جبل صعفان

جبل صعفان جبل مشهور بالقرب من مناخه وهو غني ببنه وقاته وموزه وغير ذلك من الاثمار والنباتات، وقد تنازعه الامام يحيى والادريسي عقب الحرب العامة ووقعت فيه معارك كثيرة وقد حدثني البعض عن هذه المعارك قال: احتل الادريسي هذا الجبل عندما انسحبت جيوش الدولة العثمانية من اليمن وجرت فيه معارك تشيب من هولها الاطفال، وخاصة في احدى قراه الغنية التي يقال لها قرية (الجراح) وكان النصر تارة للزيود وطوراً للشوافع، وقد تجلى ههنا مقدار تأثير طبيعة الأراضي في المحاربين. فالزيود رجال الامام من أهل الجبال، والشوافع من أهل السهول، فكان النصر في الجبال دائماً حليف الزيود، وكان النصر في تهامة غالباً حليف الشوافع.

وقد أدرك كل من الفريقين المتحاربين نقطة الضعف في خصمه، فكان الزيود أحياناً يتقهقرون أمام الشوافع في أسفل جبل صعفان ويفسحون لهم المجال للتوغل فيه ثم يحملون عليهم ويقتلونهم على بكرة أبيهم وهكذا كان الحال مع الشوافع فكثيراً ما أفسحوا المجال للزيود في تهامة وتغاضوا عنهم الى وقت الظهر أي الى وقت اشتداد الحر عندئذ يهاجمونهم وفي أغلب الاحيان ينتصرون عليهم وبديهي أن أهل الجبال قد ألفوا اعتدال الهواء والماء وليس بمقدرتهم أن يتحملوا شدة حرارة تهامة كما يتحملها أهلها الذين شبّوا وشابوا

فيها ولذلك طالت الحرب بين جنود الامام وجنود الادريسي وكـان النصر بينهما سجالاً ولكن في نهاية الامر تغلب رجال الامام على رجال الادريسي ومزقـوهم شر ممزق واستولوا على باجل والحديدة وجميع تهامة الى حدود امارة الادريسي في عسير

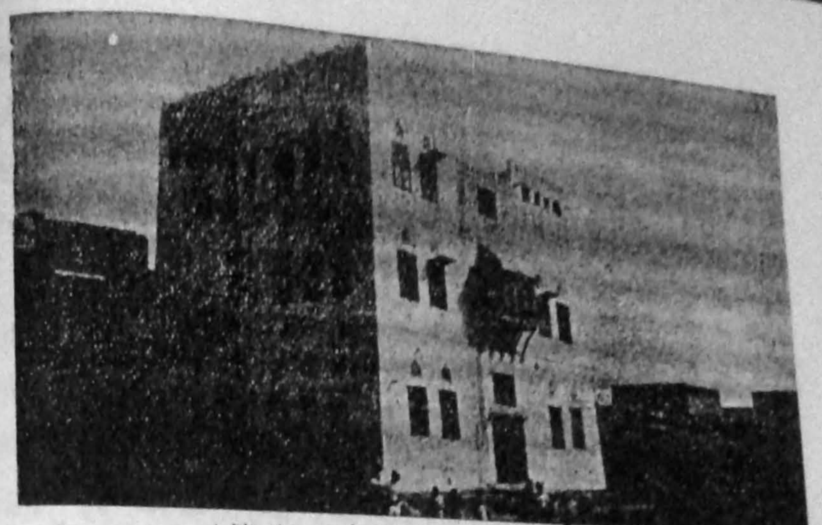
ثورة الزرانيق واحتلال الانكليز للضالع وقعطبة

ولما كان الشيء بالشيء يذكر، ما دمنا أتينا آنفـاً على بيان حـروب الامام والادريسي فلا بأس من أن نذكر شيئاً عن ثورة الزرانيق تلك الثورة العظيمة التي قتل فيها ألوف كثيرة من المسلمين الابرياء في سبيـل المطامـع الاجنبية. وقـد وقعت هذه الثورة سنة ١٩٢٩ وصادف اني كنت في تلك السنـة في اليمن وقد شاهدت الجنود المتوكلية تساق لمقاتلتها من كل حدب وصوب.

تقطن قبيلة الزرانيق في تهامة ما بين الحديدة وزبيد وأهم مدنها بيت الفقيه ويقـال ان عدد نفـوسها يبلغ نحـو ٩٠,٠٠٠ جميعهم من الشوافـع ولـم تستطع الدولة العثمانية كل مدة اقامتها باليمن اخضاع هذه القبيلة لشدة بأسها ومراسها وكانت كثيراً ما تضطر الى التساهل معها بشأن تعديها على القوافل والمسافرين وتقدم لكبار شيوخها المال والهدايا باسم الاخوة والصداقة، ولما استولى جلالة الامام على تهامة والحديدة ترك هذه القبيلة وشأنها ولم يتعرض لها بخير أو شر وهي بدورها حافظت عدة سنوات على السكينة التامة ولم تعتد على القوافل ولا على المسافرين. ولكن لما وقعت الواقعة بين جلالة الامام وجيرانه البريطانيين واختلفوا على حدود ولاية عدن المحمية، وادعى البريطانيون ان الضالع وقعطبه وغيرهما من البلاد الواقعـة الى جنوب اليمن والتي هي بيـد جلالـة الامام هي ضمن الاراضي التي وافق التـرك على ضمهـا لنواحي عـدن التسـع المحميـة بموجب معاهدة فطلبوا من الامام التنازل عنها فرفض الامام ذلك الطلب لأن هذه البلاد في عرف جلالته وعـرف حكومته جزء لا يتجزأ من اليمن وبناء على تمسكه ورفضه التسليم بما ادعى الانكليز هاجموه بطياراتهم وجيوشهم على حين

غرة وانتزعوا هذه البلاد منه وأخذوها عنوة. والسر في أخذهم لها هو أنها غنية بالمعادن كالزئبق والرصاص وهواؤها عليل ومناخها جيد وهم يريدون أن يبنوا فيها مستشفى لجيوشهم المحتلة لعدن ويتخذونها مصيفاً لهم ولعائلاتهم القاطنة في عدن وقد أتموا تعبيد طريق بينها وبين عدن حالما استولوا عليها.

وفي نفس الوقت الذي هاجم فيه الانكليز جنوب اليمن قدم الشيخ احمد الفتيني كبير شيوخ قبيلة الزرانيق الى جمعية الامم احتجاجاً على استيلاء جلالة الامام يحيى على تهامة والحديدة بدعوى ان هذه البلاد جزء متمم لأملاك الزرانيق ويقول بعض العارفين ان هنالك علاقة بين هجوم البريطانيين على اليمن وبين حركة الزرانيق والله أعلم وقد أخذت عصابات من الزرانيق تسلب وتنهب على الطرقات في رابعة النهار وبلغ من جرأتهم ان هاجموا مخفراً من مخافر جند الإمام في جنوب الحديدة وقتلوا جنديين من جنوده فغضب جلالة الإمام من تصرفات الزرانيق غضباً شديداً وأرسل حملة بقيادة احد السادة للتنكيل بالعصاة فاجتمع شيوخهم بالسيد المشار اليه ومكروا به ووعدوه بتسليم العصاة والمجرمين ودعوه الى مكان قريب من بيت الفقيه وهناك غدروا به وبجنوده وقتلوهم شر قتلة. لم يطق جلالة الإمام صبراً على هذه الخيانة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ العرب فانتدب ولي عهده صاحب السمو احمد سيف الإسلام لتأديبهم والاستيلاء على بلادهم فسار سموه على رأس قوة كبيرة من مركزه في حجة في طريقه الى بلاد الزرانيق ومر بالحديدة ولكنه لم يدخلها اذ بلغه ان الأهلين قد أقاموا له الزينات واستعدوا لاستقباله استعداداً فخماً وكان جوابه لهم أنه من العار علينا أن نقوم بمثل هذه التظاهرات وننام على الفرش الوثيرة وإلى جانبنا عدونا يعيث في الأرض فساداً ويسلب راحة الأهلين ويعتدي على أرواحهم وحلالهم ومن المشهور عن سموه شدة ديموقراطيته وعلو همته وعظيم بسالته وشجاعته وميله وعطفه على المظلوم وكرهه للظالم. وهو ربع القامة حنطي اللون ذو عينين سوداوين تتقدان ذكاء ونشاطاً. محبوب من جنده ومن الطبقة العامة حباً جماً، ولكنه محسود... يحسده بعض الخاصة لبروز هذه الصفات الكريمة فيه، اذا رآه المرء في معسكره راكباً أو جالساً فلا يفرق بينه



سراي الحكومة في بيت الفقيه وقد أمر جلالة الإمام
بينائها بعد احتلال المدينة .

وبين أي جندي من جنوده لأنه يلبس لباسهم ويأكل طعامهم ويتزيا بزيهم . سار سموه الى بلاد الزرانيق فاحتل بلاد المراوعة والدريهمة بعد مصادمات عنيفة وشعر بان الزرانيق متصلون باكثر من واحدة من الدول العظمى عن طريق البحر وانهم يجلبون منها العتاد والسلاح فادرك للحال خطورة الموقف وبدلاً من أن يوجه أفكاره نحو داخلية البلاد استولى أولاً على شواطئها البحرية فاحتل الجاح والطائف ـ وهي غير طائف الحجاز طبعاً ـ وميناء غليفقه وأقام فيها حصوناً وحرساً للشواطىء واستولى على مراكب الزرانيق الشراعية وأرسلها الى الحديدة وبذلك تم له ما يريد ومنع الزرانيق من الوصول الى البحر وأحاط بهم احاطة السوار بالمعصم وقطع عنهم كل مدد خارجي .

أدرك الزرانيق شدة الخطر المحدق بهم ففر شيخهم الأكبر مسبب هذه الثورة أحمد الفتيني والتجأ الى أصدقائه الانكليز في جزيرة قمران التي تقع على مسيرة يوم الى شمال الحديدة واستسلم بعض الشيوخ الى سيف الإسلام دون قيد أو شرط، وأسر سموه خلقاً كثيراً من أعدائه واكره معظمهم على الالتجاء الى بيت الفقيه وحصرهم فيها.

ولما رأى جلالة الامام شدة الضرر الذي لحق بهذه القبيلة أمر ولي عهده

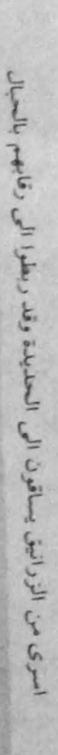
بحصار بيت الفقيه وهي أعظم مدنهم وعدم مهاجمتها وذلك رحمة بأرواح الجميع فامتثل سموه لارادة والده وشدد الحصار عليها فبلغ ثمن رطل الحليب ريالاً اماميا أي خمسين ضعف ثمنه في الاوقات العادية وبلغ ثمن رطل الخبز أربعين ضعفا فلم يطق الزرانيق الدوام على هذا الحصار فاستسلموا الى سيف الإسلام وأعطوه الرهان أسوة بغيرهم من القبائل.

نقيل الشجة

نزلنا من مناخه التي يبلغ علوها ٧٣٣٠ قدماً في نقيل يقال له نقيل الشجة ويطلق لفظ النقيل في اليمن على الطريق الجبلية الوعرة. وكانت الأمطار تهطل رذاذاً، وقد شاهدت في هذا الطريق الجمال الجبلية الضخمة تنقل أثقالاً عظيمة غير مبالية بالصعود والهبوط ولا مكترثة بالوعر والجبل، ولا شك أن القارىء يدهش متى علم أن الجمال تصعد الى علو ١٠,٠٠٠ قدم بأحمالها الثقيلة على طريق لا تسلكها غير القردة والبغال والماعز، وشاهدت أيضاً في هذا النقيل نسوة ينقلن حطباً على رؤوسهن من أسفل الوادي السحيق الى مناخة ولو أن القرويين شجروا جبلهم لوفروا على نسائهم عناء كثيراً، ومما لا ريب فيه أن الأشجار تنمو في هذا الجبل نمواً حسناً، ولا شك انها كانت كثيرة في الزمن الغابر لأني شاهدت بقاياها على جنبات الوادي.

حصن المكارمة

في منتصف هذا الوادي رأيت على رابية قريبة من الطريق حصناً كبيراً حوله بعض المنازل فسألت أحد الجنود عنه فقال لي كان هذا الحصن أيام الدولة العثمانية مخفراً للجنود، وهو يخص رجلاً من المكارمة يقال له اسماعيل. والمكارمة فئة من الاسماعيلية أتوا اليمن من الهند وتوطنوا في قضاء حراز ويقطن معظمهم في جبل مناخه الشرقي ويبلغ عدد نفوسهم في هذا الجبل نحو عشرة آلاف، ولهم عادات خاصة وعبادات خاصة. وقد حاربوا الامام مدة من الزمن ولكنهم غلبوا أخيراً على أمرهم ودخلوا في طاعة الإمام فأكرههم على تجديد اسلامهم والاقلاع عن عاداتهم الغريبة المخالفة للشريعة الاسلامية الغراء،



اسرى من الزرانيق يساقون الى الحديدة وقد ربطوا الى رقابهم بالحبال

ومن بعض خرافاتهم ان الواحد منهم يذهب الى شيخه وينقده مبلغاً من المال يبتاع منه به ذراعاً في الجنة وبمبلغ آخر يغفر له خطاياه. ولكن بفضل الإمام زالت هذه الخزعبلات اذ أرسل جلالته الى هؤلاء الناس أئمة صالحين من أهل العلم والفضل فلقنوهم قواعد الدين الحنيف وأرشدوهم الى عبادة الواحد الأحد فأقلعوا عن خرافاتهم وكفرهم. ولا يأخذ الإمام منهم جنوداً نظامية، ولكنهم عند الحاجة يدعون للجندية فيتطوعون من تلقاء أنفسهم لمقاتلة أعداء الإمام. ويجدر بالذكر هنا أن شرف التجنيد في الجيش المتوكلي لا يحصل عليه في الدرجة الأولى الا من كان من حاشد او بكيل، وحاشد وبكيل هما أكثر قبائل اليمن نفوساً وأعلاهم كعباً وأغناهم زرعاً وأكثرهم ضرعاً وهما ذراعا الإمام اليمين واليسار وعليهما يعول عند الشدائد والملمات.

وصلنا الى أسفل نقيل الشجة بعد أن مشينا ساعة ونصف ساعة هبطنا فيها ٢٥٣٠ قدماً وما أكثر الصعود والهبوط على طريق الحديدة صنعاء وما أسخف القائلين بأنه في الامكان الاستيلاء على صنعاء عن طريق الحديدة حرباً، وقد شاهدت بعيني رأسي اماكن متعددة وعرة وحصينة لا أغالي اذا قلت ان عشرة جنود يحولون دون سير حملة منظمة كثيرة العدة والعدد.

سارت بنا الطريق من أسفل نقيل الشجة بين وديان وتلال لا تعد ولا تحصى وكان جبل الخميس امامنا وجبل مناخة خلفنا وهذان الجبلان عظيمان شاهقان يرتفع الأول ١٠,٠٠٠ قدم عن سطح البحر ويعلو الثاني ٨٠٠٠ قدم وبينهما وديان وآكام وسلاسل من الجبال آخذ بعضها برقاب بعض، وفيهما بعض الأشجار المثمرة ويقال لها سدر وثمرها أحمر يشبه الزعرور ويأكله القرويون ويوجد فيها أشجار غير مثمرة ويقال لها الفطر والعسق وهي تصلح للوقود.

انقطعت الأمطار عندما وصلنا الى أسفل الوادي وأشرقت الشمس وأرسلت أشعتها الذهبية في الفضاء فأعادت الى أجسامنا الحرارة الطبيعية فانشرح صدر أحد جنودنا لهذا المنظر وأخذ ينشد بصوت رخيم نشيداً جميلاً بنغم لطيف، ولكني لم أفهم من ألفاظه شيئاً، انما طربت كل الطرب لتلحينه وترتيله وخلت



احد المناظر الجبلية في الطريق

نفسي في حضرة محمد عبد الوهاب اليمني ولما استقر بنا الجلوس بعد برهة وجيزة سألته: ماذا تنشد؟ فقال كنت أنشد نشيدا خطر في بالي لوقته فقلت اسمعني شيئاً منه فقال:

بالله عليكم يا جبل مناخة	عد حد يجد بعد الفراق راحة
غبني على قلبي وكم حنينه	يبقى زمانا ما عد يرى حبيبه

شاهدت بين هذه الوديان والآكام حقولاً من الذرة البيضاء ويدعونها هنا (شامي) أو (رومي) نسبة الى الشام وبلاد الروم لأن أصلها من هذه البلاد. وكان شريط التلغراف ويقولون له باليمن (سلك) يسير الى جانب طريقنا وهو ممدود منذ عهد الدولة العثمانية، ولكن حالته الحاضرة غير مرضية ولا فنية. فهو مربوط في بعض الأماكن الى أغصان الأشجار ومربوط في بعضها الى عواميد ولكنها خالية من الفناجين الخزفية التي تستعمل لهذه الغاية، ولذلك كثيراً ما تتوقف المخابرات أيام هطول الأمطار.

سرنا على هذا المنوال بين الآكام والوديان نحو ساعتين ونصف الساعة، الى أن وصلنا الى مقهاية، وهنا توقفنا عن السير لتناول الطعام والاستراحة،

فنظرت الى الالنيمتر أي قائمة العلا فوجدت اننا هبطنا الى علو ٥٠٠٠ قدم أي اننا كنا أوطى من مناخة بـ ٢٣٣٠ قدماً، وكانت درجة الحرارة في الساعة الواحدة بعد الظهر ٨٣ درجة في ميزان فارنهيت بينما كانت في مناخة في مثل هذا الوقت من اليوم الماضي ٧٠ فارنهيت.

يصبغون بالنيل وجوههم

استرحنا من وعثاء السفر قليلاً، ثم سرنا الى (مفحق) على طريق غير معبدة، بين وديان وهضاب كثيرة، ولم تتغير طبيعة الارض ولا طبيعة النباتات تغيراً يذكر انما صرنا نرى هنا في هذه النواحي عدداً عظيماً من الغنم والماعز والجمال. والجمال كالزراف تأكل أوراق الاشجار قبل الأعشاب! أما الأراضي فهي خلو من القرى الكبيرة العامرة، وأصحابها يقطنون في بيوت صغيرة كبيوت البدو الرحل متفرقة بين الأشجار، يكاد المرء لا يراها لصغر حجمها وتواريها عن الانظار!

وهذه الأراضي تابعة لناحية الحيمة ويغرس في أرض الحيمة خلاف الذرة، العدس والشعير والحنطة، ويغرس في وديانها الشمالية شيء كثير من البن والقات والموز والمنكو ويقال للمكان الذي يقطنه عامل الحيمة مفحق وهو حصن قائم على اكمة عالية في أسفلها بعض الدور اتخذها العامل مكتباً له وخصص واحدة منها للمسافرين النازلين في ضيافة الإمام وقد قضينا ليلتنا فيها ولكن لم يذق جفننا طعم الكرى لأن جيوشاً من البق (الاكلان) والنمل الأحمر هاجتمنا هجوم المستميت.

وتصلح مفحق أن تكون مشتى أيام البرد لأن درجة حرارتها في الليل والنهار معتدلة وليس كما قال عنها الاستاذ الريحاني في كتابه قبو اليمن وجحيمه ومقره لأن ارتفاعها عن سطح البحر ٥٥٣٠ قدماً ودرجة الحرارة فيها بلغت بعد الظهر ٧٧ فارنهيت.

قمنا من مفحق نحو الساعة السابعة صباحاً وكانت وجهتنا قرية متنة فسرنا صعوداً نحو ساعتين على طريق معبدة بين الجبال والوديان كانت الحكومة

العثمانية عبدتها لسحب المدافع ونقل الجنود الا انها بسبب الثورات المتواصلة لم تتمكن من انجازها وهي الآن مخربة من جرف السيول والأمطار، وبعد مسير ساعتين ونصف ساعة من مفحق وصلنا الى قرية الخميس وهي قرية صغيرة فيها بعض المقاهي للمسافرين وكانت قبلاً مركزاً لعامل الحيمة الا ان العامل انتقل منها أخيراً الى مفحق بأمر جلالة الإمام لأهمية مفحق من جهة واردات الدولة.

لم نقف بالخميس طويلاً اذ كان الصباح جميلاً والهواء عليلاً فشعرنا بنشاط شديد ساعدنا على مداومة السير وكان يقابلنا بين حين وآخر على الطريق بعض المسافرين من الاشراف أي السادة فكانت تفوح علينا منهم رائحة عطرية جميلة بخلاف العامة من الناس الذين كانوا يمرون بنا فتهب علينا منهم رائحة ثيابهم المنيلة الزرقاء التي نستعملها نحن لتنييل البياضات الداخلية لتنييل أثوابهم القطنية الخارجية ولكنهم ينيلونها الى حد عظيم فتصبح زرقاء غامقة الزرقة كما أنهم ينيلون وجوههم وأيديهم وجسدهم بهذه النيلة أيضاً.

وسألت بعض الناس لماذا تنيلون ثيابكم وأجسادكم على هذه الصورة! فقالوا ان بلادنا باردة جداً والبرد يضر بنا كثيراً وقد وجدنا بعد التجربة ان أفضل طريقة يحفظ فيها الانسان نفسه من البرد هي تنييل الثياب والأجساد. فاقتنعت



اثنان من السادة على خيولهما

بهذا الجواب المنطقي!!! قائلاً في نفسي لا حول ولا قوة إلا بالله، والفرق بين ألبسة السادة والعامة عظيم جداً كالفرق بين ألبسة الأغنياء والفقراء في سائر البلاد فالسادة عدا الصايات الحريرية التي يرفلون فيها يلبسون الاصواف الجميلة والاجواخ الغالية في البلاد الباردة وعامة الشعب في البلاد الباردة يلبسون الديما وفوقها جلود الاغنام وما أشبه.

كانت طبيعة الاراضي والمزروعات بين (مفحق) والخميس كطبيعة ما رأينا قبلاً من الأراضي والمزروعات وعلاوة عليها شاهدنا أنواعاً مختلفة من الصبير، ومن الخميس ابتدأت الطريق تصعد بنا صعوداً كبيراً ويمكن ان يقال عنها انها معبدة جزئياً وكانت تسير على رؤوس التلال وأطراف الجبال بشكل لولبي ودمنا على هذه الحال برهة من الزمان أي الى أن بلغنا قمة جبل الخميس أو (جبل بوعان) ويقال لها القرن وعلوها عن سطح البحر ١٠,٠٠٠ قدم وكانت درجة الحرارة هنا وقت الظهر ٦٧ فارنهيت وأعلى قرية في هذا الجبل تدعى بيت السلامة وعدد سكانها نحو مائتين ومنازلها نحو ثلاثين منزلاً جميعها مبنية بالحجر على شكل الحصون وقفنا بالقرب من هذه القرية وسرحنا البصر الى جهة الغرب فرأينا على الافق البعيد قرية مناخه تتلألأ منازلها فوق رؤوس الجبال كالنجوم في السماء وبيننا وبينها من الوديان والجبال والآكام مالا يعد ولا يحصى فكأننا أمام بحر زاخر من اليابسة لا يدرك الإنسان أوله من آخره. أمواجه الآكام والتلال وسطحه السهول والوديان، وفوق هذه الأمواج شيدت معاقل المكارمة وحصونهم وفي أعلى رؤوس تلك الجبال منازل الزيود وقلاعهم وجميعها تشبه ببياضها السفن الشراعية من ماخرات البخار.

وهنا شهدت منظراً في الجبال لم أر مثله في بلاد الشام وذلك من حيث عظمة هذه الجبال وكثرتها واختلاط بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل وكأني بأعظم وديان الشام وجبالها لا تساوي نقطة من هذا البحر الخضم ولا ذرة من ذراته.

والفرق بين هذه وتلك شاسع من حيث حرارة الشمس. فشمس اليمن في

جميع فصول السنة وفي أعالي الجبال شديدة محرقة بينما هي في جبال الشام
لطيفة دافئة وبديهي أن سبب ذلك عائد الى قرب بلاد اليمن من خط الاستواء
وبعد الشام عن هذا الخط.

الفحم الحجري والخط الحديدي

سرحنا البصر الى الجهة الشرقية التي نسير نحوها فرأينا قمة في جبل سنان
باشا تناطح السحاب والى الجنوب رأينا سلاسل عظيمة من جبال بني مضر
وبينما نحن منهمكون في مشاهدة هذه المناظر البديعة اذا بأحد جنودنا يتقدم منا
ويقول انظروا الى هذا التل الاسود اللامع هو من الفحم الحجري. فاتجهنا
بأبصارنا نحوه فرأيناه اسود يلمع لمعاناً يسترعي الانظار وذلك لشدة سواده
وانعكاس النور عنه فسرنا اليه فاذا به تل حجري بركاني من نوع «ابسديون» فقلنا
للجندي ومن أخبرك أن هذا فحم حجري؟ فقال كنت أيام الترك جندياً في
الجيش العثماني وقد رافقت بعض المهندسين الغرباء الذين جلبهم الترك
لهندسة طريق السكة الحديدية المزمع بناؤه وقتئذ وقد قال لنا أحدهم ان هذا
التل من الفحم الحجري واذا حفرتم الى عمق يخرج لكم نوع أفضل من النوع
الذي على سطح الأرض فضحكنا من جهل هذا المهندس وقلنا للجندي ولمن
حولنا من الناس الذين تجمعوا ليشاهدوا الغرباء لكي نقنعهم أن هذا الصخر
ليس فحماً: اجلبوا لنا شيئاً منه وأضرموا ناراً، فأتوا بقطعة منه وأضرموا ناراً حامية
فطرحنا تلك القطعة في النار وبطبيعة الحال لم تحترق ولا فعلت بها ألسنة
اللهيب شيئاً. ولما خمدت النار وبردت القطعة الحجرية أخذها الجندي بيده
فوجدها كما هي فقلنا له شمها فشمها فلم يجد أثراً لرائحة الفحم فيها وقد أخذ
العجب من جميع الناس وصاروا ينظرون بعضهم الى بعض مستهزئين.
فسألناهم (وكان معظمهم من سكان قرية بيت السلامة) أحقيقة قال المهندسون
الاجانب الذين جلبهم الترك ان هذا التل من الفحم الحجري؟ فأجاب بعضهم
انهم كانوا بأنفسهم يرافقون بعثة المهندسين بصفتهم من أهل الخبرة بتلك
الاراضي ليرشدوهم الى جميع الطرقات وأكدوا لنا أن المهندسين قالوا هذا
القول مراراً. ومما يوجب الاستغراب ان هؤلاء المهندسين لما أتوا الى اليمن

لمد خط حديدي من الحديدة الى صنعاء اخطأوا كثيراً في اجزاء من الطريق التي كانوا يتعقبونها ودليلنا على ذلك انهم أرادوا ان يصعدوا بهذا الخط الى علو ١٠,٠٠٠ قدم في قمة جبل القرن ثم يهبطوا الى صنعاء اعلو ٧٥٠٠ قدم وهم في غنى عن هذا الصعود لو أرادوا أن يتجنبوه وينحرفوا الى طريق ثانية غير هذه الطريق وقد اكتشف الطريق الثانية القاضي محمد راغب وزير خارجية اليمن وبعض المهندسين الاميركيين الذين أرسلهم شارلس كرين الى اليمن على نفقته ليساعدوا الإمام في بعض المشروعات العمرانية.

والخطيئة الثانية التي ارتكبتها الدولة العثمانية ومهندسوها الغرباء وربما تعمدوا ذلك تعمداً لكي يستولوا على جزء من مالية اليمن بصفة الضمانة الكيلومترية كما حدث ويحدث في كثير من الخطوط الحديدية الخاضعة لهذا الترتيب في سورية وغيرها من بلاد العالم هي فكرة مدهم خطاً حديدياً الى صنعاء فمن البديهي أن الخط الحديدي في هذه الجبال الوعرة الشاهقة التي لا يعرف لها أول من آخر يحتاج الى رأس مال كبير لبنائه ومتى تم بناؤه فانه يحتاج الى نفقات باهظة للمحافظة عليه ولتسديد مرتبات الموظفين وهو أبداً معرض للخطر لكثرة السيول في الجبال أيام المطر ومن عرف اليمن وعرف مقدار الصادرات والواردات التي يمكن شحنها على هذا الخط يدرك أنه من المستحيل عليه أن يسدد نفقاته. لذلك فمن الجهل أن يفكر أحد في الوقت الحاضر في مد خط حديدي كهذا في الجبال. وأما في تهامة أي ما بين الحديدة والحجيلة وبيت الفقية والزيدية وغيرها فبالامكان أن تبنى الخطوط الحديدية بنفقات بسيطة ولا تكون عرضة للأخطار ولذلك اقترح المهندسون الاميركيون الذين أوفدهم المستر كرين الى اليمن على الإمام أن لا يقوم بهذا المشروع وأن يكتفي في الوقت الحاضر بتعبيد طريق تصلح لسير السيارات فقط، وقد أصغى جلالته الى هذه النصيحة وعمل بها وكلف أحد هؤلاء المهندسين ان يتولى كشف طريق صالحة للسيارات وقد وفق هذا المهندس المدعو المستر تونشل في هذه المهمة وخطط طريقاً من صنعاء الى حجة الى الحديدة وقد أتم جلالة الإمام تعبيد هذه الطريق وأصبحت اليوم صالحة لسير السيارات ونقل البضائع وأخبرني أحد

القادمين من اليمن حديثاً بأن السيارات في الوقت الحاضر صارت تروح وتغدو عن هذه الطريق بصورة مستمرة وقد ازداد عددها فصارات بالعشرات بينما كانت تعد بالأحاد قبل بضع سنوات.

سوق بوعان

هبطنا من بيت السلامة في واد ضيق ثم في نقيل يقال له نقيل (بوعان) الى أن وصلنا الى بعض المقاهي وسوق كبيرة يقال لها سوق (بوعان) وهي تتألف من عدة أزقة ضيقة بنى فيها الأهلون (عششاً) حقيرة من الحجارة والطين لا نوافذ لها ولا أبواب ولا سقوف ويأتي اليها الناس كل أسبوع مرة أي كل يوم خميس ويجلبون معهم بضائع مختلفة فيبيعونها هناك ويشترك في هذه السوق سكان القرى القريبة والبعيدة وقد رأيت البعض قد أتوا اليها من بلاد سنحان وخولان أي من مسافة ثلاثة ايام وشاهدت فيها معرضاً للبضائع المختلفة التي يحتاج اليها الاهلون من قشر بن وحنطة وشعير وعدس وخردوات وبترول وأقمشة مختلفة وحيوانات بانواعها وتبغ وتنباك الى غير ذلك من الاشياء وكانت تعج بالناس عجيجاً. ومن ألطف ما رأيت ان أهل القرى القريبة يأتون الى هذه السوق ويبتاعون زيتاً في كل أسبوع مرة ويحملونه في أباريق مصنوعة من التنك لا يزيد حجم الواحد منها على حجم زجاجة صغيرة تسع مائة غرام وهذه الكمية تكفي احدهم أسبوعاً كاملاً وهم يشعلون البترول للتنوير في مصابيح صغيرة مصنوعة من الصفيح (ضواية) ويستعملون للغاية نفسها زيت الزيتون فيشعلونه في مصابيح مصنوعة من حجر المرمر. وفي البيع والشراء يستعملون النقود أو يستعملون (الحاجيات) بعينها ولأول مرة في حياتي شاهدت هذه القاعدة الاقتصادية الأولية تطبق بحذافيرها كما يصفونها في كتب الاقتصاد، أي قاعدة (المقايضة) فيأتي الفلاح الى السوق مثلاً وهو لا يملك غير شوال من الحنطة فيأخذ بهذا الشوال كازاً وبناً أو خاماً الى غير ذلك من لوازمه من دون أن يستعمل النقود.

انواع البن

والى جنوب بوعان تقع بلاد بني مطر وهي مشهورة بجودة بنها ويقال له: (الصافي) وهو أفضل أنواع البن في اليمن ثم يليه البن الحيمي - من الحيمة - فالبرعي من جبل برع فالريمي من بلاد ريما. وقد شاهدت شجر البن، وهو يشبه في بعض الوجوه شجر الليمون وثمره أحمر اللون يشبه حب المرجان وعندما يتم نموه وينضج تماماً تجمعه النساء ويأخذنه الى دورهن فينشرنه على السطوح الى أن يجف ويصبح لونه أسود فيجرشنه بطواحين يدوية فتخرج منه القشرة السوداء ويبقى حب البن الصافي، ويستعمل اليمانيون القشر لمشروبهم الخاص ولا يستعملون الحب أبداً ويقولون ان القشر مرطب ومفيد للجسم جداً ويغلون معه أحياناً حب الهال أو القرفة في أباريق فخارية خاصة من صنع اليمن.

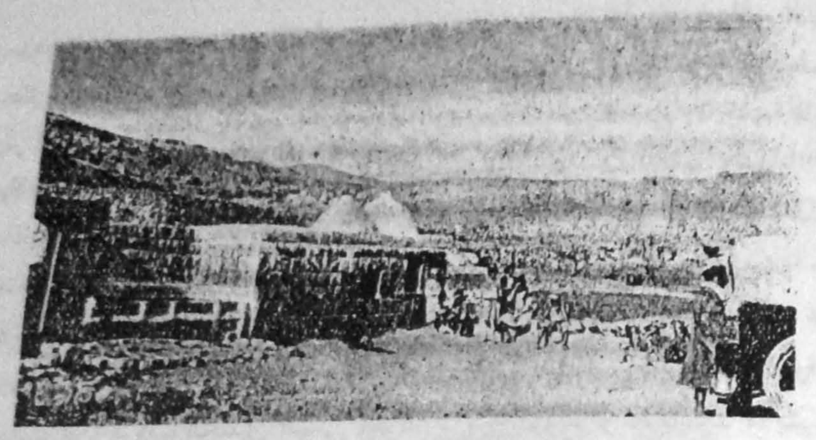
وأهم صادرات اليمن البن، وكان قديماً يشحن الى البلاد الخارجية من ميناء المخا فاطلق عليه بعض الشعوب الغربية كالأميركيين مثلاً اسم المخا. أما اليوم فمعظمه يرسل الى الحديدة او الى عدن من أعالي اليمن عن طريق البر ويسميه البعض البن العدني لانه آت بطريق عدن ويوجد بالحديدة بعض التجار الاجانب كاخوان ليفراتو وهؤلاء يبتاعونه من الوطنيين وينظفونه وينقونه ثم يخلطون الانواع المختلفة بعضها ببعض ويرسلونها الى الخارج من الحديدة وعدن ويترواح ثمن الفراسلة في الحديدة بين ٩ و١١ ريالاً أي بين الأربع والخمس ورقات سورية وتزن الفراسلة عشرة كيلو غرامات ونصفاً ويتلاعب هؤلاء التجار الأجانب باثمان البن كما يشاءون وتشاء اطماعهم لانهم هم الواسطة الوحيدة التي يتمكن القرويون من بيع بنهم بواسطتها للخارج وذلك لأن رأس مال التجار الوطنيين قليل ومعرفتهم بالعالم الخارجي وأسواقه محدودة.

البلشفيك في اليمن

ولكن ابى الله أن يستنزف هؤلاء التجار المحتكرون أموال الناس فسخر لليمن أخيراً الشركة التجارية الروسية التي أتت سنة ١٩٢٨ وأخذت تضارب تجار البن وغيرهم من التجار بشتى البضائع وقد رأيت سماسرتها في الطريق

يبتاعون البن رأساً من القرويين وقد جلبت شيئاً من السلع المختلفة كالسكر والارز والدقيق والكاز والخشب والكبريت والاقمشة الى غير ذلك من البضائع الكثيرة واستولت على الأسواق التجارية وثبتت أثمان الحاجيات بعد ما كان التجار يتلاعبون بها كيفما شاءوا وقد كان لهذه الدعاية البلشفية اثر بعيد في اليمن وقد أخذ بها معظم الناس وصاروا يمتدحون هذه الشركة ويثنون عليها أطيب الثناء وقد اهتمت الحكومة الروسية كثيراً بأمر اليمن وصارت تسير بواخرها من اوديسا في البحر الاسود الى خليج فارس في العجم فتمر هذه البواخر بالبحر الأحمر وتقف بالحديدة في ذهابها وايابها وتنقل البضائع والحجاج باثمان بخسة لا تزاحم وقد ضربت بعملها هذا السفن التجارية الصغيرة التي تسير بين شواطىء البحر الأحمر ضربة قاضية لأن أصحاب هذه السفن كانوا يستنزفون أموال التجار ويتقاضون منهم اجوراً غير معقولة لنقل بضائعهم ولا أكون مغالياً اذا قلت انهم يتناولون اجرة الطن من عدن الى الحديدة كما تتناول السفن الكبيرة اجرة الطن ما بين عدن ونيويورك ولذلك لما أتت هذه الشركة الروسية حول التجار نظرهم نحوها وانصرفوا عن غيرها ولا تأتي سفينة روسية الى الحديدة الا وهي ملأى بشتى البضائع والحاجيات وتعود من الحديدة ملأى بالجلود والبن.

سرنا من بوعان الى متنة على طريق معبدة يمكن في الوقت الحاضر للسيارات أن تسير عليها الى صنعاء بسهولة تامة وكان الى جانبها سهل لا بل واد متسع تخترقه في بعض المحال جداول صغيرة ويزرع فيه الشعير والحنطة والذرة، وبعد مسيرة ساعتين تقريباً وصلنا «متنة» وهي قرية صغيرة لا يزيد عدد منازلها على الثلاثين وقد بنت الدولة العثمانية فيها ثكنتين ولكنهما تخربتا في الوقت الحاضر من عدم الاعتناء بهما وكأني بالطبيعة قد أدركت أنه لم يبق لزوم لهما في ظل حكم جلالة الإمام يحيى فمالت عليهما بريحها وأعاصيرها ومطرها وسيولها فجعلتهما أثراً بعد عين، والحق يقال انه لا حاجة للثكنات العسكرية ولا للمخافر في ظل حكم صاحب الجلالة الإمام لأنه بفضل حب الأهلين لجلالته وتعلقهم بعرشه وسدته لا يسمع الانسان اذا جاب البلاد من أقصاها الى أقصاها



مسجد وسبيل ماء في متنة.

بحادثة سلب أو نهب أو قتل الا ما ندر، والأمن مستتب في كل ناحية من نواحي اليمن ويمكن للمرء كما يقولون أن يحمل الذهب ويسير بأمان واطمئنان أينما شاء دون أن يعترضه معترض أو يعتدي عليه معتد، وقد سرت بنفسي مرة دون حرس أو جند من الحديدة الى صنعاء ومن صنعاء الى عدن واستغرقت هذه الرحلة معي نحو عشرين يوماً فلم أشهد ما يكدرني أو يخيفني. وطفت مرة في شمالي صنعاء وشرقيها لوحدي وكنت أقابل أينما ذهبت بالحفاوة والاكرام وكان القوم يستأنسون بي ويسألونني أشياء كثيرة عن العالم الخارجي وخاصة عن الترك وتركيا ومصطفى كمال.

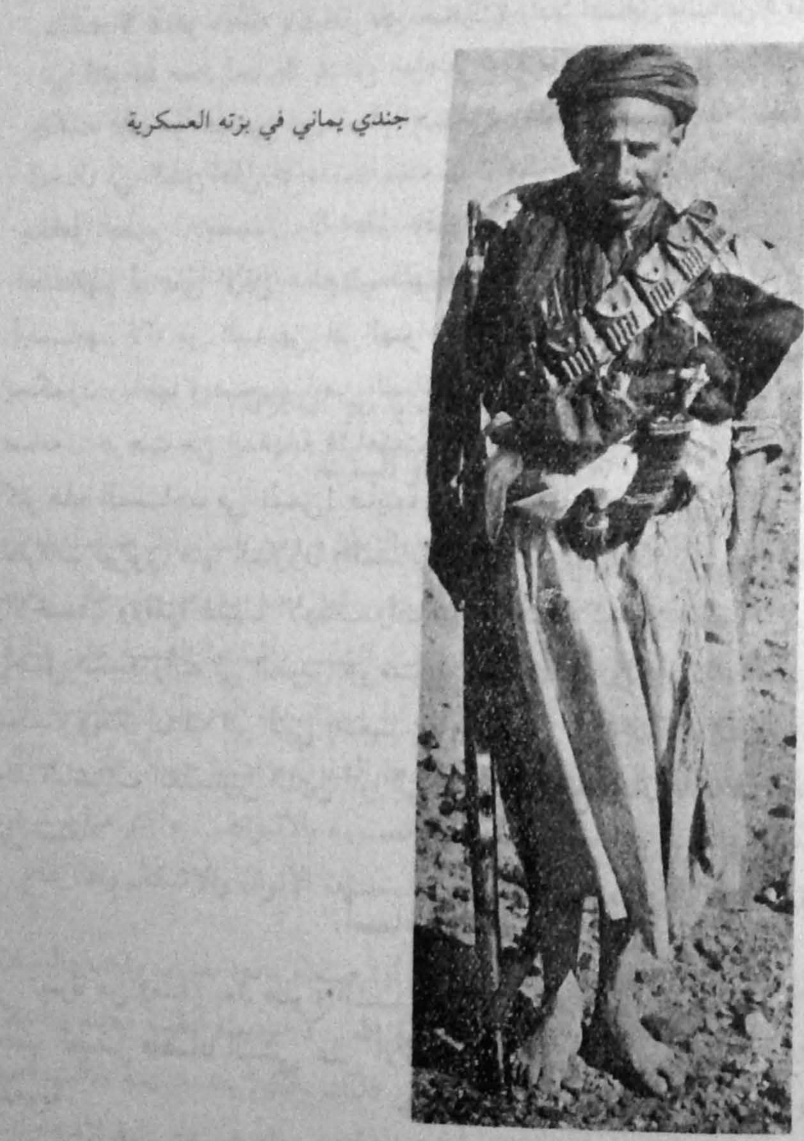
الجندي اليمني

وصلنا (متنة) مساء وكان البرد شديداً وليس ذلك غريباً لأن علو متنة ٩١٨٠ قدماً عن سطح البحر، وأما جنودنا فلم يصلوا معنا لأنهم وقفوا في الطريق لتناول الطعام والقشر والقات وذلك على الرغم من توصيتنا لهم بلزوم السرعة وعدم التوقف في الطريق، ولكن من البديهي أن كل يماني مغرم بالقشر والقات حتى اذا ما حان وقتهما لا يلتفت لأمر ولا يصغى لنهي مهما يكن شأن الآمر او الناهي، وأما فيما عدا ذلك فالجندي اليمني مطيع جداً وهو صغير الجسم، خفيف الحركة، قليل الأكل صغير اليدين والرجلين، يتحمل الأتعاب، وينقل

الانتقال من سلاح وعتاد دون أن ينبس ببنت شفة بل يسير كل يوم في أثناء السفر عشر ساعات متواليات الى جانب الخيل او البغال ولا تبدو عليه علامات التململ أو التذمر مهما تدم هذه الحال ولا يتناول وقت السفر من الطعام إلا كمية قليلة ولا من الراحة إلا قسطاً يسيراً وقد فر ذات يوم فرس من خيلنا عقب وصولنا الى مكان معين بعد سفر سبع ساعات فما كان من ثلاثة من جنودنا الا أن أخذوا يعدون خلفه وظل الفرس يعدو وهم يعدون الى منتصف الليل وأخيراً تمكنوا من القبض عليه وجلبه الى (المفهاية) ثانية. وأما من جهة الشجاعة فحدث عن الجندي اليمني ولا حرج فهو من أبسل جنود العالم اذا لم يكن أبسلهم، وقد سمعت عن حروب الجندي اليمني مع الترك من النوادر والحكايات ما يشيب لهوله الأطفال وأقل ما يقال ان الجندي اليمني كان يهاجم الجيش التركي بالخناجر والشباري والعصي، وكان يتغلب على تلك الجيوش ويستولي على سلاحها وعتادها في كثير من المعارك والاحوال. وهو يعتمد على هذه البسالة ويستعملها في جميع حروبه.

واليمانيون أذكياء جداً بفطرتهم ويميلون الى المزاح بطبيعتهم ويحبون النكات اللطيفة وجلهم خفيف الروح لا يمل الانسان معاشرتهم وكلهم أحرار في مبادئهم مستقلون في رأيهم لا يقيمون على الضيم ولا يرضون بالذل والخنوع فترى أصغرهم قدراً يأتي الى أرفعهم مقاماً من الأشراف والسادة ويقبّل يديه او ركبتيه او طرف ثوبه حباً واحتراماً ثم يقول له وجهاً لوجه دون ما خوف أو وجل وفي كثير من الصراحة والجرأة: أريد هذا، ولا أريد ذاك، وهذا حقي وليس حقك، واني لن أتنازل عن حقي لك او لسواك وإن أبيت فنحتكم الى كلام الله فيجاوبه السيد المخاطب بلهجة لطيفة مؤيداً طلباته أو ناقداً لها باسلوب جميل والرفيع يحترم الوضيع احتراماً زائداً وما ذلك إلا لكبر نفس الوضيع وعدم اذعانه للذل والهوان وليس تقبيل الأيدي او الركب او الثوب بنقيصة عند اليمانيين بل هي عادة ألفوها منذ القديم أباً عن جد، ولكنهم لا يقبلون الا أيادي السادة الشرفاء الذين يمتون الى الحسن والحسين بانسابهم وهؤلاء يبادلونهم تقبيل الأيدي عند التحية.

لم نستطع أن ننام داخل المقهاية في متنة لكثرة البق الذي هاجمنا هجوماً عنيفاً فالتجأنا الى السطح ونمنا نوماً هادئاً وكانت درجة الحرارة تحت الصفر فاضطررنا الى تغطية أنفسنا بجميع الأغطية الموجودة معنا والنوم بثيابنا. وفي الصباح نهضنا قبيل بزوغ الشمس فشعرت بنشاط زائد فنزلت الى المقهاية لأتفقد جنودنا وخدمنا فوجدتهم جميعاً نياماً وقد لفت نظري غطاء بعضهم.



جندي يماني في بزته العسكرية

النوم في الاكياس

دنوت منهم فاذا هم نيام داخل اكياس مصنوعة من الخام وكل واحد منهم رابط كيسه فوق رأسه ومدخل رأسه فيه. ناديت أحدهم ففك رباط كيسه وخرج منه متأبطاً بندقيته فقلت له ما هذا؟ فقال هذا كيسي أنام فيه ليقيني من البرد، فقلت الا تشعر داخله بانقباض في صدرك؟ وهلا تتضايق بالتنفس؟ فاجاب كلا اني أنام فيه مستريحاً ولا يدخل البرد من هذا الكيس فانظر إليه، فأخذته بيدي وتأملته فاذا هو مصنوع من الخام السميك وخياطته قوية جداً. وجميع أهل الجبال في اليمن على ما علمت يستعملون هذه الاكياس فينامون فيها بعد أن يخلعوا جميع ملابسهم. ولا اعلم ماذا يقول حضرات الأطباء في تفسير عدم اختناقهم أو على الأقل عدم تسممهم من الغازات الكربونية التي تفرزها اجسامهم لأنه من البديهي ان الهواء لا يتجدد داخل هذه الاكياس لأنهم يحكمون رباطها ويصنعونها من القماش الذي لا يمكن للهواء أن يدخل بين مسامه. خرجت من المقهاية فشاهدت خارجها مسجداً صغيراً وسبيل ماء وما أكثر هذه المساجد في اليمن! فأينما سار الانسان يجد سبل ماء أقيمت في الطرقات ليرتوي منها المارون والمسافرون، ومساجد بناها أناس من أهل الخير والاحسان ووقفوا عليها الأوقاف وأقاموا الأوصياء لينفقوا عليها من ريعها. وأجمل مسجد رأيته في الطريق هو مسجد «سنان باشا» وفيه بركة ماء كبيرة وثكنة للجند، ويقال ان فيه قبر النبي (شعيب)، وقد سمي هذا المكان سنان باشا باسم أحد الباشوات العثمانيين الذين أتوا الى اليمن وجامع سنان باشا هو آخر مرحلة الى صنعاء.

أسماء الاشياء

سرنا من (متنة) بعد طلوع الشمس وكان الهواء بارداً جداً ودرجة الحرارة تحت الصفر ففضلنا المشي على الاقدام بدلاً من الركوب لتنشيط الدورة الدموية.

وكانت طريقنا تمر في قلب الوادي المتسع «سهيمان» وقد تخللها في بعض

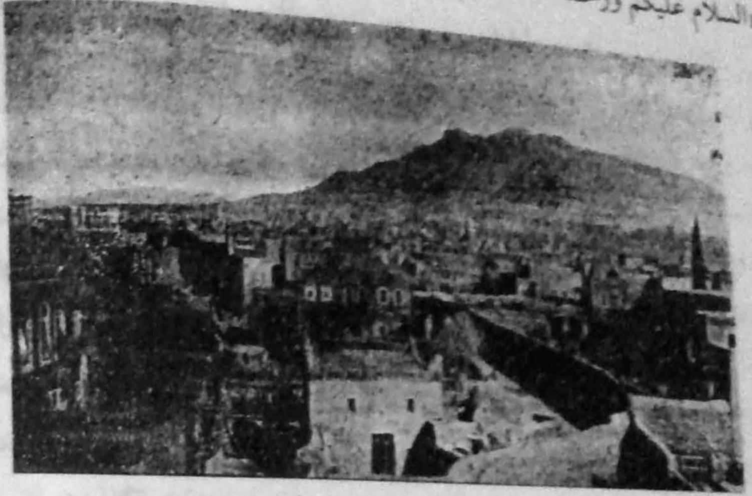
الاماكن صعود وهبوط، وما زلنا كذلك الى ان وصلنا قمة جبل عصر. وقد شاهدنا في الطريق الزراع يبذرون حبوبهم في الارض فسألت أحد جنودنا ماذا يبزرعون؟ فقال لي: بر، فلم أدرك معنى البر فدفعني حب الاستطلاع الى الذهاب الى أحد الزراع لرؤية ما يزرع فلم يبخل عليّ المزراع بذلك وأعطاني شيئاً من حبه فاذا هي حنطة بيضاء. وهكذا كنت أصنع دائماً كي أعرف أسماء الأشياء لأن هنالك اختلافاً عظيماً بين لغتنا ولغة اليمن، ولأول وهلة لا يمكن للشامي أن يفهم اليمني ولكنه بالتدريج يتعلم الألفاظ الغريبة عنه فيصبح في امكانه التفاهم مع اليمانيين. والى القارىء الكريم بعض الأمثلة في اختلاف الالفاظ عندنا وعندهم: فهم يقولون للنقود (ظلط) وللحيوانات (قراش) وللبئر (بحر) وللحم (شركة) وللسكين (الجنبية) وللعمال (الشقاة) ولساقية الماء (الغيل) ولكل من يتقن الكتابة والقراءة (قاضي) وللقاضي الشرعي (الحاكم الشرعي) وللأقمشة (البز) الخ.

سلام عليك يا صنعاء يا مقر الخلافة!
جبل عصر أو السنية

وقفنا على قمة جبل «عصر» برهة من الزمان، ومن هنا رأينا صنعاء تحتنا تمتد في سهل واسع وتحيط بها الجبال من كل حدب وصوب على ابعاد مختلفة، وكان الوقت قبل الظهر وقد أرسلت الشمس أشعتها الذهبية على منازل المدينة القديمة وجوامعها ومآذنها فبدت آية من آيات الجمال وانعكست تلك الأنوار على جدرانها البيضاء وزجاج نوافذها الملون فزادتها جمالاً على جمال. وكم وددت لو كنت رساماً لأرسم هذه الصورة بالألوان. . وأكثر ما يسترعي الانظار في صنعاء عن بعد مآذنها الكثيرة المختلفة الألوان والاشكال والارتفاع.

ولما وصل جنودنا الى قمة الجبل ورأوا صنعاء نادوا بلسان واحد «السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله! .» فناديت أيضاً معهم «السلام عليكم ورحمة الله» دون أن أدرك السر في ذلك ولكن بعد هنيهة سألت أحد الجنود على من تسلمون؟ فقال: ألا تعلم أن صنعاء هي دار الخلافة ومقر

الحضرة الشريفة؟ فأجبت نعم، الحق معك، وسلمت للمرة الثانية عن علم «السلام عليكم ورحمة الله السلام عليكم ورحمة الله».



منظر جانب من مدينة صنعاء

بعدما أدركت هذه الحقيقة اللطيفة سررت غاية السرور وتناثرت دموع الفرح من عيني وغبطت الجندي اليمني، لا بل راعي البقر في اليمن، لأن لـه خليفة يفتخر به ولأنه يملك الحرية والاستقلال ويعلم أن هذه الجبال والوديان والسماء والماء والأشجار والهواء هي ملكه ووطنه لا يزاحمه فيها مزاحم ولا ينازعه عليها منازع!

هنيئاً لك أيها اليمني السعيد! السعيد بحريته والسعيد بخلافته والسعيد بذله مهجته في المحافظة على أمته ووطنه.

بورك فيك يا أمير المؤمنين ويا حفيد الرسول الأمين يا من ضحيت منذ نعومة اظفارك براحتك وجسدك وقاتلت قتال المستميت حتى حررت شعبك من نير الاستعباد والاستعمار.

بهذه العبارة المؤثرة ختمت مذكراتي في ذلك اليوم وكانت نفسي تذوب شوقاً الى رؤية الشام وأهل الشام!!

هبطنا من جبل عصر على طريق لولبية كان الترك قد عبدوها قديماً لنقل المدافع. ففضلت المشي على الركوب تجنباً لكثرة دورانها فتركت بغلتي وسرت

رويداً رويداً على الأقدام.

العرب يغارون على الشام
حديث الرجل الغساني

جاءني رجل مرتد فروة من جلد الغنم ومتزراً من الديما وقفطاناً منيلاً وقال: السلام عليكم. فأجبته وعليكم السلام والرحمة والاكرام. فقال هل أنتم آتون من بلاد مدخل؟ فقلت لا نحن لسنا آتين من داخل اليمن بل آتون من خارجها ونحن غرباء عن هذه البلاد. فقال نعم أعلم من هيئتكم بأنكم من بلاد مدخل أي من خارج اليمن ولكن أين بلادكم؟ فقلت هل تسمع بالشام فنحن من الشام. فقال نعم أسمع بالشام وأصلنا نحن أيضاً من الشام من بني غسان جاء جدودنا قديماً الى اليمن واستوطنوا بلاد خولان وكنا أيام الدولة العثمانية براحة واطمئنان عاصين عليها فلا ندفع لها عشوراً «أي عشر» ولا ضرائب لأن الترك كانوا ضعفاء لا يقوون على تحصيل شيء من القبائل الا بالقوة واخراج الجيوش الجرارة والحملات وهذا العمل كان متعذراً في أغلب الأحيان وكنا قبل خروج الحملات نعلم بها فنرحل عن مضاربنا ريثما تمر الحملة فنعود ثانية وأما الآن فقد تبدلت الأرض ومن عليها والله يحفظ الامام انه استولى على البلاد والعباد وضرب أهل الشرق بأهل الغرب وأهل الشمال بأهل الجنوب وأخذ من الجميع الرهائن وأخضعهم لسلطانه فأصبحوا لامره طائعين ولجميع ما يريد من الضرائب والتكاليف دافعين. فقلت وهل تحبون الامام أم تفضلون الدولة العثمانية عليه؟

فأجاب أي والله نحبه ولا نحب احداً غيره، لأنه بعكس الدولة قويّ وقادر أن يأخذ لنا حقنا من شيوخنا إذا ساورتهم أنفسهم بالتعدي علينا والضعيف والقوي والغني والفقير عنده بسعر بعض (أي بعضهم مثل بعض) فهو لا يفضل واحداً من أجل ماله وجاهه أو حسبه ونسبه على الآخر بل يسمع شكاية المظلوم ولا يهاب الظالم بل يجازيه ويسجنه ويقفه عند حده مهما كان شأنه. فسألته وكيف حالكم مع الجند والعمال؟ فأجاب: لا شغل للجند معنا ما دمنا ندفع ما علينا ولا نخالف شريعتنا واما العمال فأحياناً يظلموننا ويأخذون منا زيادة

عن حق بيت المال ولكن الله يحفظ الامام فكل من يشكو امره له ينصفه حتى من العمال انفسهم.

ثم سألني هو بدوره عن بلادي الشام وعن بعدها عن اليمن وعن الترك، وهل نحن مسرورون بحكمهم أم لا؟ ولما قلت له ان الترك قد رحلوا عن الشام بعدما رحلوا عن اليمن وان الفرنسويين استولوا على الشام والانكليز على القدس غضب وقال: لا حول ولا قوة الا بالله!.

ثم قلت له: ولكن السوريين ثاروا على الفرنسويين وحاربوهم نحو سنتين، فبدت على اسارير وجهه علامات الفرح والسرور. ولكن لما قلت له ان الشوام غلبوا في النهاية على أمرهم وخضعوا للقوة غضب واحتد وقال: «الله اكبر الله اكبر! اين المسلمون في الدنيا؟! بلاد الشام مقدسة، وفيها القدس ثالث الحرمين الشريفين! لماذا لم يأتوا ويخلصوا القدس والشام ويحاربوا معكم؟ والله احنا أي نحن نروح ونجاهد من أجل المسلمين في آخر الدنيا روحي فدا المسلمين وفدا الشام والقدس فقلت القدس بيد الانكليز والانكليز جيرانكم واصحابكم في عدن. فقال لا والله الذي يأخذ بلادنا ما هو بصاحبنا والجهاد فيه لازم.. وأردف بكلام كثير كله غيرة وحمية، ولا يسعني ذكره الآن لاسباب بديهية.. انما يمكنني القول بان معظم أهل اليمن من زيود وشوافع يغارون على اخوانهم المسلمين في جميع المعمورة غيرة دينية صحيحة ويرغبون كثيراً في سماع أخبارهم والاستفسار عن أحوالهم وقد سمعت من بعضهم اقوالاً أشد حماسة من أقوال صاحبنا الغساني هذا من جهة عامة الناس غير المسؤولين عن السياسة وأما من جهة الخاصة وجهة المسؤولين عن سياسة الدولة فجميعهم أيضاً يشعرون نفس الشعور ويظهرون عين الميل ولكنهم لبعدهم عن البلاد الاسلامية ولعدم وجود الدعاية الكافية لتوحيد كلمة العرب وعدم معرفتهم بشؤون العرب معرفة صحيحة يميلون الى سياسة العزلة والانفراد.

النساء القرويات والنساء المدنيات

وفي أثناء الطريق كان يمر بنا كثير من النساء القرويات ذاهبات بمفردهن أو

مع رجالهن الى الحقول والجبال لقضاء الاعمال المختلفة، والنساء القرويات في اليمن كغيرهن من نساء القرى في جزيرة العرب يقمن بمعظم أعمال الرجال من زراعة وحراثة ونقل وذهاب الى الاسواق لبيع الحاصلات وجلب البن وتقشيره الى غير ذلك من الاعمال الخشنة وعلاوة على مشاركتهن للرجال في هذه الاعمال فانهن يقمن باعمال منزلهن خير قيام ويعنين بتربية أطفالهن وقد لاحظت أنهن نشيطات جداً على العمل ويشتغلن ليل نهار دون كلل أو ملل ولا يتناولن من الراحة الا قسطاً يسيراً.

ويميل لون النساء في الجبال الى السمرة وفي السهول الى الصفرة وهذا خلاف ما يتبادر الى ذهن الانسان في مثل هذه الاحوال لأن النساء في الجبال عادة يميل لونهن الى البياض والحمرة ولكن حرارة شمس اليمن تغير الألوان وتحرق الاجسام، ومن اللطيف في بعض نساء اليمن انهن يزدن في سوادهن او صفارهن سواداً او صفاراً بوضع الاخضبة والادهان على وجوههن وأذرعهن وهن يعتبرن ان الجمال (التواليت) بالسمار والصفار كما يعتبر نساء الغرب ان الجمال (التواليت) في الحمرة والبياض. وتختلف ازياء نساء اليمن اختلافاً بيناً لم أر مثله في جزيرة العرب فبينما يشاهد الانسان نساء قبائل تهامة نصف عاريات يرى نساء صنعاء متحجبات من أعلى الرأس الى أخمص القدم بشكل لا يمكن معه للمرء ان يرى من تركيب أجسامهن شيئاً حتى ولا يقدر أن يفرق بين ظهورهن ووجوههن الا من حركة سيرهن اذا كن مقبلات أو مدبرات. ويكثر نساء اليمن من التزين بالحلى المختلفة وعندهن حلى للرأس وللعنق وللأذن وللانف وللمعصم وللزند وللكاحل وللصدر وبالاختصار لجميع أعضاء الجسم. وقد رأيت كثيراً منهن يلبسن أثواباً بلا اكمام ولا تختلف عن عادة (موضة) سيدات بلادنا كثيراً، ويلبسن فوق زنودهن الأساور الضخمة المصنوعة من الفضة ومعظم الحلى مصنوعة من الفضة ويقولون لها (مخلص) وبعضها مطلي بالذهب وبعضها من الذهب الخالص وتختلف أسماؤها عندهم عن أسمائها عندنا، ويقوم بصناعتها اليهود ويتقنونها اتقاناً بديعاً وقد نقلوا عن رسوم الحلى التركية رسوماً متعددة فجاءت نادرة الجمال.

ومن المشهور عن سيدات اليمن شـدة عفافهن وتمسكهن بـدينهن والقيام بجميع فروضهن واطاعتهن لازواجهن ولذويهن بالرغم من ضغط هؤلاء عليهن ضغطاً شديـداً ويكثر الـرجال في اليمن من الـزواج وقلما يجـد الانسان رجـلاً متزوجاً بأقل من زوجين أو ثـلاثة وكثيـراً ما يـطلق الزوج زوجـاته ويتـزوج من غيرهن، وربما بلغ عدد زوجات بعضهم من مطلقات وغير مطلقات الثمانية او العشرة او اكثر، وقد روى لي أحدهم عن نفسه أنه تزوج من تسع زوجات طلق منهن ستا وبقي عنده ثلاث وقد رزقه الله من جميع زوجاته ٢٥ ولداً مات منهم ١٦ وبقي عنده تسعة. فسألته وكيف كان بامكانه أن يعدل بينهن فقال ان الامـر سهل جداً لأن النساء في اليمن قد ألفن تعدد الزوجـات فلا تجـد الغيرة اليهن سبيلاً ولا يؤآخذن رجالهن على الزواج ولا يلمنهن ويعيش غالباً زوجات الرجل في منزل واحد دون أن يحدث بينهن شجار أو خصام

امام اليمن يعطف على المرأة

لم تهتم الـدولة العثمـانية بتعليم نسـاء اليمن وتثقيفهن ـ شأنهـا في جميع البلاد العربية التي كانت تحت حكمها ـ وندر أن يجد الانسان في اليمن امرأة متعلمة، وأظن ان هذا الاهمال كان من حسن حظ الرجال. . فلا يتنازع الرجل هناك مع المرأة كما يتنازع معها في البلاد الراقية! ولكن يظهر ان الامام لم يكن راضياً عن هذا الاهمال ولذلـك أعار النسـاء شيئاً من عنايته، فقـد شاهـدت في صنعاء وغيرها من المدن الكبيرة كتاتيب أي مدارس تأتي اليها البنات ليـدرسن القراءة والكتابة وشيئاً من العلوم الدينية.

ومن ألطف ما سمعت عن نسـاء اليمن في جهة نجـران أنهن يرقصن مـع الرجال أزواجاً أزواجاً على نغمات الرباب وضرب الدفوف رقصاً يشبه (فوكس تروت) و(الفالس) وقد الفن هذه العادة من أجيال عديدة، ويشـارك بعض نساء اليمن رجالهن في شرب القشر و(تخزين) القات.

وصلنا الى أسفل جبل عصر بعد هبوط دام نحو ساعة من الزمان فالتفتّ الى الوراء واذا بالجبل يبدو أسود قاتماً فوق السحاب، وهو جبل بركـاني يأخـذ منه

أهل صنعاء حجارتهم السوداء التي يستعملونها في بناء دورهم، والمشهور عن أحجار هذا الجبل أنها صلبة جداً.

طبقات الارض

ويجدر بنا قبل أن ندخل بالقـارىء الكريم الى صنعاء أن نلتفت الى خلفنا حتى الحـديدة، ونبين طبيعـة الأراضي التي اجتزنـاهـا من حيث الجيـولـوجيا والمراحل التي قطعناها من حيث الوقت فنقول:

من الحديدة الى باجل مرحلة يوم كامل على البغـال وأرضها سهـول رملية يقال لها بالانكليزية (سيد يمنتري) فيها شيء كثير من المتحجرات.

من بـاجل الى الحجيلة أرض رمليـة وكلسية وفيهـا شيء من المتحجرات وهي مرحلة يوم واحد على البغال.

من الحجيلة الى مناخة مرحلة يوم واحد في جبال وعرة لا طريق فيها وكلها بركانية من مناخة الى مفحق مرحلة يوم كامل في وديان وجبال بركانية.

من مفحق الى متنة مرحلة يوم كامل في جبال ووديان بركانية.

من متنة الى أبواب صنعاء مرحلة نصف يوم تقريباً في جبال بركانية ووديان متسعة خصبة.

وقد شاهدت في بعض الأماكن على طول الطريق بين الحجيلة وصنعاء نوعاً من الصخور التي يقال لها (كونكلامرت)(Conglamerete) وهي كناية عن أحجار بركانية صغيرة التصق بعضها ببعض بالتراب والطين بفعل المياه والسيول وهذه تشير الى كثرة المياه التي مرت فيها.

وشاهدنا أيضاً في بعض الأماكن تبر الحديد ويقال له (Hematitie) وشاهدنا في أسفل جبل منـاخة نـوعاً من الأحجـار ويقال له (Rhigolite) وهو مـائل الى الخضرة وفي أحيان كثيرة يوجد النحاس الى جانبه ولكننا مع الأسف لم نجده هنا ويقول الناس ويذكر بعض المؤرخين انه يوجد باليمن معادن كثيرة وأما نحن

لم نشاهد شيئاً في طريق الحديدة وصنعاء ولكننا وجدنا بعض المعادن الثمينة بعد وصولنا الى صنعاء وسنأتي على ذكرها فيما بعد.

سهل عصر

من أسفل جبل عصر امتطينا بغالنا وسارت الطريق في سهل متسع يقال له سهل عصر ومررنا في منتصفه تقريباً بقرية صغيرة فيها سبيل ماء ومسجد بناهما الى جانب الطريق أحد أصحاب الخير لراحة المسافرين. وهنا وقفنا قليلاً فسقينا بغالنا وشربنا وسرحنا نظرنا في هذا السهل الواسع الذي يظهر من لون تربته ونعومته وعمقها انها خصبة ولكني رأيت معظم هذا السهل بوراً لا زرع فيه فأخذني العجب لهذا الأمر لأن أهل اليمن وخصوصاً سكان الجبال نشيطون ويحبون العمل وقد رأيناهم في الطريق كما يذكر القارىء الكريم قد حولوا الجبال الى حقول مغروسة فما بالهم قد أهملوا هذا السهل الخصب الواسع؟ هذا سؤال كان يدور في خلدي عندما مررت بهذا السهل وقد وجهته الى واحد من الناس الذين كانوا يرافقوننا في الطريق فقال لي ان البحر هنا بعيد واخراج الماء منه متعسر. فلم أفهم شيئاً من هذا التصريح، وبعد أخذ ورد وسؤال وجواب علمت أن البحر معناه نبع الماء في داخل الجب أي البئر وبعيد أي عميق. وبعبارة أوضح فان اننا لو اردنا أن نحفر آباراً في هذا السهل لعزّ علينا ذلك اولاً لأن البئر ستكون عميقة جداً وثانياً لأن اخراج الماء منها سيكون صعباً ومتعباً للغاية وقد تحققت فيما بعد صحة قول هذا الرجل بنفسي فقست عمق اول بئر رأيتها في هذا السهل فوجدت عمقها مائة قدم ونيف أي ٣٥ متراً وبما أن وسائط استخراج الماء بالآلات الرافعة من أعماق سحيقة غير متوفرة في اليمن لذلك اكتفى اليمانيون في مثل هذه الاحوال بغرس هذا السهل وغيره من السهول التي على شاكلته أيام المطر فقط أي اكتفوا بالزراعة البعلية كما هي الحال عندنا في جبل الدروز وحوران.

ويوجد في أطراف هذا السهل الممتد الى شمال صنعاء وفي صنعاء نفسها كثير من المزروعات والحدائق الغناء فيها من كل فاكهة زوجان ويوجد في

شمالي هذا السهل نوع من أنواع الشجر غير المثمر ويقال له الاثل وينمو هنا بكثرة عجيبة ويستعملونه للوقود ولكنه شجر صغير الحجم لا ينمو كثيراً ولا يفي بالمراد ويوجد في هذه الجهة ماء كثير وقريب من سطح الأرض ولو أنهم غرسوا عوضاً عن الأثل أنواعاً جيدة من الأدواح والاشجار الضخمة في هذه الجهات كاليكاليبتوس مثلاً لكان لهم منه فائدتان الأولى حطب الوقود والثانية خشب البناء وفي الحق أنهم في صنعاء بحاجة ماسة الى خشب البناء الذي يكاد يكون مفقوداً بالمرة ويجلبونه اليها من مسافات بعيدة وقد شاهدت في صنعاء بعض شجر اليكاليبتوس كان الترك قديماً قد غرسوه في المستشفى العسكري وفي مكتب الصناعات وفي بعض الدور ولذلك فانا متيقن بان هذا الشجر ينمو نمواً جيداً في صنعاء وضواحيها. تابعنا السير في هذا السهل الواسع الى أن وصلنا نحو العصر الى أحد أبواب صنعاء المسمى «باب قاع اليهود» وسمي بذلك لأنه قائم في آخر السهل الممتد الى حي اليهود وهنا وافانا شرطي فكتب أسماءنا وأخذ سلاح جنودنا لأنه لا يسمح لغير جنود صنعاء وحرسها أن يحملوا سلاحاً داخل المدينة، وسألنا الشرطي بعد كتابة أسمائنا: هل أنتم قادمون من مدخل (أي من خارج اليمن) ضيوفاً على مولانا الإمام؟ فأجبناه بالايجاب فقال على الرحب والسعة هيا تفضلوا.

أبواب صنعاء وسورها

ولصنعاء ستة أبواب وسور يحيط بها من جميع أطرافها وتدعى هذه الابواب باب البلقة فباب الشقاديف فباب اليمن أو عدن فباب شعوب فباب خزيمة فباب الروم وأجمل هذه الابواب واتقنها صنعاً وأكثرها عرضاً وترتيباً باب عدن وأما، سورها فمبني من جدران غليظة معمولة من الطين واللبن (أي الآجر غير المشوي) ويوجد في هذا السور على ابعاد متناسبة بروج (كركونات) خاصة بالجنود الموكول اليهم حراسة البلد وهذه البروج قائمة على مسافات هندسية متساوية من الابواب وفيها رمايات كرمايات المنجنيق وأماكن خاصة للمراقبين يقف فيها الحراس ليل نهار ولهم في الليل نظام خاص يتأكدون بواسطته من تيقظهم وانتباههم، وذلك بواسطة صياح بعضهم على بعض وترديد بعض العبارات المعروفة

عندهم والتي لم أتمكن من فهمها. ويبتدىء بالصياح عادة الحارس القريب من سراي جلالة الامام فينادي بعبارته المعروفة فيرددها في الحال حارس المخفر القائم الى جانبه وهكذا دواليك الى أن يردد جميع الحراس بالمخافر هذه العبارة ويصل الدور الى حارس السراي فينادي بعبارة أخرى فيرددها الجميع. وأحياناً زيادة في الحرص وفي ظروف خاصة يستعملون الابواق في تبليغ الاوامر العسكرية وفي ابلاغ بعضهم الى بعض وقت الصلاة او الساعة الى غير ذلك من الأمور المهمة.

موكب الغرباء في قاع اليهود

النساء في اليمن آلة التصوير تخيفهن أكثر من البندقية

ما كدنا نسير في قاع اليهود مسافة يسيرة حتى تبعنا من الأولاد والرجال جمهور كبير وأخذت نوافذ البيوت تفتح وستائر النوافذ تكشف قليلاً وقد وقفت خلفها بعض السيدات اليهوديات يستعرضن موكب الغرباء وينظرن اليهم بأعينهن



امرأة يهودية واولادها

الفاتنة حتى اذا ما وقعت العين على العين أقفلن النوافذ وأرخين الستائر، ويشردن هاربات داخل غرفهن ورأينا بعضهن في الطريق يسدلن على رؤوسهن غطاء أزرق أو اسود ويلبسن تحته طاقية مزركشة بالخرز والفضة، ويلبسن عادة أثواباً (فساتين) زرقاء وتحتها سراويل طويلة تبلغ الى الكواحل، محلاة بالأشغال اليدوية من قصب وفضة، ويلبسن في أرجلهن أحذية ذات كعب قصير من دون جوارب، وجميعهن يخرجن في الاسواق سافرات الوجوه، ولكن إذا صادفن غريباً أي أجنبياً مثلنا بالطريق فانهن يسدلن قسماً من غطاء رؤوسهن على وجوههن فلا يتمكن الغريب من رؤية شيء منهن غير أعينهن. واردت مراراً أن أصور بعضهن فكن ينفرن مني ولكني تمكنت من تصوير بعضهن خلسة صوراً عديدة وأرسلتها في البريد الى مصر (ولكن سامح الله البريد الذي أوصل أكثرها الى حيث لا أعلم. . .)

ومن الغريب أن جميع نساء اليمن مسلمات ويهوديات بخلاف الرجال والأولاد كن ينفرن من التصوير نفوراً غريباً، واتفق مرة اني أردت تصوير احدى القرويات الجبليات، ولما رأتني فتحت آلة التصوير ووجهتها نحوها أخذت تصيح وتستغيث وتبكي بكاء مراً كأني سددت اليها بندقية أو مدفعاً. وعبثاً حاول أحد رفقائي من اليمانيين أن يخفف من روعها وعويلها فلم تسكت حتى سرنا وابتعدنا عنها بعشرات الأمتار وهذا بخلاف الأولاد والرجال الذين كانو يضايقوننا كثيراً كيفما سرنا ويتبعوننا من مكان الى آخر منادين بأعلى صوتهم: صورني صورني.

صنعاء قطعة من جنة عدن

وهي ثالثة الجنان بعد دمشق!!. . .

وما كادت أرجلنا تطأ ارض صنعاء حتى اوفدوا الى (المقام الشريف) أي الى سراي جلالة الامام يعلمونه بوصولنا وقد قابلنا في آخر قاع اليهود جندي من عقفة الامام (أي حرس الامام) أتى موفداً من قبل المقام الشريف ليهدينا الى الدار التي أعدت لنزولنا، وبعد أن قدم نفسه الينا وعرفنا بمهمته قال هيا تفضلوا

معي، وسار أمامنا الى دار كبيرة فسيحة قائمة في أول حارة بئر العزب يقال لها دار الزيدي.

أما حديقة الدار فتشبه في كثير من الأحوال بساتين وادي النيربين في أرض الصالحية ففيها من كل فاكهة زوجان وقد رأيت شيئاً كثيراً من شجر التفاح والمشمش والخوخ والسفرجل والدراق والكرمة والرمان والاجاص ومن النباتات والخضر شاهدت القرنبيط والبخنة والكرنب والسبانخ والسلق والقرع والفاصوليا والجزر والبصل والثوم الى غير ذلك وقد جلب الترك معظمها من سورية فوافقتها الاقاليم وصارت في جملة الخضروات الوطنية وأول شيء استرعى نظرنا عندما دخلنا الدار من باب الحديقة هو الشادروان القائم في وسطها، والشادروان هو البحرة في المنزل يجري اليه الماء في (نوافير) جميلة وقد ذكرتني هذه النوافير عندما رأيتها لأول مرة بنوافير الربوة بدمشق. ويقال لهذه الدار دار الزيدي وقد دخلناها من بوابة خشبية كبيرة تشبة ابواب الحدائق عندنا وفيها باب صغير (باب خوخة) يدخل منه الناس والباب الكبير خصص لدخول الحيوانات بما فيها الجمال وأول شيء شاهدناه خلف البوابة هو منزل عامل الحديقة (الجنايني) الموكل إليه حراستها وغرس حديقتها وهو كناية عن غرفتين أرضيتين فوقهما غرفة صغيرة في حوش كبير يسكن هو وعائلته فيها.

والى جانب منزل الجنايني يوجد صالون كبير خصص للزوار، وخلفه غرفتان خصصتا لخدم الضيوف الذين ينزلون بهذه الدار، والى جانب هذا الصالون الكبير توجد حديقة كبيرة قائمة في وسطها دار جميلة مبنية على الطراز التركي من الحجر الابيض والاسود

واول ما يسترعي نظرك في صنعاء النواعير والمياه الجارية فيها، فان المياه تجلب اليها من مسافات بعيدة عالية حيث تجمع من مياه الانهر، واما النوافير فماؤها يأتيها من خزانات (برك) مرتفعة وتملأ هذه الخزانات من الآبار بواسطة الحيوانات كالحمير والبقر والجمال، اذ يربطون دلواً كبيراً من الجلد يسع نحو اربع تنكات (صفائح) ماء الى بكر ويدلونه في البئر ويربطون حبل البكر الى حيوان ويجعلون هذا الحيوان يمشي من حافة البئر مسافة مساوية لعمق البئر الى

الامام فيسحب الدلو من قعر البئر الى سطحها ومتى وصل الدلو الى سطح البئر يفرغ ماؤها في الخزان، فيعود الحيوان ادراجه نحو البئر فيسقط الدلو بالبئر رويداً رويداً وهلم جرا وقد قست عمق بئر دارنا فوجدته ٨٢ قدماً. ومتى امتلأ الحوض الذي يختلف حجمه باختلاف مساحة الحديقة التي تشرب منه يستعملون ماءه لسقاية الاشجار والخضراوات ويوجد في صنعاء مئات من المنازل فيها حدائق على هذه الصورة تشرب من ماء الشادروان ويوجد فيها أيضاً حدائق كثيرة تشرب من ماء (الغيول) والغيول جمع غيل ـ أي قناة الماء الصغيرة ـ

ويسوق الحيوانات على البئر في اكثر الاحيان اولاد صغار لا تتجاوز سنهم الثانية عشرة ولهم في ذهابهم وايابهم مع الحيوان غناء واناشيد خاصة ينشدونها طيلة النهار اما موسيقى هذا النشيد فهي صوت احتكاك الحبال على البكر وفي الحقيقة تتولد من غناء الأولاد وصوت الحبال أنغام لطيفة لا يسمعها الانسان في غير صنعاء، ولكن من المتعذر على الغريب أن يفهم نشيد هؤلاء الأولاد.

انشودة البئر

ولدى الاستفهام من بعض رفاقي عما ينشد هؤلاء الأولاد عرفت انشودة البئر وهذه هي:

بالله عليك يا ضالعي من البير　　　البنت شمعة والولد قنديل
وبالله عليك يا طير يا رمادي　　　صف الجناح وردني لبلادي

وقد شاهدنا في بعض الأماكن البعيدة عن صنعاء رجالاً ونساء يعملون على البئر عوضاً عن الحيوانات وقيل لنا انه في امكان الواحد منهم أن يشتغل على البئر عدة ساعات متوالية، ولكن ماء الآبار هنالك قريب من سطح الأرض لا يحتاج الى عناء كثير لاستخراجه ويوجد خلف الشادروان غرفة جميلة لها نوافذ زجاجية ذات ألوان مختلفة كالاحمر والاصفر والازرق والاخضر يستعملها رب البيت كصالون للاستقبال ويعقد فيها مجلس القات، أما نحن فاستعملناها كغرفة للطعام، وكانت هذه الدار تخص أحد قواد الجيش العثماني أيام الحكومة العثمانية ولما غادر العثمانيون اليمن باعها صاحبها الى بيت المال وقد سكنها

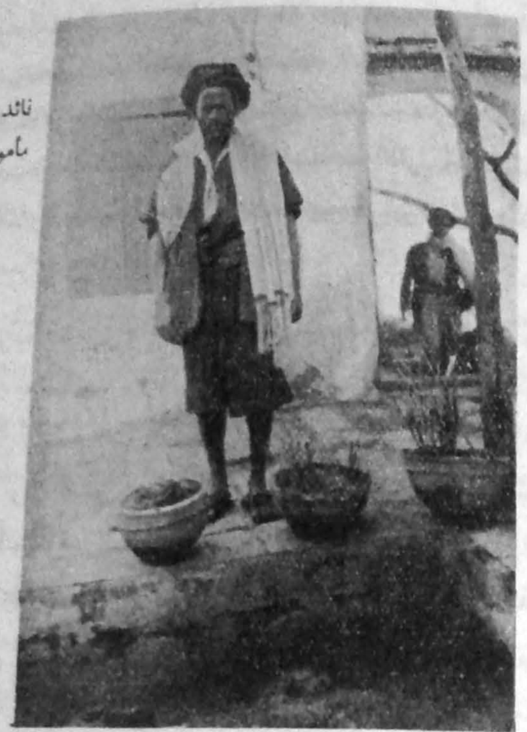
جلالة الإمام مدة من الزمان قبل أن تبنى سرايه العامرة، وهي مؤلفة من ثلاثة ادوار: الدور الأول وفيه غرفة فسيحة للاستقبال وبعض الغرف للمؤونة والمطبخ والدور الثاني فيه أربعة غرف فسيحة للسكن والنوم، والدور الثالث فيه غرفتان صغيرتان للنوم أيضاً، وفوق هذا الدور يوجد غرفة صغيرة يقولون لها المنظرة أي طيارة مكتوب على جدرانها «لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله» ومحفور عليها بعض الآيات القرآنية وهي مطلقة من جميع الجهات حيث يمكن للانسان أن يشرف منها على جميع المدينة، وفيها عدا نوافذ الزجاج الملون نوافذ صغيرة مصنوعة من حجر المرمر، واستعمال المرمر للنوافذ كزجاج شائع جداً في اليمن ويجلب المرمر كاحجار كبيرة الى صنعاء من مكان يقال له الفراس وقد حفروا هنالك مقالع عظيمة يقلعون منها هذه الاحجار ويجلبونها الى صنعاء حيث ينشرونها ألواحاً رقيقة كألواح الزجاج بمناشير خاصة كما ينشر النجار الخشب ويستعملونها عوضاً عن الزجاج.

وينطبق وصف هذه الدار على جميع دور الحي المعروف بحي بئر العزب، وقد بنى هذا الحي رجال الحكومة العثمانية أيام دولتها وهو في الحقيقة حي جميل ودوره متقنة ومريحة.

قائد الروضى

ما كاد يستقر بنا المقام ساعة من الزمان في هذه الدار حتى جاءنا رجل يدعى قائد الروضى موفداً من قبل المقام الشريف ليؤمن راحتنا وقد جلب لنا معه أسرة حديدية وفرشاً وثيرة وسجاداً عجمياً وبعض الكراسي والطاولات الى غير ذلك من لوازم البيت وبعد التحية قال: عفواً يا حضرات الضيوف الكرام ما كنا متوقعين وصولكم اليوم بل ظنناكم ستصلون غداً لذلك لم نعد لكم الدار قبل الآن وانما الخيرة في الواقع وها أنذا قد جلبت لكم معظم لوازمكم وقد أمرني جلالة مولانا أمير المؤمنين أن أحضر لكم جميع ما تشتهون فما عليكم إلا أن تطلبوا ما تشاءون وأنا رهن اشارتكم.

وعلمت فيما بعد أن هذا الرجل مأمور اعاشة سراي الامام ويهتم بخدمة



نائد الروضي
مأمور الاعاشة في سراي الامام

ضيوفه وان هي الا نصف ساعة حتى نظفت دارنا وكنست ورشت من ماء الشادروان ووضع الأثاث في مواضعه فصار لنا صالة استقبال وغرفة طعام وغرف نوم ومطبخ وكراس لنجلس عليها ومائدة نتناول عليها طعامنا وملاعق وسكاكين الخ.

ولا أنكر عليك أيها القارىء الكريم بأن سرورنا كان عظيماً بهذه الاشياء لأننا في الطريق ـ كما لا يخفاك ـ كنا محرومين منها «وفي الحقيقة لا يجد الانسان لذة في استعمال شيء من الأشياء من ضروريات هذه الحياة الا متى حرم من استعماله زمناً طويلاً.

جلسنا في غرفة الطعام وقد أعد لنا طاهينا شيئاً من الحليب والشاي وكان الشادروان بنوافيره ومائه يزين المكان برونق خاص وبهجة خاصة ومن خلفه الحديقة وقد ماست فيها أغصان الصفصاف والمشمش والكرمة وغنى على أفنان

بانها البلبل والشحرور فزاد هذا المنظر اللطيف جمالاً على جماله وأنساً فوق أنسه فرشينا الشاي بلذة منقطعة النظير وكاد نسيم صنعاء الجاف العليل ينسينا الدنيا ومن عليها وخلنا أنفسنا في قطعة من جنات عدن فذهبت عنا جميع مشاق الطريق ومتاعبه وثبت لنا صحة ما كنا نسمعه في أثناء السفر على ألسنة بعض الناس من ان صنعاء هي ثالث الجنان وأما الجنة الثانية فهي دمشق الشام والأولى جنة عدن.

وبعد أن فرغت من شرب الشاي جاءني قائد الروضى ـ وكان ينتظر انتهاءنا من تناول الشاي على مسافة بعيدة عنا ـ وقال بلطف : انتم ضيوف جلالة مولانا أمير المؤمنين وأنا مكلف عن المقام الشريف أن أجلب لكم كل شيء تحتاجونه من المواد الغذائية وغيرها، وان كنتم بحاجة الى طاه فاني مكلف أيضاً بجلبه لكم، وعندنا طاه حاذق جداً ويعرف الطبخ على الطريقة التركية. فقلت له: أما الطاهي فلا حاجة لنا به لأن طاهينا معنا ومعتاد على الطبخ وأما المواد الغذائية فاننا نتقبل مع الشكر الجزيل كل ما يتكرم به جلالة الإمام فقال: ناهي ـ أي حسن ـ غداً صباحاً ساجلب لكم حاجاتكم ان شاء الله فالى اللقاء والسلام عليكم فقلت وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

خرج الرجل من الدار مسرعاً وبقيت أتتبعه ببصري وأنا أفكر في أدبه ولطفه وعدم ازعاجه ايانا وقت تناول الشاي رغم انه كان مشغولاً يريد الانصراف، وقد لاحظت في كثير من المواقف والمناسبات أدباً جما عند اليمانيين ودقة في الملاحظة وميلاً شديداً الى عدم التدخل في ما لا يعنيهم.

بستاني الحديقة

بعد ما انصرف الروضي نهضت من مكاني وأنا لا أزال أفكر فيه، وأخذت أتمشى في الحديقة فوقع نظري على البستاني فذهبت اليه وقلت له أسعدت مساء يا عم! فأجاب مساكم الله بالخير والعافية، فسألته من يكون قائد الروضى؟ وما هي وظيفته؟ فأجاب انه من أهل صنعاء وهو مأمور الاعاشة في المقام الشريف وموكول اليه الاهتمام بشأن الضيوف وتأمين راحتهم ومأكلهم

ومشربهم، وهو يجلب لهم حاجياتهم من نفس الحاجيات التي تقدم لسراي جلالة الامام ويأتي لزيارتهم يومياً وكان يكلمني وهو مهتم بقلع بعض الأعشاب الغريبة التي كانت تنمو بكثرة بين الخس وقد لاحظت أن المعول الذي كان يستعمله لقلع الاعشاب بسيط جداً فأخذته وقلبته بيدي فوجدته من مصنوعات صنعاء وهو طويل مصبوب من حديد واطىء ويده الخشبية قصيرة للغاية تكاد تكون طول الحديد فقط وهم يستعملون هذا المعول - ويقولون له (مفرس) للحفر والردم ولكل شيء في الحديقة وليست سائر أدواتهم الزراعية بأفضل من المفرس فمحراثهم لا يبلغ طول القسم الحديدي منه - أي السكة التي تدخل في الأرض - بضعة سنتيمترات وفي أغلب الاحيان يصنعون السكة من الخشب عوضاً عن الحديد، انما شدة خصب أراضيهم تجعلها تدر خيرات كثيرة بالرغم من هذه الوسائط الزراعية الابتدائية.

وقد روى لي غير واحد من أهل بلاد الجوف الواقعة على مسير بضعة أيام الى شرقي صنعاء انهم لا يستعملون هنالك المحاريث والسكك أبداً حتى ولا يعرفونها بل يجلبون البقر الى الحقل ويجعلونها تمشي فيه ذهاباً واياباً مرات متعددة ثم يطرحون بذورهم تحت أرجلها فتطأها وتغرسها في الأرض. ومن الغريب انهم يحصدون من هذا الزرع الابتدائي كميات عظيمة من الحنطة والذرة وينتج المد عندهم على أقل تعديل خمسين مداً. وقد روى لي واحد من أهالي قرى الجوف انه لا يوجد عندهم في قريتهم سوى معول واحد يستعملونه في حفر القبور لدفن الموتى.

طفت الحديقة بصحبة البستاني فرأيت كثيراً من الاغصان اليابسة باقية على الاشجار ورأيت بعض الاشجار كالسفرجل والتفاح والخوخ والرمان صغيرة الحجم وكثيفة الاغصان ولاحظت أيضاً في كثير من حدائق صنعاء وحدائق قرية وادي القابل (وهي عندهم بمثابة الغوطة عندنا) وتبعد عن صنعاء نحو ساعة بالسيارة وان أشجارها تشبه الاشجار البرية في قلة الاعتناء بها وعدم قطع أغصانها التي لا فائدة منها وتركها وشأنها تنمو حسب الطبيعة حتى أصبحت الحدائق كالغابات البرية يتعذر دخولها الا بصعوبة. وقد سألت بعض القرويين

والفلاحين لماذا تتركون أشجاركم على هذه الصورة من قلة الاعتناء؟ فقالوا هذه هي العادة عندنا الفناها منذ القديم وورثناها أباً عن جد! فأجبتهم انكم مخطئون بهذا العمل فلو انكم قلمتم الاشجار وقطعتم الاغصان اليابسة التي لا فائدة منها وغرستم أشجاركم بعيدة بعضها عن بعض لغدت أشجاراً كبيرة ونمت نمواً جيداً وفاضت عليكم بمحصول افضل بكثير من محصولها الحالي فأجابوا والله ما عرفنا هذا قبل الآن أحد ولا علمنا كيفية الزراعة ان شاء الله سنجرب هذه الطريقة لعل فيها خيراً...

انتشار زراعة الفواكه والثمار في صنعاء

ومن اللطيف عند اليمانيين انهم اذا رأوا رجلاً أعلم منهم ببعض الشؤون وأبدى لهم بعض الملاحظات التي لم يألفوها والتي لا تتفق مع عاداتهم ورأوا احتمال صوابها لا يدافعون عن نظرياتهم القديمة ولا يقولون كما يقول كثير غيرهم: لا! ان طريقتنا أفضل واننا وجدنا آباءنا وأجدادنا عليها فلا يمكننا أن نغيرها! بل بالعكس هم يأخذون بالنظريات الحديثة ويجربونها فاذا وجدوها أفضل من نظرياتهم وعاداتهم اتبعوها والا رفضوها. وهم بطبيعتهم أذكياء ويفرقون بالبداهة بين الغث والسمين.

وبالرغم من عدم الاعتناء بالاشجار اعتناء فنياً وبالرغم من تركها على هذه الحال من الاهمال فهي تأتي بأثمار جيدة وشهية. كل ذلك عائد الى جودة المناخ وطيبة الأرض ولا شك انهم لو عنوا بها عناية فنية لزادت وارداتهم زيادة كبيرة وقد رأيت بحديقة منزلنا بعض أشجار المشمش مطعمة بالأجاص والذراق، فاسترعت نظري كثيراً، ومع ان دمشق مشهورة بفاكهتها فلم أشاهد فيها حتى ولا سمعت بأن المشمش يطعم بالاجاص والذراق ولا قرأت في الكتب الزراعية انه يطعم بهذه الأنواع من الثمار فسألت البستاني: من الذي هداكم الى تطعيم الاشجار على هذه الصورة؟ فأجاب ان بعض الموظفين الترك أيام الدولة العثمانية جلبوا معهم من بلاد مدخل - أي خارج اليمن - أنواعاً مختلفة من الأشجار والطعوم والبقول وجربوها في صنعاء وغيرها من البلاد، فبعضها وافقها

الهواء والتربة فنمت وازدهرت وعمت زراعتها، وبعضها احرقتها شمس اليمن الحارة فماتت لوقتها.

غيل آلاف والغيل الاسود والآبار

وشاهدت بين حديقتنا وحديقة جارنا جدول ماء صغير وهو اول جدول ماء رأيته في صنعاء فسألت البستاني عنه فقال لي هذا غيل آلاف - والغيل يعني الجدول - وماؤه الآن قليل لقلة الأمطار ولكنه يزداد بموسم المطر كثيراً ويسقى معظم حدائق بئر العزب وبعض الأراضي الزراعية باطراف صنعاء ونبعه في الجبال على مسافة بضع ساعات من صنعاء ويوجد بصنعاء غيل آخر غير هذا الغيل واكبر منه ويمر بباب الشرارة ويدخل حديقة سراي جلالة الامام ويستعمل الأهلون ماءه للشرب ولري المزروعات وهو صغير أيضاً بالنسبة لأنهر دمشق ويقال له الغيل الأسود، وفي الحقيقة لا يوجد باليمن أنهر كبيرة بالمعنى المفهوم من النهر ولكن يوجد بعض الأنهر التي تعادل أنهرنا وتزداد أيام الأمطار زيادة متناسبة مع الامطار وفي وقت المطر تسيل سيول عظيمة في الشعاب والوديان بشدة عدة ساعات أو أيام ثم تشح وتنشف عقيب انتهاء الأمطار، وهذا ما حدا بالحميريين في العصور الأولى لبناء سدود وخزانات عظيمة وقد شاهدت في أماكن مختلفة سدوداً كثيرة.

بيد ان المياه في اليمن موجودة بكثرة في جوف الأرض وعلى أعماق مختلفة تتراوح بين متر واحد وثلاثين أو أربعين متراً، وفي بعض المحال الجبلية يبلغ عمقها خمسين متراً واكثر، والدليل على كثرتها انني شاهدت المئات من الآبار في اماكن مختلفة بعضها قريب من بعض وينبع ماؤها من طبقة ترابية تدعى بالانكليزية (ترف) لا من طبقات صخرية، وهذه الينابيع قريبة من سطح الأرض وتدل على كثرة وجود المياه في الأرض.

وفي أغلب الاحيان تنضب هذه الينابيع اذا اكثر الانسان من سحب مائها، لان الماء يرشح اليها رشحاً من الأراضي الترابية المجاورة، ولكن اذا اخترق الانسان هذه الطبقات الترابية الى أن يصل الى الصخر الأصم عندئذ يتفجر

الماء بكثرة ولا ينضب معينه مهما أخرج منه، ولكن أصحاب الآبار والمزارعين في اليمن لما يدركوا ذلك حتى الآن. والغريب انني لم أشاهد بئراً واحدة تنبع من الصخر رأساً، ولهذا فالآبار تنضب كل يوم ثم ينتظرونها حتى تمتلىء ثانية فيعيدون الكرة عليها.

وقد طلب الينا الكثيرون ان نرشدهم الى طريقة تزداد معها مياه آبارهم دون أن يحفروها الى الصخر فقلنا لهم يمكنكم أن تحفروا عدة أقبية جانبية في قعر البئر لا يزيد عرض الواحدة منها على ربع متر وطولها متر ونصف وهي تضمن لكم زيادة ينابيعكم فعمل البعض بهذا النظرية البسيطة فازداد الماء كثيراً.

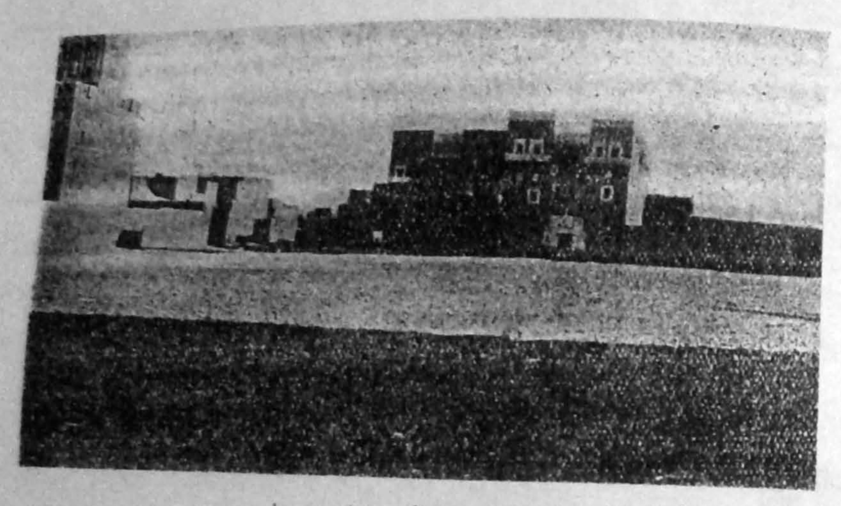
مناورات الانكليز للتحالف مع الإمام

حديث المعاهدة الانكليزية مع البستاني

وفي أثناء تحدثي الى البستاني وجه لي أسئلة متعددة فكنت اجاوبه عليها بالتفصيل ومما قاله لي: يظهر من كلامك وأسئلتك عن الأشجار والخضر أنك من بلاد تكثر فيها هذه النباتات فاستحلفك بالله من أي بلد أنت؟ فقلت انا آت من القطر المصري ولكن أصلي سوري دمشقي فقال مرحى بك والف مرحى! وهل أنت مسلم أم نصراني؟ فقلت مسلم مؤمن موحد بالله، والحمد لله على دين الاسلام ولا اله إلا الله محمد رسول الله فقال الحمد لله ولا اله إلا الله محمد رسول الله.

وبعدما نطقت أمامه بالشهادتين رأيت امارات وجهه قد تبدلت وظهرت ابتسامة لطيفة على فمه وتغيرت لهجة كلامه وزاد اهتمامه بي واطمئنانه إليّ. ثم أردف قائلاً أخبرني بالله عليك ما دمت قادماً من بلاد «مدخل» فلا شك أنك مررت بعدن وقابلت اناساً كثيرين هناك فقلت نعم مررت بعدن وتقابلت مع بعض الناس فسل ما تريد فاني أجيبك على كل شيء أعلمه فقال: ما الذي جرى بين مولانا الإمام والانكليز؟ هل اتفقوا على الحدود وعلى الأمور المختلف عليها بجهة عدن أم لا؟ فقلت لا أظن أنهم اتفقوا تماماً ولكن بينهم في الوقت الحاضر شبه هدنة وربما تدور أثناءها بعض المفاوضات لحل جميع المشاكل. ثم سألته ومن أنبأك أن هناك اختلافاً بين الانكليز وجلالة الإمام؟ فقال سامحك

الله أتظن انني وأنا فقير وبستاني لا أعلم ولا أهتم بشؤون بلادي؟ تأكد اننا نحن معشر اليمانيين من غني الى فقير نهتم كثيراً بشؤون بلادنا وخصوصاً مع جيراننا الانلكيز وفي الربيع الماضي كان عندي هنا بهذه الدار ضيف انكليزي اسمه «جاكوب» وقد أتى من عدن خصوصاً ليقابل مولانا الإمام وكان برفقته رجل نصراني وآخر هندي وقد مكثوا هنا مدة طويلة وتخابروا مع مولانا الإمام كثيراً وقد علمت من الهندي أنهم أتوا ليتفاوضوا مع جلالة الإمام في الأشياء المختلف عليها.



دار في بئر العزب في صنعاء

وبعد سفرهم الى عدن أتت طيارة انكليزية وضربت «ماوية» و«قعطبة» و«تعز» و«اب» وغيرها من البلاد بالقنابل فقتلت خلقاً كثيراً ودمرت بيوتاً متعددة وقد خاف أهالي صنعاء منها وفر قسم كبير منهم الى بلاد مشرق وبلاد الشام (أي الشمال) وتوقفت حركة التجارة وقل الأخذ والعطاء في المدينة واستعدت الحكومة لمواجهة الطوارىء استعداداً عظيماً فأرسلت الجيوش الى الحدود ووضعت المدافع بهذا الجبل: (أي جبل نقم فوق صنعاء) ونقلت الذخائر والعتاد والسلاح الى الكهوف والمغاور حتى لا تصيبها الطيارات بسوء وكنت كل يوم ترى الوفاً مؤلفة من أهل الجبال الاشداء يأتون بسلاحهم الكامل الى أمام سراي مولانا أمير المؤمنين فيسلمون عليه ويعرضون تطوعهم للدخول في الجيش

والاشتراك في الحرب لذلك تراني وسوف ترى كل يماني يهتم لمعرفة حقيقة الخبر مع الانكليز وجميعنا والله ثم والله مستعدون أن نفنى عن آخرنا قبل أن ندع انكليزياً واحداً يدخل بلادنا. فقلت له لا تخش شراً ولا تخف بأساً لأن حكمة صاحب الجلالة الامام واسعة ومقدرته عظيمة وفي امكانه أن يحل جميع الصعاب والمعضلات بالتي هي أحسن وأظن أنه انتهى كل شيء بين جلالته وبين الانكليز ووضعوا اتفاقية مؤقتة وسيسعون لعقد معاهدة ولا اعتقد أن الطيارات الانكليزية ستغزو اليمن مرة ثانية، فقال: الحمد لله الحمد لله، الله يحفظ الامام روحي فداه.

ولم يكن الرجل كاذباً فيما رواه لي عن شعور أهل اليمن نحو الانكليز ونحو كل من تغريه نفسه بغزو اليمن لأني في صلاتي الكثيرة واختلاطي مع جميع طبقات الشعب من موظفين وسادة وعامة أفراد الأمة وجدت فيهم نزعة الى الاستقلال والمفاداة بكل عزيز وغال لم أجدها بين الشعوب الراقية لا في الشرق ولا في الغرب.

من هو الكولونيل جاكوب؟

وفي الواقع كان الرجل محقاً في تخوفه من الحرب لأنها كانت على قاب قوسين أو أدنى. وقد جاء الكولونيل جاكوب موفداً من قبل الحكومة البريطانية ليحل مشكلة حدود عدن بين جلالة الامام وبين حكومته وليبحث في عقد معاهدة مع الامام. والكولونيل جاكوب هو ضابط بريطاني مشهور بحب الفتح والاستعمار وقد وضع بالانكليزية كتاباً سماه «ملوك العرب» بحث فيه في تاريخ اليمن وكيفية احتلال البريطانيين لعدن ولسائر المحميات التسع ومن يطالع هذا الكتاب بدقة وامعان يجده محتوياً على اطناب الكاتب في مدح نفسه وافتخاره باعماله التي قام بها عندما عينته حكومته معاوناً لحاكم عدن وقد سبق له أن زار اليمن للمرة الأولى قبل هذه الزيارة في آب سنة ١٩١٩ وأسره شيوخ القحرا في تهامة وقد اتينا في مقالة سابقة على كيفية هذا الأسر ولولا تدخل الامام وفكه من الأسر لقضوا عليه.

وكانت غايته من الزيارة الأولى ان يتعرف الى الامام ويدرس أحواله ويحاول أن يتفق معه على حدود بعض المحميات ولكنه عاد بخفي حنين ولم يوفق الى حل شيء من الأمور التي انتدب لحلها وقد جاء في المرة الثانية في سنة ١٩٢٨ للغرض نفسه ولعقد معاهدة فأخفق في مساعيه ولم يتنازل جلالة الامام للبريطانيين عن شبر أرض واحد ولذلك هاجم البريطانيون اليمن على أثر عودته الى عدن واحتلوا ما احتلوا من البلاد عنوة وبقي الاهلون متخوفين الى ما بعد الاحتلال لأنهم ظنوا ان البريطانيين سيواصلون زحفهم ويستمرون في تعدياتهم لذلك هاجت البلاد وماجت وقامت كرجل واحد واخذ المتطوعون يتوافدون لصنعاء أفواجاً أفواجاً ليسيروا الى قتال الانكليز ولكن جلالة الامام حفظه الله رأى ان الأراضي التي احتلها الانكليز ليست ذات قيمة زراعية أو حربية لذلك غض طرفه على مضض حتى لا يزج باليمن في حرب مع الانكليز لا يعرف مداها أحد، وأعتقد أنه لولا سقوط حكومة المحافظين في لندن في تلك السنة من الحكم وقيام حكومة العمال عوضاً عنها لغزا البريطانيون اليمن حتى صنعاء وخصوصاً بعدما تم الاتفاق والتفاهم بينهم وبين الطليان في مصوع على السياسة التي يجب اتباعها والسير عليها في جزيرة العرب.

وقد زار حاكم عدن الانكليزي حاكم مصوع الطلياني في أوائل هذا العام أي عام ١٩٢٨ ورد الثاني الزيارة للأول في نفس العام وقد حسب الناس لهذه الزيارات الف حساب وأبدى اليمانيون كثيراً من التخوف ولا أخالهم مخطئين في ذلك لأن التجارب علمتنا أن نحذر الغربيين وأن نتوقع ظهور محالفات سرية وتقسيمات أساسية لبلاد الشرق عموماً ولجزيرة العرب خصوصاً في أي وقت كان، وليست معاهدة (سايكس - بيكو) المعلومة التي قسم الحلفاء بموجبها الأراضي التي انسلخت عن الدولة العثمانية فيما بينهم ببعيدة العهد عنا.

اليمانيون يهمون بقتل الكولونيل جاكوب

وقد قص عليّ البستاني شيئاً كثيراً عن معاملة الكولونيل جاكوب ورفيقه العربي المسيحي للاهلين والجنود الذين كانوا في خدمته. فقال ان الجميع كانوا

يشكون من فظاظته ولا يرغبون في مرافقته أو مجالسته وكان دابه أن يكتب الشكاوى الى جلالة الإمام عنهم لأقل حركة تبدو منهم وكان يمتنع عن الطعام اذا مر احدهم بباب غرفة طعامه أثناء تناوله الطعام ويطلب اليهم أن يحيوه تحية عسكرية كلما دخل أو خرج، وقد أثار بأعماله هذه حقداً في صدور جميع جيرانه وسرت اخباره بين الناس في صنعاء سريان النار في الهشيم فابتعد الجميع عنه وصاروا يفرون من وجهه اذا قابلوه على قارعة الطريق ولم يكن رفيقه باكثر تأدباً منه بل كان ايضاً يحتقر الوطنيين وينظر اليهم نظرة السيد للعبيد وهذا شيء لا يمكن لليمانيين ان يحتملوه لأنهم خلقوا احراراً وتربوا تربية استقلالية طبيعية، فمن البديهي أن يشمئزوا من هذه المعاملة وان يبتعدوا عن هؤلاء الضيوف الثقلاء كل الابتعاد حتى في الطرقات وصاروا على الرغم من قلة ميلهم للثرثرة والافراط في الكلام لا يتركون فرصة سانحة تمر الا شكوا منه وذكروا سيئاته.

وقد ذكرني تصرف هذا الرجل الانكليزي الشاذ مع أهل اليمن بتصرف زملائه الانكليز أصحاب البواخر التي تعبر البحر الاحمر الى الشرق الأقصى مع الشرقيين فانهم لا يجلسون الشرقيين مع البريطانيين على مائدة واحدة للطعام! ويعتبرون الشرقيين من الاجناس البشرية الملونة التي لا يجوز لها ان تحصل على شرف المساواة مع البريطانيين حتى في الطعام!

القومندان كروفرد وتقريره السري

وقبل مجيء الكولونيل جاكوب الى اليمن جاء رجل انكليزي آخر يدعى القومندان كروفرد، ويظهر أنه كان موفداً ليمهد الطريق أمام الكولونيل جاكوب ليعقد المعاهدة مع الامام وقد تظاهر هذا الرجل انه تاجر جاء الى اليمن من تلقاء نفسه كي يشتغل بالتجارة ورفع الى حكومته تقريراً سرياً وقد وقعت بيدي مسودة هذا التقرير.

وقبل أن أترجم هذا التقرير السري للقارىء الكريم أقدم له القومندان كما عرفته جريدة (الايمان) التي تصدر في صنعاء حيث قالت بعددها ٣١ ما يأتي:

قدم العاصمة في غرة ذي القعدة الحالي المستر (كروفر) المتقاعد من



شارع في بئر العزب في صنعاء وتظهر فيه احدى سرايات الامام خلف السور

أركان الضباط البحرية لدولة انكلترا وهو الذي تكرر وصوله قبلاً الى عاصمتنا والموما اليه كان سابقاً قائداً للسفينة الحربية الانكليزية الشهيرة (ميلتون) وقد قام باسفار عديدة في البحار الأميركية والأسترالية والهندية ولا سيما سواحل الجزيرة العربية. اذ بقي فيها مدة طويلة واستقر أخيراً في بندر عدن وبينما كان الموما اليه مقيماً بلو ندرة مع عائلته منذ سنة دعته الرغبة لزيارة اليمن مرة أخرى فوصل الى عدن ثم قصد العاصمة وحل ضيفاً بصورة خصوصية والموما اليه من عائلة انكليزية أصيلة الخ .

وأما التقرير فهذه صورته :

«سيدي

«لي الشرف أن أعرض ما يأتي :

«طلب مني امام اليمن أن أقدم تقريراً غير رسمي الى الحكومة البريطانية بشأن بعض المقاطعات المختلف عليها والتي يدعوها البريطانيون مقاطعة عدن المحمية.

«انني في صنعاء أسعى للحصول على اتفاقية تجارية مع جلالته وقد أجابني ان مسألتك سهلة ويمكن الاتفاق عليها بصورة مرضية متى تمكنا من حل القضية السياسية واني شخصياً واثق ان مسألتي لا تحل كما أرغب الا اذا حلت القضية السياسية وبناء على ذلك أقدم هذا التقرير غير الرسمي متوسطاً في حلّ هذه القضية.

«قضيت في مقاطعة عدن المحمية نحو خمسة عشر عاما أي منذ سنة ١٩١٢ ومضى علي في خلال هذه المدة شهور طويلة كثيرة لم أشاهد فيها رجلاً بريطانياً واحداً فمن البديهي إذاً أن يكون لي من الخبرة التامة بشؤون مقاطعة عدن المحمية اكثر مما لأي رجل بريطاني حي لم تسمح له الصدف أن يأتي الى هذه البلاد ويعيش فيها بعيداً عن البريطانيين. وانني لا أتقن العربية مع انه من الضروري لي أن أعرفها معرفة جيدة كي أتمكن من اتمام مقاصدي.

«واني أعتقد بفائدة المقابلات الشخصية وأراها أفضل وسيلة للتفاهم وها أنا ذا أجني نتيجة مقابلتي الشخصية مع الامام في كتابة هذا التقرير واني أشعر انه يختلف كثيراً عن التقارير السياسية الرسمية.

«ان الفريقين الداخلين في هذا التقرير هما ١ ـ البريطانيون في عدن وهم يمثلون الحكومة البريطانية ٢ ـ عرب اليمن وبعض العرب في مقاطعة عدن المحمية ويمثلهم امام اليمن الذي ينتمي الى أصل معروف منذ ألف سنة.

«وقبل أن نبت في النزاع القائم بين الفريقين يجدر بنا أن نعود الى التاريخ فنرى أن البريطانيين شعب طموح يميل الى التوسع فاذا وجدوا بقعة من الأرض كثيرة الخيرات مالوا بكليتهم الى الاستيلاء عليها منتحلين لأنفسهم الاسباب الواهية لانتزاع ملكيتها من أصحابها الشرعيين وبديهي أن البريطانيين يدعون انهم محقون في اعمالهم وانهم يحافظون على حقوقهم وهم ابداً مستعدون لأن يستعملوا جميع قواهم لتأييد حقوقهم الموهومة ولا شك أن سلوكهم القديم غير المرضي في الصين والهند وافريقية ومعظم المستعمرات البريطانية قد أدى في الوقت الحاضر الى الاضطرابات في هذه البلاد وهذه الاضطرابات تدفعني الى بيان الحقائق عن البلاد العربية التي كثيراً ما ينخدع المرء بظواهر الامور فيها إذ يخيل الى الباحث أن العرب لا يفقهون معنى الوطنية وانهم يحاربون بعضهم بعضاً حرباً دائمة ولكن إذا أنعمنا النظر في حقيقتهم نرى أن جميع العرب في هذه الدنيا يميلون الى غاية وطنية واحدة هي أن جزيرة العرب للعرب وهي في نظرهم مقدّسة كل التقديس وقد أكد لي صحة هذه النظرية محمد بن ادريس

حاكم عسير ولا شك ان عدد نفوس المسلمين في هذه الدنيا يعادل عدد المسيحيين هذا ان لم يزد عليهم.

«لا جدال ان هنالك اختلافات بين المسلمين كما توجد اختلافات بين المسيحيين ولكن في كثير من الأمور المهمة يتفق المسلمون ولا شك في ان البريطانيين سيلاقون صعوبات جمة اذا بقوا متمسكين ببعض الأماكن في جزيرة العرب وقد أثبت لنا التاريخ ان العرب لا يسكتون على الضيم وانهم يحقدون واذا حقدوا فلا بد لهم من أن يثأروا مهما كان خصمهم عنيداً وقد أدرك السلطان سليمان القانوني هذه الحقيقة أكثر من البريطانيين فترك اليمانيين وشأنهم بعدما كاد يعلن الحرب عليهم، واني أنصح حكومة جلالة الملك أن تدقق في هذا الأمر بامعان.

«ان مقاطعة عدن المحمية تكتسب أهميتها في الأمور الآتية:

«**أولاً**: ان الضالع (اسم مكان) ضروري للبريطانيين من الوجهة العسكرية وفي امكاننا أن نحتفظ به دون صعوبة عظيمة ودون أن نتمسك بجميع مقاطعة عدن المحمية.

ثانياً: ليس في وسعي وأنا رجل مدني وضابط بحري أن أبدي رأياً عسكرياً ولكن حباً بصراحة هذا التقرير أبسط بعض آرائي الخاصة وهي بطبيعة الحال عرضة للانتقاد ان مقاطعة عدن المحمية ليست من الاهمية في شيء بالنسبة الى عدن نفسها لأن عدن كمضيق جبل طارق منيعة من كل هجوم داخلي واهل مقاطعة عدن لم يخلصوا يوماً من الايام لحكومة عدن ولا يمكننا أن نحافظ على صداقتهم الا ببذل الاموال الطائلة ونحن نخالف في عملنا هذا القول المأثور ان الجيش يجب أن يعيش على البلاد التي يحتلها ولا يمكن تطبيق هذا القول في مقاطعة عدن أبداً، فنحن نجلب اللحم الذي نأكله هناك من الصومال ونجلب الحنطة من بلاد الهند ولا اشك بان عدن ستبقى دائماً عرضة لدسائس العرب وقد تنقض علينا على حين غرة كما ثبت لنا ذلك في أيام حربنا مع الترك في سنة ١٩١٦.

وثالثاً: يوجد بعض املاح الزئبق في مقاطعة عدن المحمية ولكن لا يمكن الانتفاع بها قبل أن يستتب الامن ولا يمكن ايضاً الاستفادة من حاصلات عبيان ولحج الزراعية إلا متى أعدت طرق الموصلات الجيدة وبامكاني ان أصرح بكل وضوح أنّا لا نستفيد فائدة تجارية تذكر من مقاطعة عدن المحمية الا اذا قبضنا عليها بيد حديدية وحميناها حماية حقيقية وذلك يقتضي اموالاً طائلة لا تتناسب معها واردات المقاطعة أبداً.

«ورب سائل يسأل: هل تساوي مقاطعة عدن المحمية هذه النفقات الطائلة؟ فالجواب كلا. وللامام بطبيعة الحال نظريته الخاصة في هذه المسألة وهي تستحق العناية اذا اردنا الانصاف واما اذا شئنا المكابرة في المحسوس فيمكن للبريطانيين ان يحتفظوا بمقاطعة عدن المحمية ويوهموا انفسهم انهم على حق في دعواهم لأنه من البديهي ان السياسة لا عدل فيها.

«أنا رجل بريطاني مخلص لحكومتي وأعتقد انها أفضل حكومة في العالم خصوصاً للبريطانيين، وقد قضيت السنين السبع الاخيرة بين العرب واني أؤكد لكم عن علم بانكم لا تستفيدون من مقاطعة عدن المحمية بل بالعكس تخسرون كثيراً من النفقات على حمايتها واني واثق أنه لا يوجد عندكم في عدن أحد من أهل الخبرة التجارية ليطلعكم على هذه الحقيقة ويهتم بترقية التجارة ولا يمكنكم ادراك حقيقة تجارة مقاطعة عدن المحمية ما لم تحصلوا على مكان عسكري أمين تحافظون بواسطته على عدن ولا يمكنكم الحصول على هذا المكان الأمين الا اذا كان امام اليمن مسالماً لحكومة صاحب الجلالة.

«ويمكن لامام اليمن أو لمن يأتي بعده أن يهب عدن موقعاً عسكرياً وعندئذ تحل مشكلة مقاطعة عدن المحمية وتترك، وفي امكاننا أن نتنازل عنها دون أن نخسر شيئاً من نفوذنا ودون أن نضيع حقوق غيرنا أو حقوقنا، وأما ان ادعيتم غير ذلك فلا شك ان كفة ميزان العدل الراجحة لا تكون في جانبكم.

«اني أوجزت في بيان طلبات البريطانيين لأنها معلومة لكم ولا تحتاج الى زيادة ايضاح ولكن لا يخفى عليكم أن لكل قضية وجهين وحباً في الايضاح

أعرض عليكم تاريخاً مختصراً للنزاع القائم بينكم وبين الامام منذ سبع سنوات.
أما نظريتكم فانتم أعلم بها وأما نظرية الامام فانكم لم تطلعوا عليها بحذافيرها.
ففي سنة ١٩١٤ حافظ الامام على الحياد التام ولم يكن في وسعه وقتئذ أن يفعل اكثر من ذلك. ولما طرد الترك من جزيرة العرب في سنة ١٩١٨ أمّل جلالته أن ينال المكافأة وقد صرح البريطانيون على رؤوس الأشهاد في خلال سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ انهم لا يمدون أيديهم الى شبر واحد من أراضي جزيرة العرب وان بلاد العرب للعرب.

«وكانت منطقة عدن المحمية قديماً تابعة لبلاد اليمن ولم يعترف أحد من أئمة اليمن للترك بملكيتهم لها أو لعدن ولم تكن عدن من أملاك الحكومة التركية فتهبهما لمن تشاء ولذلك كان الامام ينتظر بفارغ صبر اعادة مقاطعته الجنوبية له ولكنه لما خاب ظنه في الحكومة البريطانية في عام ١٩٢٠ احتل بعض أجزاء المقاطعة وظن انه سيوفق الى نيل مطالبه بصورة عادلة، ولما جاءته بعثة كليتون كان يرجو أن تزول الاختلافات بطرق حبية الى أن أفهمته هذه البعثة ان البريطانيين يريدون موقعاً حربياً في الضالع فتيقن الامام من هذا الطلب أنهم متى حصلوا على موقع حربي يمكنهم أن يحصنوه وينتقلوا منه لغيره فيحتلوا ما يريدون من بلاده فاضطرب لهذا النبأ وعبثاً حاول أن يرضي البريطانيين وفي النهاية فشلت بعثة كليتون.

«ولما وصلت الى هنا (لصنعاء) ظن الامام في أول الأمر انني موظف ولكنه غير هذا الظن عندما اكدت له اني لست مأموراً ولا موظفاً بل تاجراً يبتغي قضاء بعض المصالح التجارية فوسطني لأسعى لابلاغ رغائبه الى حكومتي وقال انه سيعطيني مذكرة يبين فيها طلباته. وقد صرح لي تصريحاً غير رسمي أنه لا يرى فائدة من محاربة الحكومة البريطانية ولكنه يطلب العدالة البريطانية وهو لا يرى صعوبة في وضع شروط مرضية بشأن جعل الضالع مركزاً عسكرياً بريطانياً ويبين انه بصفته حاكماً عربياً واماماً لا يمكنه أن يسحب جميع قواته من مقاطعة عدن المحمية، ولكنه اذا أعطي الوقت الكافي ليحافظ فيه على عظمته يمكنه عندئذ أن يسحب قواته بالتدريج، هذا اذا اقتضت الضرورة ذلك وقد قال لي هذه

الأقوال شفاها ولكنه كان قبلاً مستعداً أن يكتبها على الورق وقد سرني انه لم يفعل ذلك اذ لا فائدة من احراج الانسان وقد كتبت هذا التقرير قبل أن أحصل على مذكرة الامام غير الرسمية أو على ترجمتها.

وحاشية: تلقيت مذكرة من امام اليمن أملاها جلالته على أمين سره الخاص ولأسباب بديهية لم يمضها وقد كلفني شفاهاً أن أهتم بها اهتماماً كثيراً وأن أقدمها مع الشروح الكافية الى حكومة صاحب الجلالة وها أنذا أقدم شروحي مصحوبة بالمذكرة وبترجمتها المعنوية لا الحرفية وفي امكانكم أن تحصلوا على ترجمة صحيحة في دائرتكم» ـ انتهى



سراي جلالة الامام
المسماة دار الشكر وقد بناها حديثاً

اللورد لا منكتون واليمن

وعقيب عودتي لمصر من رحلتي هذه في اليمن كان الانكليز قد شرعوا في التعدي على اليمن وضرب بعض المدن بقنابل الطيارات فرأيت من الواجب أن أكتب شيئاً في هذا الموضوع وأبين هذه التعديات للشعب البريطاني الذي لا يوافق بكل تأكيد على تصرفات حكومته هذه فارسلت صورة تقرير القومندان كروفورد مع كتاب مطول وشرح أطول عن حوادث اليمن الى فخامة اللورد لامنكتون صديق العرب ونصير الضعيف ورجوته نشر الجميع للرأي العام البريطاني، ولدى وصول كتابي لفخامته احتج فخامته على تصرفات حكومته وطلب منها ايضاحات عن أعمالها في اليمن وأرسل إليَّ كتاباً يشكرني فيه على

رسالتي وهذه ترجمة بعض ما جاء في ذلك الكتاب:

«اشكركم على كتابكم المهم الذي أرسلتموه إليّ وعلى التقرير المرسل طيه واني أكون ممتناً لكم اذا عرفتموني بما يجري بالمين وبموقفنا وعلاقاتنا معه وأيضاً بموقف الدول الأوروبية الأخرى وعلاقاتها به. ولا أرى من المناسب ان انشر تقرير كروفرد ولكني بكل تأكيد سأنصح حكومتي بعقد اتفاقية مع اليمن وقد اوضحت أسس هذه الاتفاقية في مجلس اللوردات البريطاني». انتهى.

ومن دواعي سروري انه تم أخيراً عقد اتفاقية بين الانكليز وجلالة الامام وانتهت مسألة الحدود بين اليمن والمحميات على ابقاء كل شيء على حاله وبذلك فازت السياسة اليمانية فوزاً لا غبار عليه ورضي البريطانيون بالأمر الواقع

أستميح القارىء الكريم العذر بولوجي وإياه في مفاوز السياسة والشطط عن سير الرحلة لأني رأيت من الضروري أن يفهم العرب حقيقة موقف الانكليز معهم. والآن أعود بالقارىء الكريم الى دارنا في صنعاء وأصف له ما تم لي فيها يومئذ فأقول: صعدت قرب الغروب الى سطح الدار لأرقب مغيب الشمس وأجلت نظري أولاً في جهة الشرق واذا بصنعاء المدينة الازلية الخالدة تبدو أمامي بمآذنها الجميلة وبناياتها الملونة العجيبة كأنها حسناء من حسان هذا الزمان قد ازدانت باللؤلؤ والمرجان، ومن خلفها (يشمخ) حارسها الاعظم جبل «نقم» برأسه فوق السحاب وتتلألأ في قمته أنوار تنعكس عن جدران الحصون فتزيده بهاء على بهاء، ونظرت بالقرب مني فاذا بالحدائق مزدهرة بأنواع البقول والاعشاب التي أكسبت أرضها لوناً سندسياً أخضر ينفذ جماله الى القلوب قبل الجلود، وكان النسيم عليلاً وحرارة الشمس خفيفة والأولاد على الآبار ينشدون أناشيدهم الجميلة، وبالاختصار كان كل شيء فتاناً يهيم فيه الانسان، وبقيت أمتع النفس بهذا المنظر الخلاب الى أن اصفر قرص الشمس وأخذ يتوارى شيئاً فشيئاً خلف الجبال، وما كاد يغيب عن بصري حتى هاجمني الظلام بخيله ورجله وما أسرع دخول الظلام بعد غياب الشمس في هذه الجهات القريبة من خط الاستواء.

شعرت في الحال ببرد يتسرب الى جسمي فهرولت نازلاً من فوق السطح الى (المنظرة) - وهي الغرفة في أعلا المنزل - وأمرت الخدم أن يعدوا لي سريري وفتحت صندوقاً فأخرجت منه معطفاً ثقيلاً فارتديته وجلست الى (الخوان) وقد وضعوا لي عليه مصباحاً مضاء بالبترول وأخذت أطالع في كتاب جلبته معي، وهذه هي أول ليلة بعد خروجي من الحديدة تمكنت فيها من المطالعة، وبعد مدة من الزمان قرع أحد الخدم الباب - وهذه عادة غير مألوفة في اليمن ولكن خادمنا هذا كنا أحضرناه معنا من عدن وقد تعلم من الانكليز بعض عاداتهم، فصار لا يدخل الى الغرفة الا بعد الاستئذان - وقال لي: (العشاء طيار) أي جاهز، فقلت: حسناً وهرولت خلفه قافزاً كل درجتين قفزة واحدة لأن المعدة كانت خاوية ولا غرابة في ازدياد شهية المرء للطعام بعد رحلته عدة أيام على ظهور البغال بين الوديان والآكام والجبال! جلست وأصحابي الى المائدة وتناولنا طعامنا على الطريقة الغربية بملاعق وشوكات وسكاكين الخ. ولكننا كنا نبتلعه ابتلاعاً لشدة جوعنا وقبل أن ننتهي منه شعرنا باشتداد البرد كثيراً ولما لم تكن عندنا وسائل للتدفئة. انسحبنا من غرفة الطعام وذهب كل منا الى فراشه.

الليلة الأولى في صنعاء

نمت ليلتي الأولى في صنعاء على سرير حديدي وفراش وثير ناعم ولم أستيقظ في الليل كما كنت أستيقظ مراراً في أثناء السفر على صوت الجنود ينشدون (الزامل) وعلى صوت النزاع بين بعض ضيوف (المقهاية) وهم يربطون (فراشهم) أي حيواناتهم أو يطعمون جمالهم، وعلى نداء صاحب (المقهاية) لزوجه (يا عتيقة أضرمي النار ويا عتيقة اغلي القشر) وعتيقة اسم شائع في اليمن بين النساء كثيراً وأظن أن اصله مشتق من تعدد الزوجات فصار الزوج ذو الزوجات المتعددات ينادي زوجه الأولى (بعتيقة) للتفريق بينها وبين غيرها من الزوجات الجديدات، وبعد استعماله على هذه الصورة مدة من الزمن أصبح اسما علماً. نهضت من نومي قبل طلوع الضوء فشعرت ببرد قارس جداً فبقيت غارقاً في فراشي الوثير الى ان بزغت الشمس وسمعت وانا في سريري بعض المؤذنين يحيون على الصلاة وعلى الفلاح وعقبتهم أبواق الجند في مخافر سور

المدينة بايقاع يعبر عن أوامر مختلفة ويدعو الجند الى الصلاة وقد أبصرت وانا في غرفتي أحد الجنود الموكول اليهم حراسة دارنا يتوضأ في ماء (الشادروان) المتجمد فاقشعر جسدي من البرد ولازمت الغرفة، وجميع اليمانيين كهذا الجندي يصلون الصبح حاضراً ولا يهملون وقتاً واحداً من أوقات الصلاة وهم متمسكون كل التمسك بفرائض الدين الحنيف لا يحيدون قيد شعرة عن جميع ما أمر الله به ورسوله. وليس تمسكهم بدينهم مظهراً من المظاهر الخارجية «الميكانيكية» التي يتبعها بعض المسلمين من غير اليمانيين بقوة العادة والاستمرار بل هي عقيدة ثابتة متمكنة في نفوسهم وليس ذلك بالغريب (فالايمان يماني والحكمة يمانية). وما كادت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من أعلى جبل (نقم) حتى ابتدأت موسيقى البئر تعزف انغامها الشجية وأخذ الأولاد ينشدون أناشيدهم المعلومة اللطيفة تسلية لانفسهم وتنشيطاً لحيواناتهم، وقد ذكرني هذا الصياح بايام طفولتي بدمشق الشام في عهد السلطان عبد الحميد فكثيراً ما كنا نصحو أيام الشتاء في فرشنا ولا نجسر على مغادرتها من شدة البرد وكان في الوقت نفسه بوق الجيش الحميدي يرسل في الثكنات ألحاناً هي نفس الالحان التي يرسلها بوق صنعاء.

نهضت بعد طلوع الشمس من فراشي ونظرت الى مقياس الحرارة (ترمومتر) فاذا به أربع درجات تحت الصفر ولكنه كان وقتئذ آخذاً في الصعود ويكاد المرء لا يصدق أن درجة الحرارة في الظل تختلف بين الليل والنهار ثلاثين درجة فارنهيت فبعد أن كانت بالليل أربعاً أو أكثر تحت الصفر بلغت في النهار في الظل ٦٠ فوق الصفر وفي الشمس ٩٧ فوق الصفر. وبسبب اختلاف درجة الحرارة في الشتاء على هذه الصورة كثيراً من الرشوحات الصدرية وخصوصاً بين الأولاد. وقد دام البرد على هذه الحال نحو شهر من الزمان كان الماء فيه يجمد كل ليلة وقد أضر الشجر كثيراً وأتلف الخضار الشتوية كالقرنبيط والكرنب والسبانخ الخ واخبرني الكثيرون من المتقدمين في السن أنهم لم يروا برداً كهذا البرد منذ ثلاثين سنة او أكثر. نزلت بعد طلوع الشمس الى غرفة الطعام فتناولت منه ما تيسر وجلست أتمتع بجمال الطبيعة وأتدفأ بحرارة الشمس وأراقب

الشاذروان كأني في منام وبينما أنا كذلك إذ بقائد الروضي (مـأمور الاعـاشة) حضر وقال: (أصبحتم): أي أسعد الله صباحكم فأجبناه بلغة اليمن (صبحكم الله بالخير والعافية). وكان يحمل في احدى يديه فخذ كبش من الضـأن وبيده الثانية سلة كبيرة وقال (هو ذا تعيين يومكم) فلم أفهم ماذا يعني وقلت له: ومـا هذا التعيين ؟ فأجاب نحن هنا نجلب للضيوف كل صباح ما يحتاجون اليـه من الطعام في مدة أربعة وعشرين ساعة فقلت حسـناً! غير أن حب الاستطلاع دفعني الى أن أرى ماذا كان يحمل فقلت له: أرني ماذا جلبت؟ فوضع السلة أمامي فاذا هي طافحة بالسمن والسكر والأرز والبن والبيض والبـطاطس والملح والفلفل، وبالاختصار بجميع ما تحتاج اليه عائلة كبيرة في عـدة أيـام وكـان خلفه غلام يحمل لبناً وفحماً وقال انه سيجلب لنا حطباً، للوقود والطبخ، فقلت له: يا قائد أدام الله تعالى بقاء مولانا الامام وأكثر عليه الخيرات، نحن لا نحتاج الى جميع هذه الاشياء، فقال لا والله هذا غير ممكن، ومقامكم عند مولانا الامام كبير فلا يمكن أن نتأخر عنكم بشيء وسنجلب لكم كل يوم سع ـ أي مثل ـ هذا التعيين أو أكثر منه أما الخضر فمروا البستاني أن يجلب لكم من حـديقـة داركم مـا تشتهون، فشكرناه شكراً جزيلاً على هذا الكرم العظيم ودعونا لجلالة الإمام بطول العمر، ثم قال لي قائد: لا بدّ ان يرسل مولانا بعض اخصائه للترحيب بكم ولكن بطبيعة الحال هو يعلم انكم متعبون من مشاق السفر والطريق، وربما يبطيء رسوله فسامحوا ـ أي غضوا النظر ـ فقلت حسناً بارك الله فيكم وأدام لنا حياة مولاكم.

وجاءنا قبيل الظهر القاضي احمد الأنسي، وهو من رجال حكومـة الامام، ويعتمد جلالته عليه كثيراً وقد أوفده مرة الى انقرة لكي يفاوض الغازي مصطفى كمال باشا وحكومته في بعض الشؤون السياسية وهو يشغل اليوم بصنعـاء وظيفة مدير المعارف وهو رجـل اسمر اللون ربـع القامـة، نحيف الجسم، تبدو على محياه امارات الذكاء فرحبنا به ودعوناه الى صالة الاستقبال، ولما استقر به المقام قال: حي الله من قد جاء أمرني جلالة مولانا أمير المؤمنين أن احضر لزيارتكم للترحيب بكم، وابلاغكم سلام جلالته، وللاطمئنان على أحوالكم وصحتكم فكيف انتم؟ عساكم معافين وبخير وكيف وجدتم بـلاد اليمن واقليمها ومـاءها وهواها؟ فقلنا: الحمد لله والشكر لجلالة مولانا الامام على لطفه وعطفه نحونا،

اننا على اتم ما يرام من الراحة والهناء، وقد سررنا بكل شيء شاهدناه في هذه البلاد السعيدة، وما أخطأ من سماها «السعيدة» لأن كل شيء فيها مريح وسعيد وجميل، واننا نتمنى لها كل خير ونجاح في ظل جلالة مولانا الامام وحكومته الموكلية: فقال شكراً لكم على هذه العواطف النبيلة، وهل لكم من خدمة او حاجة نقضيها لكم؟ فقلنا كلا انما نريد ان نحصل على شرف المثول بين يدي جلالة الامام. فأجاب سأعلم جلالته بذلك، ولكن لا بد لكم من تناول قسط من



القاضي احمد آلانسي مندوب الامام في تركيا سابقاً ومدير المعارف في صنعاء في الوقت الحاضر والى جانبه احد اولاده

الراحة بعد سفركم الطويل وعنائكم الكثير فاستريحوا يومين أو ثلاثة واخرجوا الى صنعاء وشاهدوا أسواقها وآثارها ومبانيها وأعلموني بكل غرض يلزم حتى أقوم بتأديته حالاً، وقد أمروا لكم بجنديين كي يكونوا في خدمتكم، ويحرسوا داركم وأشياءكم في وقت غيابكم. فقلت، أخشى أن يكون هذان الجنديان مراقبين علينا، كم وصف ذلك بعض الذين أتوا اليمن، وألفوا كتاباً عن رحلتهم؟ فأدرك حضرته للحال قصدي وقال عافاكم الله أنتم شيء وأولئك الذين تعنونهم شيء آخر، وما هذان الجنديان الا مظهر من مظاهر الحفاوة والاحترام، فكونوا براحة بال، واذهبوا أينما شئتم، وافعلوا ما أردتم، فأنتم على الرحب والسعة

وأنتم منا ونحن منكم، فقلت أصبحنا وايم الحق مغمورين بلطف جلالة الامام وفضله وكرمه، وليس بنا حاجة الى شيء: ثم تناول حديثنا أحوال، الجو فاحوال السياسة، وغيرها من الشؤون العالمية، فوجدناه عالماً بها كأحد أبناء مصر، والشام، ممن يعنون بهذه الأمور، وأخبرنا حضرته بأنه يقرأ كثيراً من الجرائد المصرية والشامية، ويتابع سير النهضات الوطنية، في العراق، ومصر، والشام، وفلسطين، باهتمام شديد، فسألته هل يأتي الى اليمن كثيراً من الجرائد، وهل تباع في المكاتب العمومية؟ فأجاب كلا ان لبعض الجرائد العربية بعض المشتركين، فتصل لهم كميات في كل بريد يأتي الى صنعاء فقلت، ومتى يأتي البريد؟ ومتى يسافر؟ فاجاب يقوم البريد، من الحديدة ومن صنعاء في كل أسبوع مرة واحدة، ويستغرق وصوله اليهما أربعة أيام، ويسافر يوم الربوع (أي الاربعاء) من كل أسبوع فقلت وكيف يرسل؟ فقال يتسلمه أمير الجيش (أي قائد الجيش) ويرسله مع جندي نجاب من مركز الى مركز، ويسير الجندي النجاب في الليل والنهار، ولذلك يصل في أربعة أيام من الحديدة الى صنعاء عوضاً من أن يصل في سبعة أيام، وبديهي أن الجندي النجاب يتغير في كل مركز في أثناء الطريق.

مصلحة البريد

ويوجد باليمن مصلحة للبريد لا بأس بها، ويتقاضون فيها على الرسالة العادية الداخلية، من عامة الناس، نحو غرشين سوريين، ومن الجند غرشاً واحداً وعندهم نوعان من الطوابع بيضاء وصفراء، فالبيضاء بقرشين، والصفراء بقرش واحد، وهي مصنوعة في صنعاء من الورق العادي. ومن ينظر اليها لا يتبادر الى ذهنه لأول وهلة، انها طابع بريد لغرابة شكلها وقد كتب عليها في أعلاها (صنعاء) وفي وسطها (الحكومة المتوكلية الاسلامية) وفي أسفلها ثمنها واسم جلالة الامام

ويأتي البريد الداخلي الى صنعاء اليمن من سائر انحاء البلاد في كل أسبوع مرة واما البريد الخارجي فيأتي غالباً كل أسبوعين مرة واحدة، وذلك متوقف على

مجيء احدى بواخر شركة القهوجي من عدن الى الحديدة، وهذه البواخر تحمل البريد الذي يجتمع في عدن من جميع أطراف العالم بصورة غير رسمية، لأن اليمن غير مشتركة في مؤتمر البريد الدولي ولذلك لا يضمن أحد وصول البريد الى هذه البلاد ويضطر المرء الذي يريد أن يرسل كتاباً من صنعاء الى العالم الخارجي أن يضع عليه نوعين من الطوابع الطابع الأول. يماني وهذا يكفل وصوله من صنعاء الى الحديدة والطابع الثاني هندي وهذا يضمن وصوله الى العالم الخارجي، والسر في أنه هندي هو أن عدن تابعة لحكومة الهند ولما كنت في صنعاء للمرة الاخيرة علمت أن الحكومة مهتمة بالاشتراك في مؤتمر البريد الدولي وقد تم لها الامر منذ بضع سنوات ودخلت اليمن بصورة رسمية في اتحاد البريد الدولي، وصار بالامكان ارسال الرسائل من صنعاء الى جميع اطراف العالم بوضع طابع يماني فقط وقد صنعت حكومة اليمن كمية كبيرة من طوابع البريد في المانيا منذ دخلت باتحاد البريد الدولي، وصار لليمن كما لغيرها من الدول طوابع بريد بالمعنى المفهوم عندنا والشكل المعروف لدى جميع الناس.

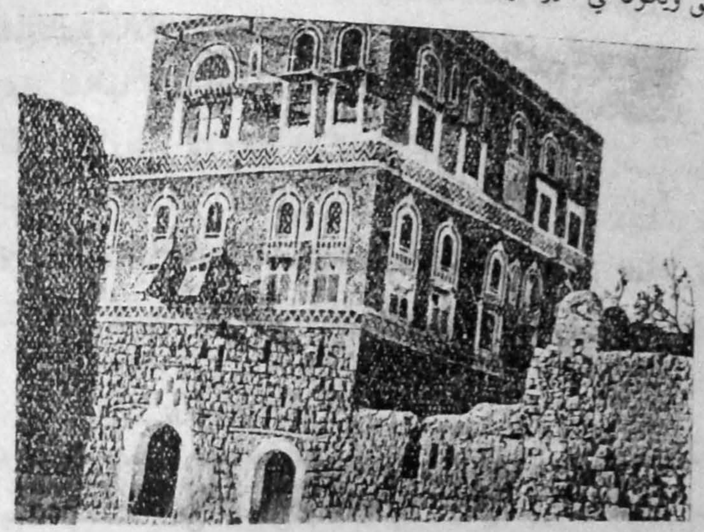
مصلحة التلغراف

وتوجد في صنعاء مصلحة للتلغراف تابعة لمصلحة البريد ويمكن للمرء ان يتخابر بالتلغراف مع من شاء في جميع أطراف اليمن بسهولة تامة وبأجور بخسة ويوجد في صنعاء أيضاً مركز للتلغراف اللاسلكي (طار الهواء) أسسه الطليان بامر جلالة الأمام منذ بضعة أعوام، وصار من السهل أن يتخابر الانسان من صنعاء مع العالم الخارجي عن طريق (ماركوني مصوع) ولكن من دواعي أسفي ان الموظفين الطليان في هذه المصلحة لا يقومون بمهمتهم حق القيام. فقد أرسلت من صنعاء ثلاث برقيات عن يدهم باللغة الفرنسية في رحلتي الأولى الى اليمن سنة ١٩٢٧ وتقاضوا مني أجوراً باهظة عنها وأعطوني وصلاً بالقيمة المدفوعة، ولكن تلك التلغرافات لم تصل. ولسبب من الأسباب غضب جلالة الامام على هذه المصلحة وأمر باغلاقها مدة من الزمان، ثم زالت تلك الأسباب وعاد لاستعمالها مرة ثانية، وهي اليوم مستعملة بصورة رسمية. وعلاوة على هذا الماركوني اشترك جلالة الامام مؤخراً في التلغراف الدولي (كابلو) عن طريق

الشيخ سعيد وصار بالامكان مخابرة اليمن من جميع أطراف العالم عن هذا الطريق.

حي بئر العزب

بعد ذهاب القاضي احمد الآنسي تناولت طعام الغداء واسترحت ساعة من الزمن ثم خرجت لأشاهد المدينة وصحبت برفقتي جندياً من جنودنا ليهديني الى الطريق ويكون لي خير الرفيق خرجت من الدار في زقاق ضيق لا يبلغ عرضه اكثر



دار في حي بئر العزب فنية من الحجر والآجر الاحمر.

من مترين، وأرضه غير معبدة، وتقوم الى جانبه جدران بنيت من اللبن والطين على طراز بناء (دكوك) حدائق دمشق الى علو متر ونصف، او مترين، ويوجد خلف هذه الدكوك حدائق غناء، ومنازل جميلة على شكل - فيلات - مكشوفة الأطراف، الا من سور في آخر حدائقها، مررنا بمنتصف الزقاق بكتاب للأولاد الصغار، وكان صوت قراءتهم بالغاً عنان السماء، فهم كغيرهم من الأولاد في كتاتيب البلاد الشرقية بما فيها دمشق الشام يقرأون بالجملة لابالمفرد وانتهينا في آخر الزقاق بميدان واسع يقال له ميدان باب الشرارة ويوجد في جهة هذا الميدان الشمالية المدرسة العلمية المتوكلية، وبعض الشوارع المتجهة نحو حي بئر العزب وتوجد في جهة باب الشرارة من الجنوب ثكنة عسكرية كانت أيام الدولة

العثمانية مكتباً للصناعات، والى جانبها توجد طريق واسعة تؤدي الى قاع اليهود، ويوجد على جانب هذه الطريق حانوت كبير لتاجر يهودي قيل لي انه من أغنى تجار صنعاء ويوجد في جهته الشرقية المستشفى الملكي وقد وضعت عليه لوحة كتب عليها باللغة التركية ـ صنعاء خسته خانه سي ـ أي مستشفى صنعاء ويوجد في هذه الجهة أيضاً سور ثان ـ غير سور صنعاء العمومي ـ وهو يحيط بسراي جلالة الامام وحدائقها، وفيه باب صغير خاص للحرم الشريف، وفيه على بعد بضع مئات من الأمتار باب آخر يقال له باب الشرارة، وهو المدخل العام الى أحياء المسلمين، وشوارع مدينة صنعاء القديمة اذ يمكننا أن نطلق على حي بئر العزب اسم مدينة صنعاء الجديدة، لأن هذا الحي بني أيام الترك فقط. ويوجد فوق باب الشرارة بناء فخم بناه الترك، ويستعمله حاكم صنعاء كمكتب له وفيه أيضاً مكاتب لبعض الضباط المستخدمين في الحرس الملكي.

حانوت اليهودي والنسيج الشامي

دخلت حانوت اليهودي المثري في باب الشرارة لأرى ماذا يوجد فيه من البضائع والسلع، فرحب بي صاحبه أجمل ترحيب وقدم لي كرسياً لأجلس عليه، فجلست وأجلت نظري في أطراف الحانوت فاذا بمساحته تبلغ نحو ثمانية أمتار مربعة، وعلوه نحو مترين ونصف متر وقد كدست فيه البضاعة بعضها فوق بعض بصورة منتظمة، وأهم تلك البضائع وأكثرها صايات الحرير الشامية، ويقولون لها في صنعاء (الصايات المصرية) لأنها تأتي عن طريق السويس المصرية وصايات الديما الشامية ومعظمها من مصنوعات حلب، وقد قرأت أسماء بعض الحلبيين عليها ورأيت أيضاً أنواعاً مختلفة من الحرير الملون بألوان زاهية كالاحمر، والاصفر، والاخضر ومعظمها من مصنوعات فرنسا، وهذه الأقمشة الحريرية تستعملها السيدات المسلمات الغنيات لملابسهن، وقيل لي ان بعضهن ينفقن عن سعة على ملابسهن، ويبلغ أحياناً ثمن ثوب السيدة منهن مع شغله وتطريزه وتحليته بالخيوط القصبية أو الفضية والذهبية، من ثلاثين الى خمسين جنيهاً انكليزياً.

وشاهدت أيضاً كثيراً من الشيت والكتان وغيرهما من الاقمشة القطنية الرخيصة، التي لا تعي الذاكرة أنواعها ويوجد على بعضها رسوم ونقوش غريبة الاشكال تستعمله النساء في صناعة أحجبتهن «حبارتهن» ورأيت أيضاً أنواعاً مختلفة من الجوخ والاقمشة الصوفية، وجلها من الاصناف الواطية، المصنوعة في بريطانيا العظمى. سألت التاجر من أين تستوردون بضاعتكم؟ وهل لكم عملاء في خارج اليمن؟ فقال: كلا. لا يوجد لنا عملاء خارج اليمن، انما نستورد بضائعنا من عدن. فقلت ولماذا لا تستوردونها رأساً من معاملها فتوفرون على انفسكم «القومسيون» وغيره، فقال ان «مقطوعية» محلي قليلة بالدرجة الأولى. ولا توجد عندنا بنوك لنحول عنها أصحاب المعامل في الخارج لذلك نضطر الى أن نذهب بين آونة وأخرى الى عدن ونشتري بضائعنا منها ونشحنها معنا ونأتي بها الى هنا

البنوك

وفي الحقيقة ان مشكلة البنوك مشكلة مهمة في اليمن إذ لا يوجد بنك واحد في هذه البلاد التي يبلغ سكانها خمسة ملايين وقد سعى بعض المثرين كالخديوي عباس وغيره لفتح بنوك في اليمن ولكن جلالة الامام لم يقبل بالشروط التي عرضوها عليه فباء مشروعهم بالفشل وظلت البلاد الى هذا اليوم تخبط خبط عشواء في مبادلاتها التجارية وحالاتها المالية في حوالاتها المالية فتارة تستعين بالشركات التجارية الاجنبية وطوراً تلجأ الى وكلاء الوابورات البحرية وسألت التاجر اليهودي وعن أي طريق تجلبون بضائعكم من البر أم من البحر؟ فقال عن طريق أب برا مع القوافل لا عن طريق البحر ونفضل هذه الطريق بالرغم من أخطارها ونفقاتها لعدم وجود بواخر تسافر من عدن الى الحديدة في أوقات معينة منتظمة. فقلت وأي اخطار ونفقات تعنون؟ فقال نفقات النقل الباهظة واخطار السلب والنهب ما بين عدن وماوية في أراضي الحواشب، والصبيحة، وغيرهما من القبائل الخاضعة للحكم البريطاني في المحميات التسع اسما لا فعلاً ونضطر الى دفع ضرائب لسلطان لحج وخوات لغيره من أمراء المحميات لكي يأذنوا لنا في المرور في أراضيهم، وخاصة الى

سلطان الميسمير الذي يأخذ رسماً على كل حمل دون أن يهاب سلطة احد. ومتى وصلنا الى ماوية وهي أول حدود بلاد جلالة الامام ندفع ضريبة جمركية ثانية على هذه البضائع ولكنا هنا ننجو من السلب والنهب ولا ندفع خوات لاحد ويستغرق وصول القوافل من عدن الى صنعاء عن هذه الطريق اكثر من خمسة عشر يوماً، ومما يؤسف له ان البريطانيين في أيام الحرب العامة عملاً بقاعدة فرق تسد استمالوا بالوعود والمال امراء النواحي التسع المحمية، وحملوهم على أن يشقوا عصا الطاعة على أئمة اليمن ويثوروا عليهم وينفصلوا عنهم، ونصبوهم أمراء وسلاطين على هذه البلاد، وأخذوا يغدقون عليهم العطاء والنياشين، ويضربون لهم المدافع اذا جاءوا الى عدن، ففسد أمرهم، وظنوا انهم سلاطين حقيقة. وصاروا يستبدون باتباعهم ورعيتهم ويسومونهم سوء العذاب، ولما قطع البريطانيون عنهم المرتبات والعطاءات بعد الحرب العظمى ندموا على ما فعلوا ولات ساعة مندم، ومن شدة ضغط البريطانيين عليهم ثار بعضهم على البريطانيين بزعامة أمراء قبيلة الصبيحة وصاروا يسلبون وينهبون على قارعة الطريق، وفي وضح النهار فاضطر الانكليز مراراً أن يرسلوا أسراباً من طائراتهم الحربية في عدن فتقذفهم بقنابلها، ولكن من دون نفع او جدوى.

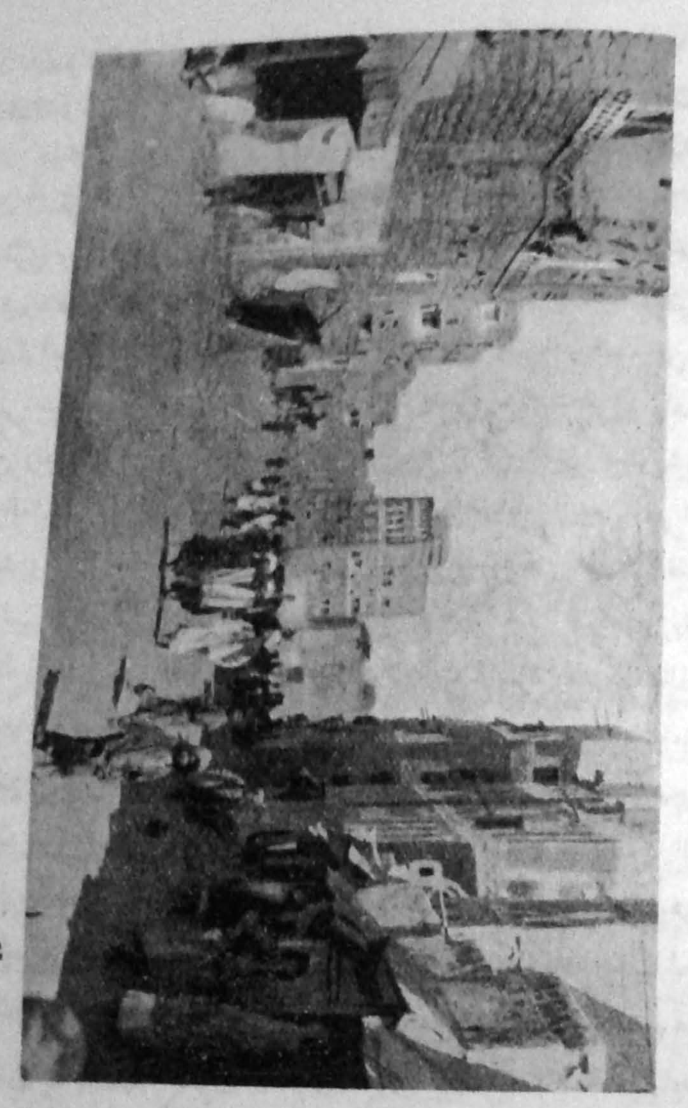
تلامذة المدرسة العلمية المتوكلية

سرت من دكان اليهودي نحو المدرسة العلمية المتوكلية، فرأيت التلاميذ يأتون اليها أفواجاً أفواجاً، وجميعهم بعمائم بيضاء، ويلبسون ألبسة جميلة وثمينة تدل على انهم من أبناء الطبقة الغنية وقفت أنظر اليهم وأتأمل بملامحهم فجاءني بعضهم يمشون مرحاً وسألوني من أين أنت آت؟ وكيف وجدت اليمن؟ فقلت أنا آت من مصر وقد أحببت اليمن كثيراً، لأنه أصبح في هذه الايام القطر العربي الوحيد المستقل الذي لا نفوذ للأجانب فيه، واني أغبطكم على هذه النعمة التي تفردتم بها من دون العرب بفضل حكمة جلالة الامام وكياسته، فقالوا: سبحان الله سبحان الله، والحمد لله، الحمد لله، ثم سألني أحدهم عن الأزهر ومصر والشام والحجاز فاجبته باجوبة توافق المقام، وبدأت بدوري أسألهم عن عدد الطلبة وعن العلوم التي يدرسونها وأوقات الدرس الى غير ذلك

من الأسئلة فأجابني أحدهم انهم يدرسون من الصباح الى الظهر ومن ثم يستريحون نحو ساعة من الزمن فيتغدون خلالها، فيذهب الطلبة النهاريون الى بيوتهم، ويتعشى الطلبة الداخليون في المدرسة. وقالوا ان عدد الطلبة يبلغ نحو خمسمائة طالب، والقسم الكبير منهم داخليون وهم رهائن عند جلالة الامام، ويدرسون القرآن، والصرف، والنحو، والفقه، والحديث، وجميع العلوم الدينية، والانشاء، والبيان، والعروض، والحساب، والجغرافيا، الى غير ذلك من العلوم والفنون. فقلت: حسناً جداً وطلبت منهم أن يسمحوا لي بأخذ صورتهم فوقف رهط منهم أمامي فصورتهم، ومن ثم ودعتهم وأردت الانصراف فاعترضني أحدهم قائلاً: هل طبعتنا؟ (أي صورتنا) فأجبت نعم. فقال: أعطني الصورة. وأخذ الجميع يرددون قوله اعطني صورة أعطني صورة فقلت لا يمكنني ان اعطيكم الآن صوراً لانها تحتاج الى عملية طويلة الى اخراجها، وأخذت أشرح لهم كيفية التصوير، محاولاً اقناعهم بعدم تمكني من اخراج الصورة فوراً، فلم يقنعوا بذلك، وعبثاً حاولت أن أغير فكرهم، وهكذا كان الحال معنا كلما صورنا واحداً من الناس، ودعتهم ثانية وانصرفت فدخلت صنعاء من باب الشرارة وكان واقفاً بالباب جندي حارس فبادرنا بالسلام العسكري ببندقيته فرددت عليه السلام برفع اليد على الطريقة العسكرية التركية.

الاحياء الوطنية في صنعاء: الصيدلية

وأول شيء استرعى نظري في احياء صنعاء الوطنية هو صيدلية البلدية التي تبعد بضعة أمتار عن باب الشرارة وقد وضعت عليها لوحة مكتوب عليها باللغة التركية: (بلدية أجز خانة سي)، دخلت اليها فرأيت رجلاً نحيف الجسم، أسمر اللون، براق العينين متوسط الطول، يرتدي ألبسة عسكرية تركية، ويحمل (رتبة) قائد، جالساً الى كرسي وأمامه غلام يقرأ ورقة. فقلت السلام عليكم، فأجابني باللطف اليماني المشهور وعليكم السلام ورحمة الله. ونهض واقفاً فقلت أين مدير الصيدلية؟ فقال (هاأنذا)! قلت من قراءة اللوحة التي على بابكم خلت ان صيدليتكم ملكية ولكني أراها عسكرية الآن! فقال بلهجة يمانية: (ما فيش خلاف) أنا جندي، ولكن الصيدلية ملكية وعسكرية في آن واحد ونحن



شارع في صنعاء

نقدم العلاجات لجميع الناس لا فرق عندنا بين الملكيين والعسكريين فطلبت منه بعض العلاجات، مثل كينا واسبرين، وصبغة يود، وملح انكليزي الخ. فقدمها لي حالاً فنظرت الى زجاجة أقراص الكينا، فاذا بها من معمولات شركة ويلكم الانكليزية، فقلت يظهر لي انكم تجلبون عقاقيركم من بريطانيا العظمى، فقال: عندنا علاجات مختلفة جلبنا بعضها من بريطانيا وبعضها من فرنسا وبعضها من ايطاليا وألمانيا.

أخذت أتبصر في هذه الصيدلية الوحيدة من نوعها في صنعاء، فرأيتها على غاية من النظافة والترتيب لا تقل رقياً وترتيباً عن متوسط الصيدليات في بلادنا فقلت له: من دواعي سروري أن أرى صيدليتكم تضارع الصيدليات الراقية في ترتيبها، فقال أشكرك على هذا التقدير، هلمّ تفضل وانظر مستودع العلاجات في الدور العلوي وصعد أمامي في سلم حجري نظيف، فصعدت خلفه فوجدت ثلاث غرف كبيرة قد كدست فيها أنواع مختلفة من العقاقير والاجزاء الطبية، وجميعها مرتبة أحسن ترتيب فقلت بارك الله فيكم وفي صيدليتكم، من أين استحصلتم على شهادتكم؟ وأين بلادكم فقال: أنا يماني، صنعاني، واسمي حسن الروضي وتعلمت فن الصيدلية على الصيدلي التركي الذي كان يشتغل هنا أيام الدولة العثمانية، وليس بيدي شهادة مدرسية، وها أنذا اليوم أعلم ابني هذا الفن، فقلت وأين ولدكم؟ فقال هو الغلام الذي رأيتموه في الاسفل فقلت ما شاء الله. ونزلت وإياه الى الصيدلية فوجدت الغلام مكباً على قراءة وريقة، فأخذتها بيدي وتأملتها جيداً، فاذا فيها أسماء علاجات كثيرة مكتوبة باللغة الايطالية، والى جانبها الحروف الرمزية (سيمبول) التي تنوب مناب الاسماء في علم الكيمياء ويتقن هذا الغلام ووالده اللغة الطليانية، وقد تعلماها عقيب مجيء الدكاترة الطليان الى اليمن سألت الصيدلي، كم ثمن هذه العلاجات التي أخذتها؟ فقال كذا بالعملة اليمنية، فقدمت له المبلغ وهو في الحقيقة زهيد جداً، اذا قسناه بالمبلغ الذي تتقاضاه الصيدليات المتوسطة عندنا، فقلت له، يظهر لي أن أثمانكم بخسة جداً، فقال: يجب ان تكون بخسة لأننا لم نفتح هذه الصيدلية بقصد الربح، الله يحفظ جلالة الامام وحكومته لأن قصدهما من فتحها المنفعة العامة ليس الا، ونحن لا ندفع على علاجاتنا جمركاً لأنها تخص الحكومة، وقد أمرتنا هذه الحكومة بأن نعطي العلاجات الى الفقراء مجاناً، وان نتقاضى من الأغنياء ثمن العلاج دون أقل ربح لذلك تجد أثماننا بخسة الى هذه الدرجة فقلت شكراً لهذه الحكومة الحكيمة التي تهتم بشأن رعاياها هذا الاهتمام. ثم سألته هل يوجد في جميع أطراف بلاد اليمن صيدليات على هذه الصورة؟

فأجاب: كلا، لا توجد صيدليات ولكن يوجد أطباء طليان في الحديدة، وحجة وتعز، وغيرها من المدن الكبيرة ويرافق كل طبيب خبير كيماوي يمكنه أن يركب بعض العلاجات بحسب أمر الطبيب وقال ان أهل اليمن لا يزالون غير متمدنين فلا يعنون كثيراً بالأطباء والعقاقير، وخصوصاً القبائل البدوية التي لا تعرف عن الطب شيئاً، وتداوي معظم الأمراض بالكي والنار وببعض الوصفات البدوية التي توارثها الابناء عن الآباء.

الاطباء في اليمن

تحتاج اليمن الى كثير من الاطباء حاجة ملحة، وبرغم تصريح الصيدلي بان اليمانيين لا يتطببون، فانا أعتقد اعتقاداً جازماً بانهم يقدمون على التداوي تدريجياً متى وجدوا عندهم أطباء من بني جنسهم ودينهم، ولكن الأطباء في بلادنا العربية ويا للاسف، لا يقدمون على المهاجرة كما يقدم الأوروبيون لذلك نرى الكثيرين منهم يقنعون بالعمل اليسير في بلادهم ويرجحونه على تكليف أنفسهم السفر الى بلاد بعيدة ولو كانت لهم من وراء هذا السفر أرباح طائلة! أما الاطباء الموجودون في اليمن الآن، فهم من الطليان وقد أتوا الى اليمن عقيب زيارة والي أسمره السنيور غاسبريني لليمن وعقده المعاهدة الطليانية اليمانية المعلومة مع حكومة جلالة الامام، وهم يتناولون رواتب ضخمة من الحكومة المتوكلية، ويبلغ مرتب الواحد منهم ما ينوف على ٦٠٠ ريال امامي أي نحو ستين جنيهاً انكليزياً في الشهر، وتقدم لهم الحكومة أيضاً داراً لسكنهم، وحيوانات لركوبهم وجنوداً لحراستهم ومرافقتهم، وخدماً لخدمتهم وطعاماً لمأكلهم، وقد زرت المستشفى الذي أسسوه في صنعاء فوجدته في حالة ابتدائية تنقصه معظم لوازم المستشفيات الحديثة، وقد أدركت حكومة الامام هذا النقص وأمرت الأطباء أن يبذلوا جهدهم لتحسين هذا المستشفى وغيره من المستشفيات، وجعلها على أقل تقدير كالمستشفيات المتوسطة في بلاد العالم، وقد تقابلت مع أكثر من واحد من الاطباء الطليان وسألتهم لماذا لا تهتمون بالمستشفيات وأنتم المسؤولون عنها بالدرجة الأولى؟ فقالوا: ان هذه المستشفيات كثيرة على اليمنيين ولا يستحقون أفضل منها وشكوا كثيراً من قلة

اهتمام اليمانيين بصحتهم، وعدم إصغائهم لنصائح الأطباء، وعدم مراجعتهم لهم الا في الحالات الخطرة جداً، وذلك مما يسبب كثرة الوفيات، ويزيد في انتشار الأمراض، بسرعة ويجعل مقاومتها صعبة، وخصوصاً أمراض الجدري وحمى الملاريا، والتيفوئيد وغيرها من الأمراض السارية، التي تكثر في المناطق الحارة وأظن ان الأطباء على شيء من الحق في شكواهم، ولكن من البديهي أن هذه الشكوى المريرة لا تنطبق على اليمانيين فقط بل تنطبق على معظم سكان جزيرة العرب الذين لا يأبهون للطب والتطبيب، وذلك بالرغم من أن أول من اشتغل بالطبابة هم العرب ولكن أعود فأكرر ثانية أن اليمانيين لو وجدوا عندهم أطباء مسلمين عرباً لكان موقفهم منهم غير موقفهم من الدكاترة الطليان، والسر في ذلك بديهي لا يحتاج الى ايضاح وبيان.



بناء مستدير داخل سراي الامام يستعمل كمكتب لبعض الموظفين ومخفر للحرس الملكي

سراي الامام

رأيت خلف صيدلية البلدية، أي في الجهة الشمالية من باب الشرارة، مسجداً وبالقرب منه حمّاماً على طراز حمامات دمشق، وخلفه سراي جلالة الامام، التي لا يتمكن المرء أن يراها كاملة ولا من جهة من الجهات الأربع، لأنها كما ذكرت سابقاً محاطة بسور خاص عال، فلا يرى الانسان منها الا ما ارتفع فوق هذا السور ولها بوابة خارجية في السور، ضخمة مبنية بالحجر الأبيض، والأسود، بترتيب جميل. وفيها باب كبير خشبي اسود، وفيه باب صغير (خوخة) ويوجد بالقرب من هذه البوابة بناء مستدير الشكل، يشبه مخافر الجنود في السور العمومي، مبني من اللبن والطين وبابه من داخل السراي يستعمله بعض الموظفين كمكتب لهم. وأما الجامع القريب من السراي فقد جدد بناءه ووسعه، جلالة الامام، وهو يصلي فيه في بعض الاحيان وقد ذكر لي أحد البنائين الذين بنوا هذا الجامع، أنه لم يكلف سوى مبلغ يسير وان نفس سراي جلالة الامام كلفت نحو عشرة آلاف من الجنيهات وفي الحقيقة هذا مبلغ زهيد جداً بالنسبة الى ضخامتها وفخامتها، وهي مبنية جميعها من الحجر الأربيض والأسود والمرمر، ولكن البناء في صنعاء ككل شيء آخر فيها رخيص جداً، اذ لا تكلف الدار العادية المكونة من أربعة أدوار، والمبنية من الحجر والمرمر، والخشب الجيد أكثر من الف جنيه، والايجارات هناك رخيصة للغاية إذ يمكن للمرء أن يستأجر داراً فسيحة مؤلفة من ثلاثة أدوار، بمبلغ ثلاث ورقات سورية شهرياً، وقد لاحظت في صنعاء أن أهلها كغيرهم من أهل الجبال يخشون البرد كثيراً فلا يكثرون من النوافذ الحقيقية ويصغرون حجمها ولكنهم يكثرون مما أسميه بالنوافذ الخلابة الكذابة وأسميها كذابة لأنها لا تفتح ولا تغلق وأسميها بالخلابة لأنها جميلة الشكل تكسب الدار جمالاً خاصاً وبهجة خاصة، وتصنع من أنواع رقيقة من المرمر الأبيض الصافي باشكال هندسية مختلفة يمكن منها دخول النور ولا يمكن دخول الهواء

دور اليمن

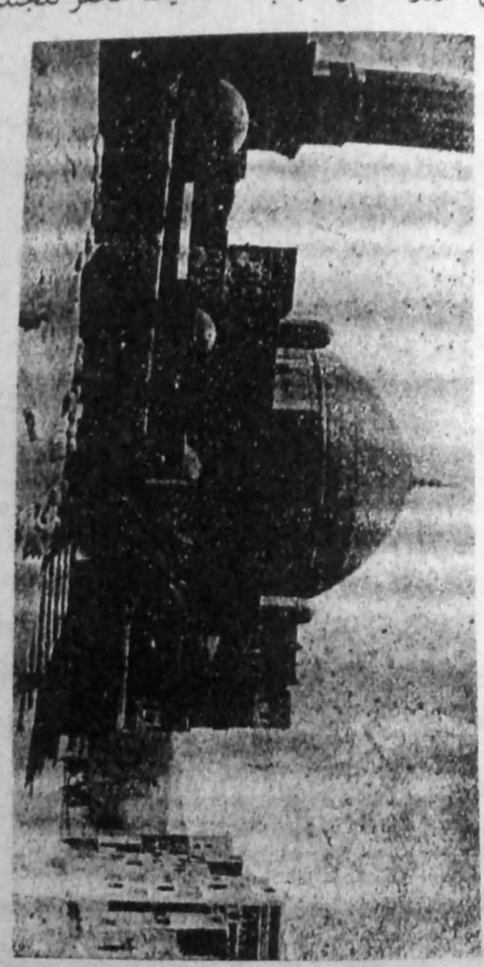
وتبنى الدور في صنعاء وغيرها من بلاد اليمن على شكلين:

الأول: من الحجارة فقط، يضعون بعضها فوق بعض ولا يستعملون في بنائها الطين بل يبنونها بشكل يركب معه الحجر الواحد فوق الحجر الآخر.

والشكل الثاني: يبنونه من الحجارة فقط او من الحجارة والآجر والطين الصحي - ويسمونه باليمن (خلب) - او الطين المضاف اليه شيء من الكلس ويبيضون هذه المنازل بما يسمونه (قص) وهو يشبه الكلس ويصنعونه من حجر خاص يجلبونه من مكان واقع في شرقي صنعاء يقال له الغراس، وهو المكان الوحيد الموجود فيه هذا الحجر فيجلبونه منه الى صنعاء ويحرقونه كما تحرق احجارنا الكلسية في افران خاصة ثم يخرجونه ويطحنونه طحناً فيصبح جاهزاً للعمل ويجلبون لحجارهم من الجبل الشرقي المدعو نقم (وهي بيضاء) ويجلبون أيضاً احجاراً من جبل الجراف الواقع غربي الروضة (وهي سوداء) ويجلبون أيضاً احجاراً بركانية سوداء من جبل عصر أو السنينة الواقع غربي صنعاء، وهي أصلب من حجارة الجراف ومعظم البنائين في صنعاء من اليهود وبعضهم من المسلمين وآلات البناء وأدواته ابتدائية بسيطة للغاية يصنعونها هم بأنفسهم في صنعاء من الحديد، او من الخشب. ولكن بناءهم قوي جداً ويبقى قائماً مئات من السنين. وقد شاهدت بنفسي بعض الأبنية القديمة لا أشك في أن عمرها أكثر من مائة سنة على أقل تقدير ولا تزال متينة وقوية. وليس هذا بغريب على اليمانيين لأنهم ورثوا فن البناء عن أجدادهم أهل سبا ومارب المشهورين بالبناء القوي في العصور الخالية. وقد شاهدت في بعض الاماكن بجهة وعلان آثاراً لسد حميري قديم لا تزال بادية للعيان كأنها من بناء أمس وأول من أمس على الرغم من أنه مضى عليها ألوف السنين. وقد رأيت شيئاً قبيحاً في بعض أبنية صنعاء أوجه اليه نظر رجال الحكومة المتوكلية وهو أنه لا يوجد للدور مجار وأنابيب مغطاة لتصريف الماء القذر حتى ولا مجار لبيوت الخلاء. وقد استعاضوا عن الانابيب بمجاري ماء مكشوفة ومبنية الى طرف جدار الدار فينزل فيها الماء على مرأى من الناس الى الشوارع والأزقة ويسيل بصورة قبيحة وتفوح منه رائحة كريهة، وربما كان هذا الماء من جملة الاسباب في انتشار الامراض، فأوجه نظر أهل الحل والعقد في صنعاء ثانية الى هذا الخلل راجياً أن يتداركوه بحكمتهم

لأنه يضر كثيراً بالصحة العامة.

سرت من أمام الصيدلية ومسجد الامام الذي يقال له مسجد المتوكل ماراً بباب الشقاديف، الذي يخرج منه جلالة الامام يوم الجمعة لتأدية الصلاة، ورأيت عنده الغيل الأسود الذي يسقي بعض حدائق صنعاء وقد مر بنا ذكره جارياً في نفق صغير عمقه نصف متر عن وجه الأرض، وفيه حفرة تأتيها النساء فيملأن جرارهن، ويوجد فوق باب الشقاديف مخفر للجند مخصص لفصيلة من حرس



مسجد في صنعاء يقال له
قبة المهدي عباس

جلالة الامام مبني على شكل مستدير وله درج لولبي ورمايات كرمايات الحصون وتقوم الى جانب هذا الباب الشوارع الكبيرة والاحياء الوطنية واول شيء شاهدته فيها سوق فسيحة معظم دكاكينها كانت مقفلة فخلت نفسي بدمشق في أحد أيام

اضرابا. وتنتهي هذه السوق بمجرى سيل واسع يفصل الاحياء بعضها عن بعض، وتجري فيه المياه أيام المطر بكثرة مبتدئة من أسفل جبل نقم بالجهة الشرقية، ومنتهية بقاع شعب الذي يحيط بصنعاء في الجهة الشمالية، ولكن مجرى السيل في هذه الايام كان جافاً لا ماء فيه، لأن الفصل فصل شتاء وفي الشتاء تقل المطر في اليمن!

الاحجار الكريمة

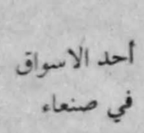
رأيت الى جانب هذا السيل مسجداً يقال له (قبة المهدي عباس) وكان هذا المسجد مفروشاً بالسجاد العجمي القديم، ولكن تجار السجاد الغرباء أتوا الى اليمن بكثرة وأخذوا يبتاعون السجاد القديم بأثمان باهظة فباعهم متولي الجامع السجاد القديم الموجود عنده، وابتاع سجاداً جديداً فرش الجامع بـه. وتوجد الى جانب هذا المسجد سوق صغيرة، فيها بعض الدكاكين، يصقلون فيها الاحجار اليمانية الكريمة وكانت يومئذ مغلقة، وتختلف ألوان هذه الحجارة اختلافاً عجيباً، فمنها البيضاء والسوداء والخضراء والصفراء والحمراء، ومنها ما هو مزيج من هذه الألوان جميعاً او من بعضها وعلى بعضها رسوم بأشكال الطيور والسمك والزحافات وأغصان الاشجار، الى غير ذلك من الاشكال. وهم يجلبونها من جبل نقم ومن جبل الغراس وغيرهما من الجبال القريبة من صنعاء، ويصقلونها بالماء والتراب الناعم على أحجار رملية، ويصنعونها بأشكال مختلفة ويستعملونها في صناعة الحلى، كالخواتم والحلق والازرار وغير ذلك ويجب ان لا يتبادر الى ذهن القارىء من أشكال هذه الحجارة بأنها من المتحجرات لأنها ليست منها بل هي نوع من أنواع الصخر يقال له بالانكليزية (كورتز) وتمتاز هذه الحجارة عن غيرها بصلابتها: فهي صلبة الى درجة لا تخدشها ولا تعمل فيها الادوات الحديدية الحادة بل هي كالماس تقطع الزجاج ولا يقطعها شيء. وتستعمل الاحجار الكبيرة منها ـ وهي نادرة ـ في صناعة بعض الاجران الكيماوية الصلبة التي يستعملونها في الصيدليات لسحق العلاجات. وفي أحيان كثيرة يوجد الذهب كعروق في هذه الاحجار، الا اننا لم نشاهد عروقاً من الذهب في طوافنا باليمن، ولكن روي لنا أن الذهب موجود في بلاد الشرق.

سرت من هنا بين أزقة ضيقة قائمة الى جوانبها دور فخيمة شاهدت في جدران بعضها أحجاراً قديمة عليها كتابة (حميرية) نقلها الأهلون من الأبنية القديمة المتداعية فبنوا فيها دورهم وحوانيتهم.

الاسواق المغلقة والاضراب بالرصاص

ثم مررت بسوق البقر وسوق الحطب وسوق البز أي الأقمشة وسوق القمح وسوق الزبيب والجوز وغيرها من الأسواق الكثيرة وكانت معظمها مقفلة ولم أشاهد فيها الا بعض الناس، فحرت في امرها وسألت رفيقي الجندي هل عندكم اليوم عيد؟ أم عندكم اضراب عام؟ فقال: لا يوجد عندنا عيد. قلت اذاً





أحد الاسواق
في صنعاء

اضراب؟ فلم يفهم معنى الاضراب وعند ما أفهمته معنى الاضراب ضحك حتى كاد يغشى عليه من الضحك ويستلقي على قفاه وقال: نحن لسنا بحاجة الى هذه الأمور ولو احتجنا اليها لا نستعملها بل نستعمل هذا (البندق) وأشار الى البندقية التي كان يحملها على كتفه أكبرت في الجندي هذا الشعور الوطني وقلت في نفسي (أكل العصي ليس كالذي يحصيها) ثم سألته ثانية اذاً لماذا أغلق الناس حوانيتهم ومخازنهم! فأجاب: سامحك الله الوقت وقت الظهر والناس يأكلون القات. فقلت حسناً وعدت أدراجي نحو الدار وأنا أفكر بالقات وأكله وكنت أصادف بعض المارة في الطريق فأرى أفواههم وأحناكهم منهمكة في مضغ القات وأيديهم ملأى بغصونه. فقلت لرفيقي الجندي ما شاء الله الناس (يخزنون) القات حتى في الطرقات، فأجاب، نعم يا سيدي انهم يخزنون القات

في كل مكان والقات نله (أي جيد) خذ وكل وأخرج من بين ثيابه رزمة من القات ابتاعها في الطريق وقدم لي بعض الاغصان. فشكرته وقلت بلطف لا أريد. فقال الله يسامحك الغني والفقير يأكل القات عندنا وينفق الفقراء أحياناً ريالاً او ريالين ثمن القات، فقت حسناً هناكم الله بالقات وصرت أتعجب في نفسي وأفكر في أمر ذلك الفقير الذي ينفق ريالاً ثمن قاته كل يوم في حين يعيش رب العائلة مع اهل بيته في اليمن ولا ينفق في يومه نصف ريال لأن ثمن المأكولات والحاجيات رخيص جداً. فالبيض مثلاً العشرون منه بفرنك والدجاج الواحدة بفرنك ورطل اللحم بأربعة الى خمسة فرنكات وعلى ذلك فقس! وأما القات فغال جداً بالنسبة الى غيره من الحاجيات أولاً لشدة الطلب عليه وثانياً لأن الحكومة تعتبره من الكماليات وتتقاضى عليه رسوماً باهظة. ولا يوجد في صنعاء نفسها قات بل يجلب اليها من الضواحي مثل الروضة والوادي وعافش الخ. ومن الغريب ان اخواننا اليمانيين بما فيهم المتعلمون والراقون، ما خلا نفر قليل منهم يسلمون بضرر القات ويعلمون حق العلم الخسائر المادية والمعنوية التي تعود عليهم من استعماله ولكنهم يأنفون ويغضبون من سماع كلمة نقد فيه ويدافعون عنه بكل قواهم.

البرد في صنعاء

وصلت الى الدار قبل الغروب وقد أخذ الهواء يبرد وابتدأت قائمة الحرارة (ترمو متر) تهبط هبوطاً سريعاً فشعرت بالبرد يتسرب الى جسمي فلبست معطفي وجلست أطالع في بعض الكتب قصد التسلية وانتظاراً لوقت العشاء. وبعد العشاء شعرت بالبرد أكثر فصعدت لغرفة النوم واندسست في سريري هرباً من البرد اذ لا يوجد في منازل صنعاء وسائط للتدفئة ولم أشاهد (دفاية) واحدة وبعد التجربة العملية وجدت أن الفراش أفضل مكان للتدفئة ولاحظت أن برد اليمن كبرد بلودان لا يضر بالجسم كما يضر به برد مصر ودمشق وذلك لأن هواء اليمن كهواء بلودان ناشف جداً بخلاف هواء مصر والشام المشبع بالرطوبة.

قضيت ليلتي على أحسن حال ونمت نوماً هادئاً استيقظت خلاله مرة أو مرتين على صياح الحرس في مخافر السور وهم ينادون بعضهم بعضاً باصوات

غريبة عذبة وانغام اعذب تجتذب الاسماع، وقبيل الفجر صحوت على صوت المؤذنين الذي كان يرن صداه في هدوء ليل صنعاء البهيم فيزيده حرمة ورهبة ويشعر بفرار جيوش الظلام ويبشر بقرب طلوع جحافل النهار باسم الواحد القهار. وقد لاحظت ان الاذان في صنعاء تختلف نغمته عن الاذان في مصر والشام وخصوصاً اذان (التذكير) المشهور في يومي الجمعة والاثنين فهو عندهم مختصر جداً ولا يرتلونه ترتيلاً كما يرتلونه في الشام ومصر

الدلالون والعاديات

بعد تناول طعام الصباح اتاني احد الجنود الذين بالباب وقال لي يوجد كثير من الدلالين بالباب يريدون الدخول عليك قلت وما شأننا والدلالون؟ فقال: هذه عادتهم في صنعاء متى علموا بوصول غرباء فانهم يجلبون لهم ما خف حمله من العاديات (الانتيكات) ليعرضوها عليهم بقصد البيع والشراء فاذا اذنتم لهم بالدخول ادخلناهم وان لم تأذنوا نصرفهم، فقلت لا بأس من دخولهم، فدخلوا فاذا بهم يحملون (مفارش) - أي سجاداً عجمياً - واداوات نحاسية ودراهم فضية وذهبية قديمة و(فصوصاً) يمانية وهي أحجار غريبة الأشكال والالوان بعضها قديم وبعضها جديد يستعملونها في صياغة الخواتم، واحجار حميرية منها ما هو منحوت بشكل اشخاص وتماثيل ومنها ما هو على شكل الحيوانات ومنها ما هو مكتوب كتابة غريبة، وقيل لنا انها حميرية ومسمارية. فتأملنا في هذه الاشياء الغريبة ولم نشتر سوى بعض الفصوص لعدم معرفتنا بالاشياء الاخرى، وسألنا الدلالين عن السجاد القديم فقالوا لقد أخذه التجار الترك باثمان بخسة ورووا لنا أن تاجراً ابتاع سجادة عجمية قديمة من آل السنيدار بمبلغ مائة جنيه انكليزي وباعها بمصر بالف وخمس مائة جنيه مصري. ومما قالوه ان الجامع الكبير كان مفروشاً بالسجاد القديم فابتاعه الترك وفرشوا عوضاً عنه سجاداً جديداً. واما النحاس فبعضه كان جميلاً جداً ومكتوباً عليه كتابة عربية وفيه رسوم سمك واسماء بعض الملوك والأئمة المعاصرين له وتاريخ حكمهم وجله مصنوع من النحاس الاصفر وبعضه من النحاس الاحمر. والدلالون في صنعاء كغيرهم من الدلالين والباعة في أقطار الشرق يطلبون في الحاجة عشرة دنانير فيبيعونها بدينار

واحد وهم كثيرون جداً لا يأتي غريب أو أجنبي الى صنعاء الا وينهالون عليه من كل فج عميق ويجلبون له كل شيء تصل اليه أيديهم ومن طبول وزمور وبنادق وسيوف وجنبيات ومسدسات وساعات ونقود وزجاج فارغ الخ . . . وبعد التجربة والدرس وجدنا ان معظم النقود والتماثيل التي كانوا يأتوننا بها والتي يدعون انها قديمة من عهد حمير ليست الا جديدة ومزيفة بصنعاء منذ عهد قريب جداً ويقوم بعملية التزييف رهط من الصناع اليهود ولكن معظم النحاس قديم جداً وخاصة النوع الذي يقولون له غساني.

قاع اليهود

بعدما انتهيت من الدلالين خرجت من الدار وبصحبتي أحد الدلالين اليهود لزيارة قاع اليهود وأصل معنى القاع السهل وسمي محل اليهود بالقاع لأنه واقع في سهل واسع ولم أصطحب معي أحداً من الجنود لأن اليهود لا يميلون الى الجنود ولا يحبونهم ولا يتكلمون أمامهم غير الكلام المباح، أما اذا اختلوا بالغريب فانهم يتكلمون معه بحرية تامة. طفت بالقاع من أوله الى آخره ودخلت منازل كثيرة من منازله ورأيت بعض غانياته وتحدثت اليهن فلم يفررن مني كما كن يفررن يوم دخولنا الى صنعاء، ومنازل اليهود من داخلها نظيفة وأنيقة للغاية رغم حقارتها وصغر حجمها ولكنها من الخارج قذرة وأطرافها ملأى بالاوساخ والأوحال ويوجد في القاع عدة أسواق فيها جميع أنواع البضائع والخردوات من أقمشة وأدوات منزلية الى غير ذلك من لوازم هذه الحياة وفيها فرن (أتون) لصنع الاجر الأحمر وآخر لصناعة الأدوات الخزفية والفخارية كالاباريق والشربيات والتنانير الى غير ذلك من المصنوعات المشوية.

حديث مع الحاخام يحيى اسحاق

تقابلت في القاع مع عدة أشخاص من كبار اليهود وعيونهم وسألتهم أسئلة متعددة عن أصل اليهود اليمانيين وعن أحوالهم وأشغالهم وها أنا أنقل حديثاً جرى بيني وبين حاخامهم الاكبر المدعو يحيى اسحاق في داره سألته ماذا تعرف عن أصل اليهود في اليمن وعن مدينتهم؟

فقال: كانت لليهود مدينة عظيمة وكان لهم ملك فخيم في شرقي صنعاء وقد أسس ذلك الملك وتلك المدينة الملك سليمان بن داود وكان سلام الله عليه سيد البلاد بلا منازع ودامت مملكته من بعده زمناً طويلاً.

(س) هل قامت تلك المملكة في نجران؟

(ج) لا أعلم بالضبط أين كانت ولكني لا أشك انها كانت في شرقي صنعاء ومن المحتمل انها كانت في نجران وأنا واثق بان صنعاء حديثة العهد بالنسبة الى تلك المملكة العظيمة القديمة

(س) كم عدد اليهود في صنعاء وكم هو في جميع بلاد اليمن؟

(ج) يوجد في صنعاء نحو عشرة آلاف يهودي من الذكور ومثلهم تقريباً من الاناث ويوجد كثير من اليهود في جميع أطراف اليمن ولا أعلم عددهم بالضبط لأنهم يتنقلون من مكان الى مكان ضا_بين بارض اليمن الواسعة فلا يستقرون الا حيث يجدون عملاً.

(س) كيف كانت معاملة الترك لليهود أيام الدولة العثمانية؟ وكيف معاملة اليمانيين لهم الآن؟

(ج) لم تكن معاملة الترك لنا حسنة كما ان معاملة اليمانيين ليست حسنة ولكنها على كل الأحوال أفضل من معاملة الترك والله يحفظ الامام انه يدافع عنا وينصفنا ويمنع جميع التعديات علينا ويجازي كل من يتجرأ فيتعدى علينا جزاء صارماً.

(س) هل لكم علاقات بالعالم الخارجي وهل تأخذون أخبار اخوانكم اليهود في هذه الدنيا؟

(ج) نعم يوجد لنا علاقات ومخابرات دينية مع القدس ويافا والقاهرة والاسكندرية ونأخذ دوماً جرائد من القدس ويوجد يهود يمانيون بكثرة هنالك ولي ولد في يافا والمكاتبات تجري بيننا وبين أصدقائنا في جميع البلاد بصورة منتظمة.

(س) هل يوجد بينكم يهود صهيونيون ويهود غرباء عن اليمن وهل تعطفون على الحركة الصهيونية وتؤيدونها أم لا؟

(ج) لا يوجد عندنا يهود غرباء ولا يهود صهيونيون انما منذ عهد بعيد أتى الى اليمن بعض التجار اليهود الغرباء وما لبثوا أن قفلوا راجعين من حيث أتـوا واما الصهيونية فليس لنا أقل علاقة بها ولا ننظر بارتياح الى بعض مبادئها وكانت ولا تزال جريدة من جرائد الصهيونيين ترسل الينا من القدس هـدية من دون أن نطلبها.

(س) هل يوجد عندكم مدارس وكنائس وهل يعارضكم أحـد في ممارسـة طقوسكم الدينية؟

(ج) عندنا ١٥ مدرسة و١٩ كنيسة في صنعاء ونمارس طقوسنا الدينيـة كما نشتهي ونطبق شريعتنا اليهودية كما نرغب فلا يعترضنا معترض ولا ينتقدنا منتقد، وقلما يراجع احد منا الحكومـة المحلية بشأن من الشؤون ونعلم أولادنا في مدارسنا العبراني ولا نعلمهم العربي وجميعنا نتكلم العبراني في دورنا وبين ذوينا ولا أحد من المسلمين يتدخل في أمر مدارسنا أو اي شأن آخر من شؤوننا الدنيوية والدينية ما دمنا محافظين على الامن والسكينة.

(س) هل لكم ارتباط خاص مع الحاخامين بالخارج من الوجهة الدينية؟

(ج) ليس لنا ارتباط باحد من الحاخاميـن بصورة رسمية ولكن كثيراً ما تأتينا اسئلة من حاخام مصر او القدس مثلاً عن موسى من الناس اليماني الاصل وهل هو متزوج او أعزب؟ واذا كان متزوجاً فكم ولد عنده؟ وهل له املاك او تجارة في اليمن ام لا؟ فنجيب على هــذه الأسئلة بحسب الظروف، وبـديهي أن هـذه الأسئلة تتعلق بالزواج والطلاق وأعمال العزوبة الخـاصة التي يجب على كـل رئيس ديني أن يعرفها.

(س) هل تعلمون حقيقة السر في عزلة حي اليهود عن أحياء المسلمين؟

(ج) لا يوجد سبب جوهري ومن المعلوم أن اليهود في اليمن كانـوا تحت

رحمة ائمة المسلمين وولاة الترك وبحسب الظاهر ان أحد الأئمة او الولاة غضب على اليهود بسبب من الأسباب فأمر بلزوم ابتعادهم عن المسلمين وعزلتهم عنهم فصارت عادة من ذلك الحين وانا لا أشك أنهم كانوا قديماً أي قبل ۲۰۰ سنة يقطنون بعضهم مع بعض في احياء واحدة ودليلي على ذلك أنه توجد في بعض أطراف اليمن على حدود عسير بلدان كثيرة يقطن فيها المسلمون واليهود أحياء قائمة جنباً الى جنب ومن الغريب ان المسلمين هنالك يعيدون في أعياد اليهود كما أن اليهود يعيدون في أعياد المسلمين وكانوا في قديم الزمان ايضاً يتزوجون بعضهم من بعض.

(س) من المسموع في الشرق والغرب أن الترك كانوا يعطفون عليكم فهل هذا حقيقي؟

(ج) كلا ان حالنا مع الترك مثله مع الائمة اذا صادف ان عطف علينا أحد الولاة او أحد الائمة يوماً من الأيام فلا شك أن يأتي يوم آخر يقوم به وال أو امام فيسيء الينا بقدر ما أحسن الينا سلفه.

(س) هل تعلمون شيئاً عن أصل اليهود في اليمن! وهل اتوا من فلسطين؟ وهل هم من سكان البلاد الأصليين؟ وعن أي طريق اتوا الى اليمن؟

(ج) ليس اليهود من سكان اليمن الأصليين ولكنهم اتوا من أرض كنعان قبل أن يتشتت شملهم من القدس وقد جاءوا اليمن مهاجرين عن الطريق الشرقية.

(س) هل عندكم كتب تاريخية قديمة تبحث في أحوال اليهود بعد خراب الهيكل في القدس؟ وكيف تشتت شملهم!

(ج) كان يوجد عند حاخامي اليهود كتباً تاريخية قديمة كثيرة ولكن معظمها تلفت في الحروب التي حصلت باليمن بين اليهود والمسلمين وبين الترك والعرب.

(س) هل كان اليهود يساعدون مواطنيهم العرب على الترك في حروبهم؟

(ج) كلا : هم دائماً على الحياد لا يلتزمون جانباً دون الآخر ولا يناصرون فريقاً على فريق.

(س) ارى عندكم فوق الرفوف بعض الكتب المطبوعة فهل توجد عندكم مطابع؟

(ج) كلا لا توجد عندنا مطابع بل نحن نجلب كتبنا المطبوعة من القدس وأما الكتب الخطية فاننا ننسخها عن بعض الكتب القديمة التي لا تزال محفوظة عندنا وهي نادرة الوجود في خزائننا.

يشوع ابراهيم عوض

حضر حديثنا رجل يهودي طاعن في السن، بيضت الايام جميع شعر رأسه ولحيته فسألت محدثي عن هذا فقال هو نسيب لي يدعى (يشوع ابراهيم عوض) وهو في العقد العاشر من العمر وقد زار اميركا منذ خمسين سنة. فملت بنظري نحو هذا الرجل الهرم الكبير وسألته أي ولاية من ولايات أميركا زرت؟ فقال: اني ذهبت الى مدينة نيويورك نفسها وبقيت فيها ثلاث سنوات اشتغلت فيها كعامل بسيط في أحد المعامل. فقلت هل تعلمت اللغة الانكليزية؟ فقال: تعلمتها قليلاً ونسيتها الآن. قلت ولماذا عدت من أميركا! قال حب الوطن قتّال والشوق الى الاهل والخلان حملاني على مغادرة نيويورك وحياتها الرغيدة والعودة الى صنعاء وحياتها الشاقة.

طلبت الى الحاخام أن يقف الى جانب الرجل العجوز لاصورهما فامتنع من ذلك وقال انه لا يحب التصوير ولكن العجوز لم يمانع في ذلك.

مخابرة الصهيونيين السرية

اني اعتقد بأن الحاخام الاكبر كان صادقاً في جميع أقواله ولم يتصنع في أجوبته اللهم ما عدا تصريحاته عن الصهيونية فاني لاحظت عليه الارتباك عندما كنت أسأله بعض الاسئلة التي تتعلق بالصهيونية فقد علمت فيما بعد بان للصهيونيين مخابرة طويلة عريضة مع صنعاء ولهذه الجمعية صناديق للاعانة في

كل دار من دور اليهود في معظم مدن اليمن. واليهودي الذي يريد أن يتصدق بشيء مهما يكن زهيداً يضعه في هذا الصندوق ورب الدار ليس مأذوناً بفتح هذا الصندوق بل يفتحه وكيل الجمعية كل شهر مرة ويخرج ما فيه فيجتمع لديه مبلغ وافر يرسله الى صندوق الجمعية بالقدس ويدعون هذا الصندوق بصندوق الأمة.

وأخبرني محدثي عن الصهيونية خارج اليمن بأن لها طوابع بريد خاصة بثمن زهيد جداً يضعها كل صهيوني على كل خطاب يرسله الى صهيوني آخر واذا ورد لأحدهم كتاب وليس عليه الطابع الصهيوني فيرده المرسل اليه الى المرسل ولا يفض غلافة مهما تكن خطورة ذلك الكتاب ولهم أيضاً حدائق خاصة بالمواليد



اليهودي يشوع ابراهيم عوض
زار أميركا قبل ٥٠ عاماً

واذا رزق احدهم مولوداً يغرس له شجرة باسمه في تلك الحديقة ويدفع لقاء ذلك مبلغاً من المال ولهم أيضاً حدائق باسم الأموات فاذا مات شخص غرسوا شجرة لذكراه في حديقة الاموات ويذهب ريع هذه الحدائق الى صندوق الامة. أكبرت هذا الترتيب والنظام في هذا الشعب المضطهد في سائر أقطار المعمورة وقلت في نفسي يا حبذا لو كان زعماء الحركة الوطنية في الشرق يقتدون باليهود ويأخذون هذه الدروس عنهم.

المدارس والكنائس

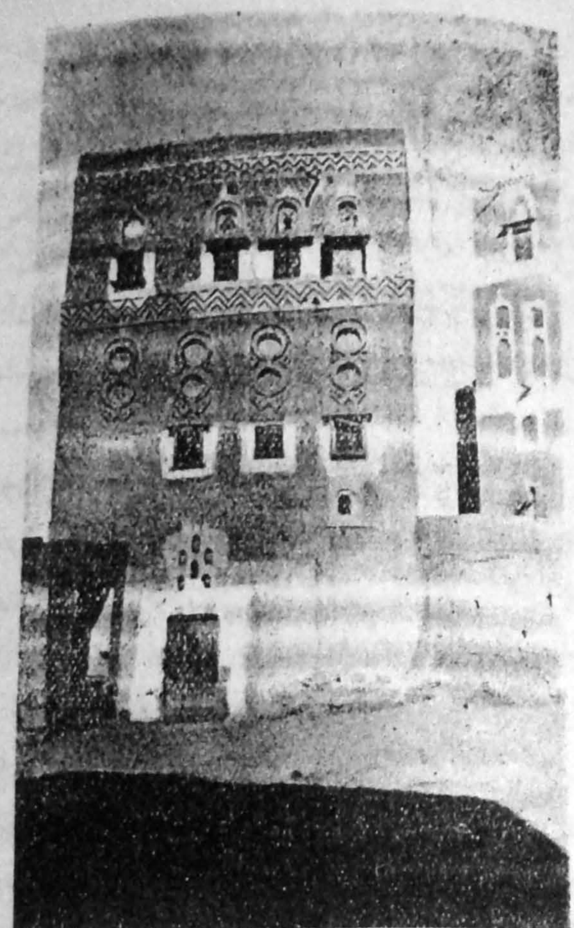
بعد ما انتهيت من الحديث مع الحاخام الاكبر ودعته وزرت بعض المدارس والكنائس فوجدتها على غاية من النظام والترتيب والنظافة ورأيت أولاد اليهود كأولاد المسلمين يجلسون في مدارسهم على الأرض وامامهم طاولات خشبية صغيرة يضعون عليها كتبهم ويقرأون جميعاً بصوت واحد ووقت واحد فلا يفهم الانسان منهم شيئاً. ورأيت في الكنائس التوراة مكتوبة على رق غزال وملفوفة بعدة ملفات فطلبت من أحد الحاخامين أن (يفردها) أمامي فنشر لي ملفاً فوجدت كتابته جميلة ومتقنة للغاية وقد صورت واحدة منها.

ويدعي اليهود أنهم جلبوا التوراة معهم من فلسطين بعد خراب الهيكل أي منذ ٢٠٠٠ سنة تقريباً.

قابلت كثيرين من حاخامي اليهود وشيوخهم في صنعاء وذمار واب وسألتهم نفس الاسئلة التي وجهتها الى حاخامهم الاكبر في صنعاء فوجدت منهم اجماعاً على أن اليهود ليسوا من سكان اليمن الأصليين بل هاجروا اليها قبل خراب الهيكل وبعده من القدس وقد جاءت أجوبتهم مطابقة لأجوبة حاخامهم الاكبر وسوف يطلع عليها القارىء الكريم في سير هذه الرحلة

رأي المسلمين في هجرة اليهود

سألت كثيراً من المسلمين العلماء في صنعاء وغيرها من البلاد عن أصل اليهود وهجرتهم فقالوا لي ان اليهود من سكان اليمن الاصليين وجدوا فيه قبل



دار قاع اليهود في صنعاء
فيها معمل برتقان

خراب الهيكل وبعد خراب الهيكل أتت منهم جموع عظيمة وتغلغلت في أطراف اليمن وحضرموت وعسير وغيرها من البلاد

وقد اكد لي بعض المسلمين انه كانت لليهود في اليمن مدنية راقية وكانوا أهل سنان وعنان وكانت لهم دولة قوية وتحاربوا مع العرب حروباً كثيرة، غلبوا في نهايتها على أمرهم وخضعوا لسلطان غيرهم وأدخلهم الاسلام في ذمته فاصبحوا ذميين

معامل البرتقان

عدت من حي اليهود حوالي الظهر ومررت في طريقي بمعامل (البرتقان)-

ويطلق اسم البرتقان على العطوس او النشوق - أي التنباك المسحوق الذي يستعمله الناس كمضغة يمضغونها بأفواههم وكنشوق يستنشقونه بأنوفهم.

دخلت أحد هذه المعامل فاذا به يتألف من (دور) أرضي فيه عدة غرف صغيرة وفي كل غرفة أريكة علوها نحو متر واحد وعليها ثلاث أو أربع مطاحن يدوية، ويعمل في كل مطحنة منها فتاة أو امرأة يهودية وقد عصبن انوفهن وأفواههن بعصابات من القماش (كقناع) ليمنعن دخول التنباك المسحوق اليها، ولكن لم تأت هذه العصابات او الكمامات - ويا للاسف - بالفائدة المطلوبة، وقد رأيت في وجوه جميع هؤلاء البائسات وأعينهن اصفراراً يشبه اصفرار المصابين باليرقان وصحتهن متأخرة جداً فسألت احداهن كم ساعة تعملن على المطحنة فأجابت من طلوع الشمس حتى الظهر وعند الظهر نتناول طعامنا ونستريح قليلاً ثم نعود الى الرحى حتى مغيب الشمس، فقلت: وكم تتقاضين من الاجرة في اليوم؟ فأجابت: ربع ريال، أي نحو ثمانية قروش سورية، فقلت: هل تنزعجن من رائحة التنباك؟ فأجابت: في ابتداء ممارستنا لهذا العمل ننزعج كثيراً وأما بعد الممارسة فنألفه ولا نعود نشعر برائحته الا قليلاً. وفي أثناء هذا الحديث مع الفتاة الذي لم يستغرق غير بضع دقائق كدت أختنق من رائحة التنباك فأسرعت بالخروج من المعمل الى باحة الدار واذا بصاحب المعمل قد اتى فسألته هل تضعون مع التنباك شيئاً قبل أن يصبح نشوقاً او عطوساً؟ فقال نعم اننا نضع معه نوعاً من التراب يقال له (دقدقة)، فقلت: ومن أين تجلبون التنباك؟ فقال: يجلبه لنا التجار الكبار من عدن، ومن السويس ونبتاعه نحن منهم بحسب حاجتنا اليه.

فقلت هل تصنعون كميات كبيرة؟ فأجاب: نعم اننا نصنع كميات لا يستهان بها لأن البرتقان شائع الاستعمال كثيراً بين جميع طبقات الشعب وخاصة بين رجال القبائل البدوية، وهم الكثرة في البلاد. وقد لاحظت بنفسي في أثناء روحاتي وغدواتي هنا وهناك صحة هذا القول ورأيت الناس يقدمون البرتقان بعضهم لبعض كما نقدم نحن السيكارات وهم يضعونه في علب خاصة جميلة يحملونها في أحزمتهم والأحزمة كثيرة الشيوع بين اليمانيين ويندر أن يشاهد

الانسان رجلاً يمانياً بدون حزام وهذا الحزام هو جيب بل (خرج) يضع فيه المرء جميع ما يحتاج اليه من الادوات من مقص وموس وخنجر وسيكارات وعلبة برتقان وقلم ودواة وقرطاس ومسلة وخيوط ودراهم الخ الخ. والبرتقان كالقات مضر بالصحة كثيراً لأنه يقلل من شهية الانسان للطعام ويؤثر في الاعصاب فيخدرها ويضعفها ويغير لون الاسنان ويصبغها بصبغة سوداء لا تزول عنها رغم غسلها بالماء والسواك وقلما يرى السائح رجلاً في اليمن سليم الأسنان ونظيفها وذلك لكثرة اسعمال القات والبرتقان.

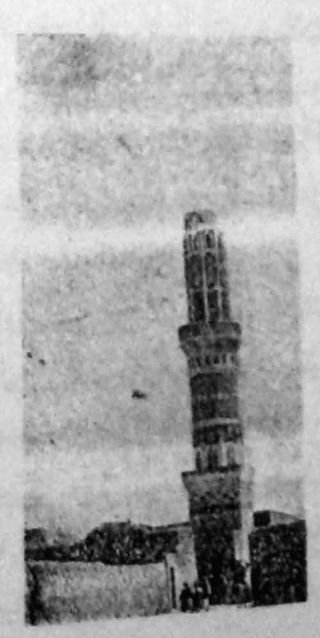
دكاكين الصياغ

سرت من معمل البرتقان بعد أن ودعت صاحبه وشكرته على المعلومات التي ادلى بها الي، ومررت بدكاكين الصياغ فوجدت أصحابها وعمالها جميعاً من اليهود فدخلت احد تلك الدكاكين فرأيت صاحبها جالساً في الصدر وحوله ثلاثة أو أربعة عمال كبار وصغار والى جانبه خزانة حديدية قديمة فقلت له بلغة اليمن: مرحباً يا يهودا - أي يهودي فتمتم بعض الكلمات التي لم أفهمها ثم قدم لي صندوقاً خشبياً قديماً وقال: هي تفضل وقنبر (أي أجلس) فقنبرت على صندوق الكاز وقلت له هب لي - اي اعطني - بعض الاساور والخواتم والحلق من صنعكم فلم يفهم مني شيئاً وأخذنا نتكلم بالاشارة ولغة الخرسان وبينت له انني اريد الحلى التي تلبسها النساء بالمعصم والاصابع والآذان فقال تعنى بلاذك (أي أساور) ومداور (اي خواتم) فقلت نعم لا فض فوك هذا الذي أعنيه، فقال حسناً فهمت طلبك ولكن أتريد من الدقة (اي النقشة) التركية الحديثة ام من الدقة القديمة الخاصة بالقبائل! فقلت أرني جميع ما عندك، ففتح درجاً بالصندوق الحديدي وأخرج منه كيساً مملوءاً اشكالاً وأنواعاً مختلفة من المصاغات، والحق يقال ان بعضها جميل جداً وعليها نقوش لم اشاهد مثلها في الشام ومصر وجميعها مصنوعة من الفضة وبعضها مطلية بماء الذهب، ورأيت العمال الى جانبي يصبون بعض الحلى صباً بقوالب خاصة ويشتغلون بعضها شغلاً باليد ويحفرونها أشكالاً غريبة، ورغم ضخامتها فان عليها مسحة من الجمال قلما يراها الانسان في المصاغات الحديثة في البلاد المتمدنة، فسألت عن أثمان

بعضها فقال لي بالوزن.. فقلت زن لي هذه البلاذك وتلك المداور فوزنها وقال لي ثمنها كذا فقلت حسناً ونفحته الثمن وهو يزيد شيئاً يسيراً عن قيمة الفضة، وهذه الزيادة اليسيرة لا تساوي في الحقيقة اجرة العمل ولكن بارك الله في العربية السعيدة فكل شيء فيها جميل ولطيف ورخيص وما أخطأ الذين سموها سعيدة في هذه التسمية. والحلى التركية أدق صنعاً من الحلى اليمانية وأخف منها. واما الحلى القبائلية فثقيلة الوزن كبيرة الحجم وكثيرة السلاسل والتعاليق والدبابيس وما أشبه ذلك. وتلبس نساء اليمن حلى كثيرة ويفاخرن باقتنائها وعندهن حلى لمعظم اعضاء الجسد بما فيها الاذن وبين العينين والاذنين والساعدين والمعصم والارجل الخ... ولها اسماء خاصة تختلف كل الاختلاف عن أسمائها عندنا.

الحمامات

خرجت من دكان الصائغ وعدت الى دارنا قاطعاً حي بئر العزب من الغرب الى الشرق فشاهدت في أوله من جهة قاع اليهود جامع حنظل وله مأذنة (منارة) جميلة مبنية من الحجر والأجر. ومررت بطريقي ببعض الحمامات وهي كثيرة في صنعاء لأنه لا توجد في المنازل حمامات خاصة وربما بلغ عدد الحمامات



مأذنة جامع حنظل

في صنعاء أكثر من العشرين وهي مبنية على الطراز التركي القديم المعروف عندنا في الشام، ويقوم بادارتها مدير (معلم) وبعض العمال ولهم طرق خاصة في التدليك والتفريك وتمسيد الاعضاء والعضلات، وفي الحقيقة ان المرء اذا دخلها بعد سفر طويل شاق كسفر الحديدة ـ صنعاء يخرج منها ولسان حاله يردد ما قاله البدوي: «ان نعيم الدنيا هو الحمام!» وتفتح هذه الحمامات أبوابها في الصباح للرجال وبعد الظهر للنساء وبعضها تخصص أياماً للنساء وأياماً للرجال.

السيد زبارة والقصر

وصلت الدار بعد جولة استغرقت عدة ساعات فوجدت رسولاً قد أتاني من قبل السيد محمد بن محمد زبارة أمير القصر السعيد بصنعاء وكنت أحمل اليه كتاباً من صاحب السمو المرحوم محمد سيف الاسلام يوصيه فيه بأن يطلعني على حقيقة نهضة الامام وحروبه مع الترك ومواقعه المشهورة ومواقفه المعروفة. والسيد محمد زبارة المشار اليه هو من رجال الامام الذين رافقوه منذ أول نهضته وأيده في دعوته سنة ١٣٢٢ هجرية وشاركه الضراء قبل السراء في جميع حروبه. وقد تفضل سيادته وأرسل لي مع رسوله خطاباً يقول فيه بأنه سيأتي لزيارتي بعد الظهر. جاء سيادته بعد الظهر فرحبت به أجمل ترحيب وأجلسته في صالون استقبالنا وشكرته على مقدمه وطلبت منه أن يحدثني عن تاريخ حياة جلالة الامام وعن أحوال اليمن قبل توليته الامامة فحدثني سيادته أحاديث مطولة وتكرم عليَّ ببعض الكتب والقصائد والرسائل، وسأنقل للقارىء الكريم شيئاً منها ليقف على حقيقة أعمال هذا الرجل. وقد أظهرت لي أحاديثه ذكاء نادراً وعلماً واسعاً ولطفاً زائداً وقد عرف جلالة الامام في هذا السيد الكريم هذه الصفات الحميدة فعينه أميراً للقصر، والقصر هو معمل ميكانيكي عظيم تصنع فيه البنادق الحربية والعتاد والبارود والأدوات الميكانيكية، وتسك فيه النقود، وتصلح المتراليوزات والمدافع. وقد أكثرت على السيد زبارة من السؤالات وأحرجت مركزه مراراً بطلبي منه الافصاح عن بعض الأخبار والأسرار التي لا يجوز افشاؤها فكان يدور حول أسئلتي دون أن يجيب عليها ثم يتملص منها بأسلوب سياسي أديب وينتقل بلطف الى موضوع آخر، وقد أطلعني سيادته على قصيدة عامرة

قالها في مديح حضرة الامام اثر توليته امامة اليمن بعد وفاة جلالة والده المنصور

وهذا بعضها:

ومذ قضى [illegible] المنصور	وكادت الارض لـذا تمـور
اجتمع السادات والقادات	وعمدة الاعلام والاثبات
ونظروا في الامر قبل دفنه	فبايعوا عن اتفاق لابنه
وهو أمير المؤمنين (يحيى)	من جدد الدين لنا وأحيا
وأوضح الحجة في هذا الزمن	وأرشد الخلق الى خير سنن
وشيد الاعلام للشريعة	وبدد المظالم الشنيعة

الى ان يقول:

مولده باليمن والسرور	بنفس صنعا جاء في غفور
ثم دعا من بعد تلك الحادثة	في ثاني العشرين بعد الثالثة

ثم يقول:

وثالث[1] العشرين فتح صنعا	فأظهر الامام فيها الشرعا
وعادت الاتراك كالرمال	يقودها فيضى[2] الى ازال
قيل الى تسعين ألفاً رجلها	ودونها فرسانها وخيلها
وشن فيضى على شهاره[3]	في شهر رمضان أي غاره
وكان ما كان من المعامع	وأخذ ما أوصل من مدافع
وفر فيضى الى أزال	من خوفه للاسر والنكال
وسبب الاخبار في جبور[4]	وغيرها للوحش والطيور
ورابع العشرين في زراجه	حرب تثير النقع والعجاجه
ومعرك في قرية الحمودي	وحربها شبيهة الرعود
ووقفة الاشمود للغضنفر	وفخرنا الليث ابو منصر[5]

(١) أي سنة ١٩٠٤

(٢) أحد ولاة اليمن أيام الدولة العثمانية (٣) اسم مكان

(٤) اسم مكان

(٥) أحد قواد جيش الامام واسمه عبد الله ابو منصر معروف في ايام الامام المنصور

وخامس العشرين في خولان[١]	معارك عظمى وفي سنحان[٢]
ودارنا البيضا وفي رجام	(وطودقيفان) وفي الحيام[٣]



محمد بن زبارة
وصاحب هذه الرحلة

مجمل لتاريخ حياة الامام

ثم حدثني السيد محمد زبارة عن تاريخ حياة الامام فقال: قيل في تاريخ مولد الامام البيت التالي:

لئن تأخر في الأزمان مولده	فهو المجلى على آبائه الغرر

---

(١) اسم بلاد
(٢) اسم جبال
(٣) أسماء معارك وأماكن

ولد الامام يحيى في شهر ربيع الاول سنة ١٨٦٩م ١٢٨٦ هجرية في مدينة صنعاء نفسها وتلقى دروسه وعلومه في صنعاء عن والده الامام المنصور بالله وعن القاضي محمد بن عبد الملك الآنسي والقاضي محمد بن محمد العراشي والقاضي علي بن علي اليماني وغيرهم من القضاة والعلماء وفي سنة ١٣٠٧ هاجر مع والده الامام المنصور من صنعاء الى جبل الاهنوم وهنا أكمل دروسه وعلومه على القاضي العلامة عبد الله بن احمد المجاهد الذماري وعلى العلامة لطف بن محمد شاكر وغيرهما من العلماء الاعلام الذين يشار اليهم بالبنان. وكانت جميع أيام حداثته أيام شدة وبؤس على اليمن وأهله وقد شهد بعيني رأسه ظلم الاتراك واستبدادهم بأبناء قومه وتلاعبهم بمصالحهم وبلادهم ارضاء لشهواتهم واستحلالهم المحرمات وتركهم ما أمر الله به من الفروض والواجبات وانغماسهم في الشرور والمعاصي وارتكابهم البغي وشرب المسكرات. وقد كان يخرج المتصرف او الوالي او الحاكم العثماني من محل وظيفته الى الأرياف والمحال ليجمع الاعشار ويجبي الضرائب فيأخذ لنفسه جميع ما يمكنه تحصيله من الاهالي الفقراء ويعود الى محل وظيفته دون أن يعطيهم سنداً او وصلاً ويقول لحكومته بأن الاهلين عاصون عليه لا يرغبون دفع الضرائب له، فتسير الحكومة الجيوش عليهم فتنهبهم وتخرب بيوتهم وتسوق طروشهم وتكتب الى الباب العالي (في الأستانة) بأن أهل اليمن عصوا الحكومة وأنهم أشقياء يدينون بدين (الزيدية) ولا يطيعون الأوامر الشاهانية ولا يعترفون بالخلافة العثمانية ولما كان أولو الأمر والنهي في القسطنطينية جهالاً لا يفهمون ما هو المذهب الزيدي وما هي حقيقة أخبار اليمن كانوا يؤخذون بهذه الدعايات الكاذبة ويؤيدون سياسة موظفيهم في اليمن ويمدونهم بالجند والسلاح والعتاد ويأمرونهم باخضاع اليمانيين بالسيف والمدفع ولذلك كانت اليمن في حرب دائم مع الترك وقد ذكر لي السيد زبارة وغيره من العلماء والعارفين بدقائق الأمور أسباباً كثيرة لهذه الحرب الخصها فيما يلي:

(أولاً) كان الولاة العثمانيون يطردون الموظفين اليمانيين لأسباب أوهن من خيط العنكبوت.

(ثانياً) كان الولاة يضايقون أئمة اليمن وساداته ويضغطون عليهم بصورة قاسية.

(ثالثاً): بعد اخماد الفتن والثورات كان الولاة يفرضون الغرامات الحربية على الاهلين ويجبونها بالقوة كما يفعل الغزاة الفاتحون.

(رابعاً) كان الموظفون العثمانيون يمنعون الامام والسادة من الاختلاط بالناس وكانوا يقطعون رواتبهم ويجبرونهم على بيع املاكهم واطيانهم بأبخس الاثمان.

((خامساً) كانوا يسجنون علماء الزيود لا لجرم أو ذنب ارتكبوه بل لاختلافهم مع رؤساء المحاكم الاتراك في المحاكم الشرعية وغيرها من المحاكم وكان في جملة من سجنوهم (أيام الوالي مصطفى عاصم) والد جلالة الامام يحيى صاحب الجلالة الامام المنصور بالله ورئيس العلماء بصنعاء السيد احمد بن محمد الكبسي والعلامة زيد بن أحمد الكبسي وغيرهم وبعد سجنهم في صنعاء نفوا الى الحديدة فمات بعضهم في المنفى.

(سادساً) كان اليمانيون ينفرون من الترك لتركهم الصلاة والصوم وعدم محافظتهم على شريعة الله وسنة رسوله ﷺ.

(سابعاً) كان الولاة يوهمون الناس بانهم يريدون ارسالهم الى الاستانة بناء على أوامر السلطان، ومعلوم بان جميع الذين يرسلون الى الاستانة كانوا لا يعودون منها بل يذهبون طعاماً للسمك في البوسفور، لذلك كان بعض اليمانيين يفتدون أنفسهم بالمال. ومن لا مال عنده كان يساق صاغراً الى المنافي والسجون، وقد نفي على هذه الصورة خلق كثير نذكر منهم عبد الله الصلعي نفي الى عكا، والقاضي يحي المجاهد التعزى أرسل الى الاستانة ومات فيها.

(ثامناً) كان الترك يسجنون جميع من يكاتب الأئمة، والأغرب من ذلك أنهم سجنوا الحاج سعد الدين الزبيري لأنه زوج ابنته من المرحوم الامام المنصور والد جلالة الامام يحيى ومن ثم نقلوه الى رودس

مبايعة الامام يحيى

هذا وصف موجز لحالة اليمن أيام الامام المنصور وقد شاهدها الامام يحيى بنفسه فشب على بغض الترك، ولما توفي والده في سنة ١٩٠٤م ١٣٢٢ هجرية في غفلة حوت دعا جلالته جميع أهل الحل والعقد في البلاد دون أن يعلمهم بوفاة والده، ولما اكتمل عددهم قال انا لله وإنا اليه راجعون، امامكم قد ذهب الى رحمة ربه فاختاروا لانفسكم من بينكم خلفاً له، فاجمعت كلمتهم على اختياره.

قبل جلالته الأمامة، ووارى والده التراب، ونادى الى الجهاد وامتشق الحسام بنفسه وقاتل الترك في طول البلاد وعرضها، وحاصر جميع مراكز اليمن ما عدا الحديدة وتعز، واستولى عليها من الترك المركز بعد المركز وقتل في هذه الحروب خلق عظيم ومات من الجوع ألوف مؤلفة، وأخرج جلالة الامام الحبوب والدقيق والأعطيات وفرقه على الجند ورجال القبائل وانتصر على الترك انتصاراً كاملاً، ودخل صنعاء بعد حصار طويل كاد يهلك فيه جميع سكانها.

ووقع يومئذ حادث غريب يدل على حلم الامام وتسامحه وذلك انه كان يوجد بصنعاء مفت يقال له القاضي محمد جغمان وقد ظلم الناس كثيراً، وأساء اكثر. فلما دخل جيش الامام صنعاء هجم الناس عليه يريدون قتله تشفياً وانتقاماً، فمنعهم الجند من قتله وساقوه الى الامام بقرية القابل، وكان جلالته يومئذ خارجاً من صلاة الجمعة وقد اصطفت الجنود والأهلون لتحيته أثناء خروجه. ولما رأى الناس المفتي صاحوا: (اقتلوه! اقتلوه!) فامر جلالة الامام الناس بالابتعاد عنه، فصرخ عندئذ وهو يبكي (ارحمني يا أمير المؤمنين وخلصني من الناس ولو بالقتل؟) فاجابه جلالته (لا ضير انك آمن ونحترمك لعلمك، أما ما بينك وبين الناس من الحقوق فأمامكم الشريعة، وأما ما حصل لي ولوالدي الامام المنصور بالله منك من الضر فقد سامحتك منه وعفوت عنك) ثم اكرمه وأعاده الى أهله آمناً وأجرى له معاشاً وافياً من الدراهم والحبوب وصار معظماً مكرماً وقد تعجب الناس من حلم الامام وعفوه!

احمد فيضي باشا والمعاهدة مع اليمن

دامت الحرب بين جلالة الامام وبين الدولة العثمانية سنين متعددة كان فيها النصر أحياناً حليف الامام وأحياناً حليف الدولة. وقد عين احمد فيضي باشا والياً على اليمن للمرة الثالثة ليسترد صنعاء من الامام وتمكن دولته بعد حروب شديدة من استردادها ثم وقعت معارك متعددة في قرية الحمودي وفي الأشمور وغيرهما من القرى، ولما عجزت الدولة العثمانية عن مقاتلة الامام واخضاع اليمن أرسلت وفداً لعقد الصلح فطلب جلالة الامام الشروط الآتية: ـ

شروط الامام

(١) ان تطبق الاحكام وفقاً للشريعة الاسلامية الغراء

(٢) أن يعود الى الامام حق عزل القضاة وحكام الشرع وتعيينهم.

(٣) أن تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالامام

(٤) ان تخصص رواتب كافية للحكام والموظفين كي لا تدفعهم قلة ذات اليد الى الارتكابات.

(٥) أن تحال الأوقاف الى عهدة الامام لاحياء المعارف في البلاد.

(٦) اقامة الحدود الشرعية على مرتكبي الجرائم من المسلمين والاسرائيليين كما أمر الله تعالى بها وأجراها رسوله والتي أبطلها المأمورون الترك كانها لم تكن شيئاً مذكوراً.

(٧) يؤخذ العشر من المزروعات التي تسقى بماء السماء وأما التي تسقى بمياه الآبار فيؤخذ منها نصف العشر بعد أن يقدر ذلك أرباب الخبرة واذا حصل خلاف يرجع الى الأصول التي وضعها عبد الله بن رواحة في الخرص ويؤخذ عن البقر والغنم والأبل النصاب الشرعي وأما الأراضي التي تغل مرتين أو ثلاثاً فيؤخذ عنها نصف العشر او ربعه ودفع ما سوى ذلك من التكاليف.

(٨) جباية الأموال المار ذكرها تكون بواسطة مشايخ البلاد تحت نظارة

مأموري الدولة وإذا تجاسر احد على أخذ زيادة عن التكاليف المار ذكرها فعزله او تحديد الجزاء له راجع الى الامام ولا يكون للامام علاقة بقبض الاموال الاميرية.

(٩) تعفى عشائر حاشد وخولان والحدا وارحب من التكاليف.

(١٠) يسلم كل من الفريقين المتعاقدين الخائنين الذين يلتجئون اليه.

(١١) اعلان العفو العام في البلاد كي لا يسأل احد عن ماضيه

(١٢) ان لا يولى احد من أهل الكتاب على المسلمين.

(١٣) أن تشمل احكام هذه المواد المار ذكرها صنعاء وتعز وملحقاتهما.

(١٤) أن لا تدخل الحكومة في شؤون آنس ولا تعارض الامام في تعيين المأمورين لهذا القضاء لفقر سكانه وقلة حاصلاتهم ولما يخشى من وقوع محظور في مخالفة مأموري الحكومة لهم.

(١٥) ان تكون المحافظة على هذه البلاد من تعديات الدول الاجنبية راجعة للدولة العلية.

ان تنفيذ هذه الشروط الاساسية في البلاد اليمانية يكون سبباً لسلامة الافراد البشرية وترقي البلاد واحيائها، فيظهر الامن بابهى مظاهره ويحصل منه خير عظيم.

ولا يخفى ان البعض يستفيدون من كثرة سوق الجنود الى البلاد اليمنية اذ لا يخلو من الفائدة المادية لهم، ولعلهم لا يرضون بهذه الشروط لأنه باتباعها يستتب الأمن وينقطع ورود العساكر الى هذا القطر فيخسرون بذلك ما كانوا يؤملون، لذلك طلب الامام صدور فرمان سلطاني يتضمن قبول الشروط المار ذكرها كي يطمئن اليمنيون وترتاح قلوبهم ولا يعترضه المأمورون في اجراء الأحكام التي تخوله اياها هذه الشروط، واحالة إدارة البلاد الشرقية من اليمن التي تشبه بلاد آنس الى عهدته.

هذه هي الشروط التي قدمها الامام لتكون أساس التفاهم بينه وبين الدولة

العثمانية وذلك في ١٣ صفر سنة ١٣١٤(*) الا أنه لم يتم الاتفاق عليها، لان الموظفين الذين أنيط بهم عقد الصلح لم يخلصوا نيتهم وخدعوا حكومتهم، لشيء في نفوسهم، فوقعت الحرب ثانية وحصلت معارك تشيب من هولها الاطفال في خولان والدار البيضاء وسنحان ورجام وذمار والحيمة وآنس وغيرها.

وقد أثبت شروط الصلح ههنا لسببين:

الأول ليعلم القارىء الكريم أن جلالة الامام يحيى لم يكن متعنتاً في طلباته ولا أراد المحال وانه وضع هذه البنود لتكون ميثاقاً قومياً لليمن. والثاني لان حكومة الامام المتوكلية الحالية قد اتخذت هذه الشروط دستوراً لحكمها، وهي اليوم تسير في جميع اعمالها بموجب هذا الدستور ولا تخل به في شيء

الامام وأهل اليمن

هذا ما كان من موقف الامام مع الدولة العثمانية ولم يكن موقفه مع الاهلين بأقل خطورة منه مع الدولة لأن الاهلين ألفوا الثورات على الدولة واعتادوا العصيان وعدم دفع الضرائب ومالوا الى الفوضى وصار كل شيخ قبيلة يخال نفسه انه هو الزعيم الوحيد في البلاد ومن الواجب على العباد طاعته وتأدية الضرائب والزكاة له، فأصبح اليمن شعلة من نار وصار من المتعذر على المرء أن يخرج من قريته لا بل من بيته خوفاً من السلب والنهب ووقعت في البلاد حروب أهلية عظيمة التهمت الاخضر واليابس، وقام بعض السادة يطالبون بالامامة غير معترفين بجلالة الامام يحيى وفي جملتهم أحد أبناء عمه المدعو أحمد بن قاسم حميد الدين الضحياني وألف المخالفون لجلالته حزباً لمقاومته واستنجدوا ببعض أعدائه الا انهم لم يفلحوا في دسائسهم وتمكن الامام يحيى في آخر الأمر بما له من المركز الديني والدنيوي أن يضرب على أيدي جميع الثوار والعصاة بيد من حديد وأن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر الواحد بعد الآخر ويأخذ منهم رهائن وتمكن أن يؤمن البلاد في بضع سنين وأن ينشر النظام والانتظام في البلاد من

---

* لعلها ١٣٢٤ لأن الامام يحيى تولى ١٣٢٢

أقصاها الى أقصاها، وأن ينظم حكومة مدنية اسلاميـة تسير في جميـع أمورهـا وأحكامها بموجب الشريعة الاسلامية الغراء، وان يقسم البلاد الى ألوية متعددة ويجعل على رأس كل لواء حاكماً من قبله. وبالاختصـار فقد خضعت جميـع اليمن لسلطانـه فألف من أجـزائها مملكـة اسلاميـة مستقلة استقلالاً تـاماً وقـد اعترفت الدول المعظمة كايطاليا وروسيا وبريطانيا العظمى بهذه المملكة ولعمر الحق ان هذا عمل جليل يدل على عظمة القائم به واقتداره، فالدولة العثمانية ـ دولة الخلافة الاسلامية ـ لم تتمكن في برهة ٥٠٠ سنة أن تستـولي على اليمن وتخضعه لسلطانها ولكن جلالة الامام يحيى بذكائه وشجاعته ومفاداته تمكن في بضع سنين من جمع شمل جميع أهل بلاده واقامة مملكة عربية فيها.

هذه بعض أعمال هذا الملك القوي العظيم وصفتها باختصار. والآن أنتقل الى وصف جلالته في مواقفه المختلفة.

سراي الامام والمخيم المنصور

بعد مضي ثلاثة أيام على وصولنا الى صنعاء أذن لي جلالتـه بأن أتشـرف بالمثول بين يديه، وكنت قـد سمعت عنه أشيـاء كثيرة كـدمقراطيتـه، وبساطـة عيشه، ونبذه للعظمة وكرهه لسماع ألفاظ التضخيم كصـاحب الجلالـة وبغضه للمـراوغة الـخ.. فذهبت الى مقـابلته فـرحاً مسـروراً واصـطحبت معي أحـد الجنود، وكان الوقت بعد الظهر وكنت في الطريق أشعر بشـوق الى رؤية هـذا الرجل الفذ العظيم الذي طالما سمعت عنه الشيء الكثيـر، وصلت الى الباب الخـارجي للمقام الشـريف (السراي) فأوقفني الحارس بالباب، فتقدم صـاحبي الجندي من الحارس وقال له هذا فلان ومسمـوح له بـالدخـول لمقابلة مـولانا الامام. سمع هذا الكلام كبير الحراس فجاء مسرعاً خطاه نحونا وقال: ما اسم حضرتك؟ فأجابـه الجندي عني: (نـزيه بـك) فقال حسنـاً، سننب (أي نخبر) الامام بقدومك، وان هي الا بضع دقائق حتى وصل الجنـدي الى الامام فـأذن بدخولي. تخطيت الباب الخارجي ودخلت منه الى فسحة كبيرة فيها بضع غرف للجنود والحرس بعضها يستعملونها لنومهم وبعضها لجلوسهم. ولجت من هذه الفسحة باباً آخر ثم خرجت منه الى حوش مستطيـل قائم الى جـانبه الجنـوبي

مكاتب بعض الموظفين والكتبة. وفي صدره أي في الجهة الغربية يوجد باب أسود جميل قائم خلفه حديقة سراي الامام ودار الحرم الشريف، وعليه حراس من الجنود ولا يؤذن لأحد بدخوله. ويوجد في الجهة الشمالية من القصر مكاتب لبعض المأمورين ودائرة البريد ومركز التلغراف السلكي واللاسلكي. ويوجد في منتصف الحوش الكبير درج واسع مبني من الحجر الاسود يصعد المرء عليه الى جناح خاص من السراي يطلق عليه اسم (المخيم المنصور) وهو مكتب جلالة الامام وموظفيه وكبار كتابه ووزرائه

حديث مع جلالة الامام يحيى

عاهل اليمن يستنكر تجزئة البلاد العربية

صعدت على درج المخيم المنصور فاستقبلني في منتصفه أحد حجاب جلالة الامام المدعو محسن قلاله وقال أهلاً وسهلاً، وصعد أمامي فمررنا بآخر الدرج بحارس من الجنود ذوي الثياب المنيلة وتخطيناه الى فسحة طويلة أي رواق قائم الى جوانبه غرف كثيرة جميع أبوابها مغلقة. وقف الحاجب في منتصف الرواق أمام باب صغير نصفه مغلق ونصفه مفتوح وقال: هيا تفضل، فأخرجت حذائي من رجلي كما هي العادة في اليمن، ودخلت الباب فوجدت نفسي في غرفة مستطيلة جلس الى جوانبها فوق فرش وثيرة وسجاد عجمي بضعة عشر رجلاً تبدو على محياهم سيماء العظمة والنبل، فخلت نفسي في غرفة رئيس الكتاب، او رئيس التشريفات. وارتبكت في أمري لحظة ثم تقدمت بقدم ثابتة الى منتصف الغرفة حيث كان يجلس رجل وقور بهي الطلعة معتدل الجسم أسمر اللون مستدير الوجه، فيه بعض علامات الجدري، ذو جبين عال وفم صغير ورأس كبير وعينين سوداوين تقدحان مغنطيساً ونوراً، له أنف قصير عريض ولحية سوداء مستديرة وأيد وأرجل صغيرة. فقلت موجهاً خطابي نحوه:

السلام عليكم. فأجابني:

وعليكم السلام، حيا الله من قد جاء، تفضلوا واجلسوا فجلست أمامه على سجادة عجمية واحترت في أمري واعترتني الدهشة في من عسى أن يكون هذا

الرجل، هل هو رئيس الوزراء أم هو رئيس الكتاب او رئيس الحجاب؟ مرت هذه الاسئلة الاستفهامية في مخيلتي كمرور البرق، وكنت في خلال هذا الوقت أراقب كل شيء حولي، فرأيت أمام هذا الرجل الذي حرت في أمره رزماً من الأوراق بعضها ملفوف لفاً كالسجائر وبعضها مطوي طياً، وكان جالساً بين يديه رجل يفض هذه الاوراق ويقدمها له الواحدة بعد الـواحدة، فكـان يقرأ بعضهـا ويلقيهـا الى الذين حـولـه ذات اليمين وذات اليســار وكـان يملي على بعضهم الأجوبة التي يجب ان تكتب عليهـا، وأحيانـاً كان يكتب بيـده على بعضهـا، ويطرحها أمامه فيلتقطها الحاجب ويرملهـا برمـل أحمر ويختمهـا بخاتم خـاص فنظرت من طرف خفي الى الخاتم فاذا به خاتم جلالة الامام فأدركت للحال اني أمام الحضرة الشريفة فاعتدلت في مجلسي فادرك جلالته بذكائه العجيب موقفي وتوقف عن العمل وحول نظره نحوي وقال: كيف وجدتم بلاد اليمن؟ انها فقيرة وحقيرة، وليس فيها شيء من التمدن! فقلت: كفانا الله شر التمدن يا صـاحب الجلالة ربما تكون بلادكم في الوقت الحاضر فقيـرة من حيث الثروة المـادية، ولكنها دون ما شك غنية بحريتها واستقلالها، وهـذه نعمة نغبـطكم عليها نحن معاشر العرب الذين اكتسحت الـدول الغربيـة بلادهم واحتلتهـا قوة واقتـداراً وفـرضت عليها ضـرباً من ضـروب الحكم الكيفي سمته انتـداباً؟ فقـال: وأين بلادك؟ فقلت الشام. فقال: ماذا جرى بمدينة دمشق؟ فقلت دمشق مسقط رأسي وقصصت عليه قصتها منذ أيام الحرب العظمى الى ذلك التاريخ. فقال عجيب. عجيب، لا حول ولا قوة الا بالله. لقد بلغنا أشياء من هذه الاخبار فلم نصدقها. فقلت: صدقوها، وصدقوا أكثر منهـا، فاستفـظع ذلك واستنكـره وحوقـل كثيراً وقال: والحلفاء، ألم يساعدوكم؟ فقلت كلا يا مولاي ان الحلفاء اجمعت كلمتهم وتم الاتفاق بينهم على تقسيم تركة الرجل المريض (أي تـركيا) وأخـذوا البلاد العربية التي سلخت عن الدولة العثمانية وقسمـوها بينهم واختصت كـل واحدة منهم بقطر أو أكثر من هذه البلاد، وأما وعودهم، وأمـا عهودهم التي قـطعوهـا للعرب أيام الشدة والضيق، أيام كان المدفع الالماني يلعلع في السماء والارض فأصبحت قصاصات ورق لا قيمة لها ولا وزن فأطرق جلالته قليلاً وحوقل كثيراً وغير مجرى الحديث قائلاً: كيف وجدتم برد اليمن؟ وكيف كانت معاملة العمال

لكم في الطريق؟ فقلت: شكراً وألف شكر لجلالتكم فاننا والحمدلله ما نزلنا بمكان الا وكنا موضع الحفاوة والتكريم، وقد قام الجميع نحونا باكثر من الواجب فاصبحنا ألسنة شكر لجلالتكم، وأما البرد فانه لا يضايقنا لأن بلادنا أشد برودة من اليمن. فقال هل من حاجة تريدون قضاءها؟ وهل أنتم مستريحون في داركم؟.

قلت: الحمد لله والشكر لمولانا الامام اننا بحسب أنظاركم والتفاتاتكم على غاية ما يرام ونرغب أن نصور بعض الصور في صنعاء وضواحيها لنحفظها كذكرى لزيارتنا البلاد السعيدة. فقال: لك أن تصور ما شئت ومن شئت ما عداي انا فشكرته على لطفه وودعته وانصرفت وبمناسبة التصوير أقول إن جلالة الامام لم يسمح في حياته لأحد أن يصوره وما هذه الصور التي نراها له في بعض المجلات والجرائد الا صور خيالية رسمتها مخيلة واضعيها وهي لا تشبه الامام لا في قليل ولا كثير.



أحد شوارع مدينة صنعاء

قبل أن أخرج بالقارىء الكريم من المخيم المنصور أصف له بعض مشاهداتي فيه:

المخيم المنصور أو مكتب الامام الخاص هو غرفة مستطيلة يبلغ طولها نحو سبعة أمتار وعرضها نحو ثلاثة أمتار وفيها بعض النوافذ الكبيرة ذات الزجاج الملون، وجدرانها مبيضة بالكلس الذي يقال له (قص) وأرضها مفروشة بالسجاد

المجمي والنفافس ويجلس جلالة الامـام في متصفها قـرب الحائط الشمـالي ويجلس كتبه وكبار رجال دولته حـوله أربعـة الى يمينه وأربعـة الى يساره على سجاجيد عجمية ممدودة فوق فرش وثيرة ويوجد أمام كل واحد منهم ابريق صغير من الفخار مملوء ماء والى جـانبه مبصقـة نحاسيـة جميلة عليها بعض الكتـابة العربية ونقوش القديمة والى الجانب الآخر رزمة كبيرة من القات وجميع الكتبة يخزنون أي يمضغون القات ويشتغلون في آن واحد وقد رأيت الأوراق مكدسة تكديساً أمام كل واحـد منهم، وهم يكتبون عليهـا باقـلام من القصب الأبيض العذي وحبر أسود. وأما جلالة الامام فيكتب بقلم حبر ولا يوجد امامه قات ولا ابريق فخاري لأن جلالته قد ترك استعمال القات بناء على اشارة طبية وقد أخذ في استعمال علكة من المستكة يمضغها بعض الاحيان للتسلية بدلاً من القات.

ويوجد الى يسار جلالته مكتب كبير فيه كثير من الادراج وأمـامه طـاولة صغيـرة وزجاجة ماء مملوءة ماء معطراً بعطر الـورد البلدي وقد علق خلفـه على الجدار حسامـاً يمانياً كريماً وبندقية نمسـوية قصيرة من نوع (شتير) وأما لبـاسه في وقت الشغل في المخيم المنصور فهو ثوب حريري بسيط وطـاقية قـطنية ويلبس في اصبع من أصابع يده اليسـرى خاتماً ذا حجر يماني أحمر.

طريقة الكتابة

ويجدر ان نذكر هنا أن طريقة الكتابة في اليمن تختلف عن طريقة الكتـابة عندنا وقـد رأيت بعض الاوراق في المخيم المنصـور ويبـدأون الكتابـة فيهـا جميعها: بسم الله الرحمن الـرحيم ثم يكتبون بضعـة أسطر تحت البسملة، ثم يدورون بالكتابة حول هذه الاسطر بشكل كـروي ويكثرون من استعمال الفاظ التعـظيم والتبجيل والمتـرادفات ولا يخلو كتـاب واحد من القـوافي والحواشي الكثيرة وبعد أن يكتبوا الرسالة او ما أشبه يلفونها لفـاً كما نلف نحن السيجـارة ويضعونها في حزامهم أو عمتهم في انتظار ارسالها الى المحل المقصود ارسالها اليه

خرجت من المخيم المنصور وسرت في الرواق نحو الباب أريد الخروج، فشاهدت في الرواق مصابيح كهربائية، بعضهـا مدلاة من السقـوف، وبعضها

موضوعة في الجدران فاسترعت نظري كثيراً لانها هي المصابيح الوحيدة الموجودة في جميع بلاد اليمن، تأملتها جيداً فاذا بها من مصنوعات ايطاليا واسلاكها رديئة جداً وأغطيتها أردأ، وهي تنار (بدينامو) خاص وقد جلبها الطليان لجلالة الامام من أسمرة ومجراها الكهربائي من النوع المستمر ولا بطاريات لها وقد كلفت جلالة الامام مبلغاً طائلاً من المال يزيد على أربعة أضعاف ثمن مثلها في مصر

كنيسة القليس

عدت الى دارنا وأنا أفكر في جلالة الامام وديمقراطيته ولطفه وقضيت ليلتي في غاية الراحة والانشراح، وفي الصباح خرجت مبكراً الى صنعاء، وصورت فيها صوراً كثيرة أهمها صور بعض المنازل الحميرية القديمة والاسواق والجوامع والاشخاص الى غير ذلك. ومررت في أثناء طوافي بمكان فيه حفرة كبيرة وبضع شجرات ويقولون لهذه الحفرة في الوقت الحاضر (غرقة القليس) بفتح القاف وكسر اللام وسكون الياء وآخرها سين مهملة، وهي الكنيسة التي بناها ابرهة بن الصباح الحبشي وأراد من بنائها أن يصرف الناس عن الكعبة اليها، وقد قال في وضعها السيد صارم الدين بن ابراهيم الوزير المتوفى سنة أربع عشرة وتسعمائة، ما خلاصته:

القليس كنيسة ابرهة الحبشي سميت بذلك لارتفاع بنائها، وكان ابرهة قد استذل أهل اليمن وأخضعهم فلما عزم على عمارة هذه الكنيسة أمرهم بنقل ما في قصر بلقيس من أحجار منقوشة بالذهب والفضة ورخام مجزع، ثم جد في بنيان الكنيسة وجعلها مربعة وبناها بتلك الحجارة منقوشة لا تدخل الابرة في أطباقها وجعلها ملونة: فحجر منها أخضر وحجر أحمر وحجر أبيض وحجر أزرق وحجر اسود، وجعل دائرها (مفصلاً) على هذه الصفة ثم (فصل) فوق الرخام بحجارة سود لها بريق جلبها من جبل نقم وهو جبل صنعاء المشرف غليها، وكان عرض الحائط ستة أذرع وكان المدخل منه الى بيت في جوف الكنيسة طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً عوده من العاج المنقوش وفيه مسامير الذهب والفضة ثم يدخل من ذلك البيت الى ايوان طوله أربعون ذرعاً عن يمينه

وعن يساره عقود عاجية تتلألأ ككواكب الذهب والفضة ثم ذهب جدرانها وسقوفها ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج وغيرها فصارت تلتهب التهاباً وجعل فيها قناديل من الذهب والفضة والبلور توقد بأطيب الأدهان وجعل أبوابها من العاج المصفح بالذهب والفضة فلما هلك ابرهة ومزقت الحبشة كل ممزق أقفر ما حول هذه الكنيسة وكثرت حولها الحيات فلا يستطيع أحد أن يأخذ منها شيئاً وكان أهل اليمن يعتقدون أن من هم بشيء من ذلك أصابه أسم ولم تزل هذه الكنيسة كذلك في زمن الصحابة رضي الله عنهم وأيام بني أمية الى زمن أبي العباس السفاح فذكر له أمرها فبعث العباس ابن الربيع عاملاً على اليمن فوصله معه أهل الحزم والجلادة ولم يلبث أن أمر بخرابها فخاف الناس. ثم ان قوماً تقدموا فخربوها على وجل ورعب شديد فاجتمع منها مال عظيم حمل الى السفاح وقد نزلت بالذين خربوها ضروب من الآلام من جنون وجذام فازداد أهل اليمن تطيراً بذلك ثم بعد ذلك عفا رسمها وانقطع خبرها

ياقوت وكنيسة القليس

وقال ياقوت في معجم البلدان عن القليس ما مختصره: انها الكنيسة التي بناها ابرهة بن الصباح بصنعاء اليمن سميت القليس لارتفاع بنيانها وعلوها، ومنه القلانس لأنها في أعلى الرؤوس، وانه بناها ابرهة ونقشها بالذهب والفضة والزجاج والفسيفساء وألوان الاصباغ وصنوف الجواهر وجعل فيه خشباً له رؤوس كرؤوس الناس وكللها بأنواع الأصباغ وجعل لخارج القبة برنساً فاذا كان يوم عيدها كشف البرنس عنها فيتلألأ رخامها من ألوان أصباغها حتى تكاد تخطف البصر وكان ابرهة قد استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة وجشمهم فيها أنواعاً من السخر وكان ينقل اليها آلات البناء كالرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ وكان فيه بقايا من آثار ملكهم فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والأبنوس وكان يريد أن يرفع بنيانها حتى يشرف منه على عدن وكان حكمه في العامل اذا طلعت الشمس قبل أن يأخذ في عمله ان يقطع يده، فتأخر رجل منهم

ذات يوم حتى طلعت الشمس فجاءت معه أمه وهي امرأة عجوز فتضرعت اليه تستشفع لابنها فأبى الا ان يقطع يده فقالت: اضرب بمعولك اليوم فاليوم لك وغداً لغيرك وكما صار الملك اليك من غيرك فكذلك يصير منك الى غيرك، فأخذته موعظتها وعفا عن ولدها وعن الناس من العمل فيما بعد وكتب على بابها بالمسند «بنيت هذا لك من مالك ليذكر فيه اسمك وأنا عبدك»

ولما هلك ابرهة ومزقت الحبشة كل ممزق وأقفر ما حول هذه الكنيسة ولم يعمرها أحد كثرت حولها السباع والحيات وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئاً أصابته الجن فبقيت من ذلك العهد بما فيها من العدد وآلاف من الذهب والفضة ذات القيمة الوافرة والقناطير من المال لا يستطيع أحد أن يأخذ منه شيئاً الى زمان أبي العباس السفاح فذكر له أمرها فبعث اليها خاله الربيع بن يزاد الحارثي عامله على اليمن وأصحبه رجالاً من أهل الحزم والجلد حتى استخرج ما كان فيها من الآلات والاموال وخربها حتى عفا رسمها وانقطع خبرها

الآثار الحميرية

هذا ما كان من أمر هذه الكنيسة التاريخية العظيمة، وقد خربها المسلمون لأن ابرهة أراد من بنائها أن يحول نظر المسلمين عن كعبتهم في مكة، ولم يكن حظ الآثار الحميرية القديمة باحسن من حظ الكنيسة فقد هدم اليمانيون هذه الآثار كلها او أكثرها والذي لم يهدموه نقلوا كثيراً من أحجاره الكبيرة الجيدة وبنوا بها منازلهم وجوامعهم هذا في صنعاء وحدها، وأما في سائر أطراف اليمن فلا يزال يوجد كثير من الأبنية الحميرية العظيمة وقد شاهدت بعض هذه الأبنية في قرى كعوان .والضيق وظفار ويريم ووادي القابل وغيرها[١] وتمتاز الأبنية الحميرية القديمة عن أبنية اليمن الحالية بكبرها واتساعها وليس فيها شيء من اتقان الصنع وجمال الهندسة. وقد سمعت شيئاً كثيراً عن مأرب وسبأ وقصر بلقيس ولكني لم أتمكن من زيارة هذه المنطقة[٢] لأن الأمن فيها لا يزال

---

(١) وقد روى لي غير واحد من الناس انه يوجد عند شيخ قرية ظفار شخص منحوت من المرمر على شكل يمثل العنقاء!!

(٢) زرتها بعد ذلك وكتبت عنها مفصلاً في الجزء الثاني من رحلتي هذه

غير مستتب وسكانها من القبائل المتوحشة التي لم تخضع لسلطان الامام الى هذا اليوم خضوعاً تاماً ولذلك اكتفيت بأخذ بعض المعلومات عن هذه المنطقة الأثرية القديمة ممن وصلوا اليها، وسأورد للقارىء الكريم بعض الاحاديث عنها مبتدئاً بحديث الشريف محمد بن عبد الرحمن علوي.

سبأ ومارب

زارني ذات يوم الشريف محمد بن عبد الرحمن علوي أمير سبأ ومارب يصحبه رجل من صنعاء يقال له أحمد بن الحاج احمد حمادي وبعدما تعارفنا وتصافحنا قال الامير انه لم يدخل الى صنعاء منذ عشرين عاماً أي منذ خروج الدولة العثمانية منها وقال انه كان يعرف ولاة الترك وباشواتهم وقد عينه بعضهم حاكماً على بلاد سبأ ومارب وكان يتناول راتباً شهرياً قدرة ٤٠٠ ريال أي نحو ثلاثين ديناراً عثمانياً ذهباً وقد كلفه ذات مرة أحد الولاة بان يأخذ معه ضابطاً تركياً الى تلك البلاد فأخذه معه وأبقاه عنده عدة أيام وأعاده الى صنعاء سالماً قلت له انا أرغب كثيراً أن أذهب الى هناك فقال: على الرحب والسعة، قل لأمير المؤمنين أن يسمح لك بالذهاب وأنا آخذك على عهدتي، قابلت أمير المؤمنين ورجوته أن يسمح لي بالذهاب مع هذا الرجل فقال جلالته انه يخشى عليّ ويخشى أن يحصل ما لا تحمد عقباه اذا أنا ذهبت اليها، امتثلت لهذا الأمر على مضض ولا تزال بنفسي غصة كلما سمعت بذكر مارب وسبأ لأني لم أزرهما.

سألت الأمير أن يحدثني عن السد العظيم فقال ان السد قائم في واد متسع بين جبلين عظيمين ويبلغ علوه نحو ١٥ قامة أي ٢٥ متراً وعرضه نحو ٣٥٠ متراً. وقد تهدم من أحد جوانبه المبني على حافة الجبل ولم يبق من الجدران هنا سوى أساساتها فقلت وأين قصر بلقيس من هذا السد؟ فقال ان قصر بلقيس قائم الى جانب السد على مسافة غير بعيدة ويوجد من قصر بلقيس حتى نبع الماء الذي كان يصب في خزان هذا السد العظيم نفق تحت الأرض كانت الملكة بلقيس تروح وتغدو فيه الى النبع حتى لا يراها أحد وآثاره لا تزال بادية للعيان الى هذا اليوم ويوجد من هذه الآثار في أول النفق من ناحية القصر تماثيل خيل، وفرسان، وبغال، وجمال، محفورة جميعها من المرمر، وسقف النفق

من المرمر، وبقايا قصر بلقيس من الأحجار الملونة والمرمر وقال انه يوجد بالقرب من قصر بلقيس قصر ثان يقال انه قصر سليمان وهو مبني من اثني عشر حجراً عظيماً، كل جدار من جدرانه الأربعة مبني من ثلاثة أحجار.

حديث السيد حسين بن ابراهيم

وحدثني أيضاً السيد حسين بن احمد بن ابراهيم عامل جلالة الامام على منطقة سبأ قال: انتدبني جلالة الامام للذهاب الى سبأ وعينني عاملاً عليها فذهبت فرحاً مسروراً ووقع بيننا وبين قبائل تلك البلاد معارك كثيرة، كان النصر فيها حليفنا ففتحنا البلاد وأمّنا العباد على أرواحهم وأخذنا منهم سبعين رهينة أرسلناها لجلالة الامام ولا تزال عنده الى الآن. فقلت: حدثنا عن هذه البلاد العجيبة المجهولة للعالم فقال: ان وادي سبأ واد جميل للغاية وتربته خصبة جداً ويجري فيه نهر ماء الى مسافة طويلة ويقوم على ضفتيه شيء كثير من خرائب الحميريين وقراهم واكبر هذه القرى وأعظمها خربة أو قرية عال وقرية كمنة ومدينة السودة. وبناء هذه المدينة عجيب جداً وأبواب بناياته أعجب. فالباب كناية عن حجر واحد منحوت، والجدران كناية عن أربعة أحجار لكل جدار. وأما مناخ هذه البلاد فقال بانه أشد حرارة من مناخ صنعاء، ثم سألته عن السد وعن قصر بلقيس فلم يختلف جوابه عن جواب أمير سبأ، فسألته عن الآثار والعاديات القديمة؟ وهل يسمح أهل تلك البلاد للناس بعمل الحفريات؟ فقال لا أظنهم يعترضون على ذلك وخاصة اذا اكرمهم المرء بالهدايا والعطايا. فقلت وهل يوجد لديهم شيء من العاديات؟ فقال: كثيراً ما تأتي السيول العظيمة وتجرف بعض الأراضي فيظهر فيها كثير من الانتيكات المختلفة واكثرها مصنوعة من المرمر والحجارة الكريمة، فليتقطها البدو ويرسلوها الى صنعاء أو الى عدن فيبيعونها للتجار بأثمان بخسة وهؤلاء يرسلونها للخارج.

العراضة

دعانا جلالة الامام الى مشاهدة حفلة استعراض الجيش التي تقام في صنعاء، كل يوم جمعة بعد الصلاة أمام السراي ويقولون لهذه الحفلة عراضة،

خصص لنا مكاناً في غرفة أحد الموظفين في السراي قريبة من المكان الذي يجلس فيه جلالته في أثناء العرض. ذهبنا الى هذه الغرفة نحو الساعة الثانية عشرة فوجدناها مرتبة ترتيباً حسناً وفيها مكتب وعدة كراس ودولاب للاوراق وغير ذلك وما كاد يستقر بنا المقام حتى رأينا شرذمة من الجند من ذوي الثياب المنيلة أتت ووقفت بباب السراي واختلط معها نفر غير قليل من الاهلين وبعد برهة خرج جلالة الامام في عربة عادية تجرها الخيل الشقراء المطهمة، ولا يقيم جلالته وزناً للفخفخة والعظمة ولا يوجد عنده عربات رسمية عالية خاصة بالتشريفات كما هي الحال عند كبار الامراء والملوك لأنه حفظه الله يحذو في جميع أعماله وتصرفاته حذو جده النبي العظيم صلوات الله عليه ولا يوجد عنده ياوران ولا أمناء ولا ما يشبه ذلك، وكان يركب معه في العربة اثنان من أنجاله سيوف الاسلام.

سارت العربة يحتاط بها الجند والناس الى الجامع الكبير في صنعاء حيث أدى جلالته صلاة الجمعة، وسار خلفها على جواد عربي ضامر أحمد سيف الاسلام ولي عهد الامام وعامله على حجة والطويلة وكوكبان ومسور وبني حبيش والتهامة اذ كان يومئذ موجوداً في صنعاء.

بعد تأدية الصلاة عاد جلالة الامام وعاد خلفه ولي عهده يتقدمهما تلاميذ المدارس فالجنود والمشاة فالرشاشات فالمدافع الصغيرة المحملة على الجمال ثم المدافع الكبيرة المجرورة بالبغال وقد خرج الجميع من باب الشقاديف الكائن بقرب السراي الى فسحة كبيرة خارج السور، ودخل جلالة الامام السراي وجلس في شرفة خاصة يرقب العرض وكانت فرقة من موسيقى الجيش واقفة أمامه تعزف ألحاناً تركية. عاد الجيش فدخل من باب الشقاديف ومر أمام جلالة الامام يمشي مشيته العسكرية وكانت تعزف أمامه فرق الموسيقى ألحاناً مختلفة وكان الجنود ينشدون الزامل (النشيد) بصوتهم الجميل الرهيب، وكان هذا الموكب مؤلفاً من ١٥٠٠ جندي من المشاة وثلاثين مدفعاً كبيراً وصغيراً واثني عشر متراليوزا و٤٠٠ تلميذ من تلامذة مدرسة الايتام والحربية.

وقد لاحظت أن بعض الضباط هم من بقايا ضباط الجيش التركي طاعنون

في السن يجب احالتهم على التقاعد، وشاهدت ضباطاً من اليمانيين شباناً صغاراً يمشون مشية عسكرية على نغم الموسيقى فسررت كل السرور بهم وقلت يا حبذا لو كان جلالة الامام يستعين ببعض كبار الضباط من العرب ليعلموا جيشه التعليم العسكري الحديث فعساه فاعلاً ان شاء الله. وسألت عن زامل الامام الذي كان ينشده الجند أمامه فقيل لي هكذا:

يا من يخالف أمر مولانا ويعصيه   لا بد من يوم يراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه   والطير يرمي في سماه

حديث مع وزير خارجية اليمن

القاضي محمد راغب

لما كان جلالة الامام لا يرد الزيارة لاحد من الضيوف فقد أوفد لنا القاضي محمد راغب وكيل الخارجية ليرد لنا الزيارة. والقاضي محمد راغب رجل في



القاضي محمد راغب بك
بن رفيق وزير الخارجية

العقد الخامس من العمر جميل الصورة، ربع القامة، أبيض اللون، حسن الهندام، أديب المعشر لطيف الكلام، وليد الآستانة وقد سبق له أن وظف أيام الدولة العثمانية في وظائف متعددة اذ كان قائمقاماً لطرابلس الشام ثم عين متصرفاً على الحديدة وتعز وغيرهما من متصرفيات اليمن وهو يجيد العربية والتركية والفرنسية. جلسنا وإياه في صالون الاستقبال أمام الشادروان وسألناه أسئلة كثيرة وبحثنا معه بحوثاً كثيرة فكان يجيبنا عليها بالتفصيل كأنه رجل يماني واقف على جميع الشؤون وهو يشغل اليوم وزارة خارجية اليمن.

(س) لما لا تعبد الحكومة اليمانية الطرقات؟

(ج) ان اليمانيين لم يروا من منافع الطرقات أيام الدولة العثمانية سوى جر المدافع وسوق الجنود لذلك تجد اليمانيين غير مبالين بتعبيدها الآن.

(س) الم يفكر جلالة الامام بتعبيد طريق الحديدة - صنعاء؟

(ج) نعم فكر جلالته في ذلك وأرسلني مرة لكشف طريق يمر بعافش. فكشفت هذه الطريق وكدنا نباشر تعبيدها وهي تمر بسامق، اللواء، عافش، الحقل، الرصعة جعيرة، بيت المنامة، عبال الحديدة، ولكن حدثت وقتئذ بعض الامور المهمة التي حولت نظر الامام واهتمامه فصرف نظره عنها مؤقتاً. وجلالته مصمم على تعبيد طريق الى الحديدة بكل تأكيد، ومن دواعي سروري انه نفذ هذا التصميم في نهاية الأمر وعبد طريقاً جديدة تمر بحجة فالحديدة بعد رجوعي من اليمن وصار في امكان السيارات ان تنقل الركاب والبضائع بين صنعاء والحديدة في يوم واحد؟ والآن عبدوا طريقاً ثانية تمر بمعبر.

(س) هل يوجد عندكم خرائط لليمن

(ج) كلا لا يوجد خرائط عندنا ولكني عثرت مرة على خريطة وضعها المهندسون الفرنسويون الذين جاءوا ليهندسوا طريق سكة الحديد بين الحديدة وصنعاء وهي غير كاملة.

(س) هل اطلعتم على الخريطة التي وضعتها دار الخرائط الانكليزية في لندن نقلاً عن بعض خرائط الجيش البريطانية وغيره؟

(ج) كلا: لم أطلع عليها وسألني حضرته لماذا اهتم بالخرائط فقلت له اني عثرت على خريطة لليمن من صنع دار الخرائط البريطانية وجلبتها معي وحاولت تطبيقها على الأراضي والجبال الخ فلم أفلح: أولاً لانه يوجد فيها غلطات فادحة وثانياً لأن نقل الاسماء من العربية الى الانكليزية جاء مشوهاً ولا يمكن قراءته فقال حضرته انه آسف لعدم وجود خريطة تفي بالمرام.

(س) هل يوجد كتب جغرافية لليمن

(ج) لا يوجد كتب بالمعنى المطلوب.

(س) ماذا تعلمون من حقيقة اليهود في اليمن؟ وهل هم من سكانه الاصليين أم دخلاء عليه؟

(ج) ان اليهود من سكان اليمن القدماء ولما تغلب الرومانيون على اليمن تنصر بعضهم ولما افتتح المسلمون اليمن وادخلوه في حوزتهم أسلم معظمهم وكانوا قديماً يتزوجون من المسلمين ويزوجونهم.

بعد ما تحدث الينا القاضي محمد راغب بهذا الحديث وسألنا هو بدوره أسئلة متعددة تتعلق بسياسة العالم الخارجي ودعنا وانصرف. وقد علمنا من أسئلته الكثيرة والدقيقة أنه واقف كل الوقوف على السياسات الدولية ولا يفوته شيء منها.

جغرافية اليمن

ولشدة ولوعي بالجغرافيا وحرصي على الوصول الى معرفة بلاد اليمن معرفة صحيحة كنت أسأل جميع من أتصل بهم عن أنهر اليمن وجباله وقبائله ووديانه الخ.. الخ.. وقد توصلت الى معرفة الشيء الكثير منها ودونته في مذكراتي بأوقات مختلفة وها أنا ذا أذكر للقارىء الكريم شيئاً منها على سبيل التمثيل:

ان أهم مدن اليمن هي صنعاء ويحيط بها من الشمال حجة وعمران وشهارة وحوث وصعدة وأبو عريش. ومن الغرب والغرب الشمالي كوكبان وشبام وثلا والطويلة والمحويث ومناخة والمنيرة والزهرة وباجل والزيدية والمخا ومدينة

العقد الخامس من العمر جميل الصورة، ربع القامة، أبيض اللون، حسن الهندام، أديب المعشر لطيف الكلام، وليد الآستانة وقد سبق له أن وظف أيام الدولة العثمانية في وظائف متعددة اذ كان قائمقاماً لطرابلس الشام ثم عين متصرفاً على الحديدة وتعز وغيرهما من متصرفيات اليمن وهو يجيد العربية والتركية والفرنسية. جلسنا واياه في صالون الاستقبال أمام الشادروان وسألناه أسئلة كثيرة وبحثنا معه بحوثاً كثيرة فكان يجيبنا عليها بالتفصيل كأنه رجل يماني واقف على جميع الشؤون وهو يشغل اليوم وزارة خارجية اليمن.

(س) لما لا تعبد الحكومة اليمانية الطرقات؟

(ج) ان اليمانيين لم يروا من منافع الطرقات أيام الدولة العثمانية سوى جر المدافع وسوق الجنود لذلك تجد اليمانيين غير مبالين بتعبيدها الآن.

(س) الم يفكر جلالة الامام بتعبيد طريق الحديدة ـ صنعاء؟

(ج) نعم فكر جلالته في ذلك وأرسلني مرة لكشف طريق يمر بعافش. فكشفت هذه الطريق وكدنا نباشر تعبيدها وهي تمر بسامق، اللواء، عافش، الحقل، الرصعة جعيرة، بيت المنامة، عبال الحديدة، ولكن حدثت وقتئذ بعض الامور المهمة التي حولت نظر الامام واهتمامه فصرف نظره عنها مؤقتاً. وجلالته مصمم على تعبيد طريق الى الحديدة بكل تأكيد، ومن دواعي سروري انه نفذ هذا التصميم في نهاية الأمر وعبد طريقاً جديدة تمر بحجة فالحديدة بعد رجوعي من اليمن وصار في امكان السيارات ان تنقل الركاب والبضائع بين صنعاء والحديدة في يوم واحد؟ والآن عبدوا طريقاً ثانية تمر بمعبر.

(س) هل يوجد عندكم خرائط لليمن

(ج) كلا لا يوجد خرائط عندنا ولكني عثرت مرة على خريطة وضعها المهندسون الفرنسيون الذين جاءوا ليهندسوا طريق سكة الحديد بين الحديدة وصنعاء وهي غير كاملة.

(س) هل اطلعتم على الخريطة التي وضعتها دار الخرائط الانكليزية في لندن نقلاً عن بعض خرائط الجيش البريطانية وغيره؟

(ج) كلا: لم اطلع عليها وسألني حضرته لماذا اهتم بالخرائط فقلت له لأني عثرت على خريطة لليمن من صنع دار الخرائط البريطانية وجلبتها معي وحاولت تطبيقها على الأراضي والجبال الخ فلم أفلح: اولاً لأنه يوجد فيها غلطات فادحة وثانياً لأن نقل الاسماء من العربية الى الانكليزية جاء مشوهاً ولا يمكن قراءته فقال حضرته انه آسف لعدم وجود خريطة تفي بالمرام.

(س) هل يوجد كتب جغرافية لليمن

(ج) لا يوجد كتب بالمعنى المطلوب.

(س) ماذا تعلمون من حقيقة اليهود في اليمن؟ وهل هم من سكانه الاصليين أم دخلاء عليه؟

(ج) ان اليهود من سكان اليمن القدماء ولما تغلب الرومانيون على اليمن تنصر بعضهم ولما افتتح المسلمون اليمن وادخلوه في حوزتهم أسلم معظمهم وكانوا قديماً يتزوجون من المسلمين ويزوجونهم.

بعد ما تحدث الينا القاضي محمد راغب بهذا الحديث وسألنا هو بدوره أسئلة متعددة تتعلق بسياسة العالم الخارجي ودعنا وانصرف. وقد علمنا من أسئلته الكثيرة والدقيقة أنه واقف كل الوقوف على السياسات الدولية ولا يفوته شيء منها.

جغرافية اليمن

ولشدة ولوعي بالجغرافيا وحرصي على الوصول الى معرفة بلاد اليمن معرفة صحيحة كنت أسأل جميع من أتصل بهم عن أنهر اليمن وجباله وقبائله ووديانه الخ.. الخ.. وقد توصلت الى معرفة الشيء الكثير منها ودونته في مذكراتي بأوقات مختلفة وها أنا ذا أذكر للقارىء الكريم شيئاً منها على سبيل التمثيل:

ان أهم مدن اليمن هي صنعاء ويحيط بها من الشمال حجة وعمران وشهارة وحوث وصعدة وأبو عريش. ومن الغرب والغرب الشمالي كوكبان وشبام وثلا والطويلة والمحويت ومناخة والمنيرة والزهرة وباجل والزيدية والمخا ومدينة

العبيد والى جنوب صنعاء معبر وذمار ويريم والجند وإب وتعز والسياني والسدة وقعطبة وماوية والى الشرق الدار البيضاء الجوف ومواني اليمن الطائف والحديدة والمخا وابن عباس والصليف واللحية.

وأما أنهار اليمن فمعظمها وديان تسيل أيام المطر وتجف أيام القيظ وأهمها وادي سهام ويصب في البحر ووادي مور وتجتمع فيه وديان متعددة ووادي نبا يصب فيه نهر الدلاني والحورة والرداعي ويصب الجميع في لجج ووادي هندوان يمر بمدينة تعز والوادي الكبير يصب قرب ميناء المخا ووادي التالوق وهو مجمع وديان رداع وذمار وعنس ويذهب الى مارب.

وأهم جبال اليمن جبل نقم شرقي صنعاء ويسلح وشبام وكوكبان ومسور وملحان وبعدان وسمارة وعانز والريمة وكحلان والخميس وبرع والأهنوم والرازح وشظب وشهارة وغبلاء وحصن العشة وعراش وغيلان وخولان وبرط الخ.. الخ..

وأهم قبائل اليمن هي بنو الحارث. وبنو حشيش. وسنحان. وهمدان. وأرحب. وحاشد. وبكيل. وذو محمد. وذو حسين. وخولان. وبنو جبر. وبنو ظبيان الخ.

ومعظم القضاءات والنواحي هي بلاد البستان والحيمة وانس وبلاد الروس.



صورة أحد أسواق صنعاء

وعتمة والريمة وحراز. وكوكبان. والطويلة. والمحويت. وحفاش. وملحان.
وعمران. وحجة. وصعدة ونجران. الخ.

في اسواق صنعاء

خرجت من الدار بعد ذهاب القاضي محمد راغب ويممت وجهي نحو اسواق صنعاء ترويحاً للنفس ولم أصطحب معي جندياً لكي أختلط بالناس وأسمع أحاديثهم دون أن يساورهم القلق من وجود الجندي فمررت بسوق النجارين فوجدت معظمهم يعمل بكرات خشبية ودلاء للآبار وشاهدت بعضهم يعمل صناديق خشبية للقبائل البدوية وهي على شكل صناديق الفلاحين عندنا ومررت بسوق الحدادين فرأيتهم يصنعون سكاكين ومحشات ومحاريث ومسامير. ومناشير. وسلاسل. وحلقات الى غير ذلك من الأدوات الحديدية ولكن صناعتهم أولية للغاية وأدواتهم ابتدائية فسألت بعضهم لماذا لا تجلبون أدوات وآلات تعينكم في صناعتكم؟ فقالوا نحن فقراء وأثمان الآلات غالية وجلبها صعب. ولذلك نكتفي بادواتنا البسيطة. فقلت ومن أين تجلبون الحديد؟ فقالوا يجلبه لنا التجار الكبار من عدن ونحن نبتاع حاجتنا منهم. ومررت ببعض مصانع الأراكيل وهي دكاكين كبيرة جلس فيها عدة صناع بعضهم يعمل قلب الأركيلة وبعضهم رأسها وبعضهم سائر أدواتها وصناعة الأراكيل صناعة مهمة ويعملون منها كميات وافرة لان الطلب عليها كثير. ثم مررت ببعض المحلات حيث شاهدت نشر أحجار المرمر العظيمة الى ألواح دقيقة شفافة بمناشير حادة خاصة وهذه صناعة اختصت بها صنعاء دون غيرها من بلاد العالم لأن المرمر لا يستعمل كزجاج للنوافذ الا في صنعاء. ومررت أيضاً بمحلات الحياكة وشاهدت العمال جالسين خلف أنوالهم الخشبية الكبيرة التي تشبه أنوالنا كل الشبه وهم يحيكون البز من خيطان القطن على نفس طريقة الحياكة عندنا، ثم مررت ببعض دكاكين بائعي الحجارة اليمانية الكريمة فوقفت أمام دكان وطلبت الى صاحبه أن يعرض عليّ بعض حجارته، فقدم لي شيئاً كثيراً منها فاخترت نحو عشرين حجراً وسألته كم ثمنها فقال كل حجر (بثلاث بقش) فنفحته الثمن وسرت نحو الدار وعلى ذكر البقش والدراهم أذكر للقارىء الكريم النقود

الدراهم

يقولون للدراهم «ظلط» وواحدها القياسي هو البقشة وتقسم البقشة الى نصف بقشة وربع بقشة وثمن بقشة وكل عشر بقشات تساوي ربع ريال نمساوي نو امامي ويقال له عمادي وكل أربعين بقشة تساوي ريالاً واحداً وكل عشرة الى ١٥ ريالاً تساوي جنيهاً انكليزياً ذهباً وذلك بحسب هبوط سعر الفضة وارتفاعها. وأساس التعامل هو الذهب والذهب الموجود في اليمن هو الجنيه الانكليزي والعثماني ويوجد ايضاً بعض العملة الورقية كالجنيه الانكليزي الورق والروبية الورق وهذه يتداولها التجار وأما الأهلون وخاصة القبائل فلا تتعامل بغير الفضة والذهب، وهم يفضلون المقايضة أحياناً في الاسواق البعيدة عن المدن. ومعظم الريالات الموجودة في اليمن هي من نوع الريال النمساوي المعروف بأبي شوشة أو بماريا ثريزا. والبقشة وأجزاؤها مصنوعة من نحاس ومضروبة في صنعاء اليمن وكذلك الريال الامامي فهو مضروب في صنعاء اليمن ومصنوع من الفضة الخالصة.

وقوة الدراهم في الشراء عظيمة جداً وذلك لقلتها وكثرة البضائع والحاجيات المعروضة للبيع فقوة الشراء في البقشة الواحدة تساوي قوة الشراء بقرشين سوريين عندنا تقريباً.

كيف تلقى نزيه المؤيد العظم الحكم عليه بالاعدام؟

ليالي صنعاء

خرجت مساء ذات يوم الى صنعاء لأقضي سهرتي في مقاهيها وكان يرافقني أحد الجنود ويحمل أمامي فانوساً صغيراً يضاء بالبترول، اجتزت شارع بئر العزب ودخلت من باب الشرارة وطفت في بعض الأسواق فلم ار قهوة ما.. فسألت رفيقي الجندي ألا توجد (قهاوي) في صنعاء؟ فأجاب بلى يوجد مقاهي كثيرة للمسافرين ولكن ما حاجتكم (للمقهاية) وانتم والحمد لله تقطنون في دار كان الامام حفظه الله ساكناً فيها؟ أدركت للحال ان الجندي يقصد بالمقهاية

الخان للمسافرين فقلت له لا أريد مقهاية للنوم بل اريد قهوة للجلوس فلم يفهم قصدي، فعدت وإياه ادراجي الى الدار ولـدى الاستفهام من بعض الاصـدقاء غداة ذلك اليوم عن المقاهي والمطاعم والفنادق علمت أنه لا توجد قهاوي في صنعاء أبداً ولا توجد فيها مطاعم ولا فنادق ولا دور للسينما وما اشبه، فسألت بعض الأصـدقاء عن كيفيـة قضائهم للسهـرات فقالـوا اما أن نسهـر مع عـائلتنا وأولادنا وإما أن نتـزاور مع الأصحـاب ويسهر بعضنـا عند بعض ونقضي جانباً طويلاً من السهـرة بأكـل القات ونـدخن (المداعـة) أي (الأركيلـة) والـذين لا يخزنون القات ليلاً يقضون بعض وقتهم بالعبادة والقراءة. واما أنا فكنت اقضي معظم سهراتي في تدوين هذه المذكرات وفي مطالعة بعض الكتب.

وسام الامام الحكم بالاعدام

نهضت ذات يـوم مبكراً وبينمـا كنت أتناول طعام الصباح واذا (بمحسن قلاله) حاجب الامام الخاص يأتي ويقول «أصبحتم» فأجبته صبحكم الله بالخير والعافية فقال الحضرة الشريفة (تبغاكم) أي تريدكم فقلت حسناً سأحضر قريباً، وفكرت في نفسي ماذا يريد جلالة الامام في هذا الوقت يا ترى؟ ورحت أضرب أخماساً في أسداس وأحسب لهكذا الطلب الف حساب وانهيت طعامي ولبست ثيابي وذهبت مسرعاً الى المقام الشريف فاستأذنـوا لي بالدخول فدخلت على جلالة الامام في مكتبه فاذا به يجلس كالعادة يهتم بشؤون المملكة فقلت أسعد الله صباح جلالة مولانا الامام وهممت بتقبيل يده فدفعها بلطف وقال: حي الله من قد جاء، وابتسم ابتسامة جميلة وهو يقول هيا اجلس. جلست أمام الحضرة الشريفة وقلبي يخفق خفقاناً شديداً ولكنه ليس بخفقان الخوف بل خفقان الحب الممزوج بالاحترام، ونظرت الى جلالة الامام فرأيت الابتسامة لم تفارق شفتيه فحرت في الأمر وقلت: اعطانا الله خير هـذه الابتسـامة يـا صاحب الجـلالة، فقهقه عندئذ جلالته بالضحك، وقال نعم خيراً وخيراً كثيراً ان شاء الله! خذ هذا الوسام ومد يده الى تحت الوسادة وأخرج عدداً من جريدة (الف باء) وقال خذ واقرأ وأشار بيده الكريمة الى نهر من أنهـر الجريـدة فتناولت الجريدة من يده الكريمة بقلب واجم وتأملت في المكان الذي أشار اليه جلالته فرأيت العنوان

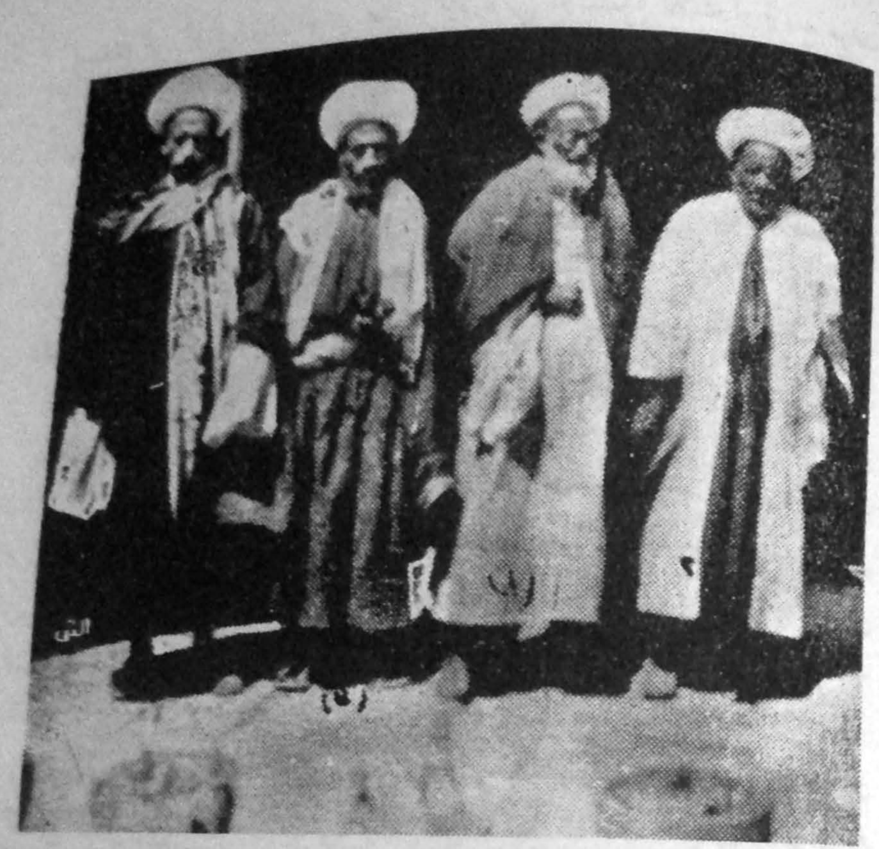
(محكمة نزيه المؤيد) تنوت تلك المحاكمة فوجدت نتيجتها ان المجلس العدلي بدمشق حكم علي بالاعدام عملاً بالمادة ٥٨ . لم اتمالك عندئذ من الضحك فقمت أشكركم يا صاحب الجلالة على هذا الوسام الأحمر القاني واني أتقبل هذا العدد من جريدة ألف باء منكم بمزيد الشكر وبالفعل احتفظت بهذا العدد وهو رقم ٢٠٩٧ الى يومنا هذا وكتبت عليه بالحبر الاحمر «أعطاني هذا العدد من جريدة ألف باء جلالة الامام يحيى في صنعاء كوسام للاستحقاق اليمني» ولعل القارئ الكريم أدرك أن هذا الحكم كان قد صدر عليَّ بسبب الثورة السورية في دمشق وكنت حين صدوره والحمدلله في اليمن.

الامام والصحف

بقيت بالحضرة الشريفة زمناً غير يسير وتناولت البحث مع جلالة الامام في امور كثيرة منها الدعاية الخارجية والاشتراك في الصحف فصرح لي جلالته بانه لا يشترك في الصحف ويعيد أكثرها الى أصحابها أولاً وثانياً وثالثاً وبرغم اعادتها لهم يستمرون على ارسالها فيقبلها جلالته كهدية، فقلت ولكن يا مولاي ان الملوك والامراء ورؤساء الجمهوريات والعظماء جميعهم يشتركون في الصحف ويدفعون اشتراك هذه الصحف غالياً لا حباً في قراءة أخبار العالم فقط بل وارضاء لاصحاب هذه الصحف وشراء لألسنتهم فقال: أنا لا تهمني هذه الامور أبداً ولا اعتني بالدعايات ولا أرغب في شراء لسان أحد فاللسان الذي يكيل المديح بالدراهم يكيل القدح اذا انقطعت الدراهم فلا خير في المدح والقدح متى كانا بالدراهم. سكت لهذا الجواب المعقول وغيرت الحديث ثم ودعته وانصرفت وأنا معجب بشدة حجته وقوة منطقه ولطافة تعبيره.

مجلس الامام

ومن الغريب في جلالة الامام انه لا يكل ولا يمل من العمل وهو ينهض كل يوم مبكراً فيصلي الصبح حاضراً وينزل بعد طلوع الشمس الى ميدان سرايته العامرة فيجلس تحت شجرة الفلفل الكائنة بالميدان أو تحت مظلة كبيرة من القماش ويتقبل شكاوى الناس ويتسلم عرائضهم والدخول الى السراي في ذلك



بعض كبار رجال الحكومة اليمنية في صنعاء وهم من اليسار القاضي عبد الكريم بن احمد المطهر الكاتب الأول في المخيم المنصور والقاضي لطف بن محمد الزبيري والسيد عبد الله بن ابراهيم الوزير

الوقت مباح لجميع الناس وبعد أن يجلس جلالته في الناس مدة يخرج عند الظهر الى أحد جوامع صنعاء فيصلي وفي أثناء ذهابه وايابه يسمح للناس أن يقابلوه ويقدموا شكاويهم اليه وكثيراً ما ينزل من عربته ويتفيا ظلها أو ظل أحد المنازل ويدع الناس تأتي اليه وتقابله وترفع ظلاماتهم اليه وهذه أيضاً عادة حسنة يحمد عليها جلالته كل الحمد. وبعد صلاة الظهر يدخل جلالته الى الحرم الشريف فيتناول طعامه ويستريح قليلاً ثم يعود الى المخيم المنصور ويبقى هنالك على رأس عمله حتى ساعة متأخرة من الليل.

بعد أن تعرفت الى جلالة الامام جيداً وبعد أن شعرت بميله الشديد الى

بصحبته الى قوني واقترحاني صرت أزوره في الأسبوع ثلاث أو أربع مرات وأجلس مع جلالته صباحاً قبل خروجه للناس في داخل حديقة السراي العامرة تحت ظل الأشجار ولشدة ديمقراطيته وسمو أخلاقه وعلو مبادئه كان يجلس جلالته دون عظمة أو فخفخة على كرسي عال وأجلس أمامه الى كرسي صغير ولا ننفك بينما نتداول من الأحاديث والشؤون العمرانية والزراعية والاقتصادية والسياسية وغيرها من شؤون هذا العالم الشيء الكثير، وكان جلالته يوجه إلي أسئلة دقيقة للغاية تدل دلالة واضحة على تعمقه في جميع العلوم الدنيوية والدينية وكان يصغى الى أجوبتي بانتباه زائد ويجادلني في أمور كثيرة الى أن يقنعني بنظريته أو أقنعه بنظريتي، ولعمر الحق هذه سجية سامية قل أن توجد في الناس العاديين فضلاً عن الملوك. وقد اتصل بي ان موقف جلالته في الحديث مع رجاله العظماء الذين يعول عليهم لا يختلف عن موقفه في الحديث معي وهذا مما يحبب الناس فيه ويجعلهم ألسنة شكر تسبح بحمده وتثني عليه في كل مناسبة وليس من الغريب - وحالته مع الشعب كما وصفت - أن يكون الشعب أطوع لجلالته من بنانه فهو قد ملك روح الشعب ونفسه بالسياسة والاحسان واللين لا بالقوة والجبروت. واني في رحلاتي الكثيرة وسفراتي المتعددة من أقصى اليمن إلى أقصاه ومقابلتي لأناس من جميع الطبقات من زيود وشوافع ويهود لم أقابل رجلاً واحداً شكا لي من جلالة الامام، ولكنني لا أنكر اني سمعت مرَّ الشكوى من أناس كثيرين في حق بعض العمال الذين يسيئون استعمال وظيفتهم وقد رفعت هذه الشكوى الى الحضرة الشريفة فوعدني صاحب الجلالة باجراء التحقيق واعطاء الأوامر الشديدة الى العمال لانصاف الناس وعدم التحامل عليهم.

الضيوف الاجانب والامام

يستقبل جلالة الامام ضيوفه الأجانب من الفرنجة في جناح خاص من السراي في صالون كبير مفروش بالسجاد العجمي الثمين وفيه طقم واحد من الكنبات وآخر من الكراسي وطاولة ويقوم هذا الصالون فوق حديقة السراي ويحضر في أغلب الأحيان اجتماع جلالته مع الأجانب وزير الخارجية القاضي

محمد راغب وأحد الحجاب ولا يؤذن للحاجب وللوزير بالجلوس في اثناء الاجتماع ويسمح للاجنبي أن يدخل هذا الصالون يوم موعد الاجتماع الذي يضرب عادة قبل يوم او يومين وينتظر تشريف الحضرة الشريفة. وقبل مجيء الحضرة الشريفة بدقيقة واحدة يعلن أحد الحجاب الوزير والضيف او الضيوف بأن صاحب الجلالة قادم فيستعد الجميع لاستقباله وقبيل دخوله يدخل الحاجب أمامه ويقول صاحب الجلالة شرف، فيقف الجميع تعظيماً واحتراماً فيدخل جلالته ويجلس على مقعد خاص معد له ويأذن للضيف او الضيوف بالجلوس فيجلسون وأما الحاجب ووزير الخارجية فلا يؤذن لهما بالجلوس بل يبقيان واقفين الى نهاية الحديث ولا تزيد مدة مقابلته للاجانب على نصف ساعة يتحادث خلالها معهم في الشؤون التي يريدونها ولا يبت في أمر من الأمور مهما كان طفيفاً بجلسة واحدة بل دائماً يعد زائريه بدرس اقتراحاتهم او طلباتهم ثم يجيبهم عليها اما بواسطة وزير الخارجية القاضي محمد راغب او بواسطة رئيس الديوان العالي ووزير الداخلية القاضي عبد الله العمري وذلك بعد أن يقتل جلالته المسألة درساً وفحصاً مع وزرائه وكبار رجال مملكته وعندما تنتهي المقابلة يخرج جلالته من صالون الاستقبال قبل ضيوفه فيبقى الضيوف مع وزير الخارجية مدة يتحدثون فيها اليه ويشرحون قصدهم ويبينون غايتهم من زيارة اليمن بصورة مطولة وهذا يعرض حديثهم على الحضرة الشريفة فيما بعد.

ويرتدي جلالة الامام في مقابلاته الرسمية للاجانب ثوباً حريرياً رقيقاً وفوقه ثوب آخر (قنباز) مصنوع من صايات الشام الحريرية المشهورة ويتعمم بعمة حريرية كبيرة ويتمنطق بجنبية من جنبيات اليمن التاريخية القديمة ويحمل على جنبه سيفاً يمانياً عتيقاً غمده من الفضة والذهب ونصله من الفولاذ اليماني المشهور. ويحمل بيده سبحة صفراء من الكاربلاء. ويلبس في إصبع يده خاتماً معمولاً من بعض حجارة اليمن الكريمة يرجع تاريخه الى بضع مئات من السنين.

هذه هي ألبسة جلالة الامام في مقابلاته الرسمية وفي أوقات خروجه من السراي العامرة وأرى نفسي مضطراً لبيانها بياناً دقيقاً لأن جلالته لم يأذن لي ولا

اذن لأحد غيري بأن يصوره وعليه فأنا اصوره بالكلام لا بالفوتوغراف. وما هذه الصور الفوتوغرافية التي تنشرها الجرائد من حين الى حين الا صور خيالية لا تشبه جلالته أبداً كما بينت فيما تقدم.

الاجانب

وعلى ذكر الأجانب أقول ان صنعاء لا تخلو منهم فهم يفدون عليها بصورة مستديمة تارة باسم المفاوضة وطوراً باسم التجارة والغاية الحقيقية هي التجسس، وبديهي أن يتخذ الأجانب جميع الأساليب والوسائل للمجيء الى صنعاء لأن جلالة الامام لا يسمح للدول الأجنبية بأن ترسل سفراء او قناصل او ممثلين رسميين لليمن ولذلك ترسل هذه الدول أناساً من رعاياها بين الفينة والفينة ليشاهدوا عن كثب حالة اليمن وقد صادف وأنا في صنعاء ان جاءها وفد فرنسي وآخر طلياني وثالث امريكي ورابع ألماني وخامس انكليزي وسادس روسي شيوعي وسابع سعودي، وقد اجتمع الجميع الى جلالة الامام والغريب ان ثلاثة من هذه الوفود كانت تسعى للحصول على امتياز استثمار مملحة الصليف الكائنة على مسافة ٨٠ كيلومتراً من شاطىء الحديدة والجميل في الأمر ان جلالة الامام رفض ان يعطي هذا الامتياز أحداً من الوفود، وقد تباحثت مع جلالته في هذا الشأن وسألته لماذا ترفضون يا صاحب الجلالة اعطاء رخصة باستثمار هذه المملحة فقال ألا تعلم يا بني أن سبب استعمار الهند والصين وغيرهما من البلاد الشرقية الضعيفة هو منح حكومات هذه البلاد للاجانب رخصاً باستخراج الملح وزيت الكاز وغيرهما من المصالح!!؟ اني أفضل أن نبقى أنا وشعبي فقراء نأكل القصب ولا أدخل الأجانب أو أمنحهم امتيازات مهما كان في ادخالهم للبلاد من الفائدة والثروة ولا اخال جلالة الامام مخطئاً في هذه النظرية لأنها حقيقة واقعة لا يختلف فيها اثنان ولا يتناطح عليها عنزان.

حديث مع وفد تجاري روسي

وقد اجتمعت ببعض أعضاء هذه الوفود الأجنبية وأخص منهم بالذكر الوفد الروسي ودار بيني وبين أعضائه وهم الرفيق جورجي استانكوف رئيس الوفد

والخواجه بلكين (عضو) الوفد والخواجه موريس اكسلرود عضو الوفد وعضو المجمع العلمي الشرقي في موسكو حديث طويل عن أمور كثيرة أورد بعضه من للقارىء الكريم ليطلع على مساعي الروس الحمر في بلادنا.

(س) ماذا تبغون من زيارتكم الى اليمن؟

(ج) نحن نعطف على الشعوب الضعيفة ونرغب في مساعدتها

(س) هل هذه الغاية سبب مجيئكم لليمن؟

(ج) كلا: ليست هذه غايتنا الوحيدة فقط. بل نرغب أيضاً ان نعقد معاهدة تجارية مع الامام يحيى إذ لا يخفى عليكم أن بلادنا واسعة ومحصولاتنا كثيرة وأبواب العالم الخارجي مغلقة في وجوهنا فنحن نسعى لايجاد أسواق جديدة وهذه البلاد هي في جملة البلاد التي يمكننا أن نعمل معها ونجد فيها أسواق تجارية.

(س) هل تمكنتم من عقد معاهدة تجارية مع جلالة الامام؟

(ج) نسعى لذلك سعياً حثيثاً وقد تمكنا بالاتفاق مع جلالة الامام ورجاله الامجاد من وضع صيغة هذه المعاهدة وسيحملها الرفيق جورجي استانكوف الى حكومة موسكو ليعرضها عليها ويأخذ توقيعها ثم يعود الى اليمن ثانية ليأخذ توقيع جلالة الامام عليها

(س) ما هو عدد مواد هذه المعاهدة وما هي مضامينها؟

(ج) ستطلعون عليها بعد توقيع الطرفين المتعاقدين عليها لأنها ستنشر في موسكو وصنعاء في وقت واحد

(س) هل لهذه المعاهدة ملاحق سرية وما أشبه؟

(ج) ابتسم الرئيس لهذا السؤال الصريح وأجاب طبعاً كلا!

(س) ماذا صنعتم في هذه البلاد الى الآن؟

(ج) أسسنا شركة تجارية وقد تعين لرئاستها الخواجه بلكين وهذه الشركة تدعى الشركة الروسية التجارية.

(س) وما هي مهمتها؟

(ج) جلب المحصولات الروسية من بلادنا وبيعها في اليمن وشراء كميات وافرة من البن اليمني والجلود

(س) وما هي المحصولات التي تجلبونها؟

(ج) دقيق وخشب وكبريت وكاز وسكر واقمشة قطنية وحريرية وخردوات الى غير ذلك من اللوازم

(س) كيف وجدتم هذه البلاد وأهلها؟

(ج) انها بلاد جميلة جداً وأهلها فقراء ولكنهم أذكياء ورجال جد وعمل

(س) أصحيح انكم أتيتم الى صنعاء بالطيارة؟

(ج) نعم طرنا من الحديدة الى صنعاء بالطيارة وقطعنا المراحل الست بين هاتين المدينتين في خمسين دقيقة فقط!

(س) هل تتلقون بريدكم من بلادكم بصورة منظمة؟

(ج) نعم نأخذ بريدنا بواسطة سفننا التجارية التي تسافر بين البحر الأسود والعجم بصورة منتظمة ولكن كل ثلاثة أشهر مرة واحدة.

(س) ولماذا تتدخل حكومتكم في امور غيرها من الحكومات والشعوب؟

(ج) ان حكومتنا تبشر بمبادىء جديدة هي الحرية والعدالة والمساواة، ولا تتدخل في أمر شعب من الشعوب ما لم يطلب بعض أفراد ذلك الشعب وأحزابه منها المساعدة.

(س) هل أباحت لكم هذه المبادىء الحرّة الشريفة أن تقتلوا المسلمين في القفقاس وتهدموا مساجدهم فوق رؤوسهم وهم يصلون؟

(ج) ان هذه الأخبار تتسرب اليكم عن طريق بعض خصومنا وهي مبالغ فيها كثيراً ولا شك انه اتصل بكم اننا ساعدنا تركيا في أيام محنتها وثورتها مساعدة جليلة وتركيا هي دولة اسلامية كما لا يخفاكم.

(س) هل تنوون السفر الى بلادكم الآن؟

(ج) نعم سيسافر بعضنا ويبقى الخواجه بلكين في الحديدة كرئيس للشركة التجارية ليشرف على أعمالها وهو سيستعين بالوطنيين في جميع اعماله.

هذا هو بعض الحديث الذي جرى بيني وبين الوفد الروسي ولا اخفي على القارىء الكريم اني لم أكن مطمئناً في حديثي مع هؤلاء الناس ولا شعر قلبي بالميل اليهم. ومن الغريب في روسية الحمراء التي تدعي انها لم تقم بثورتها المعروفة الا لتنقذ روسيا من مخالب الرأسماليين واستبداد القيصر ورجاله ان جميع زعمائها الشيوعيين أصبحوا يمتلكون الثروات الطائلة وكان أيام القيصر يوجد قيصر واحد يستبد بالشعب فصار في زمنهم يوجد الف قيصر وقيصر من الزعماء والوزراء وأصحاب النفوذ، وقد بلغت شكوى الشعب عنان السماء من أعمالهم، وبديهي أن المبادىء الشيوعية تناقض الفروض الدينية الاسلامية وتختلف مع السنة المحمدية وعليه أنصح اخواننا العرب أن لا ينخدعوا بدعاية الروس وأن يعلموا بأن هؤلاء الحمر قد قتلوا الوفاً من المسلمين في بلادهم وخربوا مئات الجوامع والمساجد فوق رؤوس المصلين.

وكنت أظن أن المعاهدة التي نوه لي عنها الوفد الروسي سوف لا تعقد مع اليمن وسوف تمر الأيام والشهور والسنون بين أخذ ورد بين موسكو وصنعاء من غير جدوى ولكن تمكن الرفيق جورجيوف من اقناع حكومته بقبول صيغة المعاهدة التي وضعها حضرته مع الحكومة المتوكلية في سفرته الى موسكو وعاد بها ممضاة من حكومته الى اليمن فوقعت عليها حكومة اليمن أيضاً وصارت نافذة منذ تاريخ توقيعها في سنة ١٩٢٨ والى القارىء الكريم نصها بالحرف

فصل في المعاهدات[1]

معاهدة الوداد والصداقة والتجارة بين اليمن وحكومة الجمهوريات السوفياتية المعروفة بمعاهدة صنعاء

بنـاء على الاستصواب والاستنسـاب المتقابـل من كل من حكـومة اتحـاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية من طرف ومن حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن الامام يحيى ابن الامام محمد حميد الدين وحكومته من طرف آخر ورغبة الطرفين في تأسيس المناسبات الرسمية الاعتيادية وفتح الصلات الاقتصـادية بين بلاديهما وترقيتها وبنائها على أساس الصدق في تنظيم العلاقـات الودادية بين الحكـومتين وشعوبهمـا والاعتراف بـالتساوي بين الـطرفين في كـافـة الحقـوق واحكامها العامة المرعية بين الدول والملل.

قد اتفق الطرفان المشار اليهما على عقد هذه المعاهدة الودادية والصداقية والتجارية واعتبارها كمقدمة لما تستدعيه وتقتضيه الظروف المستقبلة عند ترقي الصلات الاقتصاديـة بين البلادين وتـوسعها من اجـراء المذاكـرات والسعي من الحكومتين المشار اليهما في تنظيم الاتفاقات اللازمة كمثل تجارة وغيـرها ممـا يرتضيه الطرفان فقررا الآن ما هو آت:

---

(١) ليعذرنا القارىء الكريم في محافظتنا على النص الحرفي للمعاهدات لأن ذلك هو الواجب والمتبع في مثل هذه الأحوال.

المادة الأولى:

تعترف حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية بالاستقلال الكامل المطلق لحكومة المملكة اليمنية وتملكها صاحب الجلالة الامام يحيى بن الامام محمد حميد الدين وحكمه ويقدر صاحب الجلالة ملك اليمن وحكومته صورة الاحترام الخالص والحسيات الحميمة التي تضمرها حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية لدولة اليمن وشعبها وسائر الشعوب الشرقية ووفاقا لهذا قد تأسس بين الطرفين المتعاهدين المناسبات الرسمية بموجب المقدمة المحررة هنا.

المادة الثانية:

يتعهد الطرفان المتعاقدان بتسهيل المبادلات التجارية بين المملكتين ووفاقاً لهذا التعهد يكون لكل من رعايا المملكتين في بلاد مملكة الاخرى بعد استحصال الاذن منها الدخول والاقامة طبق نظاماتها وتعاطي التجارة واجراء معاملاتها التي تقتضيها على شريطة أن يكون فصل القضايا التي تحدث لكل من رعايا الطرفين في المحاكم المحلية للمملكة التي يوجدون فيها على وفق نظاماتها وان ما كان ممنوع الاتجار به في قوانين احدى الحكومتين فلكل منهما منع او مصادرة ما وجد في مملكتها من ذلك ويتعهد الطرفان المتعاقدان أن يساعدا بتطبيق كل تسهيل موافق للنظامات المحلية في معاملات رعايا المملكتين في التجارة فيما يختص الضرائب والرسوم الكمركية.

المادة الثالثة:

توضع هذه المعاهدة في موضع التطبيق واجراء من الحكومتين بعد امضائها وتصديقها على مقتضى الأصول الرسمية المعتادة من طرف حكومة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية اعتباراً من يوم وصول التصريح الرسمي من الحكومة المشار اليها الى جلالة ملك اليمن الامام يحيى.

المادة الرابعة:

تكون هذه المعاهدة الودادية والصداقية والتجارية معمولاً بها وموضوعة في

موضع العمل والتطبيق مدة عشر سنوات اعتباراً من التاريخ الذي ذكر في المادة الثالثة وعند انقضاء المدة المذكورة يكون تمديدها او تبديلها بغيرها راجعاً الى رغبات الطرفين المتعاقدين وما سيتفقان عليه في ذلك المستقبل.

المادة الخامسة :

تسمى هذه المعاهدة الودادية والصداقية والتجارية معاهدة صنعاء وهي تشتمل على مقدمة وخاتمة ستأتي وخمس مواد هذه المادة احداها وقد نظمت في نسختين باللغة العربية لتعاطيهما من الطرفين المتعاقدين.

الخاتمة :

لكي تكون هذه المعاهدة مهيئة لاكتسابها صفة التصديق النهائي حسبما نصت عليه المادة الثالثة والرابعة قد أمضيت في صنعاء عاصمة اليمن من طرف مرخص حكومة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية حضرة الرفيق آستاخوف بالنيابة عن حكومته المشار اليها ومن طرف حضرة القاضي محمد راغب المندوب عن جلالة ملك اليمن الامام المشار اليه بعد اتفاقهما على ما حوته من العبارات والمعاني الدالة عليها اتفاقاً تاماً كاملاً وتحريرها في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧ الموافق ١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٨.

محمد راغب بن رفيق　　　　غ. آستاخوف

معاهدة صداقة وتجارة

بين امبراطورية أثيوبية ومملكة اليمن

ان حضرة صاحب الجلالة ملك ملوك أثيوبية قداماي هيلاسلاسي الأول المعظم وحضرة صاحب الجلالة ملك وحاكم اليمن المطلق الامام يحيى بن الامام محمد بن يحيى حميد الدين المبجل.

رغبة منهما في تأسيس روابط الصداقة والمحبة بين الدولتين العاليتين وتوثيق عراها على قاعدة القوانين الدولية العامة قد قررا عقد معاهدة صداقة وتجارة ولهذا الغرض عين من طرف حضرة صاحب الجلالة امبراطور أثيوبية: حضرة

صاحب السعادة سافي تزوزو، مسقل، وصاحب العزة ليج آندراكه ماساي.

ومن طرف حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن الامام. حضرة صاحب السعادة القاضي محمد راغب بن رفيق.

مندوبين مفوضين من الدولتين المشار اليهما. وقد اتفقوا بعد تثبيت وثائق اعتمادهم على المواد الآتية:

المادة الأولى: يفتح بين الامبراطورية الأثيوبية والمملكة اليمانية سلام دائم وصداقة تامة مطلقة.

المادة الثانية: يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على تقوية علاقاتهما الودية والتجارية وعلى أن يسهلا تبادل المنتجات بينهما.

المادة الثالثة: لكل من رعايا الامبراطورية الاثيوبية والمملكة اليمنية الحرية في الدخول والاقامة للتجارة في بلاد الفريق الآخر من المتعاقدين السامين اللذين اتفقا على أن يعاملوهم وتجارتهم بالأحكام المحلية ويتمتعوا بما يتمتع به رعايا الدولة الأكثر رعاية.

المادة الرابعة: من المتفق عليه أن رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين يكونون في كل أمورهم ومعاملاتهم خاضعين للقوانين والمحاكم المتبعة عادة في البلاد المقيمين بها.

المادة الخامسة ـ سيكون من الفريقين الساميين المتعاقدين في الوقت المناسب وبموافقتهما انشاء سفارة وقنصليات والى أن يكون انشاء العلاقات السياسية والقنصلية هذه يتفقان على أن يعطى لرعايا كل منهما المقيمين في بلاد الفريق الأخر المساعدة والصيانة اللازمة.

المادة السادسة: بهذه المعاهدة لا يسمح الفريقان الساميان المتعاقدان لأي حركة ضد صداقتهما الصميمية ويجتهدان في التقرب أكثر مما هما عليه الآن في المعاونة وفي ازدياد علاقاتهما وعلى روح هذه المعاهدة تبنى الاتفاقات والمعاهدات التي سيكون عقدها في المستقبل بينهما.

المادة السابعة: تكون مدة هذه المعاهدة خمس سنوات ابتداء من تاريخ تبادل حجج التصديق بينهما وتتجدد بنفسها كل مرة خمس سنوات أخر ان لم ترفض المعاملة بها احدى الدولتين المتعاقدتين قبل ستة اشهر من انتهائها.

وتبادل حجج التصديق يكون في صنعاء في أقرب مدة ممكنة وبهذه المعاهدة يلغى كل ما قبلها.

وتقريراً لذلك وقع المفوضون المشار اليهم امضاءاتهم على المعاهدة هذه ووضعوا أختامهم عليها ولهذه المعاهدة نسختان أصليتان باللغتين الامهارية والعربية وحيث ان أصل ومنبع اللسانين المشار اليهما متحد فعند اللزوم للتفسير يعتبر النص العربي.

وحرر في صنعاء اليمن في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٥٣ الموافق ٢٣ مارت سنة ١٩٣٥.

محمد راغب بن رفيق ليج آنداركه ماسي سافي تزوزو مسقل

المعاهدة الايطالية اليمنية

نقلاً عن جريدة الايمان التي تصدر في صنعاء

كان عقد معاهدة ودية بين دولة اليمن الاسلامية المصطفوية وبين الدولة الفخيمة الايطالية وهي أول معاهدة عقدت فرأينا بكل شوق وسرور ان ندرج وننشر تيمناً وتبركاً في جريدتنا هذه باول نسخة تصدر منها صورة متن هذه المعاهدة لاعلام جميع أهل اليمن بما حوته وكانت المراجعة والتماس المساعدة باطلاعنا على أصلها لنقل صورتها وبعد تمام نقل الصورة كانت الافادة بوقوع تصديق المعاهدة الواقعة من طرف حضرة صاحب الحشيمة ملك ايطاليا (فيكتوريو عمانوئيلو) وأنه قد وصل التبليغ الرسمي الى الحضرة الشريفة الهاشمية ونذكر على الوجه الآتي تحت هذا نص متن المعاهدة كما نقلت من الأصل المذكور بحروفها:

مادة ١ ـ تعترف حكومة جلالة ملك ايطاليا باستقلال حكومة اليمن وملكها جلالة الإمام يحيى الاستقلال المطلق الكامل ومع هذا فلا يداخل حكومة ايطاليا المشار اليها في مملكة جلالة ملك اليمن الامام بأي أمر من الأمور التي تناقض ما في الفقرة الآن من هذه المادة.

مادة ٢ ـ تتعهد الدولتان بتسهيل التبادل في التجارة بين بلاديهما.

مادة ٣ ـ حكومة جلالة ملك اليمن تصرح بانها ترغب أن تجلب طلباتها من ايطاليا وذلك في الأشياء والآلات الفنية التي تساعد بجلب الفائدة في نمو اقتصاد اليمن ونفعه وكذلك في الأشخاص الفنيين والحكومة الايطالية تصرح بانها تبذل جهدها حتى يصير ارسال الأشخاص والآلات الفنية والأشياء بانسب وجه في الأنواع والأثمان والرواتب.

مادة ٤ ـ ما ذكر في المادة الثانية والثالثة لا يمنع حرية الطرفين في التجارة والمطلوبات.

مادة ٥ ـ ليس لأحد من تجار المملكتين ان يجلب ويتجر فيما تمنعه احدى الدولتين في بلادها ولكل من الدولتين ان تصادر ما جلب الى بلادها مما تمنع جلبه والتجارة فيه بعد الاشعار.

مادة ٦ ـ هذه المعاهدة لا يكون معمولاً بها إلا من حين تصل الى جلالة ملك اليمن الامام يحيى مصدقة من جلالة ملك ايطاليا

مادة ٧ ـ تكون هذه المعاهدة جارية ومعمولاً بها لمدة عشر سنوات من بعد تصديقها كما في المادة السادسة وقبل انقضاء مدة هذه المعاهدة بستة أشهر اذا أراد الطرفان تبديلها بغيرها او تمديدها كانت المذاكرة في ذلك.

مادة ٨ ـ ولما حرر في هذه المواد فجلالة ملك اليمن الامام يحيى وسعادة كفاليري غاسباريني بالوكالة عن ملك ايطاليا قد أمضيا هذه المعاهدة المحررة في نسختين متطابقتين باللغة العربية والايطالية ولعدم وجود من يعرف الترجمة عن اللغة الايطالية معرفة تامة لدن جلالة ملك اليمن ولأن المفاوضة التي تمت

بين الطرفين بعقد الودية التجارية كان التفاهم فيها باللغة العربية ولان سعادة كفاليري غاسباريني قد تأكد أن النص العربي هو مطابق للنص الايطالي تماماً لذلك اتفقنا انه اذا نشأت شكوك او اختلاف في تفسير النصين العربي والايطالي فالطرفان يعتمدان النص العربي وتفسيره باللغة العربية واعتبار هذا شرطاً.

معاهدة الطائف بين المملكة اليمانية وبين المملكة العربية السعودية

وقعت في جده في السادس من شهر صفر سنة ١٣٥٣

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

نحن الامام يحيى بن محمد حميد الدين ملك المملكة اليمانية بما انه قد عقدت بيننا وبين حضرة صاحب الجلالة الملك الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية معاهدة صداقة اسلامية وأخوة عربية لانهاء حالة الحرب الواقعة لسوء الحظ بيننا وبين جلالته ولتأسيس علاقات الصداقة الاسلامية بين بلادينا وقعها مندوب مفوض من قبلنا ومندوب مفوض من قبل جلالته وكلاهما حائزان للصلاحية التامة المتقابلة وذلك في مدينة جده في اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والالف وهي مدرجة مع عهد التحكيم والكتب الملحقة بها فيما يلي : ـ

معاهدة صداقة اسلامية واخوة عربية

بين المملكة اليمانية ـ وبين المملكة العربية السعودية

حضرة صاحب الجلالة الامام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن من جهة.

وحضرة صاحب الجلالة الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية من جهة اخرى.

رغبة منهما في انهاء حالة الحرب التي كانت قائمة لسوء الحظ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما ورغبة في جمع كلمة الامة الاسلامية العربية ورفع

شأنه وحفظ كرامتهما واستقلالهما.

ونظراً لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما على أساس المنافع المشتركة والمصالح المتبادلة.

وحباً في تثبيت الحدود بين بلاديهما وانشاء علاقات حسن الجوار وروابط الصداقة الاسلامية فيما بينهما وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلاديهما وشعبيهما.

ورغبة في أن يكونا عضداً واحداً أمام الملمات المفاجئة وبنياناً متراصاً للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية قررا عقد معاهدة صداقة اسلامية وأخوة عربية فيما بينهما وانتدبا لذلك الغرض مندوبين مفوضين عنهما وهما.

عن حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن:

حضرة صاحب السيادة السيد عبد الله بن احمد الوزير.

وعن حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية:

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن عبد العزيز نجل جلالته ونائب رئيس مجلس الوكلاء.

وقد منح جلالة الملكين لمندوبيهما الأنفي الذكر الصلاحية التامة والتفويض المطلق. وبعد أن اطلع المندوبان المذكوران على أوراق التفويض التي بيد كل منهما فوجداها موافقة للاصول قررا باسم ملكيهما الاتفاق على المواد الآتية: ـ

المادة الأولى: ـ تنتهي حالة الحرب القائمة بين مملكة اليمن والمملكة العربية السعودية بمجرد التوقيع على هذه المعاهدة وتنشأ فوراً بين جلالة الملكين وبلاديهما وشعبيهما حالة سلم دائم وصداقة وطيدة وأخوة اسلامية عربية دائمة لا يمكن الاخلال بها جميعها او بعضها ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بان يحلا بروح الود والصداقة جميع المنازعات والاختلافات التي قد تقع بينهما وبان يسود علاقتهما روح الاخاء الاسلامي العربي في سائر المواقف والحالات

ويشهدان الله على حسن نواياهما ورغبتهما الصادقة في الوفاق والاتفاق سراً وعلناً ويرجوان منه سبحانه وتعالى ان يوفقهما وخلفاءهما وورثاءهما وحكومتيهما الى السير على هذه الخطة القويمة التي فيها رضاء الخالق وعز قومهما ودينهما.

المادة الثانية: ـ يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر باستقلال كل من المملكتين استقلالاً تاماً مطلقاً وبملكيته عليها فيعترف حضرة صاحب الجلالة الامام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن لحضرة صاحب الجلالة الامام عبد العزيز ولخلفائه الشرعيين باستقلال المملكة العربية السعودية استقلالاً تاماً مطلقاً وبالملكية على المملكة العربية السعودية ويعترف حضرة صاحب الجلالة الأمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعوديةلحضرة صاحب الجلالة الامام يحيى ولخلفائه الشرعيين باستقلال مملكة اليمن استقلالاً تاماً مطلقاً وبالملكية على مملكة اليمن . ويسقط كل منهما أي حق يدعيه في قسم أو أقسام من بلاد الآخر خارج الحدود القطعية المبينة في صلب هذه المعاهدة .

ان جلالة الامام الملك يحيى يتنازل بهذه المعاهدة عن أي حق يدعيه باسم الوحدة اليمانية او غيرها في البلاد التي هي بموجب هذه المعاهدة تابعة للمملكة العربية السعودية من البلاد التي كانت بيد الادارسة أو آل عايض او في نجران وبلاد يام كما ان جلالة الامام الملك عبد العزيز يتنازل بهذه المعاهدة عن أي حق يدعيه من حماية او احتلال او غيرهما في البلاد التي هي بموجب هذه المعاهدة تابعة لليمن من البلاد التي كانت بيد الأدارسة او غيرها.

المادة الثالثة: ـ يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على الطريقة التي تكون بها الصلات والمراجعات بما فيه حفظ مصالح الطرفين وبما لا ضرر فيه على أيهما على أن لا يكون ما يمنحه أحد الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر أقل مما يمنحه لفريق ثالث ولا يوجب هذا على أي الفريقين أن يمنح الآخر أكثر مما يقابله بمثله.

المادة الرابعة: ـ خط الحدود الذي يفصل بين بلاد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين موضح بالتفصيل الكافي فيما يلي ويعتبر هذا الخط حداً فاصلاً قطعياً بين البلاد التي تخضع لكل منهما.

يبدأ خط الحدود بين المملكتين اعتباراً من النقطة الفاصلة بين ميدي والموسم على ساحل البحر الاحمر الى جبال تهامة في الجهة الشرقية ثم يرجع شمالاً الى أن ينتهي الى الحدود الغربية الشمالية التي بين بني جماعة ومن يقابلهم من جهة الغرب والشمال ثم ينحرف الى جهة الشرق الى أن ينتهي الى ما بين حدود نقعة ووعار التابعتين لقبيلة وائله وبين حدود يام ثم ينحرف الى أن يبلغ مضيق مروان وعقبة رفادة ثم ينحرف الى جهة الشرق حتى ينتهي من جهة الشرق الى أطراف الحدود بين من عدا يام من همدان بن زيد وائلى وغيره وبين يام فكلما عن يمين الخط المذكور الصاعد من النقطة المذكورة التي على ساحل البحر الى منتهى الحدود في جميع جهات الجبال المذكورة فهو من المملكة اليمانية وكلما هو عن يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية فما هو في جهة اليمين المذكورة هو ميدي وحرض وبعض قبيلة الحرث والمير وجبال الظاهر وشذا والضيعة وبعض العبادل وجميع بلاد وجبال رازح ومنبه مع عر وآل مشيخ وجميع بلاد وجبال بني جماعة وسحار الشام يباد وما يليها ومحل مربصعة من سحار الشام وعموم سحار ونقعة ووعار وعموم وائلة وكذا الفرع مع عقبة نهوقة وعموم من عدا يام ووداعة ظهران من همدان بن زيد هؤلاء المذكورون وبلادهم بحدودها المعلومة وكلما هو بين الجهات المذكورة وما يليها مما لم يذكر اسمه مما كان مرتبطاً ارتباطاً فعلياً او تحت ثبوت يد المملكة اليمانية قبل سنة ١٣٥٢ كل ذلك هو في جهة اليمين فهو من المملكة اليمانية وما هو في جهة اليسار المذكورة وهو الموسم ووعلان وأكثر الحرث والخوبة والجابري وأكثر العبادل وجميع فيفا وبني مالك وبني حريص وآل تليد وقحطان وظهران وادعة وجميع وادعة ظهران مع مضيق مروان وعقبة رفادة وما خلفهما من جهة الشرق والشمال من يام ونجران والحضن وزور وادعة وسائر من هو في نجران من وائلة وكما هو تحت عقبة نهوقه الى أطراف نجران ويام من جهة الشرق هؤلاء المذكورون وبلادهم بحدودها المعلومة وكلما هو بين الجهات المذكورة وما يليها مما لم يذكر اسمه مما كان مرتبطاً ارتباطاً فعلياً او تحت ثبوت يد المملكة العربية السعودية قبل سنة ١٣٥٢ كل ذلك هو في جهة يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية وما ذكر من يام ونجران والحضن

وزور وادعه وسائر من هو في نجران من وائلة فهو بناء على ما كان من تحكيم جلالة الامام يحيى لجلالة الملك عبد العزيز في يام والحكم من جلالة الملك عبد العزيز بأن جميعها تتبع المملكة العربية السعودية وحيث ان الحضن وزور وادعة ومن هو من وائلة في نجران هم من وائلة ولم يكن دخولهم في المملكة العربية السعودية الا لما ذكر فذلك لا يمنعهم ولا يمنع اخوانهم وائلة عن التمتع بالصلات والمواصلات والتعاون المعتاد والمتعارف به. ثم يمتد هذا الخط من نهاية الحدود المذكورة آنفاً بين أطراف قبائل المملكة العربية السعودية وأطراف من عدا يام من همدان بن زيد وسائر قبائل اليمن فللمملكة اليمانية كل الاطراف والبلاد اليمانية الى منتهى حدود اليمن من جميع الجهات. وللمملكة العربية السعودية كل الأطراف والبلاد الى منتهى حدودها من جميع الجهات وكلما ذكر في هذه المادة من نقط شمال وجنوب وشرق وغرب فهو باعتبار كثرة اتجاه ميل خط الحدود في اتجاه الجهات المذكور وكثيراً ما يميل لتداخل ما الى كل من المملكتين اما تعيين وتثبيت الخط المذكور وتمييز القبائل وتحديد ديارها على أكمل الوجوه فيكون اجراؤه بواسطة هيئة مؤلفة من عدد متساو من الفريقين بصورة ودية أخوية بدون حيف بحسب العرف والعادة الثابتة عند القبائل.

المادة الخامسة: ـ نظراً لرغبة كل من الفريقين الساميين المتعاقدين في دوام السلم والطمأنينة والسكون وعدم ايجاد أي شيء يشوش الافكار بين المملكتين فانهما يتعهدان تعهداً متقابلاً بعدم احداث أي بناء محصن في مسافة خمسة كيلو مترات في كل جانب من جانبي الحدود في كل المواقع والجهات على طول خط الحدود.

المادة السادسة: ـ يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين سحب جنده فوراً عن البلاد التي أصبحت بموجب هذه المعاهدة تابعة للفريق الآخر مع صون الاهلين والجند عن كل ضرر.

المادة السابعة: ـ يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يمنع كل منهما أهالي مملكته عن كل ضرر وعدوان على أهالي المملكة الأخرى في كل جهة وطريق وبأن يمنع الغزو بين أهل البوادي من الطرفين ويرد كل ما ثبت أخذه

بالتحقيق الشرعي من بعد ابرام هذه المعاهدة وضمان ما تلف وبما يلزم بالشرع فيما وقع من جناية قتل أو جرح بالعقوبة الحاسمة على من ثبت منهم العدوان ويظل العمل بهذه المادة سارياً الى أن يوضع بين الفريقين اتفاق آخر لكيفية التحقيق وتقدير الضرر والخسائر.

المادة الثامنة: ـ يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين تعهداً متقابلاً بأن يمتنعا عن الرجوع للقوة لحل المشكلات بينهما وبأن يعملا جهدهما لحل ما يمكن أن ينشأ بينهما من الاختلاف سواء كان سببه ومنشؤه هذه المعاهدة او تفسير كل او بعض موادها أم كان ناشئاً عن أي سبب آخر بالمراجعات الودية وفي حالة عدم امكان التوفيق بهذه الطريقة يتعهد كل منهما بأن يلجأ الى التحكيم الذي توضح شروطه وكيفية طلبه وحصوله في ملحق مرفق بهذه المعاهدة ولهذا الملحق نفس القوة والنفوذ اللذين لهذه المعاهدة ويحسب جزأ منها وبعضاً متمماً للكل فيها.

المادة التاسعة: ـ يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يمنع بكل ما لديه من الوسائل المادية والمعنوية استعمال بلاده قاعدة ومركزاً لأي عمل عدواني أو شروع فيه أو استعداد له ضد بلاد الفريق الآخر كما انه يتعهد باتخاذ التدابير الآتية بمجرد وصول طلب خطي من حكومة الفريق الآخر وهي.

١ ـ ان كان الساعي في عمل الفساد من رعايا الحكومة المطلوب منها اتخاذ التدابير فبعد التحقيق الشرعي وثبوت ذلك يؤدب فوراً من قبل حكومته بالادب الرادع الذي يقضي على فعله ويمنع وقوع أمثاله.

٢ ـ وان كان الساعي في عمل الفساد من رعايا الحكومة الطالبة اتخاذ التدابير فانه يلقى القبض عليه فوراً من قبل الحكومة المطلوب منها ويسلم الى حكومته الطالبة وليس للحكومة المطلوب منها التسليم عذر عن انفاذ الطلب وعليها اتخاذ كافة الاجرآت لمنع فرار الشخص المطلوب او تمكينه من الهرب وفي الاحوال التي يتمكن فيها الشخص المطلوب من الفرار فان الحكومة التي فر من أراضيها تتعهد بعدم السماح له بالعودة الى اراضيها مرة أخرى وان تمكن

من العودة اليها يلقى القبض عليه ويسلم الى حكومته.

٣ ـ وان كان الساعي في عمل الفساد من رعايا حكومة ثالثة فان الحكومة المطلوب منها والتي يوجد الشخص على أراضيها تقوم فوراً وبمجرد تلقيها الطلب من الحكومة الاخرى بطرده من بلادها وعده شخصاً غير مرغوب فيه ويمنع من العودة اليها في المستقبل.

المادة العاشرة: ـ يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم قبول من يفر عن طاعة دولته كبيراً كان أم صغيراً موظفاً كان أم غير موظف فرداً كان أم جماعة ويتخذ كل من الفريقين الساميين المتعاقدين كافة التدابير الفعالة من ادارية وعسكرية وغيرها لمنع دخول هؤلاء الفارين الى حدود بلاده فان تمكن أحدهم أو كلهم من اجتياز خط الحدود بالدخول في اراضيه فيكون عليه واجب نزع السلاح من الملتجي والقاء القبض عليه وتسليمه الى حكومة بلاد الفار منها وفي حالة عدم امكان القبض عليه تتخذ كافة الوسائل لطرده من البلاد التي لجأ اليها الى بلاد الحكومة التي يتبعها.

المادة الحادية عشرة: ـ يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بمنع الامراء والعمال والموظفين التابعين له من المداخلة باي وجه كان مع رعايا الفريق الآخر بالذات او بالواسطة ويتعهد باتخاذ كامل التدابير التي تمنع حدوث القلق او توقع سوء التفاهم بسبب الاعمال المذكورة.

المادة الثانية عشرة: ـ يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بان أهل كل جهة من الجهات الصائرة الى الفريق الآخر بموجب هذه المعاهدة رعية لذلك الفريق الآخر.

ويتعهد كل منهما بعدم قبول أي شخص او اشخاص من رعايا الفريق الآخر رعية له الا بموافقة ذلك الفريق وبأن تكون معاملة رعايا كل من الفريقين في بلاد الفريق الآخر طبقاً للاحكام الشرعية المحلية.

المادة الثالثة عشرة: ـ يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين باعلان العفو الشامل الكامل عن سائر الاجرام والاعمال العدائية التي يكون قد ارتكبها

فرد او أفراد من رعايا الفريق الآخر المقيمين في بلاده (أي في بلاد الفريق الذي منه اصدار العفو) كما انه يتعهد باصدار عفو عام شامل كامل عن أفراد رعاياه الذين لجأوا او انحازوا او بأي شكل من الاشكال انضموا الى الفريق الآخر من كل جناية ومال أخذوا منذ لجأوا الى الفريق الآخر الى عودهم كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ وبعدم السماح باجراء أي نوع من الإيذاء او التعقيب او التضييق بسبب ذلك الالتجاء او الانحياز او الشكل الذي انضموا بموجبه واذا حصل ريب عند أي الفريقين بوقوع شيء مخالف لهذا العهد كان لمن حصل عنده الريب او الشك من الفريقين مراجعة الفريق الاخر لأجل اجتماع المندوبين الموقعين على هذه المعاهدة وان تعذر على أحدهما الحضور فينيب عنه آخر له كامل الصلاحية والاطلاع على تلك النواحي ممن له كامل الرغبة والعناية بصلاح ذات البين والوفاء بحقوق الطرفين بالحضور لتحقيق الامر حتى لا يحصل أي حيف ولا نزاع وما يقرره المندوبان يكون نافذاً.

المادة الرابعة عشرة: - يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين برد وتسليم أملاك رعاياه الذين يعفى عنهم اليهم أو الى ورثتهم عند رجوعهم الى وطنهم خاضعين لاحكام مملكتهم وكذلك يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بعدم حجز أي شيء من الحقوق والاملاك التي تكون لرعايا الفريق الآخر في بلاده ولا يعرقل استثمارها أو أي نوع من أنواع التصرفات الشرعية فيها.

المادة الخامسة عشرة: - يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم المداخلة مع فريق ثالث سواء كان فرداً أم هيئة أم حكومة او الاتفاق معه على أي أمر يخل بمصلحة الفريق الآخر او يضر ببلاده او يكون من ورائه احداث المشكلات والصعوبات له أو يعرض منافعها ومصالحها او كيانها للاخطار.

المادة السادسة عشرة: - يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان اللذان تجمعهما روابط الاخوة الاسلامية والعنصرية العربية ان أمتهما أمة واحدة وانهما لا يريدان باحد شراً وانهما يعملان جهدهما لاجل ترقية شؤون أمتهما في ظل الطمأنينة والسكون وأن يبذلا وسعهما في سائر المواقف لما فيه الخير لبلاديهما وأمتهما غير قاصدين بهذا أية عداوة على أية أمة.

المادسة السابعة عشرة: - في حالة حصول اعتداء خارجي على بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتحتم على الفريق الآخر أن ينفذ التعهدات الاتية:

أولاً - الوقوف على الحياد التام سراً وعلناً.

ثانياً - المعاونة الادبية والمعنوية الممكنة.

ثالثاً - الشروع في المذاكرة مع الفريق الاخر لمعرفة أنجع الطرق لضمان سلامة بلاد ذلك الفريق الآخر ومنع الضرر عنها والوقوف في موقف لا يمكن تأويله بانه تعضيد للمعتدي الخارجي.

المادة الثامنة عشرة: - في حالة حصول فتن واعتداءات داخلية في بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهد كل منهما تعهداً متقابلاً بما يأتي:

أولاً - اتخاذ التدابير الفعالة اللازمة لعدم تمكين المعتدين او الثائرين من الاستفادة من أراضيه.

ثانياً - منع التجاء اللاجئين الى بلاده وتسليمهم او طردهم اذا لجأوا اليها كما هو موضح (في المادة التاسعة والعاشرة أعلاه).

ثالثاً - منع رعاياه من الاشتراك مع المعتدين او الثائرين وعدم تشجيعهم او تموينهم.

رابعاً - منع الامدادات والأرزاق والمؤن والذخائر عن المعتدين او الثائرين.

المادة التاسعة عشرة: - يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان رغبتهما في عمل كل ممكن لتسهيل المواصلات البريدية والبرقية وتزييد الاتصال بين بلاديهما وتسهيل تبادل السلع والحاصلات الزراعية والتجارية بينهما. وفي اجراء مفاوضات تفصيلية من أجل عقد اتفاق جمركي يصون مصالح بلاديهما الاقتصادية بتوحيد الرسوم الجمركية في عموم البلادين او بنظام خاص بصورة كافلة لمصالح الطرفين وليس في هذه المادة ما يقيد حرية أحد الفريقين الساميين المتعاقدين في أي شيء حتى يتم عقد الاتفاق المشار اليه.

المادة العشرون - : يعلن كل من الفريقين الساميين المتعاقدين استعداده لأن يأذن لممثليه ومندوبيه في الخارج ان وجدوا بالنيابة عن الفريق الآخر متى أراد الفريق الآخر ذلك في أي شيء وفي أي وقت ومن المفهوم أنه حينما يوجد في ذلك العمل شخص من كل من الطرفين في مكان واحد فانهما يتراجعان فيما بينهما لتوحيد خطتهما للعمل العائد لمصلحة البلادين التي هي كلمة واحدة ومن المفهوم أن هذه المادة لا تقيد حرية أحد الجانبين بأي صورة كانت في أي حق له كما أنه لا يمكن أن تفسر بحجز حرية أحدهما او اضطراره لسلوك هذه الطريقة.

المادة الحادية والعشرون : - يلغى ما تضمنته الاتفاقية الموقع عليها في ٥ شعبان سنة ١٣٥٠ على كل حال اعتباراً من تاريخ هذه المعاهدة.

المادة الثانية والعشرون : - تبرم هذه المعاهدة وتصدق من قبل حضرة صاحبي الجلالة الملكين في أقرب مدة ممكنة نظراً لمصلحة الطرفين في ذلك وتصبح نافذة المفعول من تاريخ تبادل قرارات ابرامها مع استثناء ما نص عليه في المادة الأولى من انهاء حالة الحرب بمجرد التوقيع وتظل سارية المفعول مدة عشرين سنة قمرية تامة ويمكن تجديدها او تعديلها خلال الستة الأشهر التي سبق تاريخ انتهاء مفعولها فان لم تجدد أو تعدل في ذلك التاريخ تظل سارية المفعول الى ما بعد ستة أشهر من اعلان أحد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر رغبته في التعديل.

المادة الثالثة والعشرون : - تسمى هذه المعاهدة بمعاهدة الطائف وقد حررت من نسختين باللغة العربية الشريفة بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة واشهاداً بالواقع وضع كل من المندوبين المفوضين توقيعه.

وكتب في مدينة جدة في اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد المائة والالف.

(التوقيع) عبد الله بن أحمد الوزير
(التوقيع) خالد بن عبد العزيز السعود

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

عهد التحكيم
بين مملكة اليمن
وبين المملكة العربية السعودية

بما أن حضرة صاحبي الجلالة الامامين الملك يحيى ملك اليمن والملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية قد اتفقا بموجب المادة الثامنة من معاهدة الصلح والصداقة وحسن التفاهم المسماة بمعاهدة الطائف والموقع عليها في السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف على أن يحيلا الى التحكيم أي نزاع او اختلاف ينشأ عن العلاقات بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما متى عجزت سائر المراجعات الودية عن حله فان الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهدان باجراء التحكيم على الصورة المبينة في المواد الآتية :

المادة الأولى : ـ يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يقبل باحالة القضية المتنازع عليها على التحكيم خلال شهر واحد من تاريخ استلام طلب اجراء التحكيم من الفريق الآخر اليه .

المادة الثانية : ـ يجرى التحكيم من قبل هيئة مؤلفة من عدد متساو من المحكمين ينتخب كل فريق نصفهم ومن حكم وازع ينتخب باتفاق الفريقين الساميين المتعاقدين وان لم يتفقا على ذلك يرشح كل منهما شخصاً فان قبل أحد الفريقين المرشح الذي يقدمه الفريق الآخر فيصبح وازعاً وان لم يمكن الاتفاق على ذلك تجرى القرعة على أيهما يكون وازعاً مع العلم بأن القرعة لا تجرى الا على الاشخاص المقبولين من الطرفين فمن وقعت القرعة عليه أصبح رئيساً لهيئة التحكيم ووازعاً للفصل في القضية وان لم يحصل الاتفاق على الاشخاص المقبولين من الطرفين تجرى المراجعات فيما بعد الى أن يحصل الاتفاق على ذلك .

المادة الثالثة : ـ يجب ان يتم اختيار هيئة التحكيم ورئيسها خلال شهر واحد

من بعد انقضاء الشهر المعين لاجابة الفريق المطلوب منه الموافقة على التحكيم لقبوله لطلب الفريق الآخر وتجتمع هيئة المحكمين في المكان الذي يتم الاتفاق عليه في مدة لا تزيد عن شهر واحد بعد انقضاء الشهرين المعينين في أول المادة. وعلى هيئة المحكمين أن تعطي حكمها خلال مدة لا يمكن بأي حال من الاحوال أن تزيد عن شهر واحد من بعد انقضاء المدة التي عينت للاجتماع كما هو مبين أعلاه. ويعطى حكم هيئة التحكيم بالأكثرية ويكون الحكم ملزماً للفريقين ويصبح تنفيذه واجباً بمجرد صدوره وتبليغه. ولكل من الفريقين الساميين المتعاقدين أن يعين الشخص او الاشخاص الذين يريدهم للدفاع عن وجهة نظره أمام هيئة التحكيم وتقديم البيانات والحجج اللازمة لذلك.

المادة الرابعة: ـ أجور محكمي كل فريق عليه وأجور رئيس هيئة التحكيم مناصفة بينهما وكذلك الحكم في نفقات المحاكمة الأخرى.

المادة الخامسة: ـ يعتبر هذا العهد جزءاً متمماً لمعاهدة الطائف الموقع عليها في هذا اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف ويظل ساري المفعول مدة سريان المعاهدة المذكورة وقد حرر هذا من نسختين باللغة العربية يكون بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة وقراراً بذلك جرى توقيعه في اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف.

(التوقيع)	عبد الله بن احمد الوزير
(التوقيع)	خالد بن عبد العزيز السعود

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

حرر في ٦ صفر سنة ١٣٥٣

من خالد بن عبد العزيز السعود الى حضرة الأخ صاحب السيادة السيد عبد الله الوزير المندوب المفوض من قبل جلالة الامام يحيى حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله. أما بعد فانه بمناسبة توقيع معاهدة الطائف بيننا

وبينكم نيابة عن جلالتي ملكي المملكة العربية السعودية والمملكة اليمانية أحب أن أثبت لكم في كتابي هذا انه لا يمكن اعتبار تلك المعاهدة وقبول انفاذ مقتضاها إلا في اثبات ما يأتي :

١ ـ أن يجري تسليم الأدارسة واخلاء جبالنا في تهامة واطلاق رهائن أهلها حالاً .

٢ ـ أن يظل مضمون هذه المعاهدة مكتوماً ولا ينشره أحد الفريقين ولا سيما ما يتعلق منها بمسألة الحدود لما يحدث ذلك من التشويش في تهامة خاصة وان انسحاب جند جلالة الملك عبد العزيز يكون بكامل الصيانة والشرف من ابتداء انسحابه الى آخره، وكل حادث عدواني عليه في خلال تلك المدة يكون مضموناً من قبل جلالة الامام يحيى وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

(التوقيع) خالد بن عبد العزيز السعود

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

حرر في ٦ صفر سنة ١٣٥٣

من عبد الله الوزير الى حضرة صاحب السمو الملكي الامير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله تعالى. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تلقيت كتاب سموكم تاريخ ٦ صفر سنة ١٣٥٣ وقد أحطت علماً بما اشترطتموه سموكم لانفاذ معاهدة الطائف التي عقدت بين الفريقين من تسليم الادارسة واخلاء الجبال التي كانت محتلة من قبل جنود جلالة الامام يحيى من بلاد جلالة الملك عبد العزيز واطلاق رهائن أهلها وأن تظل هذه المعاهدة مكتومة وعلى الاخص مسألة الحدود الى أن يتم ترتيب الاتفاق الذي اتفقنا عليه لانفاذه وان انسحاب جند جلالة الملك عبد العزيز يكون بكامل الصيانة والشرف من ابتداء انسحابه الى آخره وان كل حادث عدواني عليه في خلال تلك المدة يكون مضموناً من قبل جلالة الامام يحيى لقد أحطت علماً بذلك ويسرني أن أعلن سموكم بقبولنا وموافقتنا لاشتراطكم وانه سيكون مرعياً من جهتنا وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

تحريراً في ٦ صفر سنة ١٣٥٣

من عبد الله الوزير الى حضرة صاحب السمو الملكي الامير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فأتشرف بأن أثبت هنا الحاقا بمعاهدة الطائف الموقع عليها من قبل سموكم نيابة عن جلالة الملك عبد العزيز والموقعة من قبلي نيابة عن جلالة الملك الامام يحيى، وأتعهد باسم جلالة الامام يحيى بما هو آت:

١ ـ تسليم الادارسة لجلالة الملك عبد العزيز وقد عملت الترتيبات اللازمة لتسليم السيد الحسن والسيد عبد العزيز بن محمد الادريسي وسيسلمون حالاً لرجال سمو الامير فيصل في تهامة، أما السيد عبد الوهاب الادريسي فنظراً لأنه لا يزال الى الآن في بلاد العبادل فقد اتخذت الوسائل والوسائط لاستدعائه من تلك الانحاء لتسليمه فان لم يطع الامر فاتعهد باسم جلالة الامام يحيى بشأنه بما يأتي.

أ ـ أن تمتنع حكومة الامام يحيى عن كل مساعدة مادية أو معنوية له وان تمنع عنه من بلادها أي معاضدة او معاونة.

ب ـ اذا ارادت حكومة جلالة الملك عبد العزيز القبض عليه في الأراضي التي هو فيها فان حكومة الامام يحيى ستعمل من جهتها سائر انواع التضييقات العسكرية التي تستطيعها لمنع فراره الى اراضيها وتتعهد أن تلقي القبض عليه وعلى كل شخص اشترك معه في حركته من أي جهة وقبيل من قبائل المملكة العربية السعودية وأن تسلمهم لحكومة جلالة الملك عبد العزيز بغير شرط ولا قيد اذا دخلوا الى جهات المملكة اليمانية. وأن تمنع فراره أو فرار أي شخص من الذين اشتركوا معه في عمله الى الخارج اذا دخلوا الى اراضي المملكة اليمانية.

٢ ـ أما من كان له تعلق بالادارسة وحركتهم من الاشراف او غيرهم فاذا ارادوا اللحاق بالادريسي فلهم الامان من قبل حكومة جلالة الملك عبد العزيز

والصيانة والاحترام والاكرام اللائق بحقهم. واذا لم يشاءوا ذلك فانهم يخرجون من بلاد جلالة الامام يحيى ولا يسمح لهم بالبقاء فيها واذا عادوا اليها مرة أخرى فيطردون حالاً وينذرون بانهم اذا عادوا اليها يسلمون الى حكومة جلالة الملك عبد العزيز فان عادوا بعد طردهم فاتعهد باسم جلالة الامام يحيى بتسليمهم الى حكومة جلالة الملك عبد العزيز بغير قيد ولا شرط.

فارجو أن تعتبروا هذا سموكم عهداً وثيقاً له منزلة المعاهدة المعقودة بيننا وبين سموكم بهذا اليوم وعلى هذا عهد الله وميثاقه وأرجو أن يكون هذا طبقاً للاتفاق الشفوي الذي اتفقنا عليه في هذا الشأن وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(التوقيع) عبد الله بن احمد الوزير

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

حرر في ٦ صفر سنة ١٣٥٣

من خالد بن عبد العزيز الى حضرة صاحب السيادة الاخ السيد عبد الله بن أحمد الوزير المندوب المفوض من قبل جلالة الملك الامام يحيى حفظه الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فأتشرف بأن أعلمكم باستلامي كتاب سيادتكم بتاريخ اليوم بشأن ما تعهدتم به باسم جلالة الامام يحيى بشأن الأدارسة وأتباعهم وأنا على ثقة بأن ما تعهدتم به سيكون تنفيذه بمقتضى الامانة والوفاء المأمول في جلالة الامام يحيى ونتمنى أن يكون تنفيذ ذلك بأسرع مدة ممكنة. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(التوقيع) خالد بن عبد العزيز السعود

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

حرر في ٦ صفر سنة ١٣٥٣

من خالد بن عبد العزيز الى حضرة المكرم السيد عبد الله الوزير حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فبمناسبة توقيع معاهدة الطائف بين مملكتنا ومملكة اليمن أثبت هنا ما اتفقنا عليه بشأن تنقلات المتنقلين من رعايا المملكة العربية السعودية ورعايا المملكة اليمانية في البلادين ان التنقل في الوقت الحاضر يظل على ما كان عليه في السابق الى ان يوضع بين البلادين اتفاق خاص بشأن الطريقة التي ترى الحكومتان متفقاً اتخاذها من أجل تنظيم الانتقال سواء للحج او التجارة او غيرها من الأغراض والمنافع فأرجو أن أنال جوابكم بالموافقة على ما اتفقنا عليه بهذا الشأن وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(التوقيع) خالد بن عبد العزيز السعود

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

حرر في ٦ صفر سنة ١٣٥٣

من عبد الله الوزير الى صاحب السمو الملكي الأمير خالد المفوض من قبل جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فقد تلقيت كتاب سموكم تاريخ ٦ صفر بشأن تنقلات رعايا الفريقين بين البلادين وانني على اتفاق مع سموكم في أن يكون الانتقال في الوقت الحاضر طبقاً للطريقة التي كان السير عليها من قبل الى ان يوضع اتفاق خاص بشأن تنظيم الانتقال في المستقبل وان ذلك سيكون مرعياً من جانب حكومتنا كما هو مرعى من جانب حكومتكم وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(التوقيع) عبد الله بن احمد الوزير

فبعد أن اطلعنا على هذه المعاهدة السالفة الذكر وعلى عهد التحكيم والكتب التي الحقت بها وأمعنا النظر فيها صدقناها وقبلناها وأقررناها جملة في مجموعها ومفردة في كل مادة وفقرة منها كما اننا نصدقها ونبرمها ونتعهد ونعد وعداً ملوكياً صادقاً باننا سنقوم بحول الله بما ورد فيها ونلاحظه بكمال الأمانة والاخلاص وباننا لن نسمح بمشيئة الله بالاخلال بها بأي وجه كان طالما نحن قادرون على ذلك وزيادة في تثبيت صحة كل ما ذكر فيها أمرنا بوضع خاتمنا على هذه الوثيقة ووقعناها بيدنا والله خير الشاهدين.

حرر في اليوم السابع من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف وهذه أول اتفاقية ومعاهدة بيننا وبين حضرة أخينا جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن.

كتب هذا أمير المؤمنين يحيى بن محمد حميد الدين سامحهما الله تعالى.

المعاهدة اليمانية العراقية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

رغبة في تأسيس علاقات صداقة ودية بين مملكتي اليمن والعراق وتمهيداً لتنفيذ سعى وأمنية زعماء الأمة الاسلامية لتوحيد كلمة الأمة العربية... قرر كل من صاحبي الجلالة ملك العراق فيصل الأول بن الملك الحسين وملك اليمن الامام يحيى بن محمد حميد الدين اجراء معاهدة عينا مفوضين عنهما لعقدها وهما:

عن صاحب الجلالة ملك العراق... صاحب السعادة طه باشا الهاشمي وعن صاحب الجلالة ملك اليمن... صاحب الفضيلة القاضي عبد الله العمري اللذان بعد أن اتفقا على وثائق تفويضهما اتفقا على ما يأتي:

المادة الأولى: يعترف صاحب الجلالة ملك اليمن بالمملكة العراقية ويعترف صاحب الجلالة ملك العراق بالمملكة اليمنية.

المادة الثانية: يسود سلم دائم وصداقة وطيدة بين المملكتين المتعاقدتين.

المادة الثالثة: حررت هذه المعاهدة نسختين باللغة العربية وتصير نافذة من تاريخ تداولها بعد ابرامها من قبل الملكين المتعاقدين ويجرى التبادل في المحل الذي يتفق عليه الفريقان.

حررت في صنعاء في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٤٩ تسع وأربعين بعد الثلثمائة وألف هجرية.

طه باشا　　　　عبد الله بن حسين العمري

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

معاهدة صداقة

بين دولة اليمن ودولة هولانده

حضرة صاحب الجلالة ملك قطعة اليمن المستقلة وحاكمها المطلق الامام يحيى بن الامام محمد بن يحيى حميد الدين المعظم.

وحضرة صاحبة الجلالة المعظمة ملكة بلاد هولانده المستقلة وحاكمتها المطلقة ويلهلمين المبجلة.

رغبة منهما في تأسيس روابط الصداقة بين الدولتين وتوثيق عراها على قاعدة القوانين الدولية العامة قد قررا عقد معاهدة صداقة ولهذا الغرض عين.

من طرف جلالة ملك اليمن الامام يحيى حضرة الكاتب الأول لعرش الدولة اليمنية صاحب السعادة القاضي محمد راغب بن رفيق.

ومن طرف جلالة ملكة هولانده حضرة مفوض جلالتها بجدة صاحب السعادة المسيو. ك ادريانه مندوبين مفوضين عنهما وقد اتفقا على المواد الآتية:

المادة الأولى:

يسود بين دولة اليمن ودولة هولانده وبين رعايا كلتا الدولتين سلام لا يمس وصداقة خالصة مطلقة.

المادة الثانية :

سيكون من كل من الفريقين الساميين المتعاهدين أثناء العلاقات السياسية والقنصلية بينهما في الوقت الذي سيقرران تعيينه وعند ذلك يتمتع الممثلون السياسيون والقنصليون من كل منهما في بلاد الدولة الأخرى بالمعاملة المقررة بمبادىء القانون الدولي العامة بشرط أن تكون هذه المعاملة متساوية.

المادة الثالثة :

كل من رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين الذين يقصدون التجارة في بلاد الفريق الآخر يكونون تابعين للقوانين والاحكام المحلية ويتمتعون بنفس المعاملة التي يتمتع بها رعايا الدولة الأكثر رعاية من كل الوجوه. وكذلك تعامل سفن كل من الفريقين المتعاهدين وشحناتها في موانىء الفريق الآخر بنفس المعاملة التي تتمتع بها سفن الدولة الأكثر رعاية وشحناتها من كل الوجوه.

المادة الرابعة :

حاصلات أرض كل من الفريقين المتعاهدين ومصنوعاتها تعامل في دخولها الى بلاد الفريق الآخر فيما يتعلق بتعيين مقادير الرسوم والضرايب الكمركية وأخذها بنفس المعاملة التي تعامل بها حاصلات ومصنوعات الدولة الاكثر رعاية وكذلك تأكيداً لهذا تعامل حاصلات الأرض والمصنوعات التي تخرج من بلاد أحد الفريقين الى بلاد الفريق الآخر فيما يتعلق بتعيين مقادير الرسوم والضرايب الكمركية وأخذها بنفس المعاملة التي تعامل بها حاصلات الأرض والمصنوعات التي تخرج الى بلاد الدولة الاكثر رعاية.

المادة الخامسة :

قد دونت هذه المعاهدة في نسختين أصليتين متساويتين باللغة العربية واللغة الهولاندية واذا نشأت شكوك في تفسير مادة من المواد أو في تفسير قسم من أي مادة كانت فالطرفان يعتمدان النص العربي ومن حيث انها كانت في ملحقات مملكة هولانده في خارج أوروبا بعض قوانين وأحكام مخالفة لقوانين وأحكام بلاد هولانده في أوروبا قد اتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على أن تطبيق هذه المعاهدة فيما يخص دولة هولانده سيكون مقتصراً على بلاد مملكة

هولانده الأوروبوية وسيكون ابرامها وتبادل الوثائق بأقرب وقت وتصير نافذة المفعول بمجرد تبادل الوثائق المبرمة. وقد اتفق الفريقان المتعاهدان على عقد هذه المعاهدة لمدة خمس سنوات اعتباراً من تاريخ تبادل الوثائق المبرمة على انه اذا أراد أحد الفريقين المتعاهدين الغاء هذه المعاهدة بعد انقضاء مدتها يجب أن يشعر الفريق الأخر بمراده قبل انتهاء المدة بستة أشهر والا استمرت هذه المعاهدة ولا تلغى الا بعد مضي ستة أشهر من حين اشعار أحد الفريقين للآخر بارادته الغاءها وتبينا لهذا قد صار توقيع هذه المعاهدة من حضرتي مفوضي الفريقين المشار اليهما ووضع اختامهما عليها حرر بصنعاء اليمن لتاريخه ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٥١ الموافق ١٢ مارت سنة ١٩٣٣

مندوب مفوض عن جلالة ملكة هولانده

محمد راغب بن رفيق　　　　كورنليس ادريانه

المعاهدة الانكليزية اليمنية

معاهدة الصداقة والتعاون المتبادل

المقدمة

بما أن لجلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند من جهة ولجلالة ملك اليمن حضرة الامام من الجهة الاخرى.

رغبة في الوصول الى معاهدة على أساس الصداقة والتعاون لمنفعة الفريقين قد قررا عقد هذه المعاهدة وعينا بصفة المندوبين المفوضين.

جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند عن بريطانيا العظمى وايرلندا الشمالية. حضرة صاحب السعادة اللفتيننت كولونل برنارد روادون رايلي س.ي.إ. و. ب. إ. المحترم.

عن الهند كذلك حضرة صاحب السعادة اللفتيننت كولونل برناردراودون رايلي س. ي. إ. و. ب. إ. المحترم.

جلالة ملك اليمن حضرة الامام. حضرة صاحب السعادة القاضي محمد راغب بن رفيق حفظه الله.

اللذان بعد تبليغ أوراق تفويضهما وتحقيق صحتها على شكل حسن اتفقا على ما يأتي.

المادة الأولى: - يعترف جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند باستقلال جلالة ملك اليمن حضرة الامام ومملكته استقلالاً كاملاً مطلقاً في جميع الامور مهما كان نوعها.

المادة الثانية - يسود السلم والصداقة بين الفريقين المتعاهدين الساميين اللذين يتعهدان بالمحافظة على حسن العلائق بينهما من كل الوجوه.

المادة الثالثة: - يؤجل البت في مسألة الحدود الجنوبية اليمنية الى أن تتم مفاوضات تجري بينهما قبل انتهاء مدة هذه المعاهدة بما يتراضى الفريقان المتعاهدان الساميان عليه بصورة ودية وباتفاق كامل بدون احداث أي منازعة أو مخالفة. والى أن تتم المفاوضات المشار اليها في الفقرة السالفة الذكر فالفريقان المتعاهدان الساميان يقبلان أن تبقى الحالة الحاضرة فيما يتعلق بالحدود في تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة ويتعهد الفريقان المتعاهدان الساميان ان يمنعا بكل ما لديهما من الوسائل أي تعد من قواتهما في الحدود المذكورة وأي تداخل من أتباعهما أو من جانبهما في تلك الحدود في شؤون الأهالي القاطنين في الجانب الآخر من الحدود المذكورة.

المادة الرابعة - سيعقد الفريقان المتعاهدان الساميان بعد العمل بالمعاهدة الحاضرة ما يلزم من المعاهدات لتنظيم الأمور التجارية والاقتصادية على أساس المبادىء الدولية العامة مع التراضي والموافقة بينهما.

المادة الخامسة: (١) رعايا كل من الفريقين المتعاهدين الساميين الذين يقصدون التجارة في بلاد الفريق الآخر يكونون تابعين للقوانين والاحكام المحلية ويتمتعون بنفس المعاملة التي يتمتع بها رعايا الدولة الاكثر رعاية.

(٢) كذلك سفن كل من الفريقين المتعاهدين الساميين وشحناتها تتمتع في

موانىء الفريق الآخر بنفس المعاملة التي تتمتع بها سفن الدولة الاكثر رعاية وشحناتها وتعامل ركاب تلك السفن في موانىء بلاد الفريق الآخر بنفس ما يعامل به من كان في سفن الدولة الاكثر رعاية هنالك.

(٣) «الغرض بهذه المادة يتعلق بجلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند».

أ ـ لفظة (بلاد) ينبغي أن يعد معناها مملكة بريطانيا العظمى المتحدة وايرلندا الشمالية والهند وجميع مستعمرات جلالته والبلاد المحمية وجميع البلاد المنتدب عليها من قبل حكومة جلالته في المملكة المتحدة.

ب ـ لفظة (رعايا) ينبغي أن يعد معناها جميع رعايا جلالته أينما سكنوا وجميع أهالي البلاد التي تحت حماية جلالته وكذلك جميع الشركات المؤسسة في أي بلد من بلاد جلالته تعتبر من رعايا جلالته.

ج ـ لفظة (سفن) ينبغي أن يعد معناها جميع السفن التجارية المسجلة في أي بلد من بلاد اتحاد الشعوب البريطانية.

المادة السادسة ـ هذه المعاهدة تكون أساساً لكل ما يكون الاتفاق عليه من المعاهدات المتتابعة بين الفريقين المتعاهدين الساميين حالاً واستقبالاً في معنى تقوية الوداد والصداقة ويتعهد الفريقان المتعاهدان الساميان بعدم اعطاء المساعدة والمسامحة لأي حركة ضد الوداد والاتفاق القائم الصميم بينهما.

المادة السابعة ـ يصادق على هذه المعاهدة بأسرع وقت ممكن بعد التوقيع وتتبادل حجج التصديق في صنعاء ويعمل بها من تاريخ تبادل حجج التصديق وفيما بعد تبقى معمولاً بها لمدة أربعين سنة وتقريراً لذلك وقع المندوبان المفوضان المشار اليهما امضاءهما على المعاهدة الحاضرة ووضعا ختومهما عليها وقد نظمت هذه المعاهدة نسختين باللغتين الانكليزية والعربية واذا نشأت شكوك في تفسير شيء من هذه المواد فالفريقان المتعاهدان الساميان يعتمدان النص العربي وحررت في صنعاء اليمن في اليوم ٢٦ من شهر شوال سنة ١٣٥٢ للهجرة يقابله يوم ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ للميلاد.

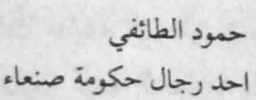
(محمد راغب بن رفيق) - (برنارد راودون رايلي)

ايطاليا تبيع اليمن اسلحة عتيقة

لم تف ايطاليا بما جاء في نص المعاهدة التي عقدتها مع جلالة الامام وهذا دائماً شأن تعاقد الضعيف مع القوي ومثالاً على ذلك أن جلالة الامام يحيى طلب منها بنية سليمة صافية شراء بعض الطيارات الحديثة والمدافع الضخمة والرشاشات والبنادق الى غير ذلك من المعدات الحربية والعتاد الحربي فما كان من الحليفة الغيورة على مصالح حليفها الا أن جلبت له طيارات قديمة وغير قابلة للاستعمال ولما طار بها أحد الطيارين في صنعاء يصحبه واحد من السادة رجال الامام سقطت هذه الطيارة فوراً وقتل السيد والسائق وكان لهذه الحادثة أسوأ وقع في نفوس اليمانيين وجعلتهم يتخوفون من الطيران والطائرات فلا يقدمون على المجازفة بجلب طيارات، ومنع جلالة الامام بعثة الطلبة اليمانيين التي ذهبت الى ايطاليا لدرس فن الطيران والتي عادت الى اليمن أثناء العطلة المدرسية من العودة الى ايطالية ثانية ويغلب على ظني أن الطليان تعمدوا بيع طائرات قديمة الى اليمن أولاً حتى لا تستفيد حكومة اليمن منها شيئاً وثانياً حتى لا تجازف هذه الحكومة الفتية في المستقبل بشراء الطائرات إذ من البديهي أن ايطاليا الطامعة في هذا الجزء من البلاد العربية لا ترغب أن توجد فيه حكومة قوية لديها معدات حربية صالحة للنزال والقتال كما وان البنادق التي باعها الطليان لليمن قديمة من نوع «شتير» وقد غنمت حكومة ايطاليا هذه البنادق من النمسا أثناء الحرب العالمية وهي غير صالحة للاستعمال فنياً وكان من الواجب اتلافها وقد فحصت بنفسي عدة بنادق منها كان يحملها الجنود وأطلقت بها طلقات عديدة فوجدتها عديمة النفع لا تصيب الهدف لأنها مستعملة كثيراً وقد أضاع داخلها شكله الحلزوني لكثرة الاستعمال وفوهتها توسعت من هذا الاستعمال وهي في حد ذاتها من الأنواع الرديئة ولو كانت جديدة. وقد باعت ايطاليا أيضاً معملاً ميكانيكياً (اتلير) قديماً كانت جلبته الى مصوع حين احتلالها لها الى جلالة الامام بثمن باهظ جداً ونقل الى صنعاء وركبه مهندسون ايطاليون وأخذوا يعملون فيه على حساب جلالة الامام وانفقوا على تصليحه وترميمه عشرات الالوف من الريالات ذهبت جميعها جزافاً فلا حول ولا قوة الا بالله . .

وقد ارسل الايطاليون عملاً بهذه المعاهدة بعثة من الأخصائيين الفنيين الميكانيكيين والمهندسين الى اليمن ولدى استعلامي عن أعضاء هذه البعثة من الكثيرين شكوا إليَّ منهم شكوى مريرة وقالوا انهم لا يعرفون شيئاً وانهم يسيئون معاملة الوطنيين وقد شاهدت بعضهم وضعوا مضخة ميكانيكية على غيل بالقرب من صنعاء ليرفعوا ماء هذا الغيل من نبعه الى مجراه الذي يعلو عن النبع أيام القيظ لقلة الماء ولشدة جهلهم رفعوا الماء الى علو خمسة أمتار ثم حدروه الى مجرى الماء أربعة أمتار وكان بوسعهم أن يرفعوه متراً واحداً ويصبوه في مجرى الماء وبذلك يوفرون عملاً ووقوداً، وقد لفتّ نظر واحد من اليمانيين القائمين على سير هذا العمل الى هذا الأمر فأجابني ان الحق بيدك وقد لفت نظر المهندس الطلياني غير واحد منا الى هذه العملية الخاسرة فكان نصيبنا التوبيخ .





حمود الطائفي
احد رجال حكومة صنعاء

رد الزيارة الى القاضي محمد راغب

قمت في أحد أيام الجمعة مبكراً وقصدت الى دار القاضي محمد راغب وزير خارجية الامام رداً لزيارته والتحدث اليه عن بعض الأمور واخترت يوم الجمعة لأن حكومة اليمن تعطل جميع دوائرها في هذا اليوم ويقطن حضرة القاضي محمد راغب في أحد دور حي بئر العزب الذي سبق لي أن وصفته وصفاً مطولاً فاستقبلني حضرته أستقبالاً جميلاً ورحب بي بلطفه التركي المشهور وأدبه الجم وأدخلني الى صالة استقباله وهي في الدور الثاني. وداره جميلة ونظيفة ومرتبة ترتيباً حسناً على طراز دور دمشق القديمة فيها صالون فسيح والى جانبه عدة غرف كبيرة وصغيرة. وقدم لي قهوة تركية حلوة مصنوعة من لب البن لا من قشره كما هي العادة في اليمن فوجدت فيها لذة عظيمة ورأيت في زاوية من زوايا صالون الاستقبال عوداً فقلت الحمد لله يا حضرة الوزير هذا أول عود لا بل أول آلة موسيقية اشاهدها في اليمن فقال نعم لا يوجد باليمن آلات موسيقية غير موسيقى الجيش لأن جلالة الامام قد منع ذلك وهو يحذو في عمله هذا حذو السلف الصالح ويكره جميع انواع الآلات الموسيقية خلا الموسيقى العسكرية فهو ولوع بها كثيراً لأنها تنشط الجند وتخلق فيهم روح النظام والحماس والشجاعة ولذلك فقد سمح جلالته بها دون غيرها من أنواع الموسيقات. قلت يوجد لديَّ حاكي أي «فونوغراف» وكنت أرغب أن أسمع جلالة الامام مارش الجزائر ومارش جلالة الملك فؤاد ملك مصر فقال لا تطلب ذلك من الامام لأنه سيرفض اجابة طلبك بدون شك وهذا العود الذي تراه عندي هو عود قديم كان جلبه ابني معه من الخارج وعندما يعزف عليه يسجن نفسه في غرفة بعيدة عن الطريق ويغلق الأبواب والنوافذ حتى لا يسمعه أحد.

تباحثت مع فضيلة القاضي محمد راغب ابحاثاً كثيرة وسألته أسئلة كثيرة وخاصة عن تجارة اليمن مع البلاد العربية المجاورة كنجد والحجاز وحضرموت. فقال حضرته ان التجارة في الماضي مع هذه البلاد كانت أوسع مما هي عليه اليوم وكانت القوافل تروح وتغدو بصورة منتظمة. فقلت وهل يوجد

طرقات تسير عليها هذه القوافل وهل هي أمينة من السلب والنهب فأجاب بأن الأمن مستتب تماماً في اليمن وهو كذلك بالحجاز ونجد والقوافل أمينة على حياتها وبضائعها وأما الطرقات فليست معبدة ولكنها صالحة للسير. فقلت اذكروا لي طريق نجد فقال: من صنعاء الى العمشية صعدة ـ نجران ـ رياض ـ القصيم ـ نجد فالكويت. فقلت وطريق الحجاز فقال ان طريق الحجاز هو طريق الحج وهذا معروف منذ القديم وكان ولا يزال الحج يسير عليه وهو: صنعاء ـ عمشية ـ صعده قحطان ـ ابها ـ زهوان ـ غامد ـ طائف مكة. فقلت وطريق حضرموت فقال: صنعاء وعلان ـ معبر ـ زمار ـ يريم ـ منزل سمارة ـ مخادر ـ اب ـ ماوية ـ دريجة ـ لحج ـ حضر موت أو عدن.

وقد ذكر لي القاضي محمد راغب انه كان أيام الحرب العظمى في زمن الدولة العثمانية متصرفاً على تعز فمنع ارسال الحبوب والغلال والخضر الى عدن فكادت تقع فيها مجاعة وارتفعت أثمان الحاجيات ارتفاعاً باهظاً وهدد الانكليز في عدن انهم اذا تجاوزوا على حدود اليمن فانه سيحول مجرى الماء الذي يأتي من الحجرية في اليمن ويذهب الى لحج (احدى المحميات التسع) فالشيخ عثمان عن مجراه الاصلي الى البحر ولقاء هذا التهديد لم يتجاز الانكليز حدود عدن بل بالعكس هاجم الترك المحميات التسع وكادوا يحتلون عدن لولا وجود عدة مدرعات حربية أصلتهم بنارها الحامية فأكرهتهم على التقهقر عن عدن. وهذا ما حدا بالبريطانيين أن يوسعوا حدود محمياتهم ويستميلوا أمراء هذه المحميات بالمال والعطايا.

مقتل الحجاج اليمانيين
سنة ١٣٤٠ هجرية

وحدثني القاضي محمد راغب عن مقتل الحجاج اليمانيين في سنة ١٣٤٠ هجرية في مكان يقال له التنومة واقع قبل الطائف بين زهران وغامد. وحدثني أيضاً عن هذه الفاجعة كثير من أهل اليمن بينهم بعض أقارب الحجاج الذين قتلوا في هذه المجزرة وكان الجميع متفقين في رواية القصة ولكنهم كانوا

مختلفين من جهة عدد الذين قتلوا وعدد الذين سلموا وجميعهم كانوا يسردونها عليّ وعلامات التأثر العميق والحقد الشديد ظاهرة على أسارير وجوههم والبعض كانوا يزعمون أن عدد الحجاج اليمانيين من نساء ورجال كان نحو ثمانية آلاف عدا عن ألفي حضرمي وغيرهم من البلاد القريبة من اليمن وبعضهم زعم أن الجميع كانوا ستة آلاف وغيرهم قال لا بل كانوا خمسة آلاف وأما الذين سلموا فقد قيل انهم سبعة أو خمسة أشخاص فقط والله أعلم وهذه الحادثة تتلخص فيما يلي:

كانت نار الحرب في سنة ١٣٤٠ هجرية متقدة بين المغفور له جلالة الملك حسين ملك الحجاز وجلالة الملك عبد العزيز ملك نجد وصادف في تلك السنة حسب العادة ذهاب الحجاج اليمانيين عن طريق البر لتأدية هذه الفريضة الدينية وكان الحجاج في جميع الروايات التي سمعتها عزلاً من السلاح الحربي وهم آمنون لا يفكرون في اعتداء أحد عليهم ولا يرغبون في قتال أحد ولما وصلوا الى التنومة اعترضهم كمين من الاخوان أصحاب الملك ابن سعود وأصلوهم



بعض رجال حكومة صنعاء ويرى في الوسط السيد حسين عبد القادر عامل صنعاء والى يمينه القاضي حسين المطهر وحمود الطائفي وعبد الوهاب نعمان والقاضي لطف الزبيري ومحمد الطائفي وعبد القادر بن عبد الله عبد القادر وشرف الدين عبد القادر وغيرهم

ناراً حامية فلم يسلم منهم الا سبعة أو خمسة أشخاص كانوا متأخرين قليلاً عن رفقائهم وسلب الاخوان جميع أمتعة هؤلاء الناس وتركوهم ممددين على الثرى وعادوا بغنائمهم فائزين وبانتصارهم فرحين.

ولدى بحثي الدقيق في اليمن والحجاز ونجد ومصر مع أناس مسؤولين أي موظفين في هذه الحكومات وواقفين على بواطن الأمور وانـاس غير مسؤولين ولكنهم يتتبعون حوادث البلاد العربية باهتمام كثير عن الأسباب الحقيقية التي حدت بالاخوان الوهابيين لاغتيال هذا العدد العظيم من الناس وهم ذاهبون الى بيت الله الحرام تحققت أن لبعض الأجانب ضلعاً في هذه المؤامرة وقد كانوا يتوخون منها اثارة الفتنة بين الملك عبد العزيز والامام يحيى وامتداد نار الحرب من الحجاز الى اليمن. وقالوا لجلالة الملك عبد العزيز بأساليب شتى وعن طرق عديدة وبواسطة أناس كثيرين بأن جلالة الملك حسين رحمه الله استنجد بالامام يحيى ليقاتل معه فاعتذر الامام عن الدخول في الحرب بصورة رسمية علنية ولكنه أوفد هذه الخمسة آلاف او السبعة آلاف نسمة بصورة حجاج لكي يتطوعوا في الجيش الحجازي ويقاتلوا ابن السعود تحت راية الحسين. ويظهر أن جلالة الملك عبد العزيز قد أخذ بهذه الدعاية الباطلة وأمر جنده من الاخوان بأن يبيدوا هؤلاء الناس عن بكرة أبيهم واني على مثل اليقين أن جلالة الملك عبد العزيز حفظه الله ما كان ليقدم على هذا الامر لولا خديعة أعداء الاسلام والمسلمين له فلا حول ولا قوة الا بالله.

وكان من نتائج مقتل هؤلاء الحجاج ان توترت العلاقات بين صنعاء والرياض وامتنع اليمانيون من تأدية فريضة الحج وحصل أخذ ورد بين جلالة الملك عبد العزيز وجلالة الامام يحيى وذهبت الوفود السعودية الى صنعاء وزارت الوفود اليمانية الرياض ومكة لحل هذه المشكلة وغيرها من المشاكل كتسوية بعض الحدود في جهات عسير ونجران ووافق جلالة الملك عبد العزيز على دفع دية الحجاج المقتولين وبقيت هذه الأمور معلقة الى أن انفجرت الحرب المعلومة بين العاهلين العظيمين وكادت لولا تدخل المسلمين في جميع أقطار المعمورة بينهما وتوسلهم اليهما أن يكفوا عن الحرب تمتد الى جميع

أطراف البلاد اليمانية والحجازية النجدية ولا شك أنها كانت تطول جداً ولا يحصد منها الفريقان المتنازعان سوى اراقة الدماء فكلاهما قوي وكلاهما مستعد للحرب ولكننا نحمد الله سبحانه وتعالى الذي أنزل التسامح على قلبي هذين الجبارين المسلمين اللذين أسسا ملكهما بجدهما وكدهما ونرجو من الله أن يطيل في بقائهما ليتمما الرسالة التي تحملاها ويقوما بخدمة شعبيهما الكريمين اللذين هما أمانة في عنقهما وعليهما وحدهما تتوقف ترقية شعبيهما ونجاح العرب ولا شك أن المعاهدة التي عقدت بينهما هي قذى في أعين الخصوم والطامعين.

وأني أذكر للتاريخ - وللتاريخ فقط - بأن جميع ما أشاعته الجرائد من انكسار جيوش جلالة الامام هو عاري عن الصحة وبالعكس فقد انتصرت جنود جلالته تحت قيادة ولي عهده صاحب السمو احمد سيف الاسلام على جيوش صاحب السمو الامير سعود في معركة جبل باقم المشهورة في حدود نجران وكانت هذه المعركة السبب الحقيقي في توقف القتال وعقد الهدنة ثم المعاهدة واني لا أرغب في الدخول في تفصيلات وافية في الحرب النجدية اليمنية لأن ذلك ليس في مصلحة أحد وأنا من أحرص الناس على تقريب وجهتي نظر العاهلين العظيمين لما في ذلك من الخير لجميع المسلمين.

قنصل أميركا

اجتمعت بالمستر جايمس لودرباك قنصل اميركا في عدن عندما زار اليمن ليطلع على احوالها وليقابل جلالة الامام وانجاله وسألته ماذا تم في المعاهدة اليمانية الاميركية فقال انه لم يتم شيء بعد وهذه المعاهدة هي التي كان قد اقترح عقدها المستر شارلس كرين الاميركي المعروف وتتلخص في عدة مواد اهمها المواد الآتية:

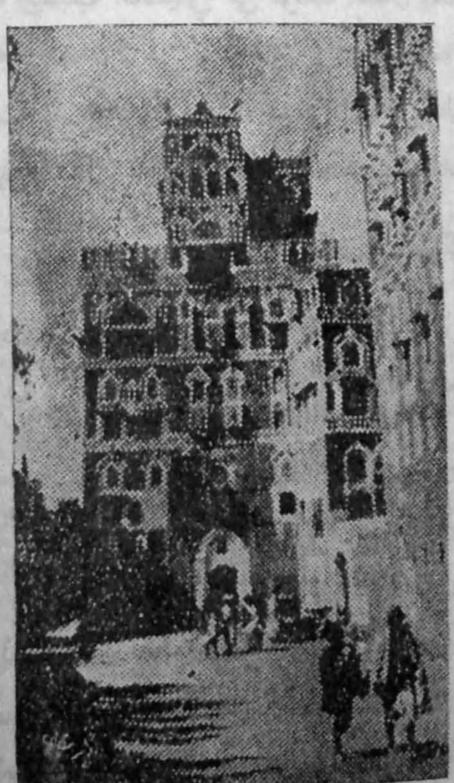
(١) تعترف حكومة الجماهير المتفقة الاميركية المعظمة بالاستقلال الكامل المطلق لجلالة ملك اليمن الامام يحيى ولحكومته فلا يكون لحكومة الجماهير الاميركية المشار اليها أي تدخل في الامور الادارية والسياسية في مملكة الامام.

(٢) بعقد هذه المعاهدة تؤسس المناسبات الودادية ويحصل تسهيل المعاملات التجارية بين المملكتين.

(٣) تعتبر هذه المعاهدة من تاريخ امضائها من جانب الحكومتين فبعد امضائها وتعاطيها يكون كل من تبعة الحكومتين مأذوناً بالسير والسفر والتجارة في المملكتين على أن يكون تابعاً في كل الأمور والخصوصات للاصول والمعاملات والنظامات المرعية في المملكة التي يكون فيها.

(٤) هذه المعاهدة تعتبر لمدة عشر سنين على أن تكون قابلة للتجديد والتوسيع بتراضي الطرفين وقد حررت في نسختين عربية وانكليزية وعند اللزوم والاجتماع تكون حكومة جلالة الامام مسؤولة بما في اللغة العربية فقط.

وعلمت فيما بعد أن الحكومة الاميركية لم توافق على عقد هذه المعاهدة لأن تجارة اميركا في اليمن محدودة جداً وليس لها مصالح اقتصادية أو سواها لتهتم بعقد هذه المعاهدة ولذلك رفضت عقدها بصورة نهائية وبلغت ذلك الى



منزل في صنعاء نوافذه من المرمر

قنصلها في عدن.

ويظهر في بنود هذه المعاهدة وفي بنود المعاهدة الايطالية اليمانية وغيرهما من المعاهدات حرص جلالة الامام على عدم منح الاجانب الذين يأتون اليمن امتيازاً ما ومعاملتهم طبقاً لاحكام اليمن وقوانينه وعلى اعتبار الحكومتين المتعاهدتين متساويتين في الحقوق.

وقد علمت بصورة خاصة ان جلالة الامام ما كان ليعقد معاهدة مع ايطاليا لولا حرصه الشديد على جلب سلاح وعتاد من ايطاليا ولم توافق ايطاليا بادىء الأمر على أن تجلب له ما يطلبه من السلاح الا اذا عقد معها معاهدة ولذلك اضطر جلالته الى عقد المعاهدة المار ذكرها وعلاوة على ذلك منح الحكومة الايطالية امتيازاً باحتكار بيع زيت الكاز في اليمن لمدة خمس سنوات ولكن لما مضت الخمس سنوات ابى جلالته ان يمدد مدة هذه الاتفاقية واصبحت ملغاة وعادت تجارة الكاز فصارت حرة وارتفع عنها الحصر واراد الكثيرون من انكليز والمان وروس ان يحصلوا على اتفاقية جديدة لحصر الكاز فرفض جلالة الامام جميع طلباتهم لأنه شعر بضرر الاحتكار وضرر الاجانب.

وعلى ذكر الاجانب أقول انه لا يوجد باليمن اجانب متوطنون ولكن يوجد بعض الاجانب كوكلاء لشركات تجارية او كاطباء وعمال ميكانيكيين مستخدمين بموجب اتفاقيات خاصة مع حكومة جلالة الامام ولا يتمتع هؤلاء الاجانب بحقوق او امتيازات خاصة بل جميعهم يخضعون لقانون البلاد واذا ارتكب احدهم جرماً يخل بالنظام فانه يحاكم كغيره من أهل سكان البلاد الأصليين أمام المحاكم الوطنية أي الشرعية ولا يوجد قناصل ولا ممثلون سياسيون للدول الأجنبية. وصادف مرة أن ضرب أحد الرعايا الطليان في صنعاء غلاماً صغيراً فألقى القبض عليه وسيق الى المحكمة الشرعية فحكمت عليه بالسجن ثمانية أيام وبالطرد من البلاد كما انها حكمت على أحد معاوني الدكتور الطلياني في صنعاء، الحبشي الأصل، والايطالي التابعية، بالجلد والطرد من البلاد لأنه شوهد في حالة السكر الشديد وهو مسلم! ورست مؤخراً الباخرة اليونانية (يوبنداس ولمان) في مياه الحديدة تنقل كازاً لبعض التجار اليمانيين وبينما كانت

المراكب الشراعية تنقل الكاز منها للحديدة غرق ثلاثة من البحارة الوطنيين لاشتداد العاصفة يومئذ وبينما كان العمال ينقلون هذه المشحونات سقط صندوق على أحدهم فمات لفوره وجرح أربعة غيره فأمر عامل الحديدة بتوقيف العمل ومنع المراكب الشراعية من الدنو من الباخرة وباشر التحقيق عن هذه الفاجعة ولما ثبت لديه ان التبة تقع على عاتق قبطان الباخرة لاهماله حكم على الباخرة بتأدية غرامة الف ومائة ريال فدية القتيل وتعويض للجرحى ونفذ الحكم حالاً وتسلم أهل القتيل والجرحى نصيبهم من المال شاكرين عدل العامل وسرعة تنفيذ الحكم.

حديث مع وزير داخلية اليمن

مهمة وفد الملك ابن السعود في صنعاء

زارنا ذات يوم القاضي عبد الله العمري وزير داخلية اليمن ورئيس ديوان جلالة الامام وهو نحيف البنية متوسط الطول أبيض اللون جميل الصورة وكان يلبس قنبازاً حريرياً من صنع بلادنا ويتمنطق بجنبية يمانية مذهبة، وقد طلبت اليه أن يسمح لي بأخذ صورته فرفض وقال انه يكره أن يرتسم ولم يسمح لأحد بأخذ صورته وليس ذلك بعجيب فهو يحذو حذو امامه ومليكه في كل شيء ويعول جلالة الامام عليه كثيراً ويأخذ رأيه في جميع شؤون الدولة وعندما يريد جلالته أن يدفع الأجانب الذين يزورون اليمن بطلبات مختلفة بالتي هي أحسن يرسل اليهم القاضي عبد الله العمري فيتخلص من طلباتهم بأسلوب مرن لطيف دون أن يدعهم يشعرون برد الامام لطلباتهم وقد دار بيننا وبينه حديث بسيط عن جو اليمن وأشجاره وزراعته وعادات أهله وأخلاقهم وطبائعهم، ثم تكلمنا عن السياسة الخارجية وأحوال الممالك المعظمة وكان حضرته متحفظاً كثيراً في حديثه لأنه كان يجهلنا ويجهل الدافع الحقيقي الذي حدا بنا الى زيارة اليمن فلم نلمه على تحفظاته معنا بل بالعكس أكبرناه وأجللناه وأنزلناه منزلاً رفيعاً في نفوسنا. وللقاضي عبد الله حساد كثيرون في اليمن وذلك لاعتماد جلالة الامام عليه ولتقريبة اياه وهو عالم فاضل شاعر ناثر أديب فقيه يتحلى بجميع صفات الرجولة ومن أبرز هذه الصفات فيه الكرم والتسامح والاقدام والشجاعة.

بعد مضي عدة أيام على هذه الزيارة زرته بدوري في داره رداً لزيارته

فوجدته جالساً في مكتبه الخاص مع القاضي احمد الآنسي فرحب بي حضرته أجمل ترحيب وأشار الى القاضي أحمد الآنسي اشارة خفيفة معنوية فاستأذن القاضي احمد الآنسي بالانصراف وودعنا وانصرف فخلوت به خلوة طويلة تحادثنا فيها أحاديث مطولة عن شؤون كثيرة تذكر ولا تكتب فزاد احترامنا له واجلالنا إياه لما وجدناه عليه من طيب الاخلاق وحسن النية وبعد النظر ومن البديهي أنه بعد زيارته لنا بحث كثيراً عنا بوسائط عديدة فاطمأن الينا وكشف لنا الغطاء عن أمور كنا نجهلها فأكبرنا فيه الاخلاص لمليكه وبلاده وأمته ولمسنا بأيدينا وشعرنا بجميع حواسنا بحديثنا مع هذا الرجل الفذ بأن الذكاء الطبيعي يفوق العلم والسياسة، وبالرغم من أن هذا الرجل لم يخرج خارج اليمن ولا درس في مدارس راقية عالية فن السياسة وغيرها من الفنون والعلوم الاجتماعية فانه يضارع أعظم رجالات السياسة في الشرق في هذا المضمار وله جولات في السياسة وفي العلوم الاجتماعية لم نشاهدها الا في عدد يسير من رجالات الشرق البارزين.

سألته عن الامام وعن كيفية الحكم في اليمن فقال ان الامام يحذو في جميع أعماله حذو الائمة السابقين والخلفاء الراشدين وحكمه اسلامي بحت يستمد قوته ونظامه من القرآن الكريم والحديث الشريف فسألته عن الامامة وشروطها فقال: ان الامامة انتخابية وشروطها كثيرة أهمها أن يكون الامام سيداً علوياً مجتهداً كريماً سليم العقل صحيح الجسم شجاعاً مقداماً الخ . الخ وسألته عن وفد جلالة الملك ابن سعود الذي كان حينئذ في صنعاء وعن مهمته فقال ان هذا الوفد جاء للمخابرة والمفاوضة في الأمور المعلقة بين العاهلين ولم يتم شيء نهائي بينه وبين حكومة الامام فلا يزال الجميع يدرسون هذه الامور بعين التساهل والتسامح وقال انه يرجو أن يعود هذا الوفد الى الرياض حاملاً بشرى الاتفاق على الأمور المختلف عليها، وسألته عن المعاهدات التي عقدت مع الدول الاجنبية وجلالة الامام، فقال ان جلالة الامام يرغب رغبة أكيدة بأن تكون علاقاته مع الدول الأجنبية علاقات ود وصداقة وكثير من هذه الدول ترسل رسلاً ووفوداً خاصة الى اليمن لتعقد مع جلالة الامام معاهدات تجارية ومن البديهي

والطبيعي أن يقبل الامام المفاوضة مع هذه الوفود، واذا تم الاتفاق بينه وبينها حسب رغبته ومشيئته عقد هذه المعاهدات والعكس بالعكس.

ودعت القاضي عبد الله بعد هذا الحديث وخرجت من مكتبه فوجدت الى جانب مكتبه مكتباً خاصاً بالكتبة والموظفين وقد جلسوا الى الأرض وكان أمامهم أوراق كثيرة ومخابرات عديدة أخالها تتعلق بوزارة الداخلية لأن القاضي عبد الله هو وزير الداخلية كما ذكرت آنفاً وقد أوجد لنفسه مكتباً خاصاً في داره لادارة هذه الوزارة وهذا المكتب مرتب أحسن ترتيب وأعماله منظمة كل الانتظام.



الى اليمن سيف الاسلام عبد الله والى الشمال سيف الاسلام القاسم ويشغل سيف الاسلام عبد الله الآن وزارة المعارف والزراعة، ويشغل سيف الاسلام القاسم وزارة البرق والبريد والمواصلات

ساعة مع سيوف الاسلام

اولاد الامام

زارني ذات يوم المدعو علي بن حسين العجمي وهو مربي اولاد الامام وبعد التحية والاستفسار عن صحتنا واحوالنا على غير ذلك من الأمور المألوفة عند التعارف قال: ان اولاد الامام يريدون أن يقابلوني فقلت له على الرحب والسعة فليتفضلوا لمقابلتي في أي وقت يريدون، فقال كلا هذا ليس بامكانهم

لأنه لا يسمح لهم أن يخرجوا من المكتب (أي المدرسة) الا في أوقات خاصة وظروف خاصة فقلت اذاً كيف السبيل الى مقابلتهم؟ قال اذا شئت أن تتفضل معي فأنا أقودك اليهم. فقلت أليس من الواجب ان احصل على اذن من جلالة الامام قبل هذه المقابلة؟ فقال: كلا لا بأس من المقابلة فانت لست غريباً عنا بل أنت عربي مثلنا ومن ديننا ويسمح لك أن تقابل جميع الناس وان تطلع على كل شيء فقلت هيا بنا فلنذهب الى مقابلة اولاد الامام! فسار امامي وقادني الى المدرسة العلمية المتوكلية وصعدت واياه الى غرفة في الدور الثاني خصصت لأولاد الامام فوجدتهم جلوساً على الأرض وحولهم كتب خطية كثيرة فحييتهم بقولي السلام عليكم فأجابوني وعليكم السلام تفضلوا واجلسوا فجلست بينهم على الأرض وأخذوا يتحدثون إليّ أحاديث مختلفة ويسألونني اسئلة كثيرة بعضها يتعلق بمصر والازهر وبعضها يتعلق بسورية وثورتها وسبب فشلها وبعضها عن تركيا ومصطفى كمال الى غير ذلك من الأسئلة والشؤون وكانوا يتكلمون معي بلغة عربية فصيحة فكان التفاهم بيننا سهلاً بخلاف التفاهم مع عامة الشعب وسألني أحدهم عن الآبار والزراعة والقطن وأنواعه وأهم البلاد التي تهتم بزراعته خلاف مصر. وجميع أسئلتهم كانت تدل على معرفتهم لامور كثيرة واطلاعهم على سير الحوادث في هذا العالم واهتمامهم بها كل الاهتمام وسألني أحدهم عن التصوير وكيفية أخذ الصور واخراجها وطبعها وأراني آلة من صنع شركة كوداك وأخالها الآلة الوحيدة الموجودة في اليمن لأن اليمانيين لا يهتمون بمثل هذه الشؤون التي يعدونها من الكماليات المكروهة، وسألوني غير ذلك أسئلة كثيرة فكنت أجيبهم عليها أجوبة مقتضبة فلا يكتفوا بها بل كانوا يستزيدونني في الايضاحات فسررت جداً من هذه المقابلة ومن التعرف الى أولاد الامام ومشاهدتهم في مكتبهم وعندما ودعتهم وانصرفت سألت مربيهم علي العجمي عن كيفية معيشتهم فقال لي ان جلالة الامام قد وضعهم في المدرسة العلمية المتوكلية لكي يختلطوا مع أولاد الشعب ويتربوا تربية شعبية أي ديموقراطية كما نقول نحن وبديهي ان فوائد التربية عظيمة جداً لأناس ستكون مقدرات خمسة ملايين من البشر في أيديهم فضروري والحالة هذه أن يقفوا على عادات بلادهم وشعبهم ويختلطوا مع أبناء الشعب ليقفوا على عقليته وميوله فأجبته

لا شك ان الامام مصيب في هذا العمل وسألته بدوري أسئلة كثيرة عنهم هذه أهمها.

س - كم عدد أولاد الامام؟
ج - للامام خمسة عشر ولداً.

س - ما هي أسماؤهم؟
ج - ولي العهد احمد ثم محمد رحمه الله فالحسن والحسين وعلي والقاسم وعبد الله والمطهر وعباس واسماعيل وابراهيم ويحيى ومحسن وشرف الدين ويوسف.

س - على من يطلق لقب سيف الاسلام؟
ج - يقال لجميع أولاد الامام سيوف الاسلام لا فرق بين الواحد والآخر.

س - هل يسمح لهم بالخروج من المكتب والاختلاط بالناس؟
ج - نعم يسمح لهم في أوقات الفراغ أن يذهبوا حيث أرادوا ويختلطوا بالشعب ولبعضهم ولع في ركوب الخيل فاذا ما وجدوا فرصة سانحة فانهم يخرجون على خيولهم ويذهبون الى منتزهات صنعاء كالروضة والوادي وغيرهما من الامكنة الجميلة ولبعضهم ولع بركوب العجلات أي البسكليتات العادية والنارية ففي وقت فراغهم يخرجون عليها. ولبعضهم ولع بركوب الطيارات وقد طاروا مراراً مع الطيارين الالمان فوق صنعاء وجوارها

س - هل زار ولي العهد البلاد الأجنبية؟

ج - كلا ولي العهد لم يخرج خارج اليمن ولا زار البلاد الأجنبية ولكن سيف الاسلام محمد (رحمه الله) النجل الثاني للامام ذهب الى مصر وايطاليا وغيرهما من البلاد الأوروبية وقد اصطحب معه وفداً كبيراً مؤلفاً من بعض السادة وزاروا روما وقابلوا جلالة ملك ايطاليا وزعيمها الكبير السنيور موسوليني وعادوا مدهوشين من هذه الزيارة ومما شاهدوه من المعامل والفبارك وخاصة معامل الطيارات والمطارات وقد بذل محمد سيف الاسلام جهده عقيب عودته من أيطاليا باقناع والده بوجوب ارسال بعثة من التلامذة اليمانيين لتعلم الطيران في

ايطاليا فوافق صاحب الجلالة على هذه الفكرة وأرسل بعثة مؤلفة من بضعة عشر
طالباً الى روما ولا تزال هناك الى هذا اليوم اي الى اليوم الذي جرى هذا
الحديث فيه بيني وبين علي العجمي. وجلب جلالة الامام عدة طيارات من
ايطاليا والمانيا ولكن مع الأسف الشديد فان الطيارات الايطالية جلبت الى
الحديدة مشحونة في صناديق خشبية ومفككة أجزاؤها بعضها عن بعض وعوضاً
من ان يركبوها في الحديدة ويطيروا بها رأساً الى صنعاء حملوها على الحيوانات
واعناق الرجال وقطعوا بها المراحل الوعرة بين الحديدة وصنعاء على هذه
الصورة فتحطم معظمها ولا يزال بعضها الى يومنا هذا موجود في مطار صنعاء
ولكنها غير قابلة الاستعمال وأما الالمان فقد جلبوا طائرتين وهم جيدتان للغاية
وقد طار بهما الطيارون الالمان مراراً بين الحديدة وصنعاء وهم دوماً يطيرون
فوق صنعاء وحواليها ويركبون معهم أولاد الامام وغيرهم من الناس.

عدت من زيارة أولاد الامام وأنا مدهوش من منظرهم وجلوسهم على
الأرض وانكبابهم على الكتب الخطية ويطالعون ما في بطونها من علوم وفنون
وقلت في نفسي ان ارسال جلالة الامام أولاده سيوف الاسلام الى المدرسة
المتوكلية جميل جداً ولكنه ليس كافياً. فهذا العصر أصبح عصر مزاحمة شديدة
وباتت الدنيا الواسعة أمام فتح الطيران كرة صغيرة كالكرة التي يلهو بها الاطفال،
وأصبح الجنس البشري مرتبطاً بعضه ببعض ارتباطاً وثيقاً فالأزمة الاقتصادية في
أميركا مثلاً تؤثر في الحالة الاقتصادية بفرنسا وبريطانيا وايطاليا وألمانيا والعكس
بالعكس ولذلك صار من الواجب على ملوك العرب وأمرائهم أن يفكروا في هذه
الأمور وأن يديروا وجوههم شطر الغرب فيرسلوا بعثات من أولادهم ورعاياهم
الى البلاد الغربية ليدرسوا فيها العلوم والفنون الضرورية لترقية بلادهم وتقدمها.
فهم بحاجة الى زراع ومهندسين وأطباء وصيادلة وعسكريين وغيرهم فلا ضير
عليهم ما دام لا يوجد عندهم مدارس تخرج هؤلاء الاخصائيين أن يرسلوا بعثات
من فلذات أكبادهم الى ديار الغرب ليتعلموا في مدارسها ومعاملها هذه الفنون
والعلوم واذا كانوا لا يرغبون في ارسال أولادهم الى الغرب فليستعينوا بمصر
والشام لتقدما لهم الأطباء والصيادلة والمهندسين والعسكريين والطيارين الخ.



الثالث من اليمين سيف الاسلام عبد الله والى يمينه سيف الاسلام القاسم فالسيد
عبد الله بن حسين الديلمي عامل ريمه والسيد محمد بن محمد ابراهيم حاكم آنس
والى يساره وصفي بك زكريا المهندس الزراعي والقاضي احمد بن احمد الحراقي عامل
بلاد البستان وقد خرجوا جميعهم في رحلة زراعية

ان نظرية العزلة التي لا يزال أمراؤنا وملوكنا محافظين عليها ظناً منهم انها تبعدهم عن الخطر وتحمي بلادهم من التعديات أصبحت في هذا العصر عصر الكهرباء والطيران نظرية بالية لا تسمن ولا تغني من جوع ومتى دقت ساعة الحرب الرهيبة فالجزيرة العربية بأجمعها عرضة لطمع الطامعين وفتح الفاتحين وبديهي ان هذه الجزيرة بما فيها شامها وحجازها ويمنها وعسيرها ونجدها وعراقها هي ضعيفة جداً بالنسبة الى الامم النصف راقية وبديهي أنها مطموع فيها من قبل الأجانب والدول المعظمة ولكن من حسن حظها أن هذه الدول المعظمة مختلفة في الرأي وغير متفقة على ابتلاع الاجزاء المستقلة من هذه الجزيرة، ولولا اختلافها لكانت هذه الأجزاء المستقلة ترزح تحت النير الأجنبي كبقية الأجزاء المحتلة وليعلم سادتنا الامراء والملوك بأن وسائط الدفاع الأولية التي يملكونها لا تصد غارة الفاتحين عن بلادهم ولا ترد هجمات الطائرات والغازات السامة والميكروبات الفتاكة فلا يفل الحديد الا الحديد فعليهم أن يعدوا للامر عدته لأن العالم على قاب قوسين أو أدنى من حرب عالمية لا يعلم

مداها ولا ميدانها الا الله.

حبنا للعرب وتفانينا في خدمتهم وغيرتنا عليهم حملتنا على توجيه هذا الكلام لملوكهم وأمرائهم، واننا نرجو من هؤلاء الملوك والامراء أن يطرحوا التنابذ والشقاق ويسدلوا حجاباً على الماضي بما فيه من سيئات وذكريات أليمة ويدفنوا الضغائن والحزازات الشخصية ويبذلوا جهوداً جديدة صادقة في التفاهم والاتحاد وعقد معاهدات هجومية دفاعية استعداداً للطوارىء والا فسوف يندمون ولات ساعة مندم.

وبعد مقابلتي الأولى لأولاد الامام سنة ١٩٢٧ عدت فقابلت بعضهم في رحلتي الأخيرة سنة١٩٣٦ فوجدتهم قد بلغوا سن الرشد وتقلدوا بعض المناصب الوزارية وغيرها فقاموا بها خير قيام مثالاً على ذلك ان سيف الاسلام عبد الله تولى وزارة المعارف والزراعة فعنى بها عناية شديدة واستقدم مهندساً زراعياً من دمشق الشام يدعى وصفي بك زكريا واستقدم أساتذه للمعارف وصار يطوف بنفسه في البلاد برفقة المهندس ويدرس الأراضي والمزروعات عن كثب ويصدر أوامره للعمال بلزوم اتباع وصايا المهندس وتعليماته وقد طبع عدة كراريس زراعية وزعها على الفلاحين مجاناً وقد بذل جهده أيضاً في تعميم التعليم ونشره في جميع أطراف البلاد وذلك بافتتاح مدارس كثيرة في جميع الجهات، وأرسل عدة بعثات من الطلبة الى العراق.

وتولى سيف الإسلام القاسم إدارة البرق والبريد والمواصلات فأدار شؤونها على أحسن حال واهتم بتعبيد الطرقات وتم في عهده دخول اليمن في البريد الدولي واشتراكه في (الكابلو) أي التلغراف الدولي أيضاً فصار بالامكان أن يخابر المرء جميع أطراف العالم من اليمن بعدما كان ذلك متعذراً لاستئثار شركة ماركوني بالمخابرات وحدها.

ويتولى سيف الاسلام الحسن والحسين وغيرهما من اخوتهما إدارة بعض المقاطعات بصفة عمال من قبل حضرة صاحب الجلالة والدهم المعظم وقد أظهروا جميعهم مقدرة زائدة وإدارة حسنة وجميع الأهلين يثنون عليهم أعطر

الثناء لذلك يسرني أن أسجل لهم هذا الاعتراف تقديراً لجهودهم وأعمالهم.

بعثة الطيران

وقد صادف مرة اثناء عودتي من صنعاء الى الحديدة أن وصلتها بعثة الطلبة الطيارين اليمانيين التي نوهت عنها عائـدة من ايطاليـا وكانـوا جميعهم يلبسون ألبسة الطيران ويضعون على اكتافهم ورؤوسهم شارات الطيارين وكان منظرهم (ببدلاتهم) العسكرية جميلاً جداً وقد تحدثت الى بعضهم فوجدتهم مدهوشين من ايطاليا وعظمتها وبناياتها الضخمة ومدنها الكبيرة ومدينتها العظيمـة فسألتهم اذا كانوا قد تعلموا هذا الفن (أي فن الطيران) فاجابوني بانهم قد مارسوه كثيراً وانهم طاروا مراراً وصار في امكانهم أن يطيروا بانفسهم من دون أن يرافقهم أحد من الطيارين الطليان وبعضهم اتقن فن الميكانيك في الطائرت وبوسعه أن يركب الطيارة بدون مساعدة أحد. سـررت جداً من هـذا الفوز العـظيم الذي احـرزه هؤلاء الـطلاب النجباء في بـرهة وجيـزة ولكن ويا لـلاسف لم يتمـوا دروسـهم لسقوط أحدى الـطائرات في صنعـاء كما قلت سـابقاً ولكنني بـالرغم من هـذه الحادثة لفت نظر جلالة الامام الى وجـوب استعمال سـلاح الطيـران في جيشه المنصور لأن سلاح الطيران لا يـرد اعتداء الـطامعين في البلاد فقط بـل يمكن استعماله في تأمين الأمن في أطراف البلاد النائية وخاصـة بين القبائـل التي لا تزال الى اليوم شبه مستقلة وغير طائعة تماماً لحكم الامام.

القاضي حسين المطهر
والزراعة في اليمن

اجتمعت في أحد الايام ـ بينما كنت أتجول في أسواق صنعاء ـ بـالقاضي حسين مطهر فدعاني الى زيارته في داره ببئر العزب والقاضي المطهر هو أحـد الكتاب في المخيم المنصور ومن المقربين لجلالة الامام فلبيت دعوته مسروراً فقادني الى غرفة استقباله أمام الشادروان أي (النوافير) فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث وظهر لي من حديث حضرته انه عالم بالشؤون الـزراعية ورأيت عنـده كمية من القطن (السكلاريدس) الذي لا ينمو الا في مصر وأميركا فسألته من أين

جلب هذا القطن، فقال: انه من زرع اليمن فقد اهتم جلالة الامام بزراعة القطن وجلب أنواعاً متعددة من البذور (ويقولون للبذور في اليمن الصيب) من مصر واميركا فنجح قطن السكلاريدس نجاحاً باهراً في الوديان الواطئة الخارجية والروضة والجوف وغيرها من الأماكن، ولذلك أعطى الامام كمية وافرة من البذر للمزارعين والفلاحين لكي يعمموا زراعة القطن وقد جلب لهم محلجاً خاصاً لحلج القطن و(حزمه) بالالآت، وأوصى أحد التجار الاميركيين في عدن المدعو المستر (هولبرج) ليجلب له محالج فنية حديثة من أميركا. ولا شك في ان زراعة القطن تزدهر ازدهاراً عظيماً في اليمن وتعود على أهله بالخيرات الوفيرة اذا عممت في جميع المناطق لأن اقليم اليمن وهواءه وحرارته ومياهه وأرضه هذا كله يساعد على نجاح القطن كل المساعدة فجدير بأهل الحل والعقد أن لا يصرفوا نظرهم عن هذا المورد الزراعي العظيم.



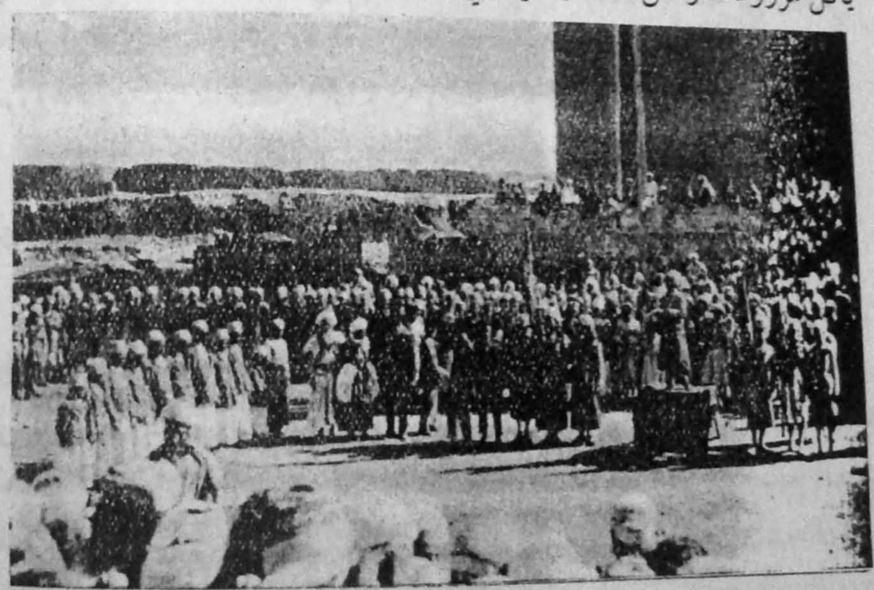
القاضي حسين المطهر

وقد حضر في أثناء زيارتي للقاضي حسين مطهر أحد شرفاء بلاد الجوف وصاحب الغيل (أي النهر) المعروف بغيل مراد ويدعى الشريف فيصل بن علي جار الله فقدمه لي القاضي حسين فسألته عن بلاده وأحواله فقال: اننا ولله الحمد على أحسن حال ولكن بلادنا فقيرة ونحن فقراء وجهال ولا نعرف كيف نستفيد من أرضنا فقلت له علمت من القاضي المطهر بان أرضكم تصلح لزراعة القطن ومن المعلوم ان زراعة القطن زراعة رابحة فلماذا لا تكثرون من زراعته، فأعاد قوله باننا فقراء ولا نملك من الوسائل الزراعية ما يساعدنا على تنمية زراعة القطن وغيره من المزروعات، ولما سألت القاضي المطهر عن حقيقة هذا الرجل على انفراد وهل هو فقير كما يدعي؟ فأجابني كلا ليس هذا الرجل بالفقير فهو يملك أرضاً واسعة وعنده الخدم والحشم والجواري والخيل والإبل ولكنه كغيره من شيوخ القبائل كسول وكسول جداً ويفضل أن ينام على الطوى على أن يبذل جهوداً في الكد والعمل االمنتج وأظن ان القاضي المطهر على حق في شكواه من أمراء البدو وشيوخهم لأني شاهدت في طوافي البلاد اليمانية في رحلاتي الثلاث أراضي جيدة جداً وقابلة لزراعة كل شيء ولكنها مع الأسف خالية من المزروعات لخمول أصحابها البدو.

وحباً في منفعة اليمن وأهله اورد ههنا بعض الملاحظات الزراعية على سبيل المثال عسى أن يهتم بها أولو الحل والعقد فأقول:

ان بلاد تهامة وهي السهل المعروف الممتد من ساحل البحر الأحمر حتى الجبال تصلح لغرس جميع أنواع النخل ويوجد فيها الماء بكثرة تحت الأرض على أبعاد مختلفة ويمكن استخراجه ورفعه الى سطح الأرض بواسطة المضخات الهوائية او الموتورات الميكانيكية وتصلح أيضاً لزرع جميع أنواع الذرة والسمسم وسفح الجبال القريبة من تهامة والممتدة من الشمال الى الجنوب على مئات الكيلو مترات تصلح بكل تأكيد لغرس البرتقال والليمون الحامض والحلو والكباد والنارنج وجميع أنواع الحمض وقد شاهدت في بعض الأماكن شيئاً من هذه الأشجار ينمو دون اعتناء أحد به والجبال والوديان المرتفعة تصلح لغرس (المنكو) والموز وجميع أنواع أشجار الأحراج كالسنديان وغيره

هذا عدا البن الذي يغرس ههنا ولكن بالامكان زيادة غرسه كثيراً ويصلح في السهول والمرتفعات (بلاتو) الواقعة فوق الجبال المحيطة بتهامة والتي تؤلف سطح اليمن الحقيقي غرس جميع أنواع الأشجار المثمرة والقطن والكتان والقنب، وقد أخذت معي مرة شيئاً من بذر القنب جلبته من دمشق وغرسته في أراضي الصافية بالقرب من صنعاء فنما نموا عجيباً ولكن بعض الناس قال لجلالة الامام بان الحشيش يصنع من القنب فأمر جلالته بعدم زرعه، وقد غرسنا أيضاً أنواعاً مختلفة من بزر الكتان في أرض الصافية فنجحت نجاحاً عظيماً ولكن جاء الجراد بكثرة في تلك السنة فاكلها بأجمعها ومن الغريب في اليمن أن الناس لا يجزعون ولا يستاؤن من قدوم الجراد وقد شاهدتهم ذات يوم يخرجون الى مسافات بعيدة عن صنعاء حيث كان الجراد يهاجم بعض المزروعات ويجمعونه بكثرة زائدة وينقلونه الى صنعاء بفرح وسرور. لما رأيتهم على هذه الحال قلت أأنتم مسرورون والجراد يأكل مزروعاتكم؟ فقالوا نعم نحن مسرورون به فهو يأكل مزروعاتنا ونحن نأكله ونخزنه في دورنا من السنة إلى السنة.



احد افراد بعثة الطلبة التي سافرت الى العراق يلقي خطاباً في صنعاء بحضور وزير المعارف سيف الاسلام عبد الله يوم سفر البعثة

وتصلح زراعة الأرز في سهل جهران الذي يبعد عن صنعاء نحو ٣٠ كيلو

متراً كما تصلح زراعة الأرز في أراضي الجوف وغيرها من الأراضي الكثيرة
المياه ولكن ويا للاسف لم يهتم اليمانيون برغم جهود امامهم وحكومتهم لترقية
الزراعة الاهتمام الكافي الذي قد يعود عليهم بالأرباح الطائلة لان بلاد اليمن من
أخصب بلاد العالم ولا ينقصها سوى العلم والاجتهاد، وجلالة الامام يبذل
جهوداً حسنة في ترقية الزراعة ولكن من الواجب على الشعب أيضاً أن يؤازر
امامه وحكومته لتحصل الفائدة المطلوبة، وتصلح زراعة التتن والتنباك في معظم
أصقاع اليمن وقد شاهدت بعض الأنواع الرديئة من التتن والتنباك مغروسة في
بعض الجهات ولكن يمكن تعميمها بصورة واسعة فتعود على البلاد بفائدة
عظيمة لأن اليمانيين يستعملون هذين الصنفين استعمالاً عظيماً ويجلبون منهما
كميات كبيرة جداً فلو كانوا يجلبون بذوراً من العجم وتركيا ويعممون هذه
الزراعة لأصبحوا عما قريب مصدرين للتتن والتنباك لا المستوردين وبذلك
يخدمون أنفسهم وبلادهم خدمة جليلة ويستغنون عن الغير كما هي الحال في
جميع بلاد العالم.

المعادن والثروة العامة

من المعلوم لدى الخاص والعام ان منبعي الثروة العامة في هذه الدنيا هما
الزراعة والمعادن وقد حدثت القارىء الكريم عن زراعة اليمن وبينت له امكان
تنميتها وتوسيعها كثيراً والآن احدثه عن النبع الثاني وهو المعادن فاقول:

يدعى اليمانيون ان جميع انواع المعادن موجودة في اليمن كالذهب والفضة
والرصاص والطلق والنحاس والفحم الحجري والملح الخ الخ. وقد حدثني
أحد امراء العرب في سبأ ومارب عن المعادن قال: يوجد عندنا بالقرب من قصر
بلقيس جبل عظيم فيه ذهب ويوجد في شعب ذخر (اسم مكان في مارب)
الرصاص والكبريت وكلما أردنا شيئاً منهما لاستعمالنا الخاص نحمل رزماً كبيرة
من الحطب الى الأماكن الموجودة فيها هذه المعادن ونضرم النار في الحطب
فيسيل من تحت النار الرصاص او الكبريت فنرش السائل بالماء حتى يبرد
ويشكل قطعاً كبيرة أو صغيرة من الرصاص والكبريت الصافي، وتوجد في بعض
الاودية التي كانت تجري فيها سيول عظيمة في سالف الأيام، رمال ناعمة وكثيراً

ما نأخذ هذه الرمال ونغسلها بالماء ونغربلها بغرابيل ناعمة مملوءة بالماء ونستحصل منها على كميات جزئية من الذهب.

ولا شك أن الامير المأربي صادق في روايته وهذه الطرائق التي يستعلمونها لاخراج الكبريت والرصاص والذهب لا يزال معمولاً بها الى هذا اليوم ومستعملة في اخراج هذه المعادن بصورة موضعية جزئية ومن البديهي انها لا تعود بالارباح الطائلة فلو أن الامام اهتم بهذه المعادن وجلب مهندسين فنيين معدنيين لاستفاد فائدة عظيمة.

وقد حدثنا المرحوم محمد سيف الاسلام عن المعادن في اليمن فقال: يوجد في جبل مسوار في بني العرى (توتية) وأهل البلاد هنالك يذيبونها بطرقهم البسيطة ويستعملونها في صناعة الآنية وغيرها. ويوجد في اطراف جبال الغراس مما يلي الروضة (اللمنيوم) ويوجد في جبال خولان وكحلان وعفان وهوبة من جبال بلاد حجة الطلق ويسميه اليمانيون ايضاً دراهم الجن ويقول له الانكليز (ذهب المجانين) ويوجد ايضاً في هذه الجبال النحاس. وهو معدن من معادن الحديد.

ويوجد في أسفل جبال الظفير الرصاص والكحل وهو ملح من املاح الرصاص ايضاً ويجلبه البدو ويبيعونه في الاسواق التجارية بصنعاء وغيرها من المدن ويوجد الكحل ايضاً بالسودة وجبال بني حبيش والشاهل. ويوجد في جبال مسور وفي الاعروش من بلاد خولان السملوخ ويستعمله الاهلون لقطع الزجاج ويوجد في عروق السملوخ الذهب ويقال للسملوخ بالانكليزية (كورتز) ويوجد الحديد بكثرة في بلاد صعده وفي ريحا وفي الجوف ويوجد النحاس بالقرب من ميدي. وقد حدثنا أناس كثيرون عن المعادن وأماكنها ووجودها بكثرة في جميع جبال اليمن ولكن أحاديثهم كان مبالغاً فيها كثيراً لأنهم لا يعرفون حقيقة المعادن ومن البديهي أن معرفة المعادن معرفة صحيحة تحتاج الى فنيين واخصائيين درسوا هذا العلم درساً طويلاً ومارسوه ممارسة عملية فعلية لا نظرية. وقد ذكر بعض الكتاب عن معادن اليمن فصولاً طويلة في كتبهم انقل للقارىء الكريم بعضها ليقف عليها. عقد الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني

فصلاً عن المعادن جاء فيه قوله «معدن (نحب) في ديار بني كلاب ومعدن بيشا ومعدن (قضاعة) وذهب خولان الوارد ذكره في التوراة باسم حويلة وكثير من المعادن غيره (كالحفير) بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير ومعدن (الضبيب) عن يسار هضلت القليب ومعدن (الثنية) ثنية بن عاصم الباهلي ومعدن (العوسجة) ثم معدن الفضة ومعدن (نياس) ومعدن (العقيق) ومعدن (الحجة) ومعدن (العمق) في افيعة ومعدن (الهجيرة) ومعدن بني سليم ومعدن الذهب في الرضراض ومعدن الفضة بالحمة ومعدن النحاس قرب سوق الاثنين تجد الجبل اكثره يلمع صفرة وترابه أصفر براق ويوجد في اليمن الفحم الحجري والبترول.

«ويوجد العقيق بأنواعه وألوانه بآنس وبالحدب ناحية مخلان في بلاد البستان وفي جبل بلاد الروس أو سنحان وبجبل في سعوان وبشهارة وفي عبشان بحاشد جنب الاهنوم ويوجد باليمن البلور والاحجار النفيسة التي يعمل منها نصل السيوف والسكاكين وبجبل نقم بضم النون والقاف جبل مشرف على صنعاء فيه عدة معادن من الحديد والطلق وحجر أبيض لماع يشبه حجر الماس وقل ان تجد بينهما فرقاً وبجبل نقم الموميا وأهل اليمن يقولون ميميا يقطر في كهب وله منافع جمة أطنب الشيخ داود في وصفه بمنع سيلان الجرح وبجبر الكسر وبحبس الدم» يتبين للقارىء الكريم من هذا البحث صحة نظريتي بعدم فهم عامة الناس للمعادن وادراكهم حقيقتها وكما قلت سابقاً ان معرفة المعادن تحتاج الى اخصائيين. وتتميماً للفائدة أقول ان المستر شارلس كرين الاميركي المشهور والصديق المخلص للعرب زار اليمن وسر من اجتماعه بجلالة الامام وتكريم الامام له تكريماً عديم النظر فشاء أن يقابل الحسنة بالحسنة فأوفد لجلالة الامام بعض المهندسين على نفقته الخاصة ليساعدوه في تخطيط الطرق وفي البحث عن المعادن ولما وصلوا الى صنعاء أمر جلالة الامام عماله في جميع أطراف اليمن أن يجلبوا نماذج من المعادن الموجودة في مناطقهم فجلبوا منها شيئاً كثيراً أعطاه جلالته الى المهندسين، وبعد أن درسها المهندسون درساً علمياً فنياً قدم أحدهم المدعو المستر تونشل تقريراً مطولاً عنها.

تقرير المستر تونشل عن المعادن

حضرة صاحب الجلالة الامام يحيى حميد الدين ملك اليمن المعظم

لي الشرف أن أعرض لجلالتكم ما يأتي:

اني أعجبت كثيراً بالأحجار المعدنية التي أرسلت لنا للمرة الأولى صباح يوم الاثنين وأعجبت أيضاً بالتي أرسلت لنا هذا اليوم ويتضح لي منها أن أوامركم وبياناتكم إلى عمالكم الكرام كانت طبق المرام لأنهم أحسنوا انتخاب جميع ما أرسلوه وقد تبين لي من فحص هذه الحجارة ان الأمل قوي جداً في الاستفادة من خمسة أنواع منها وربما تصلح هذه المعادن الخمسة لفتح مناجم خاصة بها. وما وجودها الا دليل أكيد على وجود غيرها بجوارها، والمعادن الخمسة الجيدة هي: (١) كرافيت (٢) موليبد ينيت (٣) هماتيت (٤) نتراهدريت (٥) ميكا أي طلق ويستعمل الكرافيت في صناعة أقلام الرصاص ويستعمل الموليبد ينيت في صناعة أجود أنواع الفولاذ القاسي ويستعمل الهماتيت لاستخراج الحديد. ويحتوي النتراهدريت على النحاس والكبريت والانتيمون وبعض الاحيان توجد معه الفضة ومتى حللنا هذا المعدن تحليلاً كيماوياً يتبين لنا موجوداته وأما قطعة الميكا اي الطلق التي أرسلت لنا فصغيرة وعديمة الفائدة لصغرها ولكنها متى كانت كبيرة الحجم فتجد أسواقاً متعددة لبيعها وربما نتمكن اذا حفرنا بالقرب من المكان الذي وجدت فيه هذه القطعة أن نجد قطعاً كبيرة وعلى كل الأحوال يتبين لنا من وجود هذه القطعة الصغيرة وجود كميات كثيرة منها ولا يمكن للناظر الى هذه القطع من المعادن أن يعرف حقيقة ثمنها كما انه لا يمكن للناظر الى بعض شعرات مسلوخة عن ذيل جواد كريم ان يقدر منها قيمة ذلك الجواد. ولكنها على كل الأحوال تعتبر دليلاً على وجود المعادن. والمعادن تحتاج الى كشفها لاعين خبيرة مفتوحة تفرق بين الغث والسمين وهذا يتطلب مشاهدتنا هذه الأماكن عن كثب وعندئذ يمكنني أن أقول لجلالتكم ماذا يجب عمله للاستفادة من هذه المعادن. وربما احتاج في فحص هذه الأماكن الى القيام بحفريات في بعض المواقع مدة أسبوع أو أكثر. ومن البديهي أن كثيراً من المعادن توجد

بكميات قليلة وهذه لا تقوم بنفقات استخراجها واني ساكون سعيداً جداً اذا شاهدت هذه الاماكن بنفسي حتى أتمكن من تقديم تقرير شاف لجلالتكم عنها.

وقد أرسل لنا أيضاً كيس صغير فيه مادة ترابية ناعمة براقة تبدو للعيان كالذهب الوهاج ولكنها مع الأسف ليست بذهب بل هي نوع من أنواع المبكا (طلق) وليست ذات قيمة صناعية او تجارية أصلاً وقد جلب لي كثير من الغربيين المتعلمين في أوروبا نفس هذه المادة الترابية متوهمين أنها ذهب. وقد جلبوا لنا اليوم أيضاً نوعاً أملس ناعماً من الصخر يقال له (شلز) وفي بعض الأحيان يوجد زيت الكاز في هذه الطبقة الصخرية وأما الاحجار التي جلبت لنا فلا يوجد فيها زيت ولكنها تدل على امكان وجود الكاز فيها. وقد وصلني الى يوم أمس من جلالتكم كيس صغير فيه أربعة أنواع من الأحجار المعدنية ويوجد في واحدة منها قشرة كبريتية واذ وجد وقود رخيص بقربها أي (حطب) فبوسعي أن اطلعكم على طريقة عملية سهلة يمكنكم بواسطتها أن تحصلوا على زهر الكبريت ويستعمل زهر الكبريت كما لا يخفى عليكم في صناعة البارود وفي قتل الحشرات المضرة التي تلحق بالكروم واذا سمحتم لي أن أشاهد المكان الذي جلبت منه هذه الأحجار ففي امكاني أن أخبركم اذا كان يوجد حوله أفضل منه أم لا وفي امكاني أيضاً أن أعلمكم اذا كانت الكمية الموجودة جديرة بالاهتمام أم لا.

والقطعة الحجرية المعدنية الثانية التي ارسلت مع القطعة المار ذكرها يقال لها «الجيريت» وهي ذات ذرات ناعمة ومسلوخة عن عرق كبير ويوجد فيها النحاس و«الكروميوم» أحد معادن الحديد. واني اقدم لجلالتكم قطعة من هذا المعدن وكيساً صغيراً راجياً أن تأمروا من يلزم بملء هذا الكيس والاستفهام عن المكان الذي جلبت منه هذه القطعة وعن عرضه وطوله وارتفاعه فاذا كانت الكمية الموجودة منه وافرة فيمكن أن يباع هذا المعدن في خارج اليمن من أجل نحاسه وحديده.

واما القطعة الثالثة فهي معدن من معادن الحديد يقال له «بيريت» ويوجد مع الحديد قليل من النحاس واني مقدم لجلالتكم كيساً صغيراً راجياً أن تأمروا من

وعرضه وارتفاعه. ويستعمل هذا المعدن أي «بيريت الحديد» في صناعة حامض الكبريت الذي اذا خلط مع ماء النار وكليسرين الف نوعاً من أنواع المفرقعات (ديناميت) القوية. ولكن قبل كل شيء يجب أن نشاهد المكان لنتحقق من الكمية الموجدة فيه لنعلم اذا كانت جديرة بالاستخراج أم لا اذ من البديهي أن المعادن لا تكون جديرة بالاستخراج ما لم يتوفر فيها أولاً جودة النوع وثانياً كميته. واني أرى من الضروري البحث في جوار هذا المكان الموجود فيه الحديد والتحري عن غيره من المعادن لأنه في كثير من الأحيان يوجد في ناحية واحدة أكثر من نوع واحد من المعادن. ويظهر لي من جميع هذه النماذج المعدنية التي جلبت لي من أطراف البلاد ان اليمن غنية بمعادنها ويمكن الاستفادة من هذه المعادن الى مدى بعيد ولكن يجب في بادىء الأمر البحث في جميع الجهات والتفتيش عن الأماكن التي توجد فيها المعادن بكثرة. فاذا شاء جلالة الامام أن يسمح لي بأن أقوم بهذا التفتيش بنفسي فاني رهن اشارته.

بعد أن قدم المستر توتشل هذا التقرير الى جلالة الامام ورأى جلالته أن هذا المهندس خبير بالمعادن أمره بالذهاب الى الصليف ودرس المملحة الكبيرة الموجودة هناك والصليف اسم لمكان على شاطىء البحر الاحمر يبعد عن الحديدة نحو سبعين كيلو متر الى الشمال وفيه مملحة عظيمة كان الترك أيام الدولة العثمانية يستخرجون منها الملح بصورة مكبرة ويبيعونة في داخل اليمن وخارجة وأما اليوم فقد أهمل شأن هذه المملحة وصار الأهلون يأتونها ويأخذون حاجتهم منها ويستعملونها استعمالاً موضعياً.

ذهب المستر توتشل بصحبة أحد المصريين من أصدقاء المرحوم محمد سيف الاسلام الذين يتقنون الانكليزية الى الصليف ودرس المكان درساً علمياً فنياً وقدم لجلالة الامام تقريراً اضافياً عنه يقع في عشرين صفحة ومن أهم ما جاء فيه أن هذه المملحة عظيمة وعميقه جداً وملحها من أجود أنواع الملح في العالم ويوجد بالقرب من هذه المملحة طبقات جيولجية من أحجار «الشلز» وهذه تشير في بعض الأحيان الى وجود البترول ولدى البحث والدرس وجد المستر توتشل

أنه ربما يوجد بترول في هذه الطبقات ثم عاد حضرته الى بلاده وسعى مع بعض الشركات الأميركية على مساعدته في الحصول على امتياز لاستخراج الملح والمعادن في اليمن وقد لبت احدى الشركات طلبه وأوفدته الى اليمن ليعقد مع جلالة الامام اتفاقية لاستخراج معادن اليمن فعاد الى اليمن مسرعاً وقدم الى جلالة الامام مشروع اتفاقية هذا نصها:

اتفاقية لاستخراج المعادن
واستثمار مملحة الصليف

١ ـ نحن الامام يحيى ملك اليمن وحكومتنا نتفق مع المستر توتشل ونقابته بأن نؤجره شبه جزيرة الصليف بما فيها رأس عرب لمدة تسع وتسعين سنة ويدخل في هذا الايجار كل شيء فوق سطح الأرض وتحت سطحها وقيمة هذا الايجار ألف ريال امامي سنوياً او ما يعادل هذه القيمة ويدفع هذا الايجار كل سنة ويعتبر ابتداؤه من اليوم الذي يتم فيه التوقيع على هذه الاتفاقية.

٢ ـ يكون الامام وذريته شركاء بهذه الشركة فيمنح لهم عشر رأس مالها أي بالمائة عشرة من مجموعه، ويمكن للامام أن يتصرف بهذا الرأسمال كما يشاء فاذا شاء احتفظ به واذا شاء بيعه باعه فلا يعارضه أحد بذلك بل له الخيار أن يتصرف به حسب ارادته فلا مانع يمنعه من رهنه لعقد بعض القروض وإذا احتفظ به فله الحق باستيفاء الارباح.

٣ ـ تدفع الشركة ضريبة جمركية على جميع ما تصدره الى الخارج وقدرها ثلاثة في المائة وتدفع هذه الضريبة الى حكومة اليمن او الى من يمثلها في مدة لا تزيد على سنة واحدة من تاريخ شحن الصادرات.

٤ ـ لا تضع حكومة اليمن ضريبة جمركية ولا غيرها من الضرائب على جميع المعدات اللازمة في الصليف ولا تضع أيضاً ضرائب على جميع الأشياء التي تستأجرها او تستعملها هذه الشركة ولا تضع ضرائب على الأشياء التي يستوردها الاميركيون المستخدمون في الصليف وعلى كل أمتعتهم وحاجياتهم.

انشاء حديقتين من حدائق

٥ ـ تساعد الشركة الحكومة اليمانية في انشاء حديقتين من حدائق التجارب الزراعية التي تقيمها الحكومة اليمانية ومتى أخذت الشركة تربح من منجمها في الصليف تقوم هي نفسها لغرس حقل للتجارب الزراعية خاص بها.

٦ ـ تهتم الشركة بالبحث عن المعادن بالاشتراك مع الحكومة المحلية فاذا عثرت على منجم مناسب فتستخرج منه المعدن بنفس الشروط التي تشترطها بالصليف.

٧ ـ لا يستخدم في الوظائف الأدارية وفي الوظائف الفنية أحد من غير الامركيين والعرب.

٨ ـ تعتبر هذه الاتفاقية جارية على الدوام الا انه إذا مضى سنة واحدة بعد توقيعها من الطرفين ولم تباشر الشركة في العمل فتكون ملغية.

٩ ـ يكون صاحب الجلالة الامام يحيى ملك اليمن او من يعتمده جلالته نائباً عنه عضواً عاملاً في هيأة الشركة الادارية «واني أتمنى لو يكون صاحب السمو محمد سيف الإسلام نائباً عن صاحب الجلالة والده الامام».

١٠ ـ نحن الموقعين أدناه نوافق على الشروط المبينة أعلاه بدون أقل تحفظ كما هي مكتوبة في اللغة العربية المترجمة الى الانكليزية.

ويبدو لجلالتكم مما تقدم في هذه الاتفاقية أنه بوجود هذه الشركة الاميركية تربحون، جلالتكم، أرباحاً لا يستهان بها دون أن تنفقوا درهماً واحداً وسيخصكم من الربح عشرة بالمائة وسيخص حكومتكم ثلاثة بالمئة ضريبة جمركية، واذا وجدنا بعض المعادن الاخرى وتمكنا من استخراجها فتزداد عائدات الحكومة بنسبة زيادتها واننا نوجه نظر جلالتكم مرة ثانية الى ان هذا العمل لا يكلف جلالتكم ولا حكومتكم شيئاً من النفقات ولا من التعب والعناء بل يعود عليكم بالفائدة ويفتح بابا للعمل واسعاً لليمانيين وغيرهم من رجالات العرب واذا تم توقيع جلالتكم على هذه الاتفاقية فاني مستعد أن أباشر العمل بالصليف فوراً وبعد مباشرة العمل أذهب الى الهند لأجد سوقاً لبيع الملح وأعقد هنالك مع التجار بعض عقود البيع ثم أعود الى أميركا فابتاع جميع

الادوات اللازمة لمباشرة العمل وأجلب معي بعض الرجال الاميركيين الفنيين.

اني لا أرى في اقتراحتي هذه على جلالتكم غير الفائدة المجسمة الاكيدة لكم ولشعبكم ولا أعتقد أنه توجد نقابة ما تعرف احوال اليمن فتقدم على مساعدته وترقيته كما نحن قادمون ولا أظن أمة من الامم تخلو من الاغراض ولا تكون خطرة على البلاد كالامة الاميركية كما اني لا اظن انه توجد هيأة أميركية ترغب في الاشتغال باليمن دون الاستعانة بي والاستفادة بمعلوماتي وخبرتي ولذلك رجائي اليكم أن تعقدوا هذه الاتفاقية بأسرع ما يمكن لأن السرعة في عقدها تعود على الجميع بالسرعة في الارباح والتأخير في عقدها يضيع علينا وعليكم هذه الأرباح

وزبدة القول وخلاصته أن هذه الاتفاقية فيها منافع سريعة وأكيدة أذكر لجلالتكم بعضها على سبيل التمثيل:

١ - ايجاد عمل لثلاثين رجلاً اليوم ولثلاث مائة رجل حين وصول آلات المنجم وأدواته الى اليمن.

٢ - تقديم تقرير من قبلي ومن قبل شركتي الى حكومة الولايات المتحدة واعلامها خبر تأسيس هذه الشركة والطلب اليها بأن تعقد معاهدة تجارية مع جلالتكم.

٣ - نشر الدعايات الصحيحة في الجرائد الاميركية والعربية لليمن.

٤ - تعبيد طريق من الحديدة الى الصليف يمكن للسيارات أن تسير عليها بسهولة.

٥ - تخطيط الطريق من الحديدة الى رأس الكثيب.

٦ - ملاحظة الحدائق الزراعية للتجارب الفنية في الحديدة وصنعاء.

٧ - تقديم المساعدة الفنية لتعبيد الطرق ما بين الحديدة وصنعاء عن طريق معبر.

٨ - زيادة نفوذ اليمن في العالم السياسي وضمانة هذا النفوذ بوجود بعض المصالح الاميركية واكتساب صداقة الحكومة الاميركية وودها.

امام اليمن يحذر أساليب المستعمرين

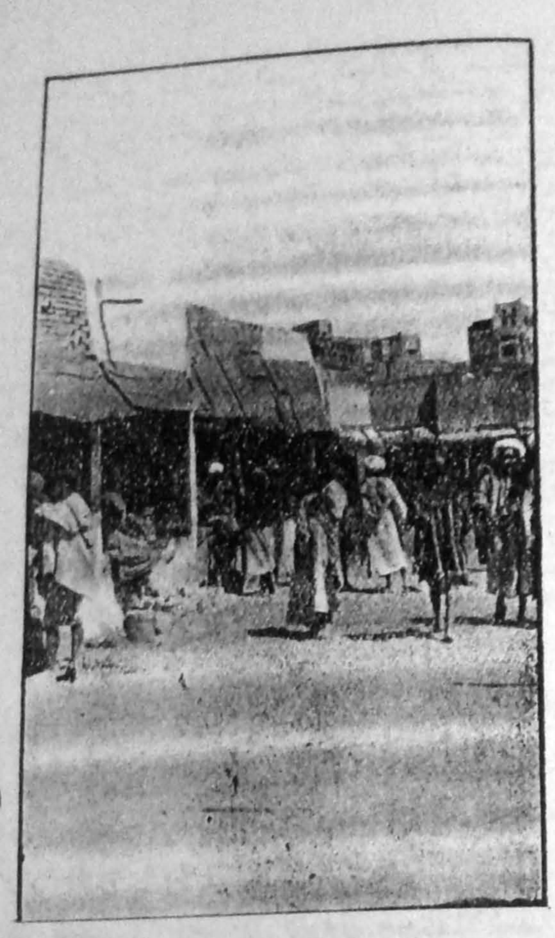
قدم المستر توتشل صورة هذه الاتفاقية الى جلالة الامام مصحوبة بمذكرة خاصة جاء فيها ذكر المنافع التي أوردتها للقارىء الكريم ويظهر أن المستر توتشل كان يريد أن يشوق الامام لعقد هذه الاتفاقية بالمشروعات الزراعية والعمرانية والاقتصادية ظناً منه أن هذه المشروعات ستغريه بالموافقة على هذه الاتفاقية ولكن جلالة الامام حفظه الله ادرك بذكائه العجيب ما كان يجول في خاطر المهندس الأميركي ورفض الموافقة على عقد هذه الاتفاقية وفي حديث خاص جرى بيني وبين جلالته عن الاتفاقيات الاجنبية بصورة عامة صرح لي بانه يخشى كثيراً ان يعقد أي اتفاقية مع الأجانب لأن هذه الاتفاقيات ستكون يوماً ما في جملة الأسباب التي تحدو بالاجانب الى التدخل في شؤون اليمن واني أعتقد كل الاعتقاد بأن جلالة الامام على حق فيما يقول ومثل الشعوب الضعيفة مع الشعوب القوية هو كمثل الحمل مع الذئب فبوسع الذئب أن يقول للحمل في كل لحظة أنت عكرت عليَّ الماء وقد شاهدنا نحن المحكومين من الأجانب قبل دخولهم الى بلادنا أنهم كانوا دوماً يقولون بأن لهم منافع وأنهم مربوطون بهذه البلاد بتقاليد خاصة وبمصالح اقتصادية ولذلك فهم مضطرون بحكم الضرورة والمصلحة الى التدخل بشؤونها للمحافظة على مصالحهم وعلى أرواح رعاياهم.

وقد قلت لجلالة الامام ما دمتم لا ترغبون في منح أحد من الأجانب امتيازاً

فالواجب يقضي عليكم بأن لا تهملوا هذه الثروة العظيمة التي منَّ الله بها عليكم فيوسعكم أن تجلبوا مهندسين معدنيين من الاجانب وتعقدوا معهم عقوداً وتخصصوا لهم معاشات ونفقات وتستخرجوا معادنكم بانفسكم وتستثمروا مملحة الصليف على نفقتكم فقال نعم يمكننا أن نفعل ذلك ان شاء الله ولم يمض وقت طويل على حديثي هذا مع جلالته حتى أمر جلالته نجله محمد سيف الاسلام عامل الحديدة بالاهتمام بمملحة الصليف وبالحال جلب محمد سيف الاسلام رحمه الله نماذج من ملح الصليف وأرسلها الى عدن والهند وغيرهما من البلاد ليبحث عن أسواق الملح المهمة وكان في نيته أن يوسع العمل بالصليف توسيعاً كبيراً ولكن الأجل المحتوم وافاه قبل أن يحقق هذه الامنية.

احمد سيف الاسلام

أتاني مساء أحد الأيام عقيب وصولي الى صنعاء قائد الروض مأمور الاعاشة وكانت علامات الفرح والسرور بادية على محياة فقلت أهلاً بالروضي ان شاء الله تحمل لنا بشرى جميلة فأجاب نعم بشرى جميلة وجميلة جداً فاستعدوا للغد فقلت خيراً ان شاء الله فقال غداً سيصل الى صنعاء ولي العهد سيدي احمد سيف الاسلام وجميع الناس فرحون مسرورون لأنه مضى على سيدي احمد عدة سنوات لم يأت خلالها الى صنعاء. فقلت هل تحب سيف الاسلام؟ فأجاب اي والله اني أحبه لأنه كريم وشجاع ومحسن للناس. فقلت ومتى يصل؟ فأجاب الظهر او قبل الظهر ولكن يجب عليكم ان كنتم ترغبون في مشاهدته حين وصوله أن تخرجوا مع الناس خارج صنعاء مبكرين لئلا يحضر مبكراً ولا تروه فقلت اني أشكرك يا قائد على هذه البشرى واني سأكون سعيداً بمشاهدة سيف الاسلام ولي عهد الامام وسأخرج مع الناس غداً صباحاً ان شاء الله واني أرغب أن اصور سيف الاسلام واصور مواكب المستقبلين فأجاب لا اخال سيف الاسلام يسمح لك أن تصوره لأنه كوالده الامام لا يحب التصوير ولكن لا بأس بتصوير الجنود والمواكب. وودعني بعد هذا الحديث وانصرف وهو يقول لي الى اللقاء غداً خارج صنعاء فقلت الى اللقاء!



احد الاسواق في صنعاء

وفي صباح اليوم الثاني الأربعاء الواقع في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٧ خرجنا في عربة يجرها حصان واحد أرسلها لنا جلالة الامام فركبناها باسم الله الى خارج صنعاء الى مسافة ساعة واحدة عنها تقريباً لنشاهد استقبال صاحب السمو احمد سيف الاسلام ولي عهد اليمن. وقد رأينا في طريقنا أفواج الأهالي على اختلاف طبقاتهم الفوج تلو الفوج يتسابقون الى مكان الاستقبال والبشر والسرور باديان على وجوههم كأنهم في يوم عيد عظيم وكان الجيش المتوكلي في عدته وعدده ويبلغ عدده نحو الفي جندي يسير مع امرائه وضباطه في طليعة القوم وكان يسير خلفه طلبة المدارس الحربية والعلمية المتوكلية ودار الأيتام وجاء خلف تلامذة المدارس أولاد الامام سيوف الاسلام يتبعهم خلق كثير من

العلماء والسادات والقضاة والحاشية. سار هذا الجمع الحاشد الى مسافة ساعة عن صنعاء ثم توقف في سهل فسيح كأنه البحر سطحه الماء وموجه الناس يتسابقون ذات اليمين وذات اليسار. وبعد انتظارنا في هذا السهل نحو ثلاث ساعات أقبل سيف الاسلام وني عهد الامام بموكبه العظيم يمشي في ركابه جمع غفير من السادة والعلماء وشيوخ عشائر التهامة كقبائل الواعضات وعبس وبني نشر وجحود وبني قيس وبني مروان وغيرهم وقد سألت عن أسماء بعض هؤلاء الشيوخ فذكروا لي اسم محمد بن حيدر النعمي والسيد عبده هيج والشيخ محمد بن طاهر رضوان والشيخ علي بن محمد الخميسي وما كادت أعين الناس تبصر ولي العهد حتى تراكضوا اليه وأخذوا يقبلون يديه ويسلمون عليه وأخذ الجند أيضاً سلامه ثم سار الموكب نحو صنعاء يتقدم الجموع موكب سيف الاسلام ولي العهد ويتبعه اخوانه سيوف الاسلام أولاد الامام ويتبعهم العلماء والسادة والناس على اختلاف طبقاتهم.

وقد ألقى أحد الأفاضل قصيدة عامرة بين يدي صاحب السمو جاء فيها:

نشدتك يا ذاك البشري أعيدي حديث سنا الهناء لنا وزيدي
وجودي باللطائف من أماني قلوب من رجاها أن تجودي
وهي كالنسيم على ضلوع براها للقا شوق العميد
ويا فكري وأنت رفيق نفسي وما حق الرفيق سوى الأكيد
أقم حفلات أنسك واغتنمها مسرات تعز على الوجود
وأسمع ما عليها صوت مدح يلين للطفه قلب الكنود
وأرسلها بيوتاً عامرات لها في السمع رنات النقود
وفاء فالوفاء أجل شيء يدين به فتى الرأي السديد
بحق قدوم ملك أي ملك يلوح بوجهه سعد السعود
وتنتسب المعالي والعوالي اليه نسبة الملك الوحيد
وتهواه المناقب ساعيات اليه سعى ذي العطش الشديد
وتفتخر المواكب إذ تراه تميس عليه خافقة البنود
وتخدمه الفتوح وترتضيه لها مولى وهن من العبيد.

وتلثم كفه الافلاك علماً … بما في اللثم من شرف عتيد
الى ما شئت من أوصاف مجد … بجيد الدهر كالعقد الفريد
حواها شخصها العالي وضاقت … بها الارجاء من عظم مشيد
ولاحت في فم الدنيا ابتساما … وحليا فوق لبات وجيد
وحاولت الكواكب في سماها … فحازت دونها سبق الصعود
وقال البدر ما ان من سبيل … الى هذا العلو المستزيد
وما سيف الخلافة سيف عمرو … ولكن سيف ذي العرش المجيد
فما السيف الصقيل أشد منه … مضاء في التهائم والنجود
ولا أسد الشرى تحكيه بأساً … وأدنى بأسه مغنى الاسود
ولم تكن القوافي والمعاني … وان نظمت صفوفاً كالجنود
وسيقت زمرة بأجل مما … به ظفرت عيون عن شهود
من الكف الندى الى مزايا … براها الله من كرم وجود
مزايا لو ذكرن على مريض … لأدرك روح عافية السعيد
ولو كسيت بها سود الليالي … لعادت وهي بيضاء البرود
وهاك حديث أحمد عن سجايا … معاليه عن المسعى الحميد
فمسند أحمد فينا صحيح … ومروي الجدود مع الحفيد
معارف كالغطمطم زاخرات … وأخلاق من الروض المجود
وقلب بالمكارم ذو ولوع … وبالانصاف في جهد جهيد
تبارك من براه من المعالي … وجاء به على هذا الوجود
وأودع ذاته سراً خفياً … بديع الصنع محمود الورود
واتحفنا بمقدمه المفدى … على وفق الفخامة والمزيد
ولو انا وصفنا منه جزءاً … لا نفد كل مقدور المجيد
ومن طابت أرومته بطه … وطالت بالائمة والجدود
وكان أبوه أي امام حق … فقدر علاه فوق ثنا القصيد
امام الحق ياغوث البرايا … وعصمة ربنا المبدى المعيد
ومن دانت لهيبته معد … وقحطان على وفر العديد
أعدد في بنيك الغر صيداً … تذور بباسهم زبر الحديد

ولا سيما الأمير أبو العطايا … صفي الدين غطريف الجنود
فكم فتحت بـه اقفـال قـطر … ومـد بعزمـه منصـوب طـود

الى ان يقول:

ولا زالت مناقبكم عقوداً … على الأيام كالدر النضيد
وأيد ملككم ما اخضر دوح … ودام زمانكم أيام عيد

ولشدة ازدحام الناس حول ولي العهد يوم استقباله لم أتمكن من الوصول اليه حتى ولا من رؤيته جيداً، ولما عدت الى صنعاء وقابلت وزير الخارجية القاضي محمد راغب وطلبت اليه أن يستأذن لي من سمو ولي العهد ويعرب له عن رغبتي في مقابلته، ولما طلب ذلك اليه القاضي لم يبخل عليّ سموه بالمقابلة وحدد موعدها صباحاً نحو الساعة التاسعة وفي الوقت المعين ذهبت الى غرفة القاضي محمد راغب في المخيم المنصور فقادني حضرته الى غرفة في ردهة المخيم اعدت خصيصاً لسيف الاسلام وضيوفه وزواره في أثناء اقامته بصنعاء، ولم يكد يستقر بنا المقام طويلاً في هذه الغرفة حتى جاءنا أحد الحجاب وقال المولى سيف الاسلام قادم فنهضنا وقوفاً حين سماعنا هذه العبارة واذا بولي عهد اليمن يدخل علينا ويحيينا بقوله السلام عليكم فرددنا وعليكم السلام والرحمة والاكرام، وصافحناه مصافحة ودية قلبية صميمية وشعرت حينما وضعت يدي بيده كأني لمست تياراً كهربائياً ونظرت بعينيه فاذا بهما تفيضان مغنطيساً وشجاعة ولا أذكر اني قابلت رجلاً في حياتي ولمست الشجاعة فيه لمساً كما لمستها في ولي عهد اليمن أحمد سيف الاسلام فان كل شيء فيه يدل على النبل والبسالة وقد لوحت الشمس وجهه الكريم فزادته جمالاً على جمال وكسته لوناً جذاباً وهو قوي البنية عصبي المزاج ربع القامة ليس فيه شيء من السمنة يرتدي ثوباً حريرياً مصنوعاً من صايات بلادنا ويتمنطق بجنبية يمانية فاخرة ويحمل سيفاً صقيلاً مذهباً من صنع اليمن ويتعمم بعمامة بديعة، وما كاد سموه يجلس حتى أذن لنا بالجلوس، فقلت انني سعيد جداً يا صاحب السمو بهذه المقابلة التي تكرمتم بها علينا واني أحمد الله على وصولكم بالسلامة وأتوسل اليه أن يبقيكم ذخراً وسنداً للشعب اليماني وللامة العربية. فأجاب أشكركم على هذه العواطف

وأطلب من الله أن يحفظكم ويعز الاسلام والمسلمين، فقلت ان الاسلام والمسلمين يذوقون أنواع العذاب في جميع أقطار المعمور وما ذلك الا لتركهم دينهم وتمسكهم بدنياهم، فقال لا حول ولا قوة الا بالله، وأنتم كيف حالكم ومن أين أتيتم؟ وأين بلادكم، فقلت اني أتيت من مصر وبلادي الشام وحالها كحالي بالويل والثبور، فقال والقدس كيف هي الآن؟ فقلت تسير من سيء الى أسوأ ويبتاعها اليهود من أصحابها المسلمين شيئاً فشيئاً، وسوف لا يمضي زمن طويل الا وتخرج جميع اراضي فلسطين من يد أهلها وتدخل في حوزة اليهود، فقال ولماذا يبيع المسلمون أرضهم؟ وهل يضغط عليهم أحد في بيعها؟ فقلت كلا لا يضغط على المسلمين أحد في بيع أرضهم ولكن الطمع والمال يقذفان بالناس الى أحضان اليهود فيبيعونهم تراث الآباء والاجداد بحطام بخس من حطام هذه الدنيا.

وهنا بدت على محيا الأمير العظيم أمارات الغضب وقال (إنّا لله وإنّا اليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا لله.) ثم أردف قائلاً وكيف وجدتم اليمن؟ وهل تتضايقون من البرد؟ فقلت أما البرد فاني لا أتضايق منه لأني ألفته منذ نعومة أظفاري وبلدي دمشق الشام هي أبرد من صنعاء وأما اليمن فاني أغبط أهله على نعمة الحرية والاستقلال التي ينعمون بها وهم لا يشعرون والحرية والاستقلال لا يعرف قيمتهما الا من فقدهما كالصحة والعافية لا يقدرهما المرء الا متى دب المرض الى جسمه. وأما مناخ اليمن وجباله ووديانه وأنهاره وأطياره فكلها جميلة وكلها يثير الاعجاب وقبل أن أزور اليمن كنت أسمع عنها أشياء كثيرة لا تتفق مع الحقيقة في شيء مثلاً كان يقال لنا ان البيضة اذا وضعت في الشمس (تشوى) حالاً واذا خرج المرء من داره فلا يأمن على حياته الى غير ذلك من الأقوال غير الصحيحة وهذا الهراء في القول ناتج عن عدم قيام الدولة العثمانية واليمانيين بدعاية صحيحة عن اليمن، ويا حبذا لو كنتم سموكم الآن تهتمون بهذا الشأن. فقال لا يوجد عندي من الوقت متسع للقيام بدعايات لا اخالها تفيدنا في قليل أو كثير. فقلت كلا يا مولاي ان للدعاية تأثيراً قوياً وخاصة عن بلاد يجهلها العالم جهلاً تاماً كاليمن ولا يعرف ماذا يجرى فيها وكنا أيام الدولة العثمانية لا نعرف

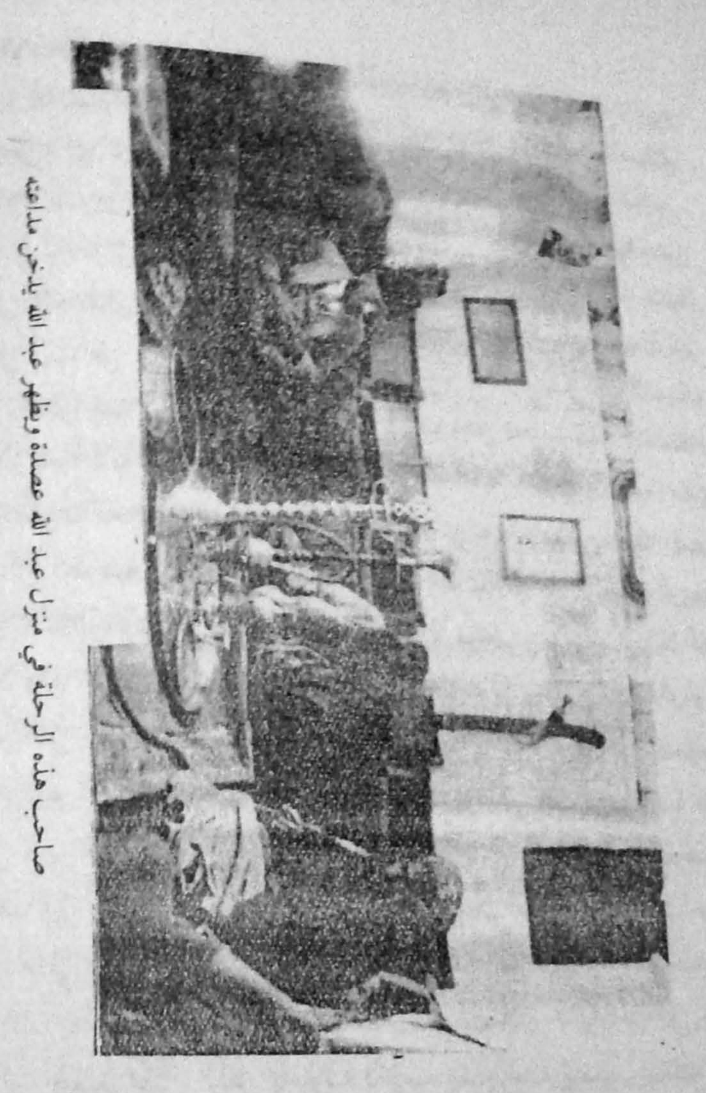
عن اليمن الا انها مقبرة للجنود العثمانيين وهنا تبسم سمو الأمير ابتسامة النصر وقال نعم لقد كان اليمن مقبرة لجنود الدولة لأن هذه الدولة استبدت بنا وبشعبنا وداست على حقوقنا وتجاوزت الشريعة الاسلامية وأقامت في اليمن حكماً فردياً استبدادياً لذلك حاربناها حتى اجليناها عن اليمن بقوة السلاح وها أنت ترى البلاد بعد جلائها تتمتع بأمن لا نظير له وببحبوحة من العيش لا مثال لها ونحن الى اليوم لم نشعر ولله الحمد بالأزمة الاقتصادية المستحوذة على العالم بأسره وانني لا تخلو جريدة من الشكوى منها شكوى مريرة. ولما ذكر سمو الأمير السلاح برقت عيناه وتقلصت عضلات وجهه وكأني به يقول وان هذا السلاح لا يزال بأيدينا وانا دوماً مستعدون ان ندافع عن بلادنا وكياننا بنفوسنا ودمائنا، وهنا رأيت ان زمن المقابلة طال كثيراً فقدمت لسمو الأمير كتاب «قول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق» كهدية، فقال ما هذا الكتاب؟ وما هي بحوثه فقلت ان هذا الكتاب هو تاريخ سورية وفلسطين والعراق منذ ابتداء نهوضها ومطالبتها بالاستقلال والحرية الى عهدنا هذا وقد ألفه رجل بريطاني يدعى المستر لودر كان موظفاً في وزارة الخارجية البريطانية وفي جمعية الأمم وهو واقف كل الوقوف على حوادث بلادنا وعلى الاتفاقات التي عقدت بين الدول المعظمة بشأنها ومن مطالعته سوف ترون كيف خدع الانكليز الملك حسين والعرب وكيف كانوا يفاوضون الحسين رحمه الله لاستقلال الجزيرة العربية وفي نفس الوقت كانوا يتقاسمونها مع حلفائهم الى غير ذلك من البحوث المهمة التي تتعلق بنا وبقضيتنا. وقد نقلته الى العربية على نفقتي الخاصة حباً في تنوير أذهان قومي وبيان الحقيقة لهم فقال بارك الله فيك سأطالع هذا الكتاب بامعان ان شاء الله وهنا ودعته وانصرفت وأنا معجب بذكائه وبما يبدو عليه من النبل والشجاعة.

عدت بعد اجتماعي بولي العهد أحمد سيف الاسلام الى الدار وأنا أفكر بهذه الشخصية الكريمة الممزوجة بالشجاعة واللطف والعلم والتواضع والكرم وكان يرافقني أحد الجنود فقلت له هل خدمت بمعية أحمد سيف الاسلام فقال كلا لم أحصل على هذا الشرف وأنا وغيري من الجنود نتمنى لو كنا ننقل الى

جيش سيف الاسلام فقلت ولماذا ذلك. فقال لان سيف الاسلام ايده الله يحب جنوده كثيراً ويعاملهم معاملة حسنة ولي ابن عم يخدم بجيش سيف الاسلام فاذا كنت «تبغى» أي تريد فانني «ابنه لك» أي أناديه فتسمع منه الشيء الكثير فقلت اني أكون مسروراً جداً لو أحضرت لي ابن عمك. وان هي الا هنيهة حتى غادرني الجندي بالطريق وذهب نحو صنعاء وأما أنا فذهبت الى الدار وبعد هنيهة عاد صديقي الجندي يصحبه ابن عمه وقال السلام عليكم فقلت وعليكم السلام. هل أنت من جيش سيف الاسلام فأجاب نعم حصل لي الشرف وخدمت في جيش سيدي أحمد مدة طويلة، فقلت وهل تحب سيف الاسلام فقال اي والله نحبه لأنه كريم ويعامل العسكر معاملة ناهية جداً (أي جيدة جداً) قلت وهل حضرت معه معارك حربية فقال نعم حضرت معه عدة معارك ونحن نحارب القبائل العاصية وكان سيدي أحمد حفظه الله يتقدم على الجميع وينقل سلاحه كأنه أحد الجنود وهو يحسن الرماية جيداً ولا يخطىء بنيشانه الهدف أبداً وفي الليل لا ينام الا قليلاً ويتفقد الحراس والكركونات والمراقبين ثلاث أو أربع مرات ليلاً ويأكل حفظه الله من طعام الجنود ويلبس كلباسهم ويكاد المرء لا يفرق بينه وبينهم الا بكثرة العتاد الذي ينقله فقلت له وهل أنت معه الآن؟ فقال كلا صار لي نحو سنة بصنعاء وقد نقلت اليها مع طابوري وبالرغم من أن صنعاء بلدي وأنا هنا بين أهلي فوالله ثم والله كنت أفضل أن أبقى مع سيدي أحمد سيف الاسلام في الحرب ولا أعود الى صنعاء، قلت هل أنت وحدك تحبه هذا الحب لأنه كان يعاملك معاملة ناهية فأجاب كلا لست أنا وحدي أحبه بل جميع الجيش لا بل جميع أهل اليمن يحبونه لكرمه وشجاعته وأنسه وعطفه على الجيش وعلى جميع الناس فاكتفيت بهذا الحديث مع الجندي وشكرته على هذه المعلومات وصرفته الى (عقفته) أي الى فصيلته) وصعدت الى غرفتي لارتاح قليلاً.

ساعة مع رئيس الدلالين في عاصمة اليمن

ولم تطل استراحتي في الغرفة كثيراً اذ أتاني الخادم وقال التاجر احمد عبد الله عصدة يريد مقابلتك. فسألته وأين هو الآن فقال أدخلناه صالون الاستقبال



صاحب هذه الرحلة في منزل عبد الله عصلة ويظهر عبد الله يدخن مداعته

فلبست ثيابي ونزلت للحال فوجدت احمد عبد الله عصده جالساً أمام الشادروان في صالون الاستقبال واحمد عبد الله هو أحد التجار المعروفين في صنعاء ورئيس الدلالين وقد تعرفت اليه اثر وصولي الى صنعاء وتمكنت بيني وبينه عرى الصداقة وعند ما رأيته رحبت به وجلست أتحدث معه. فقال اني أتيت لأدعوك لزيارتي وقد سبق لك أن وعدتني مراراً بأنك ستزورني والحر اذا وعد وفى فقلت هلا تعفيني من الزيارة اليوم وتتركها الى يوم آخر، فقال كلا أتيت خصيصاً لأذهب معك الى دكاني وداري فقلت حسناً هيا بنا. وسرت معه من دارنا في

حي بئر العزب الى الأحياء الوطنية في صنعاء ومررت ببعض الأسواق والشوارع ورأيت دكاناً في أحد الشوارع يصنعون فيه الغلايين (البيبة) من القصب والخشب وصناعة الغلايين صناعة لا يستهان بها في صنعاء لأن الطلب على الغلايين عظيم جداً فأكثر رجال القبائل يدخنون الغلايين وهذه الغلايين تشبه الغلايين الانكليزية والفرنجية من حيث الصناعة والهيئة ولكنها تختلف عنها بطولها فهي أطول منها كثيراً وقد شاهدت بعضها يزيد طولها على الذراع

وصلت الى دكان أحمد عبد الله فجلست على كرسي خشبي وأجلت بصري فيما حولي فرأيت دكانه مملوءة بالسجاجيد العجمية والنحاس القديم والحديث وعقود الكهرمان الأصفر الذي تتحلى به معظم نساء اليمن فيضعنه في أعناقهن وهو من صنع المانيا ورأيت ايضاً أكداساً من الصايات الحريرية وصايات الديما من شغل بلادنا وأراني حضرته بعض السجاجيد القديمة وهي في الحقيقة جميلة جداً أعجبتني منها واحدة فأردت ابتياعها ولكن ثمنها الفاحش حال دون تحقيق أمنيتي. جلست نحو نصف ساعة في الدكان وأنا أراقب المارة وأكثرهم من القرويين ورجال القبائل يأتون عادة الى صنعاء كل يوم ويحملون معهم حاصلات قراهم وبلادهم كالحنطة والشعير والزبيب والتمر والجوز والحيوانات فيبيعونها في صنعاء. ويعودون أدراجهم بعد أن يبتاعوا حاجياتهم من صنعاء. وقد قدم لي أحمد عبد الله نوعاً من الحلوى «كراحة الحلقوم» عندنا فسألته من أين تجلبون هذه الحلوى فقال من قاع اليهود وهي من صنعهم فقلت وهل تصنعون الملبس والنوقة والشوكولاتا فلم يفهم مني حضرته ما هي النوقة والشوكولاتا وأما الملبس فقال نعم يصنع اليهود عندنا ملبساً وجلب لي منه للحال وهو لا يختلف عن ملبسنا بل يشابهه كل الشبه.

بعد قضاء وقت قصير في الدكان ذهبت مع أحمد عبد الله الى داره وهي لا تبعد عن دكانه كثيراً فطرق الباب ففتحوه له من الداخل بواسطة حبل طويل مربوط فيه فصعد أمامي في درج عريض لولبي الى الطابق الثالث وأدخلني غرفة فسيحة مفروشة بالطنافس والسجاد العجمي والفرش الوثيرة الممدودة الى الأرض فاقتعدت واحدة منها وشاهدت فوق رأسي وحولي الى الجدران رفوفاً عديدة وضع على بعضها صحون نحاسية قديمة وآنية من الصيني والخزف

ووضع في منتصف الغرفة صدر كبير من النحاس الاصفر وحوله عدة أراكيل من مشغل صنعاء بعضها نحاسية وبعضها خشبية، وما كاد يستقر بنا المجلس حتى جنبوا لنا الشاي فشربناه وتبادلنا أطراف الحديث قليلاً ثم دعاني حضرته الى الصعود (للمنظرة) أي الغرفة العالية فوق البيت فصعدت واياه فوجدنا والده جالساً فيها يتناول طعامه فقال تفضلوا وكلوا معنا فقلت شكراً يا سيدي سبقناكم بالطعام قبل وقت يسير فقال لا بل يجب أن (تمالحونا) أي تأكلوا من خبزنا وملحنا فقلت حسناً وجلست الى الأرض بجانبه وأخذت قطعة من الخبز وأكلت منها شيئاً مما كان يأكله وما كدت أمضغ اللقمة في فمي حتى شعرت كأن النار تلتهب في فمي فبلعت اللقمة بلعاً واكتفيت بها وسألت والد عبد الله ما هذا الطعام فقال بذر حلبه مضوخ مع اللحم فقلت لا شك أنه شهي جداً ولكنه حار للغاية فقال نعم انه حار لأننا نضع معه كثيراً من الفليفلة الحمراء. خرجت من المنظرة مع أحمد عبد الله وصعدنا الى سطح الدار فرأينا صنعاء تبدو تحتنا بمآذنها العجيبة وهي على غاية الجمال فسألته كم تظن يبلغ عدد الدور في صنعاء؟ فقال على وجه التقريب ١٥٠٠٠ دار فقلت وكم عدد نفوسها فقال نحو ٧٠٠٠٠ رجل مقاتل فقلت ألا يوجد دائرة نفوس عندكم؟ وهل أحصت هذه الدائرة عدد النفوس؟ فقال لا أعلم ذلك ولكن جميع أهل صنعاء يقولون ان صنعاء تجند عند الحاجة سبعين ألف مقاتل فقلت حسناً هيا بنا ننزل. فنزل أمامي وأراد أن يدخلني الى غرفة الاستقبال مرة ثانية فاعتذرت وأردت الانصراف فقال تفضل قبل أن تذهب وشاهد بعض السجاجيد فقلت حسناً ودخلت واياه الى غرفة كبيرة يستعملها حضرته كمستودع (دبو) للسجاد فرأيت فيها شيئاً كثيراً من السجاد العجمي القديم والجديد ولكني لم أسأله عن الثمن لأني أدركت مقدماً انه فاحش جداً وما كدنا نخرج من المستودع حتى ودعته وانصرفت فاراد حضرته أن يرافقني الى الدار فشكرته على هذا اللطف وقلت لا بل اسمح لي أن أذهب بمفردي لأنني سأعرج في طريقي على مدرسة الايتام وغيرها من الاماكن.

سرت بمفردي الى مدرسة الايتام فاستقبلني مديرها وهو أسمر اللون



المدرسة الحربية وقد وقف امامها تلميذ صغير من اعضاء البعثة التي سافرت الى العراق يلقي خطاباً بين يدي وزير المعارف سيف الاسلام عبد الله

ونحيف البنية ومن أصل حبشي وكان حضرته مستخدماً أيام الدولة العثمانية في (معيه) الوالي وهو يتقن التركية فسألته متى تأسست هذه المدرسة ومن أسسها فاجاب بأنها تأسست هذه السنة في آب سنة ١٩٢٧ وأسسها جلالة الامام يحيى فقلت وكم عدد طلبتها فقال ستمائة طالب فقلت وهل هم ليليون أم نهاريون فقال أربعمائة ليليون ومائتان نهاريون فقلت هل هم من صنعاء؟ فقال بعضهم من صنعاء وبعضهم من خارجها فقلت ماذا تدرسون للاولاد؟ فقال القراءة والكتابة والاملاء والصرف والنحو والقرآن. فقلت وكم صفاً عندكم؟ فأجاب ثلاثة صفوف ومتى أتم التلميذ الصف الثالث يدخل المدرسة الرشدية او المدرسة العلمية المتوكلية ، فقلت وهل تقدم الحكومة طعاماً ولباساً للطلبة فأجاب بالايجاب فقلت: وكم عدد المعلمين فقال كثيرون وبينهم أستاذ تركي الأصل. وأدخلني الى أحد الصفوف فرأيت الطلبة جالسين الى مقاعد خشبية أزواجاً أزواجاً وأمام كل زوج منهم القرآن الكريم وكانوا يقرأون جميعهم في وقت واحد ويكاد صوتهم يبلغ عنان السماء. فقلت للمدير لماذا لا تدعون كل طالب يقرأ بمفرده؟ فقال أحياناً يقرأ الطالب بمفرده أمام استاذه وأحياناً يقرأ جميع الطلبة

جميعاً على سبيل التمرين ورأيت أحد أساتذة الطلبة من مشايخ صنعاء وكان جالساً أمام تلامذته وبعد أن وقفت هنيهة خرجت من غرفة الدرس وتجولت في سائر غرف التدريس والطعام وساحة الملعب فوجدت كل شيء على ما يرام ومررت جداً لعناية جلالة الامام بتربية الاطفال الايتام وقلت يا حبذا لو كان يفتح مدارس للايتام في جميع أنحاء اليمن ولا يكتفي بمدرسة صنعاء فقط ثم مررت بالمدرسة الحربية ودخلت اليها فوجدتها بناية عظيمة قديمة قد بناها الترك ايام احتلالهم لليمن .

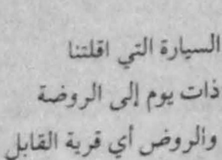
الجامع الكبير

خرجت من المدرسة ويممت شطر الجامع الكبير وهو جامع قديم يصلي فيه الإمام أيام الجمعة وهو كناية عن فسحة كبيرة حولها أربعة أروقة مفروشة بالسجاد والحصر ويجلس في أحد هذه الأروقة شيخ عالم جليل طاعن في السن يقال له السيد إسماعيل الديمي وهو إمام هذا الجامع ومدرس فيه وقد رأيته جالساً يحتاط به جمع غفير من التلامذة صغاراً وكباراً وهو يلقي عليهم بعض الدروس الدينية وقيل لي أنه يوجد عدة مدرسين خلافة في هذا الجامع وهو ليس مسجداً فقط بل مدرسة أيضاً وفيه مكتبة قيمة جداً تحتوي على أنواع الكتب الخطية القديمة والحديثة وخاصة المصاحف القديمة المشهورة وقد استرعى نظري محراب هذا المسجد فهو بسيط جداً ومكتوب فوقه بعض الآيات القرآنية بحروف كبيرة نافرة لم أشهد مثلها من ذي قبل .

وقد أخبرني البعض أن جميع مساجد اليمن تستعمل كمدارس أيضاً ويوجد في كل مسجد عدة مدرسين يعلمون الطلبة القراءة والكتابة والدين والإملاء والإنشاء والصرف والنحو. ولا يوجد مدارس بالمعنى المفهوم عندنا إلا في صنعاء والحديدة وبعض المدن الكبيرة ولكن المساجد تقوم مقام المدارس في أغلب القرى والنواحي الصغيرة ولذلك كانت نسبة المتعلمين إلى الأميين نسبة كبيرة جداً خرجت من الجامع وسرت نحو الدار من باب عدن في طريق خلف سور المدينة ومررت ببعض الجبانات فوجدتها دارسة وخلتها لأول وهلة قديمة

جداً فسألت أحد عابري السبيل هل هذه الجبانات قديمة وجديدة في آن واحد. فقلت هل يدفنون الموتى فيها إلى الآن ؟ فأجاب نعم. فقلت ولكن أرى جميع القبور أي القديمة والحديثة متشابهة وكلها دارسة فقال نعم وخير القبور الدوارس ونحن هنا لا نبني قبورنا ولا نكتب عليها ولا نقيم قباباً أو ما أشبه فوقها فقلت حسناً ونعم ما تفعلون وسرت إلى الدار منهوكاً من التعب.





السيارة التي اقلتنا ذات يوم إلى الروضة والروض أي قرية القابل

الروضة وقرية القابل

ذهبت في أحد الأيام إلى الروضة وقرية القابل وهما قريتان تبعد الأولى منهما عن صنعاء بضعة كيلو مترات والثانية أبعد قليلاً وهما تشبهان دمر والجديدة عندنا ويقصدهما الناس للتسلية والنزهة. ويمتد الطريق إلى الروضة والقابل في سهل واسع أرضه خصبة جداً وتحيط به عدة جبال وآكام وقد رأيت بعض هذه الآكام مغروساً تيناً بعلاً وبعضها مغروساً حنطة وشعيراً بعلاً أيضاً ومررنا في أول الطريق بغيل المهدي وغيل مصطفى وهذان الغيلان أو النهران ينبعان في سهل صنعاء الواسع ويجريان تحت الأرض على عمق مترين أو ثلاثة ومجراهما قديم جداً يشبه مجاري أقنية الماء الرومانية الموجودة عندنا في الشام. بعد مضي برهة من الزمن وصلنا إلى قرية الروضة وهي تشبه صنعاء من حيث البناء والحدائق الغناء ودخلنا إلى حديقة فسيحة فيها دار واسعة تخص جلالة الإمام ويمر منها غيل يقال له غيل البليلي وقد رأيت في هذه الحديقة روضة من شجر

القات وفيها أيضاً بضع شجيرات من الزيتون وشيء كثير من المشمش والرمان والفلفل والليمون الحامض والكرمة إلى غير ذلك من الأشجار المثمرة الكثيرة دخلت الدار فوجدت الدور الأول مخصصاً حسب العادة للحيوانات ولا نوافذ له والدور الثاني مخصصاً للحبوب والمونة والدورين الثالث والرابع مخصصين للسكن وهما مبنيان على نسق دور صنعاء وفيهما النوافذ ذات الزجاج الملون والمرمر. وبعدما طفنا القرية وشاهدنا مسجدها الجميل ومأذنته البديعة أتممنا السير إلى قرية القابل ومررنا بقرية صغيرة تدعى (علما) وبعد مسير ثلاثين دقيقة وصلنا إلى قرية القابل وهي قرية صغيرة جميلة تشبه حدائقها وبساتينها حدائق الغوطة عندنا ولما تغلغلت في هذه الحدائق مرت ببالي ذكريات جميلة ولذيذة وخلت نفسي في غوطة الشام.

قادنا السيد هاشم الذي أوفده معنا جلالة الإمام كرفيق يهدينا إلى الطريق ويضمن لنا راحتنا في الحل والترحال إلى دار جميلة في حديقة واسعة لم يتم بناؤها بعد، وقد رأينا العملة منهمكين في البناء وكان بعضهم يبني سوراً حول الدار ويشبه هذا السور (الدكوك) التي نقيمها حول حدائقنا في جهة الصالحية وكان البعض يهتمون باتمام بناء الدار. طفنا حديقة هذه الدار وبعض الحدائق التي تحيط بها فشاهدنا فيها تيناً ورماناً وعنباً وسفرجلاً وتفاحاً ونارنجا وليموناً وكباداً إلى غير ذلك من الأشجار المثمرة ولكنها ويا للأسف مهملة لا يعتني أصحابها بها بل يتركونها للطبيعة وقد تدلت أغصانها إلى الأرض وتشبكت بعضها ببعض فصارت (كالأحراج) الطبيعية البرية. وبعد الطواف في هذه الحدائق الغناء صعدت إلى الطابق العلوي في الدار فرأيت أمامنا قصراً عظيماً تداعت أطرافه وهو مبني على رابية عالية ويمكن للمقيم فيه أن يسيطر من الوجهة (الدفاعية) على الجهات الأربع، فسألت لمن هذا القصر؟ فقيل لي كان هذا القصر يخص أحد الأئمة المتقدمين وقد تداعى بناؤه ولم يشيده أحد وشاهدت أيضاً من الدار قرية القابل وبعض دورها مبنية من الحجر وبعضها مبني من الآجر وجميعها قائمة في منتصف وادٍ فسيح يقال له وادي ظهر ويحيط بها من الشمال والغرب سلسلة من الجبال غير البركانية (سيد منتري) وتمتد هذه الجبال إلى

غرب صنعاء، وفيها طبقة عظيمة من الحديد الجيد؛ ويجدر بالذكر هنا أن نقول أن طبقات الأرض الجيولوجية تتغير عندما يسير الإنسان من صنعاء شمالاً وفي بادىء الأمر تختلط الجبال البركانية بالجبال غير البركانية (سيد منتري) ثم تصبح جميع هذه الجبال في جهات وادي ظهر غير بركانية ويكثر فيها وجود العروق الصخرية الصلبة المسماة (كورتز) طفنا في وادي ظهر وشاهدنا حدائقه ومياهه الغزيرة اللذيذة وصعدنا إلى قرية حقيرة مبنية على تل كبير وتبعد قليلاً عن قرية القابل ويوجد حولها مغاور كبيرة وصغيرة محفورة حفراً في الجبال وقد قيل لنا إنها من عهد حمير وأن الحميريين كانوا يستعملونها دوراً لسكناهم وأما أنا فأظن خلاف ذلك وأعتقد بأنها ليست دوراً بل جبانات للموتى. عدنا بعد طوافنا هذا إلى الدار فوجدنا طباخ جلالة الإمام الذي جاء معنا قد أعد لنا أنواعاً كثيرة من الطعام ووجدنا السيد أحمد هاشم في انتظارنا لأنه لم يرافقنا في طوافنا لشدة تعبه فجلسنا وإياه إلى سماط أعد لنا على الأرض وتناولنا الطعام (بالخمسة والكف) بشهية زائدة وبعد تناول الطعام جلسنا نتبادل أطراف الحديث مع السيد المشار إليه وجلس حضرته يمضغ قاته ويدخن مداعته (أركيلته) وقال لنا أنه مسرور جداً بهذه الرحلة لأن القات هنا جيد جداً وكان حضرته يتكلم وفمه محشو بالقات فقلنا «كل هنيئاً وامضغ مريئاً» وقد طالت جلسة القات نحو ساعتين ونصف ساعة تقريباً، وبعد فراغ السيد أحمد من «تخزين» قاته ركبنا سيارتنا وعدنا إلى صنعاء ونحن مسرورون جداً من هذه الرحلة اللطيفة الجميلة. وقد بنى جلالة الإمام في هذه القرية مسجداً جميلاً صلينا فيه مراراً عندما زرنا القابل بمعية جلالته.

بعدما قضيت في صنعاء أكثر من شهر من الزمن عولت على العودة إلى مصر ولما كنت أكره سفر البحر كثيراً لأنني أصاب بالدوار وخاصة في السفن الصغيرة التي تروح وتغدو بين الحديدة وعدن فكرت بالعودة إلى عدن عن طريق البر أولاً لأتخلص من البحر ودواره وثانياً لكي أتمتع بمشاهدة اليمن أكثر فأكثر وبما أن السفر عن طريق البر يحتاج إلى إذن خاص من جلالة الإمام صممت على طلب هذا الإذن عند وداع جلالته فقمت ذات يوم مبكراً وسرت نحو سراي جلالته



المسجد الذي بناه جلالة الإمام أخيراً في قرية الروضة ويظهر في الصورة حضرة عامل صنعاء والقاضي حسين المطهر وغيرهما من السادة والقضاة

وأخذت لجلالته معي بعض الصحف المصرية وقد جاءت فيها أخبار كثيرة عن اليمن.

وصلت إلى السراي قبل خروج جلالة الإمام وجلوسه في الناس تحت شجرة الفلفل ليقضي بينهم فانتظرت قليلاً في ساحة السراي وأخبرت رئيس الحراس بأني أرغب مقابلة الإمام فأجابني حضرته بأنه سينب (أي سيخبر) الإمام بقدومي ولم يمض بضع دقائق حتى أتاني الأذن بالمثول بين يدي جلالته داخل حديقة قصره فدخلت عليه وكان جلالته جالساً على كرسي خشبي عال وأمامه كرسي خشبي واطىء فحييته بقولي أسعد الله صباح جلالة أمير المؤمنين وهممت بتقبيل يده فدفعها لي ولما لمستها سحبها بلطف زائد وأجاب صبحك الله بالخير والعافية كيف حالك وهل من حاجة تروم قضاءها ؟ فقلت نعم يا مولاي إني أرغب بالعودة إلى مصر عن طريق عدن براً وأرجو جلالتكم أن تسمحوا لي بذلك فقال أن طريق البر بعيدة ووعرة وستلاقي فيها مشقة لا يستهان بها فقلت إني أفضل سفر البر على سفر البحر يا صاحب الجلالة لأني أصاب في البحر بالدوار أولاً وأرغب في مشاهدة اليمن ثانياً فقال جلالته ما دام الأمر كذلك فاني أسمح لك بالسفر عن هذه الطريق وسآمر بلزوم إعطائك جنداً وبغالاً لهذه السفرة فقلت

شكراً وألف شكر لكم يا مولاي فقال ولكن لماذا هذه السرعة هل مللت من السكنى باليمن؟ فقلت كلا يا مولاي لم أمل السكنى ولكني مرضت قليلاً وأرغب في العودة إلى مصر لكي أتعالج فقال ما دام الأمر كذلك سر على بركة الله فقلت سأسافر غداً صباحاً إن شاء الله فقال حسناً .

أطلعت عندئذ جلالته على جريدة الأخبار المصرية وقد جاء فيها أن أنيس باشا الطيار المصري المعرف سينشيء بالوكالة عن سمو الخديوي عباس بنكا في اليمن وسيشرع في تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وجلب الطيارات إلى غير ذلك من الأخبار والمشروعات . فقلت هل هذا صحيح يا صاحب الجلالة ؟ فقال كلا هذا غير صحيح ولكن ما قولك يا نزيه في الاستعانة بالخديوي عباس لتأسيس بنك في اليمن ؟ وهل للخديوي عباس علاقة بالدول الأجنبية ؟ فقلت علمكم أوسع يا مولاي وأما هذا العاجز فلا يرى بأساً من الاستعانة بصاحب السمو الخديوي عباس ولا أعتقد أن لسموه علاقات سياسية مع الدول الأجنبية وهو رجل مثر عظيم يمكن الاستعانة به دون خوف أو وجل .

ثم قرأت له في جريدة ثانية أخباراً عن عسير وعن تأسيس الأدريسي تلغرافاً لاسلكياً في جيزان وعن تعدياته على اليمانيين وتجاوزه على أراضيهم فكذب جلالته أمر هذه التعديات وأقر نبأ تأسيس التلغراف اللاسلكي فقلت ألا يرى صاحب الجلالة لزوماً لتكذيب هذه الإشاعات فقال أنا لا أعول على أخبار الجرائد ولا أكذب شيئاً ولا أهتم بما ينشر عني أبداً فلو أردت أن أكذب كل خبر غير صحيح ينشر عني وعن اليمن في الجرائد التي يبلغ عددها ألوفاً كثيرة لأضعت جميع أوقاتي في هذه القشور وضيعت اللباب فقلت ولكن يا مولاي أن للجرائد تأثيراً لا يستهان به في الدعايات والنشريات فقال جلالته أيوجد في البلاد العربية بلد فيها جرائد أكثر من مصر ؟ فقلت كلا يا مولاي أن مصر تفوق جميع البلاد العربية حتى وبعض البلاد الأوروبية في عدد صحفها واتقان هذه الصحف نشر الأخبار والقيام بالدعايات فقال وهل حققت هذه الجرائد الكثيرة المتقنة لمصر استقلالها ؟ فقلت كلا ولكنها أنارت الرأي العام في أوروبا بأن هنالك قضية مصرية وأن هذه القضية لم تحل بعد ولا تزال موضوع مشادة عنيفة بين

مصر والإنكليز فقال حسناً حسناً ونهض واقفاً فنهضت للحال فخرج جلالته من باب الحديقة ودخل الى فسحة السراي الكبيرة وجلس تحت شجرة الفلفل ودعاني للجلوس بجانبه فامتثلت الأمر طائعاً وجلست أراقب حركاته وسكناته وكان جلالته يقبل وتتذ شكاوى الناس ويقرأ عرائضهم ويحولها إلى مراجعها الإيجابية بخط يده الكريمة. وبينما نحن على هذه الحال وإذا بغلام صغير ينادي بأعلى صوته وامتوكلاه وامتوكلاه وكانت نبراته تدل على الفزع والرعب. نهض جلالة الإمام واقفاً عند سماعه هذه الاستغاثة ونادى بالحجاب علي بالغلام وبرقت عيناه بريقاً مخيفاً وتقلصت عضلات وجهه وفارقته الابتسامة اللطيفة وحل محلها عبوس شديد وتقطيب مخيف. فوقفت إلى جانبه وحبست أنفاسي واخذت أراقبه وأراقب الجنود وأن هي إلا لحظة حتى أتى الحاجب بغلام يافع طرح نفسه على أقدام الإمام وأخذ يقبلها ويقول مظلوم يا أمير المؤمنين مظلوم ويحولون دون وصولي إليك ورفع له عريضة كان يحملها في يده. رفع جلالة الإمام الغلام من فوق الأرض بيده الكريمة وأجلسه أمامه وقرأ عريضته وحولها إلى مرجعها الإيجابي. ونادى بالحاجب احضروا الحارس الذي منع هذا الغلام من الوصول إلي فأحضروه للحال فأمر جلالته بجلده أمام رفاقه وسجنه فجلد فوراً وسيق إلى السجن في الحال . وهذا الحارس هو نسيب للغلام وأراد أن يحول دون وصوله إلى الإمام لأن شكواه تضر بمصلحته الخاصة فكان جزاؤه الجلد والسجن وقد ذكرتني هذه الحادثة بقول السيد المسيح «دعوا الصغار يأتون إلي ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله».

وكان جلالة الإمام يلبس هذا النهار على رأسه عمامة بيضاء كبيرة ويرتدي ثوباً حريرياً رقيقاً وفوقه قنباز حريري مصنوع من صايات الشام ويتشح بوشاح ثمين وجميل ويتمنطق بجنبيه يمانية وحزام يماني وقد علق في جنبيته سبحة كلرباء صفراء اللون وعدد حباتها مائة حبة وحبة ويحمل حساماً يمانياً خفيفاً نصفه مذهب ونصفه مفضض . وبعدما هدأ روع الإمام وخف غضبه استأذنته بالإنصراف قائلاً اذا كان لجلالة الإمام خدمة خارج اليمن يرغب قضاءها فإني رهن إشارته وطوع أمره فقال ليس لي من حاجة إنما لا تنسانا يا ولدي واكتب لنا أينما

كنت وكيفما توجهت فقلت سمعاً وطاعة يا صاحب الجلالة وبالفعل قمت بهذه الوصية حق القيام ولا أزال إلى هذا التاريخ اكتب لجلالته بين حين وآخر. وفي نهاية هذا الحديث قبلت يده وانصرفت وأنا أفكر فيه وفي عدله ولطفه ولينه وشدته معاً .

حديث مع عامل صنعاء السيد حسين عبد القادر

زارني صباح ذات يوم في رحلتي الأخيرة سنة ١٩٣٦ على حين غرة عامل صنعاء السيد حسين عبد القادر دون أن يرسل جندياً أمامه ليخبرني بوصوله كما هي العادة المتبعة عند السادة وكبار رجال الدولة والسيد حسين عبد القادر من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان وهو ضخم الجثة جميل الوجه كبير الراس طويل القامة متناسب الأعضاء خفيف اللحية يضع على رأسه عمامة بيضاء ويتمنطق بجنبية قديمة ويلبس أثواباً حريرية من شغل الشام وقد كان حضرته أيام الترك قائمقاماً باليمن ثم انتخب مبعوثاً (أي نائباً) عن اليمن في مجلس المبعوثان العثماني وذهب إلى اسطانبول وفي أول حكم جلالة الإمام واحتلاله للحديدة عينه جلالته عاملاً على الحديدة وتهامة وبقي هنالك عدة سنوات وفي أول رحلاتي إلى اليمن قابلت سيادته في الحديدة وأعجبت بلطفه ومقدرته وتمكنت بيننا الصداقة ولما كان سيادته من الذين يحافظون على المودة فقد تلطف بهذه الزيارة الفجائية غير المنتظرة لأن حضرات السادة في اليمن قلما يزورون أحداً من ضيوف اليمن قبل أن يزورهم وخصوصاً إذا كانوا من العمال والحكام، وما كاد يستقر به المقام حتى قال الحمد لله على العافية كيف أنتم وكيف حال أهلكم وبلادكم فقلت أما نحن فإننا لله الحمد بخير فقال الحمد لله على العافية وهيا سامحوا على قصورنا لأننا لم نأت لزيارتكم قبل اليوم حيث أننا لم نعلم بوصولكم إلا هذا النهار من صديقكم وصديقنا السيد محمد زبارة وقد كنا أبصرناكم في الطريق عن بعد ولم نعرفكم، فقلت على كل حال أشكركم على هذه الزيارة فقال لا شكر على واجب وهذا بيتنا قريب منكم وهو بيتكم فمروا بما شئتم فقلت جعله الله عامراً وأطال عمركم وأكثر من أمثالكم. فقال متى خرجتم من دمشق قبل أربعين يوماً تقريباً فقال وكيف حال بلادكم فقلت أنها تسير من

شيء إلى أسوأ في ظل الإنتداب وأننا نغبطكم أنتم معاشر اليمانيين على الاستقلال المتمتعين به والذي لا يعرف قيمته بعض رجالكم وفي الحق أن الاستقلال كالصحة لا يعرف قيمتها إلا المريض والاستقلال لا يعرف قيمته إلا المستعبد فقال صحيح صحيح لا حول ولا قوة إلا بالله وما هي أخباركم الأخيرة عن حالة الدنيا ؟ فقلت كما تسمعون وتقرأون في الجرائد الدنيا قائمة وقاعدة بسبب حرب إيطاليا والحبشة وبريطانيا تناصر الحبشة في جمعية الأمم، فقال نعم هذا صحيح ولكنها بدون شك لا تفعل ذلك حباً في جمال عيون الحبشة وإنما تفعله حباً في مصلحتها الخاصة إذ هنالك منابع النيل وطريق الإمبراطورية إلى الهند واستراليا فقلت لا ريب في ذلك فلو أن بريطانيا كانت حقيقة تحافظ على عهد جمعية الأمم كما تزعم لوقفت هذا الموقف ضد اليابان عندما ابتلعت منشوريا لقمة سائغة فقال نعم كان من الواجب أن تفعل ذلك لأن بلاد منشوريا بلاد عظيمة وسكانها يعادلون عدد سكان اليابان تقريباً. فقلت وهل تظنون أن لنا فائدة من هذه الحرب ؟ فقال ويا للأسف أن العرب متفسخون ومقسومون بعضهم على بعض فتجد كل قطر يعادي القطر الآخر وسكان نفس القطر الواحد غير متفقين فيما بينهم فلو كنا كلمة واحدة وشددنا أزر بعضنا بعضاً لاستفدنا فائدة عظيمة وخشيتنا الدول الطامعة فينا فلو اتفق اليمن والحجاز ونجد والعراق مثلاً وصاروا يقولون قولاً واحداً ويتبعون سياسة خارجية واحدة فلا شك أنهم يستفيدون فائدة عظيمة وقد تعم هذه الاستفادة أيضاً المناطق المشمولة بالإنتداب والحماية الأجنبية وعلى كل حال يجب أن لا يغرب عن بالكم أنه من الواجب علينا أن نستعد للطوارىء وذلك بأن نجهز أنفسنا بكل شيء يدفع عنا طمع الطامعين ومما يسترعي نظري في هذا العصر الذي يقولون عنه عصر العلم والفن والرحمة والشفقة والنظام والقانون إلخ. والذي يستهجن فيه معاصرونا من الفرنجة عادات العرب القديمة ويؤاخذونهم عليها كوأد البنات[1] مثلاً ولا يؤاخذون أنفسهم على وأد الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والعجزة بقنابل

---

(١) هذا مع العلم بأن اليونان - وهم أساتذة الفلسفة والأخلاق - كانوا يئدون الصغار الضعاف من الصبية والبنات على السواء.



عامل صنعاء
السيد حسين عبد القادر

مدافعهم وقذائف طائراتهم وهم عوضاً من أن يعترفوا بفظاعة هذا العمل المشين يقولون عنه كما هي الحال في الحبشة الآن أنه عملية تطهير وتمدين إلخ إلخ . ولذلك فأني أرى من الواجب علينا معاشر العرب أن لا نؤخذ بأقوال الغربيين المعسولة ووعودهم المزخرفة المطاطة بل يجب أن نستعد كما قلت سابقاً للطوازيء كل الاستعداد وقد جاء في الأمثال اليمانية عندنا قولهم: يا عنز يا رابضة كل المكامن عليه (أي يا عنز يا جالسة كل الأنظار متجهة إليك) فقلت لا شك أنكم محقون في هذه الشكوى المريرة من تخاذل العرب وأرى من واجبنا جميعاً أن نسعى بالقول والعمل لتقوية الروابط العربية بكل الوسائل وأرى أن العنز الرابضة هي اليمن وأن بعض الدول الأجنبية طامعة فيه وهي تظهر لكم الصداقة وتضمر خلافها فقال صحيح صحيح الله يحفظ الإمام أنه عالم بكل شيء فلا يخفى ذلك عليه .

وبعد مضي بضعة أيام رددت الزيارة للسيد حسين عبد القادر في داره

فأدخلني أحد الجنود عليه إلى غرفة استقباله الكائنة في الدور الثاني وكان سيادته جالساً فوق فرش وثيرة غطوها بالسجاجيد العجمية وقد صفت الفرش في جنبات الغرفة ووضعت فوقها الوسائد الكثيرة ليتكىء عليها الجالسون ورأيت في الغرفة أكثر من عشرة رجال من وجهاء صنعاء وساداتها وقضاتها جالسين فوق هذه الفرش يخزنون القات فبادرتهم بقولي: السلام عليكم فأجاب الجميع وعليكم السلام ونهض العامل مسرعاً نحوي إلى الباب وقادني بيده إلى حيث كان جالساً وقال تفضلوا واجلسوا وبعد قليل قدم لي سيجارة فقلت أشكركم أنا لا أدخن فقال مداعة فقلت لم استعملها في حياتي فقال عجيب عجيب ووافق على قوله الجمهور بأن أبدوا تعجبهم وقال أحدهم أن في التتن والتنباك راحة للإنسان فقلت قد يكون ذلك حقاً مع بعض الناس ولكن لا شك أن كثرته مضرة ولكن سيجارة واحدة بعد الطعام تسهل الهضم وتسكن الرأس فأجاب آخران الأكثار من كل شيء مضر فلو شربنا كثيراً من الماء لضرنا ثم انتقلنا إلى الحديث عن القات فقال العامل أن فيه سلوى وراحة ولم أشأ أن أدخل في جدال بمضار القات لذلك وجهت إليهم هذا السؤال هل تعلمون من أين أصل القات ؟ فأجاب العامل يقول بعض الناس أن أصله من اليمن ويقول آخرون لا بل أن أصله من الحبشة فقلت وكيف صار استعماله عادة ؟ فقال يزعمون أن أحد الرعاة كان يجد كل يوم قسماً من معزة يأكل من شجر القات فينام ويستريح بخلاف القسم الآخر الذي لا يأكل فلا ينام ولا يستريح فأخذ الراعي ذات يوم شيئاً منه وأكله فاستراح فدل الناس عليه فصار عادة بينهم ولا شك أنه يوجد بالقات مادة مثل الكينا ويظهر هذا من طعمه وتأثيره في الجسم فهو يقاوم الملاريا ويفيد في الوقاية من الحميات وهذا ثابت بالتجربة وقد صادق جميع الحاضرين على حديث العامل فلم أرغب أن أدخل في جدال لا فائدة منه معهم فغيرنا حديثنا إلى موضوعات مختلفة تناولنا فيها حروب اليمن مع الترك وقيام جلالة الإمام بنهضته وتخليصه البلاد من النير التركي وتحضيرها وتجنيد الجند. ثم سألني أحد الجلوس عن رأيي في الحرب الإيطالية الحبشية فقلت أنها حرب استعمارية فإيطاليا زاد عدد سكانها وقد ضاقت أرضهم فخرجوا يبحثون عن منفذ لهم فلم يجدوا أفضل من الحبشة لاتساعها وغناها وضعفها، فقال وهل تسمح لهم المعاهدات الدولية

والأتفـاقات العـالمية بهـذا الفتح ؟ فقلت يـا صاحبي أن المعـاهدات الـدولية أصبحت قصاصات ورق لا قيمة لها ولا فائدة وكل معاهدة لا تدعمها قوة الدفع والطائرة فهي معاهدة هوائية، ولا شك أنكم تذكرون أنه يوجد معاهدة صـداقة ووداد بين إيـطاليا والحبشـة وتعلمون أن إيـطاليا هي التي أدخلت الحبشـة في جمعية الأمم ولكن لا المعاهدة ولا جمعية الأمم أفادت الحبشة في غزو الطليان لها . لأن الحقوق الدولية لا تؤيدها إلا القوة المادية وفي مناسبات كثيـرة تبين لنا أن الاعتماد على جمعية الأمم لا يفيدنا لأن هذه الجمعية ليست سـوى اداة للقوى يستعملها في تنفيذ مطامعه مع الضعيف ولكن لا يمكن استعمالها في الوقـوف بوجه ما مع القوى ضد القوى، فقال الجميع صحيح صحيح وأظهروا تخوفهم من الجشـع الإيطالي فقلت لهم لا شـك أنكم محقون في هـذا الخوف فقـال أحدهم ألا تظن أن الطليان سيجندون الأحباش في المستقبـل ؟ فقلت أنا على مثل اليقين بأنهم سيفعلون ذلك ويغزون بالأحباش غيـرهم من الأمم المجاورة لهم فأطرق الجميع إلى الأرض كأن على رؤوسهم الطير فبـدلنا هـذا الحديث بغيره من الأحاديث المحلية، ثم استأذنت العامل في الانصـراف وودعت القوم وعدت من حيث أتيت .

وداعاً يا صنعاء

وفي صبـاح اليوم الثـاني الموافق ٢ كـانون الأول سنـة ١٩٢٧ أتانـا بعض الجنود إلى الدار يقودون عدة بغال وقالوا أتينا من المقام الشريف لنسافر بمعيتكم إلى ماوية، فقلت حسناً حملوا هذه الأشياء والصناديق فحملوها وركبنا على أحد البغـال وخرجنـا من الدار بعـد أن ودعنا بعض الأصـدقاء الـذين أتوا خصيصـاً لوداعنا، وشعرت في ساعة الوداع بانقباض ووحشـة رهيبتين في نفسي وخلتني أفارق بلدي وأهلي . سار موكبنا من حي بئـر العزب وخـرجنا من بـاب خزيمـة ووجهتنا قرية حزيز وما كدنا نسير بضع دقائق حتى لحق بنا أحد السـادة ممتطياً بغلاً وقال السلام عليكم فقلنا وعليكم السـلام والرحمـة والاكرام إلى أين أنتم ذاهبون ؟ فأجاب إلى حزيز وأنا عامل الإمام عليها فقلت أنعم وأكرم بكم يسرنا جداً أن نترافق وإياكم في الطريق فقال لا نكتفي برفقة الطريق فقط بل نرغب لو

قضيتم عندنا يوماً أو أكثر فقلت أشكركم جداً على هذا اللطف. وسارت طريقنا في مرتفع من الأرض نحو ثلاث ساعات كان يحدثنا فيها العامل السيد محمد عبد الله الطايفي أحاديث جميلة ولذيذة فلم نشعر بمرور الوقت. وصلنا حزيز نحو الظهر وقادنا العامل إلى داره ولم يسمح لنا بالسفر إلا بعد تناول الطعام على مائدته وبينما كانوا يعدون لنا الطعام خرجت إلى القرية ودخلت مسجدها وهو مسجد صغير وجميل وفيه بئر ماء يبلغ عمقها ٧٠ قدماً. ويوجد في الجهة الشرقية من هذه القرية جبل مرتفع يقال له جبل المحاجري وفيه بعض المعادن ويوجد إلى جانبه جبل آخر أعظم منه وأعلى منه ويقال له جبل الخصفة وفيه شيء كثير من الآثار الحميرية. وبعد طوافنا في القرية ومشاهدة منازلها المبنية من الحجر والخلب (أي الطين) عدنا إلى دار العامل فوجدنا الطعام جاهزاً وهو مؤلف من بزر حلبة مدقوقة ومطبوخة باللحم وبيض مقلي بالسمن وخبز مقلي بالسمن أيضاً. تناولنا طعامنا بلذة زائدة. وكان حديث العامل ولطفه يزيدان في لذة الطعام. وبعد أن استرحنا قليلاً استأذنا العامل في السفر فأذن لنا وخرج لوداعنا حتى آخر القرية حيث امتطينا بغالنا ووجهتنا وعلان وسارت بنا الطريق في تصعيد خفيف وتصلح هذه الطريق لسير السيارات وكان الطقس جميلاً والهواء عليلاً مما أهاب بأحد جنودنا أن ينشد قصيدة عامية (قرادية) بنغم جميل وصوت عذب أنسانا الطريق والسفر وكل شيء غير المغني الجميل ـ ولدى طلبي له ـ واسمه حمادة بن أحمد ذهبان ـ أن يسمعني قصيدته أنشد يقول:

ألا وابدأ نشيدي بالمنور[١] ... وياريتن قلبي زايرنه
ألا وادريس نزعها بالتكبر ... غرب نجمه ولا شيء يصح منه
ألا بالله سائلك تنصر المام[٢] ... وتقضي حاجة المطلوب منه
وكم ولد مات في تهامة ... مثل الكلب ما حد قابرنه
عزمنا للجهاد في فطر أول[٣] ... والأخ الضبا[٤] كان غافلنه[٥]

---

(١) النبي محمد (ص) ،
(٢) الإمام ،
(٣) عيد الفطر ،
(٤) أخوه الذي يشبه القمر ،
(٥) غالب،

وثالث يوم ندخل عند مولاي[1] يعد القوم ويدي الصرف منه
فعدنا خمس أيام لا زيادة وقد أمر الإمام مستعجلنه
قيام يا ولاد عسكر لا تـوانـوا كما أمر الإمام لا بد منه
وكم ذا الصبر فينا يا جماعة على أمثر الإمام مستنظرنه
ألا قم يا رسولي شد واعزم وصل ارض اليمن واتخبرنه
تخبر بكيل[2] كم من هلالي[3] وكم من ولد قلبي فاقدنه
وأجمع القوم لقاع ابن جمعان[4] على الحجز[5] الذي جاء البدع منه
تقسمنا العنو[6] في ساع أربع وشلينا[7] الجبل والقاع كله
ألا واختم نشيدي بالمنور ويا ريت قلبي زايرنه

عندما أتم الجندي عليّ القاء قصيدته هذه سألته من نظمها ؟ فقال إنه نظمها لما دعي إلى الجندية لمحاربة ابن جمعان الذي كان عاصياً على الإمام فسألته وهل تجندت بالقوة الأجبارية أم تطوعت من تلقاء نفسك ؟ فقال: تطوعت من تلقاء نفسي كما تطوع غيري من الناس لمحاربة أعداء الإمام فقلت وهل تحب الإمام إلى حد يسهل معه عليك أن تتطوع في الجيش وتموت ؟ فأجاب: روحي ومالي وأهلي فداء للإمام أنا وجميع سكان اليمن من الزيود رهن إشارة الإمام وقد حاربنا معه أعداءه الترك وانتصرنا على الجيوش التركية بالرغم من كثرتها وقلتنا وليس هذا بعجيب وقد قال والد مولانا الإمام أن هذا الولد (أي الإمام يحيى) سيأتي بالعجب ويدوخ العرب حتى والعجم وكان يسمع هذا الحديث جندي آخر يقال له السيد أحمد مرسل فأثنى هو أيضاً على الإمام ثناء عاطراً ولكنه غمز في قناة بعض الذين حوله قائلاً أنهم غير مخلصين لإمامهم وأمتهم بالرغم من تظاهرهم بالإخلاص وقال أيضاً أن بيت مال المسلمين غني وغني جداً والحبوب مدفونة بالأرض في أماكن مختلفة وفي سنين المحل يعطي الإمام الزراع بذار ولكنه يستوفيه منهم أيام البيدر .

---

(١) الإمام،
(٢) شب كالهلال،
(٣) إسم شخص،
(٤) إسم قبيلة كبيرة،
(٥) إسم قبيلة خانت وغدرت بجنود الإمام،
(٦) المكان المطلوب مهاجمته،
(٧) احتلينا السهل والجبل في أربع ساعات.

بعد مسير نحو أربع ساعات في طريق حسنة تصلح لسير السيارات، وصلت إلى قرية (وعلان) وهي قرية صغيرة حقيرة مبنية على طرف وادٍ ضيق لا يتجاوز عرضه ثلاث مائة متر، تحيط بها الجبال من الشرق والغرب والجنوب، ويوجد على مسافة كيلومترين منها بعض البساتين والحدائق المشجرة وفيها المشمش والرمان والتفاح والسفرجل والكرمة وغيرها من الأشجار المثمرة. وتعلو وعلان عن صنعاء نحو ٥٠٠ قدم فصنعاء على علو ٧٦٠٠ قدم ووعلان ارتفاعها ٨١٠٠ قدم وبيوتها مبنية من الطين والحجارة ويوجد في وعلان يهود بكثرة ويقطنون في حي خاص بهم ويشتغل معظمهم بالتجارة والأشغال اليدوية ويشتغل بعضهم بحراثة الأرض كعملة عند المسلمين لا كملاك. ويوجد في وعلان مسجد صغير مال عليه الدهر بكلكله فخربه ويظهر أنه بني قديماً على طريق الحج وخصص لاستراحة الحجاج.

قضينا ليلتنا في وعلان في إحدى المقاهي لأنه لا يوجد في وعلان عامل ولا دار للحكومة ولما نهضت في الصباح وسألت صاحب المقهاية عن حسابه فقال نأخذ منامة عن كل شخص (بقجتين) أي نحو ثلاثة غروش سورية. فنفحناه حسابه وقلنا بارك الله في هذه البلاد السعيدة التي ينام الإنسان في مقاهيها بثلاثة غروش فقط لا غير وكان قد جلب لنا أيضاً بيضاً وحليباً ولبناً ودجاجاً وخبزاً لاطعام ستة أشخاص فسألناه عن الحساب فقال ثلاثة أرباع الريال أي نحو ثلاثين غرشاً سورياً. لم نستغرب هذا الحساب اليسير لأن كل شيء في العربية السعيدة رخيص جداً ما خلا القات.

في الطريق إلى معبر

سرنا في صباح السبت الموافق ٣ كانون أول سنة ١٩٢٧ من وعلان نقصد قرية معبر وهي المرحلة الثانية من صنعاء إلى عدن. وكان البرد شديداً فشعرت بقشعريرة تسري في جسمي سريان الكهرباء فنزلت من ظهر البغل وسرت على الأقدام في وادٍ يقال له وادي خدار وكان الطريق جيداً يصلح لسير السيارات وبقينا نصعد على هذا الطريق بين الجبال والوديان إلى أن وصلنا إلى قرية خدار التي تعلو على سطح البحر ٨٤٠٠ قدم وبالقرب من خدار يتسع الوادي فيبلغ

عرضه نحو ٥٠٠ متر ويوجد حول خدار عدة آبار ومأوها لا يبعد عن سطح الأرض سوى سبعة أمتار ويشتغل في هذه الابار الإنسان بدلاً من الحيوان وقد رايت على كل بئر اربعة أو خمسة رجال ربطوا أنفسهم إلى الحبال وأخذوا يسحبون دلاء الماه كما يسحبها الحيوان ورأيت حول هذه الآبار حقولاً كثيرة من (الفصة) ويقولون لها في اليمن (قضب) ويغرسون حول هذه الآبار أيضاً ذرة وشعيراً وحنطة ولكن لا أثر للأشجار المثمرة وغير المثمرة ههنا وقد جلسنا بالقرب من أحد هذه الآبار طلباً للاستراحة فأتى نحونا شيخ طاعن في السن ولكنه جليل الطلعة على وجهه هيبة ووقار فسألنا إلى أين ذاهبون ؟ فقلنا إلى عدن فقال كان الله بعونكم أن سفرتكم طويلة وشاقة فقلت ولكنها على كل حال ليست أشق من العمل على البئر، فقهقه ضاحكاً وأدرك النكته وقال: ولكن هؤلاء الشقاة (أي العمال) قد ألفوا الشغل على البئر وصحتهم جيدة وأجسامهم قوية وأما أنتم فيبدو لي أنكم نحيفو البنية وضعيفو الجسم فقلت لا عبرة بالسمنة فالعصبي المزاج يبقى طول حياته نحيفاً فقال أي نعم فسألته بدوري كم ساعة يعمل الشقاة على البئر ؟ فقال من الصباح حتى ينضب ماء البئر فقلت ومتى ينضب الماء ؟ فقال نحو العصر فقلت ولماذا ينضب ؟ فقال لأن نبعه من التراب لا من الصخر، فقلت ولماذا لا تعمقون البئر حتى الصخر، فقال لأننا لسنا بحاجة إلى شيء كثير من الماء ولا نريد أن نعمق البئر حتى لا يصعب العمل، فقلت وكم تدفعون للعامل مياومة ؟ فقال أربعة (بقش) أي نحو سبعة قروش سورية .

بعد الاستراحة قليلاً ودعنا الاختيار وامتطينا البغال وسرنا باسم الله وكانت طريقنا تسير في تصعيد مستمر إلى أن وصلنا رأس نقيل يسلح نحو الظهر ويعلو هذا النقيل عن سطح البحر ٩٢٠٠ قدم ومنه يرى الإنسان قاع أو سهل جهران وهو سهل متسع يمتد من أسفل نقيل يسلح وينتهي بقرية الرصابة وهو أعلى من صنعاء بخمسمائة قدم وطوله نحو ٢٥ كيلومتراً وعرضه يختلف من خمسة إلى تسعة كيلومترات وكان هذا السهل الواسع يتراءى لنا عن بعد كأنه بحر واسع تكسوه ألوان متعددة فالأرض المفلوحة كانت تبدو حمراء صافية والأرض

المحصودة كانت تظهر بيضاء لامعة والأرض المغروسة ذرة وغيرها من النباتات كانت تظهر خضراء يانعة سررنا بهذا المنظر الفتان ووقفنا في رأس النقيل برهة من الزمان نسبح بإسم الرحيم الرحمن ونشكره على نعمه الكثيرة التي أنعم بها على بني الإنسان.

هبطنا من أعلى النقيل إلى أسفله نحو ستمائة قدم وكانت طريقنا تسير بين الجبال في شكل لولبي وهي تصلح لسير سيارة واحدة لقلة عرضها وكثرة دورانها وشاهدت في أثناء هبوطها ذئباً ضارياً اختطف شاة وأخذ يركض بها نحو رأس الجبل وكان الرعاة يركضون خلفه ويصيحون عليه ويطلقون عليه الرصاص من مسافات بعيدة فلا يصيبونه وكان هذا الذئب أول وحش كاسر رأيته في اليمن، فسألت الرفاق هل يوجد وحوش ضارية في اليمن ؟ فأجابوا نعم توجد الذئاب والضباع بكثرة وتوجد النمور والفهود والسباع في المخاليف الشرقية بجهة سبأ ومارب وأما القردة والنسانيس فتوجد في جميع الجهات ، وقد شهدت ذات مرة موقعة حربية دموية بين قبيلتين من القردة ودامت نحو ساعة من الزمان، ويظهر أن القردة تعيش أسراباً وقبائل ولكل سرب أو قبيلة أرض ومضارب ووطن تستقل به فإذا تجاوزت قبيلة ما وطن قبيلة ثانية تدافع هذه القبيلة عن وطنها دفاع المستميت. وقد رأيت إحدى القبائل المعتدى عليها تهاجم المعتدين بشدة زائدة وقد اشتبك الجميع في القتال بأيديهم وأرجلهم واسنانهم وكان صراخهم يدرك عنان السماء وتم الظفر نهائياً للقبيلة المعتدى عليها فطردت المعتدين بعد أن قتلت منهم نفراً ليس بقليل وقد مثلت بالقتلى شر تمثيل وبعد انتهاء المعركة اطلقت بعض العيارات النارية إرهاباً للمنتصرين ففروا من أمامي وصعدت إلى مكان المعركة فوجدت القتلى قد مزقت أجسامهم وبقرت بطونهم وقلعت عيونهم وسلخ جزء من جلودهم، فقلت الله أكبر الله أكبر حتى القردة تمثل بأعدائها بعد قتلهم وفكرت في نفسي قائلاً هل تعلم الإنسان التمثيل بالقتلى من القرد أو تعلم القرد هذا الفن من الإنسان ؟ سؤال نتركه لساسة الحيوان الناطق فهم أدرى به منا.

استرحنا قليلاً في مقهاية في أسفل النقيل ويطلقون هنا على المقهاية اسم

«سمسرة» وبعد الاستراحة اتممنا طريقنا في قاع جهران، وأول قرية مررنا بها بعد النقيل هي قرية ظاف ودورها مبنية من الحجر والطين وفيها بئر واحدة يستعملها الأهلون للشرب فقط، ويبلغ عمقها ١٨٠ قدماً وينشل الماء عليه النساء والرجال. وشاهدنا على جانبي هذا السهل الواسع عدة قرى كالواسطة والخربة وبيت الدعى وهذه قرية صغيرة جميع سكانها من اليهود. ورأينا أيضاً آباراً كثيرة في هذا السهل وماؤها قريب من سطح الأرض ويستعمله الأهلون في زراعتهم وقد لاحظت ههنا أن الهواء لا ينقطع لا ليلاً ولا نهاراً وبوسع المزارعين لو أدركوا هذا الأمر أن يستعملوا المضخات الهوائية في استخراج مائهم كما هي الحال عندنا في القنيطرة ولكن - ويا للأسف - المزارعين لا يدركون صالحهم كما أنه لا يوجد في اليمن وزارة زراعة تهتم بهذه الشؤون وخليق بجلالة الإمام أن ينظر إلى هذه المسألة بعين عنايته لان استعمال المضخات الهوائية ممكن في معظم أطراف اليمن

كان يقابلنا في طريقنا كثير من النسوة القرويات وهن يختلفن عن نساء صنعاء ونساء تهامة كثيراً. فنساء صنعاء وغيرها من المدن يحتجبن من اخمص أقدامهن حتى أعلى رؤوسهن ولا يميز المرء بين وجه المرأة وظهرها إذا كانت ماشية إلا من حركتها لأن حجابها يغطيها غطاء تاماً. وأما في تهامة فالنساء شبه عاريات تقريباً. وأما في هذه الجبال فالنساء سافرات وعاريات الزنود ويلبسن في أكثر الأحيان ثوباً ويضعن في زنودهن وفي أذرعهن أساور زجاجية ضخمة ونساء تهامة وصنعاء يملن إلى الألبسة الملونة وخاصة الحمراء والصفراء والزرقاء وأما هؤلاء فلا يوجد لديهن سوى الثياب المنيلة.

وصلنا إلى معبرنحو العصر فوجدنا جمعاً من الناس محتشداً في مدخل القرية وهو خليط من النساء والرجال والأولاد قد أتوا ليشاهدوا عن كثب موكب الغرباء ولما سألنا عن العامل السيد يحيى الوريت قيل لنا أنه مأذون في صنعاء فذهبنا إلى (سمسرة) كبيرة قيل لنا أنها نظيفة وفسيحة: دخلناها بأمان فرحين فوجدناها كغيرها من منازل اليمن الدور الأول للحيوانات والثاني والثالث للمسافرين. احتللنا الدور الثاني وهو مؤلف من أربع غرف صغيرة ومطبخ وبيت



قرية الكميم الواقعة على طريق السيارات بالقرب من معبر وهي انموذج لقُرى اليمن الجبلية

للراحة، وأبواب جميع هذه الغرف صغيرة إلى حد يكاد المرء لا يتمكن من دخولها إلا إذا حنى ظهره. وبعدما استقر بنا المقام قليلاً أتتنا صاحبة السمسرة وقالت أنها على استعداد أن تطبخ لنا أكلاً تركياً جيداً فقلت أنى لك ذلك فقالت أنها كانت أيام الدولة العثمانية زوجة المتصرف حسني بك وأنها تعلمت الطبخ التركي من ذويه فقلت حسناً أعدي لنا ما تشائين ولكن الرجاء أن تسرعي بالعمل لأن معدتنا خاوية خالية. ما غابت هذه السيدة عنا سوى ساعة من الزمان حتى عادت إلينا وهي تحمل أطباقاً مملوءة بالأرز واللحم المطبوخ (روستو مع بطاطا) والخضر المطبوخة باللحم ونوعاً من الحلوى مصنوعة من العجين مثل العوامة (لقمة القاضي) عندنا. تناولنا طعامنا بلذة عظيمة وشربنا قهوة معمولة على الطريقة التركية وشكرنا هذه السيدة الأنيقة في الطبخ كل الشكر.

وبعد تناول العشاء صعدت إلى سطح السمسرة أراقب القمر والنجوم فأتاني بعض نزلاء السمسرة وجلسوا إلى جانبي وأخذوا يسألوني عن صنعاء وكيف وجدتها وعن الإمام والقاضي العمري إلى غير ذلك من الأسئلة فأجبتهم أجوبة لحمتها الثناء وسداها المديح على جلالة الإمام ورجاله وبلاده ولاحظت أن أسارير وجوههم برقت وانسروا كل السرور عندما سمعوا هذا الثناء والمديح ثم سألتهم أنا بدوري إذا كان يوجد معادن بالقرب من معبر فأجابني أحدهم نعم يوجد بالحدى قرية قريبة من معبر ميكا ويوجد فيها أيضاً جبل بركاني يخرج من

فوهته غاز كبريتي ويوجد في قرية المحوي فحم حجري ثم سألتهم إذاكان يوجد آثار حميرية بالقرب من معبر فأجابوا نعم يوجد جبل يبعد عن معبر نحو ساعتين ويقال له الجبل الأحمر وفيه آثار حميرية ونهر كبير نشف بعدما اندثرت المدينة الحميرية ولا يزال مجراه بادياً للعيان إلى هذا التاريخ . ويوجد بالقرب منه حمام على بعض الآثار القديمة وحمام على قرية صغيرة تقع إلى الجنوب الغربي من معبر وفيها عدة ينابيع معدنية كبريتية حارة يأتيها الناس للاستشفاء في فصل الشتاء من جميع أطراف اليمن وقد مررت بهذه القرية في إحدى رحلاتي فوجدت ماءها يشبه ماء الحمة في فلسطين ومنازلها مبنية من الحجر والطين وهي ذات دور واحد يقطنه الناس وبعضها ذات دورين وهواؤها ناشف جداً وطقسها حار لأنها واقعة في وادٍ عميق .

قضيت ليلتي في معبر على أحسن حال ونمت نوماً هادئاً مريحاً وفي الصباح نهضت مبكراً فتناولت قليلاً من الحليب والقهوة وقلت للجنودأن يستعدوا للسفر وبينما كانوا يحملون أمتعتنا نزلت إلى القرية وطفت حولها فوجدت إلى جنوبها وعلى مسافة يسيرة منها أنقاض مدينة حميرية قديمة ولا تزال بئرها ظاهرة للعيان كأنها من صنع بضع سنوات بالرغم من مرور ألوف السنين عليها وهي متقنة الصنع وجدرانها مبنية من الحجر بخلاف جدران الآبار الحديثة المتروكة تراباً على طبيعتها ويوجد إلى جانب هذه البئر أنقاض جامع قديم يقال له جامع المؤيد وقد بناه الإمام المهدي وفيه قبر لسبعين شهيداً قيل أنهم قتلوا في إحدى معارك معبر المشهورة أيام حربها مع الدولة العثمانية ، ويوجد فوق هذا القبر حجر مكتوب عليه بالعربية وفيه تاريخ استشهاد هؤلاء الشهداء ولكني لم أتمكن من قراءته لأن الأيام قد محت الكتابة إلى حد بعيد ولكن لا يزال ظاهراً منها آية الكرسي المنقوشة في الحجر نقشاً عميقاً ومذهباً .

في الطريق إلى ذمار

بعد هذا الطواف القليل عدت إلى السمسرة فوجدت الرفاق قد حملوا البغال فركبت بغلتي وسرت في المقدمة وكانت مرحلتنا اليوم إلى ذمار وطريقنا جيدة في سهل جهران ويمكن للسيارات أن تسير عليها بسهولة تامة ولكن وبما

للأسف لا يوجد سيارات ههنا أبداً وقد سألت البعض إذا كانوا شاهدوا السيارات تاتي من صنعاء فقالوا نادراً لأن الناس لا يملكون سيارات بل يوجد عند جلالة الإمام بضع سيارات جلبها جلالته من عدن إلى صنعاء مفككة ومحمولة على الاكتاف في الجبال وعلى البغال في السهول. دامت طريقنا في هذا السهل حيدة عدة ساعات وقد مررنا بعدة قرى كبيت راشد وعثم والحوقري وفيها ثار حميرية والرصابة وغيرها ويوجد بالقرب من الرصابة عدة ينابيع ماء تسيل إلى جهات مختلفة منها غيل قراب وغيل تشليل يجري إلى بلاد آنس وغليل السربة يجري إلى مدينة العبيد، وقرية الرصابة قرية كبيرة سكانها مزيج من المسلمين واليهود وللقرية سور كسور صنعاء ويوجد فيها مغاور كمغاور صيدنايا عندنا كانت تستعمل كزرائب للماعز فتراكمت فيها كميات كبيرة من (السماد) والآن يخرج اليهود هذا (السماد) ويستخرجون منه نترات البوتاس (ملح البارود) ويصنعون منه كميات وافرة من البارود الاسود (الواطي) ثم مررنا في طريقنا بقرية يقال لها(الضيق) وهي آخر حدود قاع جهران من الجهة القبلية ويوجد حول هذه القرية عدة آبار ماؤها قريب من سطح الأرض يعمل عليها الإنسان بدل الحيوان وبعد أن بعدنا مسافة يسيرة عن هذه القرية أخذ السهل يضيق كثيراً وأخذت الطريق تتوعر وتسير صعوداً وقلت الحقول المفلوحة وغابت الآبار وتغيرت طبيعة الأرض. سرنا على هذا الحال نحو ساعتين فوصلنا إلى قرية الدرب وهي واقعة على ربوة صخرية وفيها بئر واحدة للماء عمقها نحو ١٥ متراً.

اجتزنا هذه القرية في وادٍ وعر ضيق وأخذت طريقنا تنحدر شيئاً فشيئاً إلى أن وصلنا إلى ذمار. وقد رافقنا في هذه الطريق أحد أبناء السبيل وقد أبدى لي شكاوى كثيرة من الحالة الحاضرة في اليمن ولما كان في سن العسكرية سألته: هل خدمت في الجندية ؟ فأجاب كلا، لم أخدم في الجندية ولا أريد أن أخدم بها لأن الجندية جور ولها قوانين وتعليم ونحن وحشيون أي متوحشون لا نعرف القانون ولا نحب التعليم. فقلت: ألا يأخذونك جبراً إن أنت لم تتجند طوع إرادتك ؟ فقال: كلا الجندية عندنا بين القبائل ليست إجبارية بل اختيارية يتطوع فيها من يريد لقاء معاش من بيت مال المسلمين ولو كانت اجبارية لفررت من أول يوم يجندوني فيه. أين بلادك ؟ بلادي إلى شرق أب وتبعد عنها نحو يومين.

كيف يحصلون الضرائب عندكم ؟ يحصل الضرائب عندنا المخمنون، وبعضهم قليلو الذمة يأخذون ثلثي محصولنا ويعطوننا الثلث كم يجب أن يأخذوا لو انصفوا ؟ يجب أن يأخذوا العشر فقط أي يجب أن يأخذوا من كل عشرة كيلات كيلة حسب مرضاة الله وسنة رسول الله ولكن بعض هؤلاء المخمنين لا يخافون الله ويخمنون البيادر أكثر من حقيقتها ويأخذون العشر حسب تخمينهم الكاذب. والله سيذهبون إلى جهنم زمراً. فقلت: هل يعلم جلالة الإمام بأعمالهم ؟ فقال: الله يحفظ الإمام هو لا يعلم بأعمالهم ويأمرهم دائماً بأن لا يظلموا احداً وأن ينصفوا ويعدلوا بين الناس ولكن لا يخافون من الله ولا من يوم الله. فقلت: ما دام الإمام لا يريد ظلمكم فلماذا لا تذهبون وترفعون له شكواكم ؟ فقال: لقد ذهب بعضنا وشكوا أمرهم له فجاء المخمنون وأقسموا الإيمان المغلظة أمامه أنهم لم يظلموا أحداً. فقلت: وهل تحبون الإمام ؟ فقال: نعم نحبه كثيراً لأنه أمامنا وخليفتنا. فقلت: وإذا دعاكم للحرب هل تلبون دعوته ؟ تبسم عند سماعه هذا السؤال وأجاب: الله يحفظ الإمام نحن ومالنا وعيالنا فداء الإمام وإذا دعانا للحرب والجهاد فإننا نفديه بأرواحنا وأموالنا ونجاهد في سبيل الله أن نموت لأن الجهاد فرض واجب على كل مسلم.

في ذمار

وصلنا إلى ذمار مساء وحللنا في ضيافة الحكومة حيث أعدوا لنا مكاناً لنزولنا فجاء بعض الموظفين والقضاة وأمير الجيش ورتبته قائد لزيارتنا والسلام علينا وصادف حين دخولهم علينا أني كنت أقرأ في رحلة الريحاني إلى اليمن فسألني أحدهم ما هذا الكتاب فقلت هو رحلة الريحاني إلى اليمن فقال لقد اطلعنا عليه فوجدنا فيه أشياء كثيرة بعيدة عن الصحة وأخرى مبالغاً فيها والله يسامح الأمين على هذا العمل لأنه لم ينصف اليمن.

جلس الضيوف في زيارتنا زمناً طويلاً سألونا عن رحلتنا في اليمن وعن معاملة العمال لنا في الطريق وعن بلادنا وعن تركيا وعن مصطفى كمال وحقيقة قيامه ضد الدين الإسلامي ورفعه حجاب النساء والسماح لهن بأن يختلطن بالرجال. ولما قلنا لهم أن تركيا الحديثة أصبحت دولة لا دينية وتنصلت من

شرقيتها وحذت حذو الدول الغربية في جميع شؤونها واستعاضت عن الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية وحذفت جميع الكلمات العربية من قاموسها استاءوا استياء عظيماً وحوقلوا كثيراً وقالوا الله يحفظ الإمام ويعز به الإسلام. ثم ودعونا وانصرفوا فقضينا ليلتنا في دار الضيافة. وفي الصباح قمنا مبكرين وطفنا المدينة فوجدناها أصغر من مدينة صنعاء ولكنها أكبر من الحديدة ومن أي بلد ثانية رأيناها حتى هذا التاريخ ودورها مبنية من الحجر على نمط دور صنعاء وهي مؤلفة من عدة أدوار وفيها الزجاج الملون ونوافذ المرمر. وقد رأيت فيها عدة مساجد وأهمها مسجد حسن دادا باشا وقد بناه الباشا المشار إليه حين قدومه إلى اليمن مهاجراً قبل دخول الدولة العثمانية إلى اليمن أي منذ أكثر من ٥٠٠ سنة وهو مسجد جميل وفسيح ومبني بالحجارة المنحوتة وفيه حديقة صغيرة مغروسة سرواً. وشاهدت جامعاً آخر كبيراً قيل أنه كان كنيسة لليهود ورأيت في جدران هذا الجامع أحجاراً ضخمة مكتوباً عليها عبارات حميرية. وزرت كنيساً لليهود ورأيت فيه توراة مكتوبة على رق غزال قيل لي أن اليهود جلبوها معهم عندما هاجروا من القدس بعد خراب الهيكل أي منذ نحو ٣٠٠٠ سنة وقد لفوها لفاً محكماً بالأقمشة الحريرية. واجتمعت الحاخام الأكبر فدعاني لمنزله فلبيت دعوته وهو رجل طاعن في السن يقال له يحيى سعيد جريدي فسألته عدة أسئلة وإليك أهمها :

(س) متى جاء اليهود إلى اليمن ؟

(ج) أتى بعضهم قبل خراب الهيكل بعامين وأتى البعض بعد خراب الهيكل ؟

(س) أين نزلوا عندما قدموا للمرة الأولى ؟

(ج) نزلوا في مكان يقال له برش واقع شرقي قبل نقم. ونقم هو الجبل المحيط بصنعاء من الشرق ؟

(س) من بنى صنعاء ومن أين اشتق هذا الإسم ؟

(ج) إن اليهود هم الذين بنوا صنعاء واسمها مشتق من إسم سام بن نوح عليه السلام.

(س) هـل بنى اليهود مدنا اخرى غير صنعاء ؟
(ج) نعم بنوا مدينتين صعدة وذمار وأطلقوا عليهما اسمي ولـدي سام بن نوح.
(س) هل كان يوجد يهود باليمن قبل الهجرة من أورشليم ؟
(ج) كلا جميع يهـود اليمن هاجـروا من أورشليم كما ذكـرت لك. وليس اليهود من السكان الأصليين.
(س) هل لكم علاقة بالعالم الخارجي ؟
(ج) نعم لنا علاقات مع مصر وفلسطين ويوجد يهـود يمانيون كثيرون في فلسطين
(س) هل تعرفون شيئاً عن الحركة الصهيونية ؟
(ج) نعم يأتينا بعض الأحيان جرائد صهيونية ويكتب لنا اليهـود اليمانيـون المهاجرون شيئاً كثيراً عن الهجرة الصهيونية ويحببونها لنا.
(س) أين آخر بلد يقطنها اليهود في اليمن ؟
(ج) إن آخر بلد هي بيحان وتقع إلى شرقي ذمار وتبعد عنها مسافة ثمانيـة أيام.
(س) هل لكم اتصال مع يهود أميركا وأوروبا ؟
(ج) كلا لا نعرف أحداً في تلك البلاد.
(س) كيف حالكم مع المسلمين ؟ وهل يعاملكم العمال معاملة حسنة ؟
(ج) نحن مع المسلمون في عزلة تامة وحينا بعيد عن حيهم وهم يحتقروننا ولكن العمال يمنعون التعدي علينا ويجـازون كل من تسـاوره نفسه بـأن يمسنا بسوء.

ودعت الحـاخام الأكبـر وطفت قليلاً في حي اليهـود فتبعني خلق كثير من الرجال والأولاد والنساء وحي اليهود حقير بالنسبة إلى الأحياء الإسـلامية ولكنـه نظيف ومرتب ترتيباً حسناً وبعد الطواف في الأحياء الإسلامية ومشاهدة الأسواق التي لا تختلف كثيراً عن أسواق صنعاء بحجمها. زرت العامل السيد محمد بن أحمد الوزير فوجدته رجلاً أديباً لطيف المعشر طلق اللسـان استقبلني واقفاً على

الأقدام وقال حيّ الله من قد جاء، لعل من أمر يمكنني أن أنفذه لكم وهل أنتم مرتاحون في سفرتكم؟ إنني أكون سعيداً إذا تمكنت من القيام بخدمة لكم فشكرته جداً على هذا اللطف وقلت إننا ولله الحمد على أحسن حال ولا يلزمنا شيء أبداً ونرجو من الله أن يحفظ جلالة الإمام ويبارك في رجاله العظام. وبعد أن تناولت القهوة والشاي ودعته وعدت أدراجي إلى دار الضيافة.

في الطريق إلى بريم

وجدت الجند على استعداد للمسير؛ فركبت بغلتي وسرت أمامهم ووجهتنا بريم ولم نبعد عن البلد إلا مسافة يسيرة حتى رأينا بعض الآبار تستعمل لري النباتات وماؤها يبعد عن سطح الأرض نحو عشرة أمتار ويغرسون حولها فصة وشعيراً ويوجد بين ذمار وبريم طريقان أحدهما للسيارات والثاني للحيوانات. وطريق السيارات تسير في وادٍ متسع وطريق الحيوانات تسير بين آكام ووديان وعرة ولكنها أقصر من طريق السيارات. وقد شاهدت في بعض هذه الجبال طبقات من الحديد (هماتيت) وشاهدت حقولاً من الحنطة والشعير بعضها ناضج وبعضها يغرس غرساً جديداً. ومررنا بالقرب من الحقول الجميلة اليانعة بقرية دجذب ووقفنا قليلاً على نبع ماء يجري قربها شمالاً وماؤه بارد وعذب. واتسع الوادي ههنا اتساعاً لا يستهان به وكثرت المزروعات ولكننا لم نشاهد أثر للأشجار لعدم اعتناء الناس بها. وبعدما سرنا نحو ساعة في هذا الوادي الواسع عرجت طريقنا بين الجبال والآكام ثانية، وقد شاهدت في هذه الجبال طبقات جيدة من الحديد. ومن ثم هبطنا إلى قاع رباط مسافة طويلة؛ وقاع رباط سهل صغير جميل تغرس فيه جميع أنواع الحبوب، سرنا فيه نحو نصف ساعة ثم أخذت طريقنا تصعد بنا إلى نجد الأسلاف في جبال وعرة ومسالك صعبة إلى أن وصلنا إلى قرية الأسلاف وهي مبنية على أكمة يعسر الصعود إليها كثيراً وهي في الحقيقة تشبه القلاع أكثر مما تشبه القرى. ومن هنا هبطنا هبوطاً مستمراً بين وديان مغروسة بالحبوب ولكن لا أثر للأشجار فيها وشعرت بين هذه الوديان ببرد شديد يتسرب إلى جسمي فتركت البغل وأخذت أسير على الأقدام إلى أن وصلنا إلى يريم نحو الساعة الثالثة فقصدت إلى سمسرة أي مقهاية يقال لها سمسرة

صالح علوان، وبعد ما استرحت قليلاً خرجت من السمسرة وطفت في البلد فوجدته أصغر من ذمار وأكبر من سائر القرى التي مررنا بها ولكن أزقته قذرة ومجاري الأوساخ تسيل على جانب المنازل. طفت في بعض الأسواق التجارية فرأيت جميع أنواع الخردوات الفرنجية المجلوبة من الخارج عن طريق عدن. ورأيت محاصيل البلاد الزراعية تملأ الأسواق وأبصرت بعض معاصر الخردل تديرها الجمال، وهذه أول مرة سمعت فيها بالخردل في اليمن وقيل لي أنه يغرس في يريم وأطرافها بكثرة ويغرس في اليمن الأخضر ويستعمله الناس للحرق بدل زيت الكاز.

وللبلد سور خارجي يحيط به من جميع أطرافه ويوجد خارج هذا السور آبار متعددة ماؤها يبعد عن سطح الأرض نحو مترين. ومنازل البلد مبنية من الحجر وهي ذات عدة أدوار ولكن نوافذها أوسع من نوافذ معبر ووعلان وذمار. وأما الأبواب فلا تختلف عن رفيقاتها. وتحيط الجبال بيريم من جميع جهاتها، ويكاد الآتي إليها من الشمال يصل إليها قبل أن يراها ويوجد في هذه الجبال طبقات حديدية كثيرة.

وقد شاهدت في أثناء طوافي نحو عشرة مساجد مختلفة الحجم وتستعمل جميعها كمدارس للأولاد وفيها مدرسون خصوصيون يتناولون رواتب شهرية من الحكومة وقد اجتمعت بأحد هؤلاء المدرسين وسألته كم عدد سكان مدينتكم فقال سبعة آلاف فقلت له هل هي قديمة كصنعاء وذمار؟ فقال كلا، ليست هذه البلد قديمة وأخالها بنيت قبل أربعمائة سنة. وأما البلد الأصلية القديمة فهي بهذه الجبال التي أمامنا ويقال لها «مريمة» وفيها آثار حميرية إلى هذا التاريخ. فقلت وهل يوجد عندكم أشغال وصناعات يدوية؟ فأجاب صناعتنا قليلة لأن بلادنا زراعية ومعظم أهلها يشتغلون بالزراعة فقلت رأيت يهوداً في الطريق فهل هم كثيرون عندكم؟ فقال كلا ليسوا بكثيرين. فقلت وماذا يتعاطون من الأشغال؟ فقال جميع الأشغال اليدوية كالنجارة والحدادة والخياطة والترقيع إلخ. فقلت هل يوجد لهم كنائس ومدارس؟ فأجاب لهم مدرسة واحدة وكنيسة واحدة. فقلت وهل للمسلمين مدارس خاصة غير المساجد؟ فقال نعم، يوجد

عندنا مدرسة واحدة للحكومة يدرس فيها التلاميذ ثلاث سنوات ثم يذهبون إلى ذمار أو صنعاء لاتمام دروسهم في مدارسهما العالية .

واجتمعت في يريم أثناء طوافي بأحد الجنود الذين تعرفوا إليّ بصنعاء ورافقوني مدة فيها واسمه محسن السياني ولما رآني ركض نحوي مسلماً وقال هل تغادر اليمن ؟ فقلت نعم إني في طريقي إلى مصر الآن. فقال لماذا لم تبق عندنا في اليمن ؟ إن اليمن جميلة ورخيصة. فقلت لي بعض الأشغال أروم قضاءها. وأنت يا محسن إلى أين ذاهب ؟ فقال إني ذاهب بمعية الشيخ محمد حميد باشا إلى بلاده ؟ فقلت ومن هو هذا الباشا ؟ فقال هو شيخ كبير كان رهينة عند جلالة الإمام بالقصر بصنعاء وقد توفي والده فأذن له جلالة الإمام أن يذهب إلى بلاده ويقوم مقام أبيه. وما كاد محسن يلفظ هذه الجملة حتى رأيت شاباً نحيل القوام والجسم أصفر اللون آتياً نحونا، ولما رآه محسن أشار لي بشفته إشارة معنوية فأدركت للحال أن هذا الشاب هو محمد حميد باشا فامتنعت عن الكلام إلى أن مر بنا الباشا وحيانا وعلامات التأثر العميق بادية على وجهه، فرددنا تحيته بأطيب منها وعزيناه في أبيه بالألفاظ المألوفة فتمتم بعض الكلمات ونادى بمحسن هيا بنا فودعني محسن وانصرف وأنا أفكر في أمر هذا الشاب وبحلم جلالة الإمام ورأفته وكيفية تركه الرهائن عند حلول الشدائد. بعدما أتممت طوافي في البلد عدت إلى الدار أي السمسرة التي حللنا بها وتناولت ما تيسر من الطعام ونمت حتى الصباح ولكني استيقظت مراراً بالليل لمهاجمة البق لي مهاجمة عنيفة وما كاد يطلع نور النهار حتى هببت من الفراش وناديت صاحبة الدار وطلبت إليها أن تصنع لنا طعاماً فصنعت لنا شاياً وقهوة وجلبت لنا حليباً ولبناًوقشطة وسمناً وعسلاً فأكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً ثم حملنا بغالنا وخرجنا من السمسرة وما كدنا نسير بضع خطوات حتى رأينا الماء القذر بشوارع البلدة قد تجلد فصار ينكسر تحت أقدامنا وأقدام بغالنا ودام الجليد في طريقنا إلى أن طلعت الشمس فأخذ يذوب أمام حرارتها الشديدة ذوباناً سريعاً ومرت حرارة الشمس بسرعة إلى أجسادنا فشعرنا بالسخونة بعد البرودة وبحركة الدم العنيفة بعد الخفيفة .

المخادر

كانت وجهتنا اليوم قرية المخادر وسارت طريقنا في البدء في وادٍ ضيق أخذ يتسع شيئاً فشيئاً كلما سرنا إلى الجهة القبلية حتى أصبح سهلاً واسعاً بعد مسير بضعة كيلو مترات وقد رأيت بعض الجداول الصغيرة في هذا الوادي وقد غرس الأهلون حولها حنطة وشعيراً وفصة وينتهي هذا الوادي الذي يقال له قاع الحقل بنقيل الضربة وهنا تبدأ الطريق بالصعود في جبال وعرة وهي غير معبدة ولا تصلح لسير السيارات وقد شاهدت في وادٍ متسع بين هذه الجبال نهراً كبيراً ينساب انسياب الأفعى ويوجد إلى جانبيه حقول كثيرة من الذرة والحنطة والشعير. وبعدما اجتزنا نقيل الضربة مررنا بوادٍ متسع ثم صعدنا بنقيل آخر عظيم يقال له نقيل سمارة ويبلغ علوه عن سطح البحر ١٠١٠٠ قدم وقد حول الأهلون جنبات الجبال القائمة حول هذا النقيل العظيم إلى حقول غناء زرعوها بناً وقاتاً ويوجد في هذا الجبل قرية سمارة وقرية بيت هديان وقرية منزل سمارة، أما قرية بيت هديان ففي آخر قرى الزيود وقرية منزل سمارة الواقعة بين بيت هديان وسمارة فسكانها خليط من الزيود والشوافع وأما قرية سمارة فهي أول بلاد الشوافع وقد شاهدت فيها أشجاراً مثمرة كالتالوك والدراق والمشمس والخروب والجوز والموز وغير مثمرة كالطنب والسنديان والبلوط والعنب وغيرها ويصلح شجر العنب للخشب وأما الطنب والسنديان والبلوط فلا تصلح إلا للحطب وقد رأيت بعد اجتيازنا لقرية سمارة مياهاً كثيرة وحقولاً متسعة مغروسة تتنا وتنباكاً وحنطة وشعيراً وذرة صفراء وبيضاء وغيرهما من النباتات الصيفية والشتوية وتنمو جميعها بعضها إلى جانب بعض في فصل واحد وفي آن واحد وليس هذا بغريب في البلاد العربية السعيدة لقربها من خط الإستواء .

منذ أجتزنا قرية سمارة ابتدأنا نرى اختلافاً في أزياء الناس نساء ورجالاً فالنساء هنا يلبسن البرانيط المصنوعة من القش فوق حجبهن ويتركن سواعدهن عارية ويلبسن أثواباً ملونة من الأقمشة القطنية أكثرها من صنع المانيا واليابان وأما الرجال فشبه عرايا إلا من مآزر يشدونها إلى وسطهم وعمائم بيضاء يلبسونها فوق رؤوسهم، وتختلف جنبياتهم عن جنبيات الزيود فجنبيات الزيود مستطيلة وأما

جنبيات الشوافع فمحدودبة وكان أكثرهم يحملون شمسيات بيضاء وغلايين طويلة محشوة تنباكاً. وصلنا إلى المخادر بعد مسير ثماني ساعات وقد أنهكنا التعب ولم نجد العامل في انتظارنا بل قابلنا أحد الموظفين واعتذر عن العامل بقوله أنه مشغول كثيراً وأنه أوفده بالنيابة عنه ليرحب بنا فشكرناه على هذا الترحيب وقادنا إلى دار قال أنه أعدها خصيصاً لنزولنا وودعنا وانصرف. دخلنا الدار فإذا بها تشبه الحصون القديمة درجها لولبي وفي جدرانها رمايات للمنجنيق وهي قذرة جداً. صعدنا إلى الدور الثالث وهو الدور الأخير وأمرنا الخدم بتنظيف غرفة وفتح نوافذه ولما تمت هذه العملية غير الموفقة مددنا أسرتنا السفرية وانطرحنا عليها نطلب الراحة. وكانت هذه المرحلة التي قطعناها في هذا النهار أصعب مرحلة في طريقنا بين صنعاء وعدن ولكننا حمدنا الله في نهايتها على وصولنا بالسلامة. ولم نخرج مساء للقرية بل بقينا في الدار فتناولنا طعامنا ونمنا حتى الصباح. وفي الصباح نهضت حسب العادة مبكراً وهبطت إلى القرية فرأيت مسجداً صغيراً قد أمه الطلبة لتلقي دروسهم على إمامه فجلسوا حوله وكانوا يقرأون بصوت مرتفع دفعة واحدة. اجتزت هذا الجامع وتغلغلت بين بيوت القرية وأزقتها فوجدتها صغيرة حقيرة فيها بعض دكاكين مملوءة بحاجات مختلفة وقد جلس في أكثر هذه الدكاكين أناس من اليهود وقيل لي أنهم كثيرون في هذه القرية وتحدثت إلى أحدهم فشكا لي من الضرائب فقلت ولكن مالك وللضرائب وأنت رجل يهودي لا تدفع سوى الجزية وهي يسيرة جداً بالنسبة إلى مجموع الضرائب التي يدفعها المكلف المسلم، فقال أنا لا أتكلم عن الجزية لأنها في الحقيقة يسيرة ولكن الضرائب التي يدفعها المسلمون فادحة. فقلت ماذا يدفعون ؟ فقال عشر جميع المحصولات ويدفعون رسماً على الحيوانات فقلت في جميع بلاد الناس وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة العثمانية يدفع المكلف عشراً ورسماً على الحيوانات وعلاوة على ذلك يدفع ضريبة على شخصه تسمى (دروبية) أو (حورانية) ويدفع رسوماً على سكنه وجميع أملاكه كتمتع وويركو ورسوم إعلانات ونارية وغير ذلك من الضرائب. ولما سمع اليهودي هذا الحديث أخذ يصفر واستغربه جداً وصار يتحرك حركات غريبة بيده وفمه. فقلت الأفضل لك يا يهودا ولأصحابك المسلمين أن لا

تستكثروا الضرائب عندكم لأنها يسيرة جداً بالنسبة إلى الضرائب في بلاد العالم وقد اجتمع علينا في أثناء هذا الحديث خلق كثير من يهود ومسلمين وقد أخذهم العجب من هذا الحديث كل مأخذ وحمدوا الله في نهايته على حالهم .



سوق الأحد قرب مدينة إب
ويأتيها الناس من البلاد القريبة كل يوم أحد للبيع والشراء والمقايضة

عدت إلى الدار بعد إتمام طوافي في البلد فوجدت الجند على أهبة المسير فسرنا باسم الله ووجهتنا مدينة إب وكانت طريقنا تسير هبوطاً في وادٍ وعر لا تسلكها غير الحيوانات مدة من الزمان وقد رأيت في الجبال حول الوادي عروقاً كثيرة من (الكورتيز) أي الحجر الأبيض الصلب التي توجد بعض المعادن الثمينة فيه في أكثر الأحيان. والجبال في هذه الجهات مكسوة بالأشجار الكبيرة والصغيرة المثمرة وغير المثمرة. ثم عرجت طريقنا منها في جوف وديان كثيرة خصبة ترابها رخو ناعم وتنمو فيها أنواع كثيرة من النباتات كالتتن والذرة والتنباك والحنطة والشعير وغيرها. وشاهدت على بعد ساعتين تقريباً من المخادر غيلاً كبيراً يشبه أنهارنا ينساب بين الوديان انسياباً ثم يخرج إلى سهل واسع بالقرب من سوق السبت حيث رأيت كثيراً من النساء يملأن ماء منه ويغلب في كثير من نساء هذه البلاد الشبه بالزنوج وبعضهن زنوج تماماً. قبل أن نصل إلى إب بنحو ساعة من الزمن أخذت طريقنا تصعد في نقيل صعب المراس يقال له نقيل

الذهوب والغريب في هذا النقيل أنه مرصوف بالحجارة رصفاً وقد ذكرني رصفه بالأزرق الواقع على طريق الحج بين الشام وعمان.



مدينة إب

وقد رأينا من رأس هذا النقيل مدينة إب العظيمة زاهية تتيه عجباً ودلالاً فوق رؤوس الهضاب والتلال الراكعة تحت أقدامها. وقد ازدانت هذه التلال والهضاب الكثيرة بالنباتات والأشجار فرأيت فيها الجوز والموز والعنب والرمان والسفرجل والدراق والمشمس والإجاص والفجل والجزر والبقدونس إلى غير ذلك من النباتات والأشجار الكثيرة. وقبل أن نصل إلى البلد بكيلومتر واحد تقريباً وجدنا ابن عاملها على الطريق في انتظارنا ولما أقبلنا عليه حيانا مرحباً ومهنيناً بسلامة الوصول بالنيابة عن والده إسماعيل بك باسلامه وبالأصالة عن نفسه فرددنا تحيته بأحسن منها فامتطى جواده وسار أمامنا إلى أن وصلنا إلى مدينة إب وقادنا حضرته إلى دار الحكومة حيث اعدوا مكاناً لنزولنا وتقع دار الحكومة في أول المدينة خلف السور وهي بناية ضخمة مبنية بالحجر الأبيض المنحوت وبعد الإستراحة قليلاً خرجت إلى المدينة فطفت أسواقها وعرجت على جوامعها الكثيرة الجميلة المستعملة كمساجد ومدارس في آن واحد ورأيت بنايات ضخمة قد تداعت أطرافها وهي من أيام حمير ومكتوب على كثير من حجارتها وأبوابها ومنافذها كتابات مطولة بالخط الحميري ومررت ببعض المدارس وكان التلاميذ

يقرأون بالجملة كما هي عادتهم وطفت بالاسواق وهي ضيقة ولكنها مرتبة ونظيفة ومرشوشة ودكاكينها ملأى بالبضائع الاجنبية والمحصولات الوطنية وبعد الطواف في المدينة عدت إلى الدار وما كاد يستقر بنا المقام حتى جاءنا العامل إسماعيل بك باسلامه يرفل بأثوابه الحريرية وعمته البيضاء وحسامه المذهب اليماني ويسلم علينا قائلاً: حي الله من قد جاء كيف أنتم وكيف رحلتكم ؟ عساكم لم تلاقوا أتعاباً في الطريق، فشكرته على زيارته وقلت أننا مسرورون جداً من رحلتنا التي تنسي مناظرها أتعابها وأننا سعداء جداً بمقابلته إذ سمعنا عن لطفه وأنسه شيئاً كثيراً وها هو ذا يحقق لنا كل ما سمعناه وقرأناه عنه. وبعد هذه المجاملات المألوفة في مثل هذه الأحوال سألت حضرته كم عدد نفوس مدينة إب ؟ فقال نحو عشرين ألفاً، فقلت وكيف حال (الشوافع) والزيود ؟ وحضرته شافعي فقال على أحسن حال. فقلت أننا قرأنا في بعض الكتب والجرائد قبل أن زرنا اليمن بأن الزيود يستبدون بالشوافع ويستأثرون بالوظائف دونهم ويعاملونهم معاملة سيئة فهل هذا صحيح ؟ فقال أنا رجل شافعي وأنا حر الإرادة ومطلق التصرف في إب أولي من أشاء وانحي من أشاء من الموظفين ولا يتدخل جلالة مولانا الإمام ولا حكومته البهية في هذه الشؤون الطفيفة وقد خولني السلطة اللازمة لأن أحكم الناس حكماً إسلامياً شرعياً لا فرق عندي بين زيدي أو شافعي وكل ما سمعتم من الدعايات الخارجية أن هي إلا كذب وافتراء على اليمن وأهله. ولا شك أن لمروجيها غايات غير شريفة فقلت ألم يكن الحكم أيام الدولة العثمانية أفضل من حكم الإمام وحكومته ؟ .

فقال: شتان بين الحكمين أن الحكام العثمانيين من ولاة ومتصرفين كانوا يحكمون البلاد حكماً كيفياً استبدادياً ولم يطبقوا الشريعة الإسلامية كل مدة وجودهم باليمن وأما الإمام فمنذ استولى على الحكم إلى هذا التاريخ فهو يحكم بالعدل ويتبع الشريعة الإسلامية الغراء ولا يفرق بين واحد وواحد من رعيته ولو كان ذلك الواحد يهودياً فالعدل ناشر أعلامه فوق سطح اليمن من أقصاها إلى أقصاها والأمن مستتب في كل الجهات ويمكن للمرء أن يسير أينما شاء وهو أمين على نفسه وماله. فقلت وهل يقول جميع الشوافع هذا القول ؟ فأجاب لا شك

أن كل منصف من الشوافع وغيرهم من سكان اليمن يؤيد هذا القول ويثبته، وأن سمعتم ببعض الشكاوى من بعض الناس فلا شك أنهم يشكون لأسباب شخصية وحزازات نفسية وهذه أمور لا تخلو منها بلد من بلدان العالم مهما رسخ كعبها في الحكم والعدل. فقلت وهل الشوافع مسرورون وراضون عن حكم الزيود لهم ؟ فقال: إن معظم حكام بلاد الشوافع وعمالها وموظفيها هم من الشوافع أنفسهم فإذا كان لهم ما يشكون منه فشكواهم ليست من الزيود بل من نفس اخوانهم الشوافع. فقلت ما هي أهم الصناعات عندكم ؟ فقال: إن الزراعة هي أهم الصناعات عندنا ومعظم أهل هذه المدينة وما يتبعها من القرى والدساكر يشتغلون بالزراعة. فقلت وما هي أهم محصولاتكم ؟ قال: البن والقات والأثمار بأنواعها والخضروات والحبوب كالذرة والشعير والحنطة والتتن والتنباك، ثم سألته عن طريق القوافل بين حضرموت واليمن، فقال أن طريق القوافل كانت قديماً تمر من حضرموت إلى البيضاء فردع فذمار فصنعاء. فقلت وهل يوجد بين صنعاء ولحج طريق غير الطريق التي نتبعها نحن في رحلتنا ؟ فأجاب: نعم يوجد طريق تمر بصنعاء، ذمار، يريم، السدة، قعطبة، الضالع، يافع، لحج، ويقال لهذه الطريق الشرقية وهي أسهل من الطريق التي تبعناها نحن في هذه الرحلة ولكنها أطول منها ويمكن للجمال المحملة أن تسير عليها بسهولة. فقلت هل يوجد عندكم يهود ؟ فقال نعم يوجد عندنا يهود ولكنهم قليلون: فقلت: وماذا يتعاطون من الأشغال ؟ فقال: الأشغال اليدوية كالنجارة والحدادة والبناء والترقيع والحياكة إلخ. فقلت أرجوكم أن تسمحوا للحاخام أن يأتي ويزورني ليلاً. فقال حباً وكرامة وودعنا وانصرف بعد أن طلب إليّ أن أعطيه عنواني في مصر فأعطيته إياه. وبعدما انصرف من عندنا ذهب ليقوم بدورته اليومية في المدينة لأن حضرته ينسج على منوال جلالة الإمام ويطوف يومياً في المدينة متفقداً شأن الأهلين ومتقبلاً شكاويهم ومطالبهم ويقف في أثناء جولته ويكلم كل إنسان يريد مخاطبته، ولعمر الحق هذه عادة جميلة توارثها جلالة الإمام وأولاده وعماله عن السلف الصالح فصار بإمكانهم بهذه الواسطة أن يصلوا إلى صميم أفراد الشعب ويدركوا مطالبهم وشكاويهم فلا يجسر موظف مهما كان شأنه أن يستبد بأمور الرعية لأن الشكوى ترفع إليه حالاً.

حديث مع الحاخام حسن جمل

في الليل أتانا حاخام اليهود وأسمه حسن جمل والغريب في أسماء اليهود باليمن أنها تشابه أسماء المسلمين (قاسم حسن مثلاً إسم إسلامي بحت ولكن اليهود يستعملونه ولا يرون في استعماله غضاضة).

وقد جرى بيني وبين هذا الحاخام حديث طويل الخص بعضه للقارىء الكريم لأنه يختلف عن أحاديث غيره من الحاخاميين الذين قابلتهم قبله بغرابته وصراحته:

(س) كم عدد اليهود في هذه المدينة ؟

(ج) يبلغ عددهم نحو مائتين وخمسين شخصاً.

(س) ماذا يتعاطون من المهن ؟

(ج) المهن اليدوية كالغزل والحياكة والنجارة والترقيع والحدادة والبناء إلى غير ذلك .

(س) متى جاء اليهود إلى اليمن ؟

(ج) جاءوا إلى اليمن بعد خراب الهيكل في أورشليم أي منذ ٢٢٢٥ سنة.

(س) ألم يوجد في اليمن يهود قبل مجيئهم من القدس ؟

(ج) كلا أن أصل يهود اليمن من أورشليم وليسوا من سكان اليمن الأصليين.

(س) كيف حالكم مع المسلمين الشوافع ؟

(ج) إن حالتنا معهم سيئة جداً فهم يشتموننا ويتعدون علينا .

(س) هل تسكنون وإياهم في حي واحد ؟

(ج) كلا نحن نسكن في حي منفرد وبعيد عن أحيائهم ولا نختلط بهم إلا عند مسيس الحاجة.

(س) ألا تشكون منهم إذا اعتدوا عليكم ؟

(ج) نعم نشتكي منهم وإذا أثبتنا اعتداءهم علينا فالعامل يجازي المعتدي بالسجن والجزاء النقدي ولكننا لا نرغب في الشكاوى ولا في الدخول مع أحد

القبائل في القال والقيل .

(س) وإذا اعتدى يهودي على يهودي فماذا يفعل المعتدى عليه ؟

(ج) يشكو أمره إلى الحاخام .

(س) لماذا لا يشكو أمره إلى العامل ؟

(ج) لأننا لا نحب كما ذكرت لك القال والقيل مع المسلمين .

(س) قابلت غيرك من الحاخامين في بلاد الزيود كصنعاء ويريم وذمار فلم أسمع منهم شكاوى من الزيود ؟

(ج) أنا لا أعرف صنعاء وغيرها من البلاد التي ذكرت ولا أعلم حقيقة موقف الزيود من اليهود ولكني سمعت من بعض يهود تلك البلاد بأن معاملة الزيود لهم هي معاملة ناهية (أي جيدة) ربما كانت أفضل من معاملة الشوافع لنا .

(س) وكيف كانت معاملة الترك لكم ؟

(ج) لا تختلف عن معاملة المسلمين فبعض الحكام كانوا ينصفوننا وبعضهم كانوا يستبدون بنا .

(س) هل هاجر منكم أحد إلى فلسطين ؟

(ج) كلا لم يهاجر منا أحد إلى فلسطين .

(س) هل يوجد بينكم وبين الصهيونيين في فلسطين علاقات ومخابرات ؟

(ج) نعم هم يكتبون لنا أحياناً وأحياناً يرسلون لنا جرائد ونشرات ولو أرسلوا لنا دراهم لرحل كثير منا إلى هناك .

(س) لماذا لا ترحلون من تلقاء أنفسكم ؟

(ج) أولاً لأنه لا يوجد لدينا المال الكافي لترحيلنا وترحيل عيالنا وثانياً لأن جلالة الإمام قد منعنا من الهجرة إلى فلسطين .

(س) ولكن أخبرني بعض الحاخامين أنه يوجد لهم أقارب في يافا والقدس فكيف سافر هؤلاء الناس ؟

(ج) إنهم يفرون فراراً دون علم الإمام وحكومته ويذهبون إلى عدن عن طريق البر ومن هنالك يسافرون إلى ارض الميعاد .

(س) وماذا تعنون بأرض الميعاد ؟

(ج) إن أرض الميعاد هي فلسطين وسيأتي يوم يعود فيه جميع اليهود في العالم إلى أرضهم ومكتوب عندنا في الكتاب بأن أرض الميعاد هي لليهود وأن البريطانيين سيملكونها ويملكون جميع العالم بضع سنين ولكن في نهاية الأمر سيظهر المسيح الموعود وينتهي بظهوره كل حكم غير يهودي على هذه الأرض.

(س) وهل يصبح جميع العالم عندئذ من اليهود ولليهود ؟

(ج) نعم هكذا جاء في الكتاب ففي ظهور المسيح الموعود سيتهود جميع العالم وتزول جميع السلطات والحكومات .

وقد كان هذا اليهودي الهرم البالغ من العمر عتياً يحدثني هذا الحديث وهو واثق من صحته كل الوثوق وقد أبديت له شيئاً من التهكم في أثنائه فكان لا يلتفت إلى تهكمي ويسترسل في حديثه ويستعين بعبارات صوته وبيديه وقدميه لاثبات صحة هذه النبوءة الواردة في كتابه القديم، أجارنا الله منها ومن شرها .

قضينا ليلتنا في إب على أحسن حال وفي الصباح نهضنا مبكرين كالعادة وسرنا من إب إلى مرحلتنا الأخيرة في بلاد الإمام وهي قرية ماوية وسارت بنا الطريق أولاً في وادٍ متسع : فيه أشجار ونباتات ثم صعدت في نقيل وعر لا يمكن للسيارات أن تجتازه ويقال له نقيل المحمول وتكثر على هذه الطريق سبل الماء والمساجد الصغيرة وبعد أن صعدنا إلى قمة نقيل المحمول هبطنا منه في نقيل آخر يقال له نقيل المحرس ثم سرنا في وادٍ سهل إلى أن وصلنا إلى قرية السياني



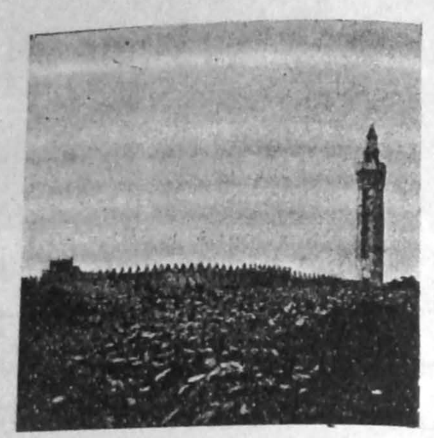
أحد الجسور المبنى من الاحجار المرصوفة بعضها فوق بعض بدون طين أو ما أشبهه وقد عبرنا فوقه فى مرحلتنا الى السيانى

وفي الطريق رأيت حقولاً كبيرة من نبات غريب لم أشاهد مثله من قبل فسألت أحد الرفاق عن إسم هذا النبات فقال هذا هو الحلبة فأخذت شيئاً منه فلم أجد فيه رائحة الحلبة عندنا بالرغم من أنه ينتمي إلى نفس الفصيلة. وفي قرية السياني الواقعة على مفترق طريقي إب وتعز وجدنا أمير جيش تعز السيد علي الوزير التابعة لحكمه هذه القرية قد أوفد مندوباً من قبله ليستقبلنا ويرحب بنا بإسمه وقد أعد لنا هذا المندوب غرفة للإستراحة وجلب لنا معه شيئاً كثيراً من الطعام فأكلنا من طعامه وشكرنا للسيد الوزير كرمه. وقد أتيح لي في رحلتي الأخيرة إلى اليمن أن أجتمع بالسيد علي الوزير اجتماعاً طويلاً وأقضي في ضيافته عدة أيام فوجدته رجلاً حازماً مقداماً نشيطاً كريماً عالماً بالسياسة وأحوالها ومطلعاً على الأحوال العالمية تمام الإطلاع وهو محبوب في تعز حباً جماً للطفه وعدله وتمسكه بما أمر الله به ونهى عنه رسوله (ص).

الطيارات الإنكليزية ترمي ماوية بالقذائف

وفي أثناء استراحتنا في المنزل تقابلنا مع رجل تركي الأصل بقي في اليمن بعد أن نزح الأتراك عنه ويدعى محمود مصطفى وروى لنا أنه كان في تعز وفي المنطقة التي ألقى عليها البريطانيون قنابلهم، قال طلب البريطانيون من الإمام أن يتخلى لهم عن الضالع وجليلة وقعطبة وألقوا بعض المناشير على تعز وذمار وماوية وإب يقولون فيها أنهم سيلقون قنابلهم على هذه البلاد إن لم تخل جنود الإمام الضالع وجليلة وقعطبة وحددوا اليوم السابع من شهر رجب سنة ١٣٣٦ موعداً للضرب ومن البديهي أن جنود الإمام ما أخلت هذه الأماكن لذلك جاءت في اليوم المذكور أسراب كثيرة من الطائرات وألقت قنابلها على جميع البلاد التي ذكرتها وألقت القنابل أيضاً على قرية شهاب الواقعة بالقرب من ماوية فقتلت ولدين وضربت قرية عمر الصعدة فجرحت أربعة من الجنود وأما في تعز المدينة الكبيرة الآهلة بالسكان فقد كانت الخسارة جسيمة جداً إذ بلغت نحو ٣٠٠ شخص بين قتيل وجريح ومعظمهم من الأولاد والنساء وفي يريم قتلت أمرأتين ورجلين وفي قرية النادرة أمرأتين. ومعظم هذه القرى التي ألقت الطائرات قنابلها عليها لم تكن داخلة في الإنذار وعلاوة على القاء القنابل كانت

الطائرات تمطر الناس على الطرقات العامة وابلاً من رصاص رشاشاتها وقد أحدث الرصاص ضرراً جسيماً بأبناء السبيل كما هدمت القنابل كثيراً من المنازل والدور في البلاد التي أنذرت والتي لم تنذر. وذكر لنا محدثنا بأن أهالي اليمن من أقصاه إلى أقصاه جزعوا جزعاً عظيماً من الطائرات وكانوا حينما يرونها يعدون أمامها ذات اليمين وذات اليسار واستولى الخوف والذعر على قلوبهم ونفوسهم.



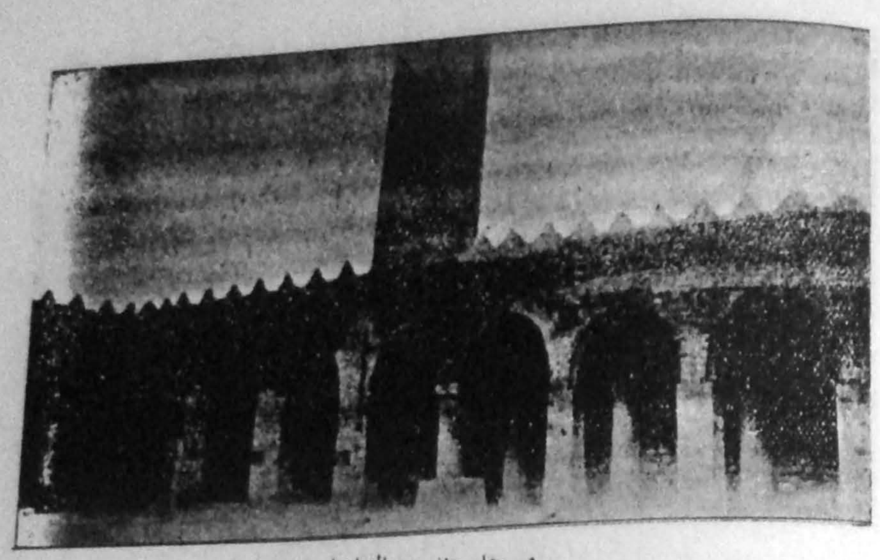
مسجد جند الذي بناه معاذ بن جبل أيام النبي ﷺ

في ماوية

بعد أن سمعنا حديث هذا الرجل بالسياني ركبنا بغالنا وسرنا نطلب ماوية والطريق أمامنا جيدة تصلح لسير السيارات وقد مررنا في أثنائها بجامع نخلان وهو جامع قديم مبني في قرية نخلان التي تبعد عن الطريق نحو كيلومتر واحد ومررنا أيضاً بجامع الجند وهو أول جامع بني في اليمن بناه الصحابي المشهور معاذ بن جبل عندما ولي اليمن منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة وهذان المسجدان يشبهان مساجد الحجاز وخاصة مسجد جند وهو كبير وجميل وله نوافذ كبيرة بادية للعيان ولكن أعداء الهواء والبرد سدوا هذه المنافذ طلباً للتدفئة فشوهوها كثيراً. وقد شاهدت في الطريق الى ماويه بعض الطبقات الحديدية على الأكام الى جانبي الطريق وشاهدت أيضاً الأشجار والأدواح الكبيرة يتضاءل حجمها كلما سرنا جنوباً الى أن تغيب مرة واحدة ويظهر عوضاً عنها هنا وهنالك نبات يشبه الصبر أو

الصبير عندنا. ورأيت أيضاً في الطريق بعض الأنهار والجداول وقد أقام عليها رجال الدولة العثمانية جسوراً حجرية في عدة أماكن وتجري مياه هذه الجداول والأنهار إلى السميير وهي عاصمة أحدى المحميات التسع.

وصلنا مساء إلى ماوية فوجدت وكيل العامل في انتظارنا فاستقبلنا أحسن استقبال وأخذنا إلى دار أعدت خصيصاً لنزولنا واعتذر عن عدم مجيء العامل لمقابلتنا بقوله انه مريض وطريح الفراش. فقلت عافى الله العامل وحفظه لكم ذخراً وعوناً فقال هل من حاجة أو خدمة ترومون قضاءها فقلت لا حاجة بنا إلى شيء وشكرته على حسن وفادته فقال استودعكم الله فقلت بأمان الله. وما كاد يغيب رسول العامل عنا حتى أتانا نجل العامل ومعه بعض الخدم يحملون لنا طعاماً وشمعاً وفي هذه الليلة اضطررنا أن نسهر على نور الشمع إذ لم نجد كازاً في الدار التي حللنا بها وكان رفقائي في هذه السهرة ابن العامل وأحد أقربائه ورجل ثالث من ماوية يقال له محمد حميد وقد ساح في بلاد أوروبا وقضى زمناً طويلاً في ربوعها ولما عاد إلى اليمن كان يقص بعض مشاهداته عن بلاد الغرب ولكن الناس كانوا يهزأون منه ولا يصدقونه لذلك أخذ يقص على جلسائنا الذين ازداد عددهم شيئاً فشيئاً عن عظمة دور أوروبا وبنائها وشوارعها وفنادقها وقطاراتها وسياراتها وعرباتها إلخ. وكان كلما استغرب القوم شيئاً ذكره يستشهد بنا ويطلب منا أن نبين الحقيقة لهم فكنا نصادق على كلامه وكانت الدهشة والاستغراب يستوليان على هؤلاء الناس البسطاء الذين لا يعرفون شيئاً عن المدينة الغربية وأني أغبطهم لعدم معرفتهم شيئاً عن هذه المدينة فسماعك بالمعيدي خير من أن تراه. وقد وجه لي غير واحد من هؤلاء الناس أسئلة كثيرة عن الطيارات وكيفية إتقاء شرها وأبدى الجميع اهتماماً زائداً بالمحاضرة الصغيرة التي ألقيتها عليهم بشأن كيفية مقاومة الطائرات وأما السبب في سؤالهم أياي هذه الأسئلة فلأن الطيارات كانت قد هاجمتهم قبل مدة كما رويت سابقاً وكانوا اليوم في خطر لمهاجمتها لهم ثانية وفي الحق أني رأيتهم قلقين جداً وكثير منهم صرحوا لي بأنهم سيهجرون القرى ويأوون إلى الأحراج والكهوف إذا هددهم الإنكليز بالقاء القنابل مرة ثانية.



مسجد جناء من الداخل

الوسيلة الناجعة في مكافحة الطيارات

وبعد أن ودعت القوم وانصرفوا رأيت من المناسب أن أكتب كتاباً لجلالة الإمام أولاً أشكره فيه على العطف السامي الذي شملني به كل مدة إقامتي باليمن وثانياً لأذكر له كيفية اتقاء شر الطائرات وبالفعل كتبت كتاباً مطولاً ذكرت فيه بعض الشروط الآتية لمقاومة الطائرات:

(١) نصب مدافع فوق القرى المهددة بالضرب ومقابلة الطائرات حين ظهورها بضربها بالقنابل مهما كانت عالية.

(٢) إعداد قوى كافية من الجند في أمكنة مرتفعة ومقابلة هذه الطائرات رصاص الرشاشات والبنادق. وبديهي أن الطيارين عندما يشعرون بالقذائف والرصاص حولهم يضطرون أن يبقوا مرتفعين في الفضاء وكلما زاد هذا الإرتفاع اصبحت إصابتهم للأهداف التي يلقون عليها قذائفهم متعذرة لا بل مستحيلة.

(٣) عندما يرى الناس طائرة قادمة نحوهم يجب أن يجلسوا إلى الأرض في أماكنهم ويجب أن لا يقوموا بأية حركة لأن الطيار لا يفرق بين الإنسان والصخر والأشجار إلا من حركة الإنسان.

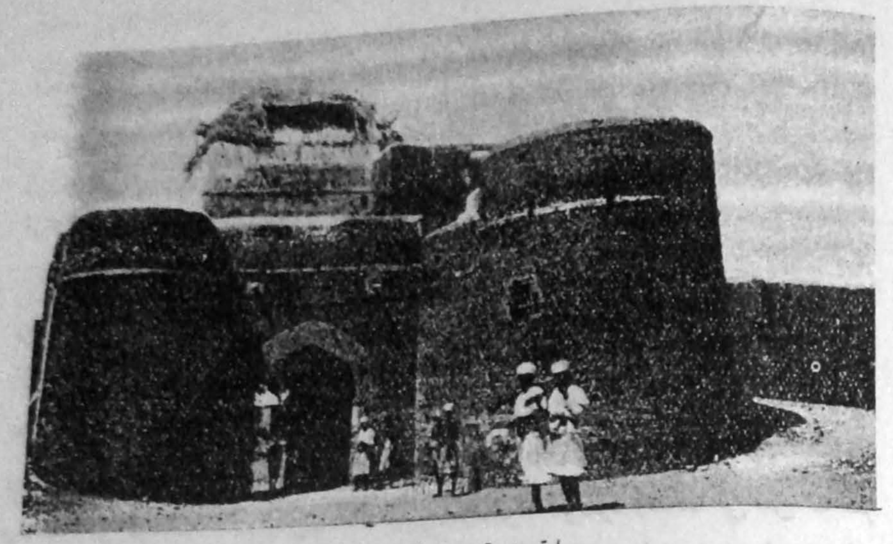


أحد الأسواق في مدينة تعز

٤ إذا كان الجيش ماشياً ورأى طيارة مرتفعة أكثر من الف متر فيجب عليه أن يقف بمكانه ولا يتحرك إلا بعد أن تغيب عن أنظاره. وإذا كانت الطيارة أدنى من الف متر فيجب عن الجند أن تنبطح إلى الأرض حالاً. لأن الطيار لا يمكنه أن يحقق الهدف متى كان على علو ١٠٠٠ متر وأما إذا كان أدنى من الف متر فبإمكانه أن يحقق الهدف أكثر فأكثر.

(٥) على الجند والأهلين في المناطق المهددة بالضرب أن لا يلبسوا على رؤوسهم وأجسادهم ألبسة ملونة بالألوان الزاهية كالأحمر والأصفر بل يجب أن يلبسوا البسة قريبة من لون أرضهم وأفضل الألبسة في مثل هذه الأحوال هي ذات اللون (الكاكي) التي يلبسها الجنود في البلاد المتمدنة. ومن دواعي سروري أني علمت عندما زرت اليمن في السنة التالية أن جلالة الإمام اهتم بكتابي وعمم صورته على جميع القطع العسكرية والعمال.

في الصباح نهضت مبكراً ودفعت بكتابي إلى جلالة الإمام لأحد الجنود وقلت له يجب أن تسلم هذا الكتاب من يدك إلى يد مولانا الإمام فقال سمعاً وطاعة وودعني الجنود وعادوا أدراجهم إلى صنعاء لأن ماوية هي آخر حدود



بوابة مدينة زبيد القريبة من تعز

الإمام ولا يجوز للجند أن تتخطاها إلى حدود المحميات ولكن يسمح للأهلين (السفيل) أن يروحوا ويغدوا بين اليمن والمحميات دون أن يعترضهم معترض. بعدما ودعت الجند شعرت بوحشة شديدة فنزلت من الدار واخذت أطوف في القرية فإذا بها قرية صغيرة حقيرة وهي تابعة للواء تعز وعليها عامل من قبل أمير جيش تعز وفيها مركز للتلغراف ودار للجمرك ودار الجمرك كبيرة وفسيحة تتوقف فيها القوافل في ذهابها وإيابها إلى المحميات حيث تؤدي رسوم البضائع التي تجلبها من عدن .

زرت وكيل العامل في مقامه وطلبت إليه أن يستأجر لي بعض البغال لتنقلني إلى لحج وفي الحال أمر حضرته من يلزم فجلبوا لي عدة بغال انتقيت منها ثلاثاً واحداً لركوبي وإثنين لتحميل حوائجي وأخذتها وسرت إلى الدار فحملنا الحوائج على إثنين وامتطيت الثالثة وسرت مع رفقائي الجدد وكانوا ثلاثة من شوافع ماوية في طريقنا إلى المسيمير .

في الطريق إلى المسيمير .

لم نكد نخرج من ماويةحتى تبعنا أناس كثيرون كانوا يريدون السفر إلى

لحج أيضاً وكان بينهم شاب تدل ملامح وجهه على كونه غير يماني فاختلطنا بهم وسرنا سوية فاقترب مني هذا الشاب وقال السلام عليكم بلهجة تبدو فيها نغمة تركية فقلت وعليكم السلام. يظهر لي أنك يا حضرة الأخ لست يمانياًفقال كلا أنا تركي الأصل وقضيت زمناً طويلاً في اليمن في الجيش العثماني وبعد ارتحال العثمانيين بقيت في اليمن واتخذت مدينة تعز موطناً لي وصرت أتعاطى التجارة والآن أنا ذاهب إلى عدن لجلب بعض البضائع التجارية. فقلت أهلاً وسهلاً بك إن شاء الله ستكون لنا خير الرفيق على هذه الطريق لأني أنا أيضاً سائر إلى عدن. فاستأنس الرجل بكلامي وسار إلى جانبي وحدثني كثيراً عن معادن اليمن وخاصة الفحم الحجري في منطقة قريبة من تعز يقال لها الحجرية قال إن الفحم والكاز موجودان هنالك وإن الأهلين يستعملونه للوقود وشكا لي من تأخر اليمانيين وعدم ميلهم للأخذ بالمدنية الحديثة وتمسكهم بكل شيء قديم إلى غير ذلك من الأمور. فسألت هذا الرجل عن اسمه فقال إنه يدعى حسين جاويش. سرنا مسافة ساعة ونصف ساعة في وديان وتلال شاهدت في بعضها طبقات من الحديد وعروقاً من الكورتز ويكثر في هذه الطريق أنواع صغيرة من الشجر تصلح للوقود وهي غير مثمرة. وصلنا إلى الدريجة بعد مسير ساعتين من ماوية والدريجة هي أول حدود سلطان المسيمير وقبل أن أصل إليها بمسافة وجيزة التفت إلى الوراء نحو اليمن معقل النسور والأسود ونفسي ملأى بالذكريات الجميلة اللذيذة التي تركتها بين جوانحي هذه السياحة الطويلة فشعرت كأني أغادر أهلي ووطني وبيتي وأودع أمي وأبي وكأن لسان حالي يردد قول الشاعر العربي:

ودعته وبودي لو يودعني طيب الحياة وأني لا أودعه

ولا أبالغ إذا قلت أني لم أشعر يوماً من أيام حياتي بلذة لا تفوقها لذة ألا في الأيام التي قضيتها في بلاد العربية السعيدة بالرغم من عدم وجود أي نوع من أنواع التسلية وبالرغم من وجودي بعيداً عن أهلي ووطني ولو خيرت اليوم بالذهاب في رحلة إلى أمريكا أو أوروبا لفضلت الذهاب إلى صنعاء على الجميع. فصنعاء فيها البساطة والصدق والأمانة والحرية والاستقلال وجوها

مشبع بالتقى والطهر والعفاف والتمسك بشريعة الله والمحافظة على سنة الرسول ﷺ بخلاف أجواء أمريكا واوروبا الموبوءة بجميع أنواع الأوبئة القتالة من فحش وكذب وزندقة وتجذيف وكفر.

وصلنا إلى الدريجة بدون عناء لسهولة الطريق والدريجة قرية صغيرة حقيرة وهي أول قرى السلطان الحواشب إحدى المحميات التسع ويدعى سلطانها محسن بن علي بن مانع وجلسنا في سمسرة صغيرة تناولنا فيها شيئاً من الشاي واسترحنا قليلاً ثم تابعنا سيرنا إلى المسيمير وهي عاصمة الحواشب ومررنا بطريقنا بقرية صغيرة تدعى الملحة فلم نقف بها بل تابعنا سيرنا وكان عددنا يأخذ بالإزدياد شيئاً فشيئاً وفي هذه البلاد يشعر المرء بالخوف من التشليح ولذلك تسير القوافل مجتمعة لتزداد قوة وتسير في النهار فقط ولا يجسر أحد على السير في الليل خشية التشليح وعندما خرجنا من ماوية كنا نفراً نعد على الأصابع ولكن لما وصلنا إلى المسيمير بلغنا أكثر من مائة شخص وقد تحدثت إلى بعض الرفاق الجدد الذين انضموا إلينا في الطريق وكان بعضهم آتياً من بلاد المشرق كما يقولون أي من بلاد سبأ ومأرب وكانوا يحملون معهم كثيراً من العاديات والدراهم القديمة والتماثيل المصنوعة من المرمر في أيام حمير وهم يحملون هذه الأشياء إلى عدن ليبيعوها في أسواقها ويا حبذا لو كان صاحب الجلالة الإمام يحيى يهتم بهذه العاديات ويمنع إخراجها من اليمن بصورة قطعية ويؤسس معرضاً في صنعاء يجمع فيه كل ما تصل إليه يده من هذه الأنتيكات التي لا تقدر بثمن لو حفظت وجمعت بعضها إلى بعض فيتألف منها مجموعة نفيسة لا مثيل لها في العالم.

حديث مع السلطان محسن بن علي
نمشي مع الذي يملأ كفنا قروشاً! !

قبل أن نصل إلى المسيمير ببرهة وجيزة قابلنا السلطان محسن بن علي بن مانع مع حاشيته المؤلفة من ابن عمه وهو شاب وعمه وهو رجل في مقتبل الشباب تدل هيئته على أنه من أصل زنجي وبعض الرجال من أبناء عشيرته ولما

رآنا السلطان ترجل عن «صهوة» فرسه وأقبل نحونا فترجلنا نحن أيضاً وسرنا نحوه وحييناه بقولنا السلام عليكم فأجاب وعليكم السلام والرحمة والإكرام ومد يده مصافحاً على الطريقة الغربية فصافحناه وقلنا له إننا مسرورون برؤيته فقال علمت أنكم آتون إلينا من قافلة مرت بنا اليوم فجئت لاستقبالكم، فأهلاً وسهلاً بكم، فشكرناه على هذا اللطف وأبدينا أسفنا لتجشمه هذه المشقة في سبيلنا فقال أنتم ضيوفنا وأكرامكم فرض واجب علينا، هيا تفضلوا امتطوا هذا الجواد وأشار إلى جواده فرفضت ذلك فأصر عليَّ كل الإصرار إلى أن امتطيت الجواد وامتطى حضرته جواد أحد أتباعه وسرنا نحو المسيمير في هذا الموكب السلطاني العظيم ! فاستقبلنا أهل المسيمير خارج القرية ثم مشوا أمامنا إلى أن وصلنا إلى دار السلطان وهي دار متوسطة الحجم ومبنية من الحجر والطين كدور اليمن فدخلناها دخول الفاتحين وصعدنا في سلم حجري إلى الدور الثاني حيث قدموا لنا الشاهي والقشر وما كدنا ننتهي من شرب القشر (أي قشر البن) حتى تركنا السلطان وانصرف قائلاً ربما تريدون أن ترتاحوا قليلاً الآن وسنعود إليكم بعد الإستراحة إن شاء الله شكرنا هذا السلطان الديمقراطي اللطيف على حسن وفادته وكرمه ولطفه وودعناه حتى أول الدرج فأصر علينا بالرجوع فرجعنا إلى غرفتنا ونحن نفكر بدماثة أخلاق هذا الشاب الذي لم يتجاوز سنه السبعة عشر ربيعاً والذي يطلق عليه إسم سلطان وهو عاري الجسدماخلاً مئزراً يستر به نفسه وعمامة ملونة يضعها فوق رأسه وهكذا كان حال عمه وحاشيته فجميعهم كانوا عراة الأجسام ما خلا المآزر وكان معظمهم يحملون البنادق اليونانية القديمة ويسميها العرب عندنا (بأم أصبع) وأما صحة هؤلاء الناس وقوتهم فحدث عنها ولا حرج فهم بالرغم من الحرارة الشديدة وبالرغم من قربهم لخط الإستواء يتجولون تحت أشعة الشمس المحرقة ولا يصابون بضربة الشمس أو غيرها من الأمراض، ولا يوجد في أية ناحية من النواحي التسع المحية لا دواء ولا طبيب ولا مدرسة ولا مكتب ولا هم يحزنون. وفي الليل أتانا السلطان محسن وعقيب وصوله جلبوا لنا العشاء فأكلنا وإياه وبعض خاصته الذين أتوا في معيته وقضينا سهرتنا سوية وتحدثت إلى السلطان الشاب بأحاديث كثيرة هذه خلاصتها:

(س) كم عدد سكان سلطنتكم ؟

(ج) لا أعلم لأننا لا نحصي النفـوس.

(س) كم مقاتلاً يمكنكم أن تجندوا ؟

(ج) جميع القبائل يمكن تجنيدها عند الحاجة.

(س) وكم عدد رجال هذه القبائل الممكن تجنيدها ؟

(ج) عندنا نحو عشرة أو خمسة عشر ألف مقاتل.

(س) هل يوجد عندكم جيش نظامي ؟

(ج) لا يوجد عندنا جيش نظامي بل كل الناس جيش وقت الحرب.

(س) لماذا تسمحون لرعيتكم وأتباعكم أن يخلوا بـالأمن ويسلبوا القـوافل في الطرقات؟

(ج) نحن لا نسمح لهم ولكن بعض الأشقياء يقومون بهـذه الأعمال ومتى عرفناهم نؤدبهم.

(س) كيف أنتم والإنكليز ؟

(ج) الإنكليز أصحاب أبينا من قبلنا ونحن وإياهم أصحاب وهم يدفعون لنا معاشاً كل شهر وإذا ذهبنا إلى عدن يطلقون المدافع حين وصولنا وذلك للترحيب بنا !

(س) كيف حالكم مع الإمام؟

(ج) حالنا حسنة لا أخذ ولا عطاء نحن في أرضنا وعمال الإمام في أرضه فإذا تجاوزوا على حدودنا نحاربهم، والله نحاربهم حتى نفنى جميعنا.

(س) هل يجوز لكم وأنتم مسلمون أن تحاربـوا إخوانكم المسلمين ؟ ألا تخافون الله ومن يوم الله !

(ج) والله نخاف من الله ومن يومه ولكن عمال الإمام قوم ظلام لا يخافون الله ونحن لا نريد أن نعاملهم بشيء .

(س) هل تعرفون الإمام وهل زرتم صنعاء ؟

(ج) كلا لا نعرف صنعـاء ولا زرنا الإمـام ولكننا سمعنـا الشيء الكثير من أصدقاء الإمام ومن أعدائه والكل مجمعون على أنه رجـل متدين وطيب القلب

ويحب الرعية ولكن عماله ليسوا مثله فلو كان عماله مثله لكنا تفاهمنا نحن وإياهم .

(س) ألا تفضلون عمال الإمام العرب المسلمين على الأجانب الإنكليز ؟

(ج) نحن لا نفضل واحداً على واحد وقد عقد آباؤنا مع الإنكليز اتفاقات وما دام الإنكليز محافظين على هذه الإتفاقات فنحن معهم .

(س) وإذا اتفق الإمام معكم ألا ترغبون أن تتفقوا معه وهو أفضل من الإنكليز ؟

(ج) والله نتفق معه ونحارب الإنكليز أيضاً لأننا لسنا قبيلة أحد وليس علينا سلطان فمن يملأ كفنا قروشاً فهو سلطاننا الحقيقي .

(س) إذا دفع لكم الإمام قروشاً فهل تخضعون له !

(ج) نعم نخضع له ولكن بشرطين أولاً أن لا يطلب منا رهينة وثانياً إذا اتينا لصنعاء يجب أن يطلقوا حين وصولنا مدافع .

(س) هل تتقنون الكتابة والقراءة ؟

(س) كلا ! لا نكتب ولا نقرأ.

(س) كم لكم من العمر ؟

(ج) لا نعلم !

(س) هل يوجد عندكم مدارس ؟

(ج) كلا لا يوجد.

(س) هل يوجد في المساجد أئمة تعلم الطلبة ؟

(ج) نعم يوجد في كل مسجد إمام يعلم «الجهال» أي الأطفال القراءة والكتابة

إمام اليمن يقول

أفضل أن آكل أنا وشعبي القصب
على أن أرى أجنبياً واحداً في هذه البلاد !

سألني السلطان أسئلة كثيرة عن الإمام وعلاقاته بالإنكليز فقلت له: إن الإمام لا يعترف بسلطة الإنكليز في اليمن وفي المحميات (حتى عدن) ويعتبر عدن جزءاً متمما لليمن اقتطعه الإنكليز من اليمن بدون حق وهو يرقب الفرص لكي يستعيد عدن وجميع المحميات، فقال: ذلك صعب جداً ولا يمكن للإمام أن يقاتل «الصاحب» أي الإنكليز لأن الصاحب عنده طيارات وقروش وجميع رجال القبائل تمشي معه من أجل قروشه وتقاتل الإمام ورجاله. ثم سألني من أي بلاد أتيت وما هو أصلي ؟ فرويت له قصتي وقصةبلادي باختصار فتعجب كثيراً وكاد لا يصدق ما يسمع. ثم قال: وهل تريد أن تبقى في عدن ؟ فقلت: كلا سأقضي بضعة أيام إلى أن أجد سفينة إلى بور توفيق فأسافر عليها. فقال: لا شك أنك ستقابل «الصاحب» في عدن أي حاكم عدن الإنكليزي فقلت: ربما أقابله. فقال: سوف يسألك عني بدون شك فالرجاء أن تحسن الشهادة بي. فقلت: إن شاء الله.

وبعد هذا الحديث تركني السلطان بغرفتي وذهب إلى دار الحريم فنهضت من مقعدي وذهبت إلى الفراش لأنام فلم أتمكن أولاً من شدة الحر وثانياً لهجوم البق عليَّ هجوماً عنيفاً فحملت فراشي وصعدت إلى السطح ووضعته هنالك وأردت أن أنام فلم أتمكن من النوم أيضاً لشدة الحر وصرت أفكر في السلطان محسن وأضرابه من سلاطين المحميات وهم ليسوا في الحقيقة إلا شيوخ قبائل شقهم الإنكليز بعضهم على بعض وصاروا يستعملونهم مطايا لتنفيذ إرادتهم

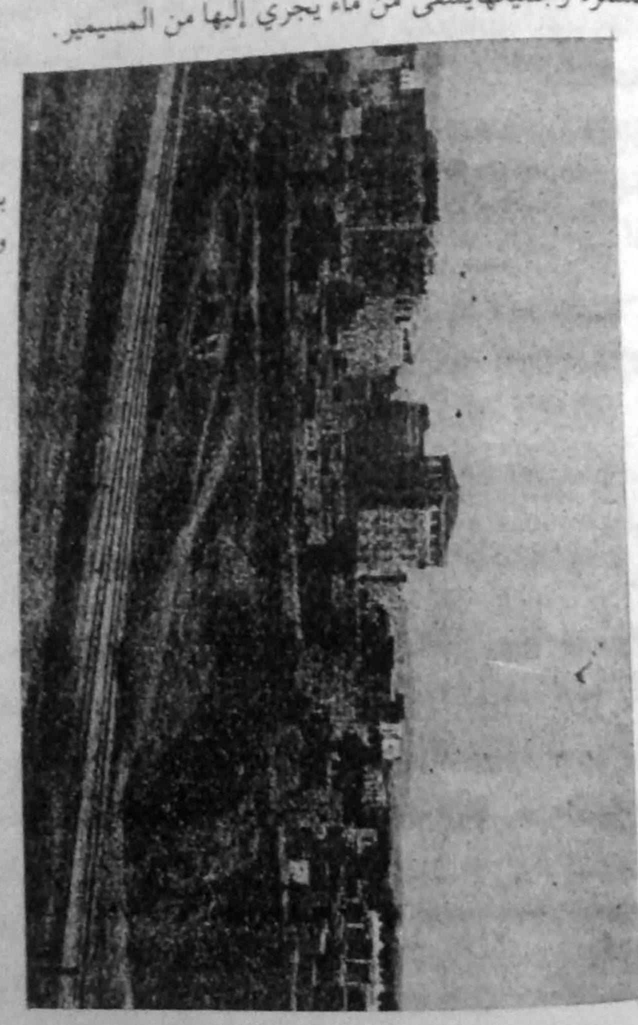
حن
؟
سات
من
علينا
اتينا
قراءة

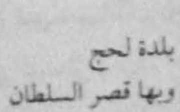
وغيابتهم فخصصوا له نصف نفوسهم وجهلهم وطمعهم في المال. ومر في دهني وقتئذ فوق حلاته لإمام في مرة بينما كنت أتحدث وإياه عن الاجانب تأكد يا مرية بأني لو حاول الاجانب دخول اليمن لقاتلتهم الى أن نفنى عن آخرنا وأني أصب لكل وشعبي التعصب (أي قصب الذرة) مدى الحياة على أن أرى أجنبياً واحداً في هذه البلاد.

قضيت ليلتي على أسوأ حال ولم يذق جفني الكرى وكنت تارة أراقب الدب الأكبر وطوراً أبحث عن الدب الأصغر والثريا والميزان في السماء ولما بزغ الفجر نزلت الى الدار فوجدت الجميع نياماً وأبواب الدار مغلقة فعدت أدراجي إلى السطح وصرت أترقب قيام السلطان أو أحد من حاشيته ولكن السلطان حفظه الله تأخر في النوم إلى ما بعد طلوع الشمس ولم يجسر أحد من الخدم أن ينهض من فراشه لئلا يزعج السلطان وأخيراً سمعته ينادي بعض خدمه فانفرجت نفسي وراح الكرب عني ونزلت في الحال إلى فناء الدار وطلبت إلى أحدهم أن يفتح لي الباب ففتحه وخرجت إلى القرية فإذا بها قرية حقيرة لا تزيد منازلها على العشرين منزلاً مبنية من الطين والحجر وبعضها دوران وبعضها ثلاثة أدوار ولها جامع صغير لا يسع أكثر من خمسين شخصاً. وبعد طواف قصير عدت إلى الدار فوجدت السلطان في انتظاري وبعد التحية والسلام جلسنا على الأرض فجلب لنا بعض الخدم الطعام فأكلنا وشربنا واستأذنت السلطان أن يسمح لي بالسفر فأذن بذلك وأمر لي بسيارته الخاصة أن تنقلني إلى لحج فشكرته على هذا اللطف وعندما امتطيت السيارة مع بعض الرفاق كحسين جاويش وغيره ذكرني السلطان بلزوم الثناء عليه في حضرة حاكم عدن فوعدته خيراً واشمأزت نفسي من هذا التكليف القبيح.

سارت بنا السيارة من المسيمير تنهب الأرض نهباً فخلت نفسي في حلم إذ من البديهي أن يسر الإنسان عند ما يعود إلى ركوب السيارات بعد سفر طويل شاق على البغال ولكن لم يطل سرورنا للأسف! - سير سياراتنا بسرعة، لأننا وصلنا الى نقيل وعر فوقفت سيارة السلطان في النقيل واضطررنا إلى أن ننزل منها وندفعها بأيدينا حتى وصلنا إلى أعلى النقيل وبالرغم من قصر هذا النقيل فقد

استغرقت عملية الدفع معنا نحو ساعة من الزمن ولما بلغنا قمة النقيل امتطينا السيارة ثانية فاندفعت بنا إلى الأمام بسرعة زائدة وكانت طريقنا في البدء تسير في الجبال ثم هبطنا إلى الوديان والسهول ومررنا بقريتي الخندق والدكيم وشاهدنا في أثناء الطريق حقولاً مغروسة ذرة ورأينا ينابيع صغيرة من الماء تنبع في بعض الوديان وتسير مسافة قليلة ثم تغور في جوف الأرض ثانية وفي الدكيم رأينا خطوطاً تلغرافية مدها الإنكليز أيام حربهم مع الترك فسرنا إلى جانبها إلى أن وصلنا إلى الشقعة ويوجد في الشقعة معسكر للبريطانيين وشاهدت في وادي الشقعة شيئاً كثيراً من الموز والنخيل والذرة وبعض الأشجار المثمرة وغير المثمرة وجميعهايسقى من ماء يجري إليها من المسيمير.





بلدة لحج
وبها قصر السلطان

وصلنا إلى لحج في ساعتين ونصف ساعة ولحج هي أكبر المحميات التسع وأعظمها واجتزنا جميع أراضيها في ساعتين ونصف ساعة.

ضحكت من هذه السلطنات أو المحميات التي يجتازها الإنسان بالسيارة في بضع ساعات وتذكرت في نفس الوقت الدول المشمولة بالإنتداب الفرنسوي في سورية وقهقهت من الضحك لما مر هذا الخاطر ببالي فسألني الرفيق حسين جاويش ماذا أضحكك فقصصت عليه قصة الدول المشمولة بالإنتداب الإنكليزي والفرنساوي فكاد يغمى عليه هو أيضاً من كثرة الضحك.

ذهب سائق سيارتنا في لحج إلى سراي السلطان وكان يحمل للسلطان كتاباً من نسيبه سلطان المسيمير فطال غيابه كثيراً وأخيراً أتى وعلامات الغضب بادية على وجهه فقلت له ما أغضبك يا صاحبي فقال أن السلطان محسناً بعث بكتاب إلى نسيبه سلطان لحج السلطان عبد الكريم آل فضل يطلب فيه منه أن يدفع لي (أي للسائق) مبلغ ١٥ ريالاً لكي ابتاع بنزيناً لأجل عودتي إلى المسيمير ولكن السلطان عبد الكريم رفض أن يدفع لي شيئاً. فقلت لا بأس يا صاحبي أنت أوصلتنا إلى هنا وصار من الواجب علينا أن نقوم نحن بشراء البنزين لك ونفحته في الحال مبلغاً من المال لشراء البنزين وشراء هدية صغيرة للسلطان محسن وودعناه وانصرفنا.

وضعنا حاجاتنا في سمسرة كبيرة وطفنا قليلاً في البلاد ومررنا بسراي السلطان وهي جميلة وكبيرة وبناؤها متقن وطفنا في الأسواق فوجدناها نظيفة ومرتبة وفيها بضائع أجنبية ومحصولات وطنية، ولحج هي أكبر المحميات التسع وتدعى عاصمتها الحوطة وعدد سكانها نحو ٣٥٠ ألف نفس ومساحتها ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف كيلومتر مربع وأهم بلدانها الحوطة والشقراء ولحج وأمين وأنصاب والمسيمير وحبال وأعظم قبائلها آل الفضل والعوالق واليوافع والعبادلة والحواشب والصبيحة وجميع سكانها من المسلمين ومعظمهم من الشوافع، ويوجد أقليات ضئيلة من سائر المذاهب كالاحناف والجعفريين والإسماعيليين والزيود، وأما حاصلات لحج فالحبوب بأنواعها والجلود والبن، ولكن حاصلاتها لا تقوم بنفقات حكومتها وسلاطينها ولذلك يتناول سلاطين لحج وسلاطين جميع

المحميات مشاهرات من البريطانيين وتبلغ مشاهرة سلطان لحج نحو ۳۵۰۰ روبية وهي أكبر مشاهرة يدفعها الإنكليز للسلاطين وتبلغ اقل مشاهرة نحو أربعمائة روبية يتناولها سلطان الضالع. وأما بقية المحميات فهي الصبيحة والعوالق والواحدي والعوازل واليوافع والعلوى والقطيبي والحواشب.

ولهذه القبائل والبلاد شيوخ كثيرون كل شيخ يعتبر نفسه سلطاناً ولا يخضع لنفوذ أكبر منه من المشايخ أو السلاطين بل يخضع رأساً لسلطان الجميع وهو حاكم عدن الإنكليزي ويتناول منه مشاهرة في رأس كل شهر وينفذ أوامره حسب مشيئته وألا يكون عرضة للأسقاط وقطع الراتب وهذا مما جعل هؤلاء السلاطين يضيعون عزة أنفسهم وشممهم وصاروا عبيداً أذلاء للأجنبي يستعملهم لتنفيذ غاياته ويسلط بعضهم على بعض ويدس بينهم الدسائس حتى لا تجتمع لهم كلمة ولا يطلبون متحدين أي طلب.

بعد أن أتممت طوافي في مدينة لحج أخذت سيارة إلى عدن فوصلت إليها في نحو ساعتين من الزمن وذهبت تواً إلى فندق «كراند أوتيل» واضطررت أن انتظر في عدن ثلاثة أيام حتى وجدت سفينة تنقلني إلى بور توفيق.

ومنها عدت رأساً إلى القاهرة براً عن طريق السيارات.

الخاتمة

نصح وتحذير

أرى من واجبي الوطني والديني - كرجل مسلم عربي - أن ألفت نظر حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى حميد الدين ورجاله الأفذاذ وشعبه الكريم إلى المطامع الأجنبية في اليمن، فقد لاحظت في رحلاتي المتعددة في داخل اليمن وخارجه أن أنظار بعض الدول الاستعمارية متجهة نحو هذا القطر السعيد أولاً لمركزه الجغرافي الحاكم على البحر الأحمر وبوغاز باب المندب وعدن، وثانياً لثروته الزراعية والصناعية. وأظن أن معظم أهل اليمن يجهلون أساليب الاستعمار والمستعمرين لأنهم لم يشاهدوه ولا ابتلو به - ولله الحمد - كما شاهدناه نحن الذين نشأنا وتربينا في مهده منذ نعومة أظفارنا. وأني أذكر على سبيل التمثيل أن الدول الاستعمارية حينما تطمع في قطر من الأقطار تبدأ بإرسال جنودها الكشافة لتمهيد الطريق باسم الإنسانية والشفقة والرحمة والدين، أي أنها ترسل بعثات من الأطباء وتبني مستشفيات حباً في المحافظة على الصحة العامة !! إلخ. ، ثم تبعث بالمبشرين والمعلمين فيبنون مدارس وكنائس ويبدأون بنشر سمومهم بين الناس على اختلاف طبقاتهم غيرة على الدين ونشر التعليم !! هذه هي أول فتوح الاستعمار وهؤلاء هم طلائعه. ومتى تأسست المدارس والكنائس والمستشفيات يصير للدولة صاحبة الشأن الحق في المحافظة عليها وعلى رعاياها فكلما بدرت بادرة في البلاد ترى هذه الدولة تتدخل في الأمر تحت ستار المحافظة على أرواح رعاياها وأموالهم ومؤسساتهم. وأنا لا أنكر أن اليمن في الوقت الحاضر خلو من هذه البعثات إلا أنه ليس خلواً

من بعض رجال الاجانب وأذنابهم المندسين في الحديدة وصنعاء تحت أسماء مختلفة وغايات متباينة. فإلى هؤلاء الناس الفت نظر حضرة صاحب الجلالة الإمام لأنهم هم طلائع المستعمرين في بلاده.

هذه هي نصيحتي لحضرة صاحب الجلالة الإمام. وأما نصيحتي إلى كتاب العرب وصحافتهم فهي أن لا يؤخذوا بالدعايات والأخبار التي تنشر عن اليمن بين حين وآخر لأن معظمها لا بل كلها مستقاة من الأجانب وأذنابهم الذين يكيدون لهذه البلاد ويشوهون سمعتها لشيء في نفوسهم. ويعلم الله أني ما قصدت من تحرير هذه الرحلة إلا الخدمة العامة والله من وراء القصد؟

سبأ والوجوه تعنو إلى الله

للشاعر الخالد أبي الطيب محمد بدر الدين الخطيب

رجف النور في غضون الكتاب ... ومشى في السطور ركب الصحاب
في رواق من الضياء على اللبـ ... ـل يقود الركاب خلف الركاب
يتعالى الهباء فيه مشوبـاً ... بـظلال الأجيال تحت التراب
هات حدث نزيه عن دار بلقيـ ... ـس وعن سورها الرهيب العجاب
هل رأيت الغمام في فلق الصبـ ... ـح ووهج الأنوار عند الغياب
وعليها جناح هدهد يزجى ... بحديث الأصحاب والأحباب
وتهاوى إلى فؤادك موج ... من خلال الضحى وخلف الخراب
فترددت بالشجون وفي نفسـ ... ـك صوت يضج خلف الحجاب
سبأ والوجوه تعنو إلى اللـ ... ـه وفي الظل سجدة الأحقاب
أين سوق تضج فيه النهارا ... ت وأنوار ليله كالحباب
والصروح الممردات تراءى ... غرفاً بينها خصىء وخابى
أين من ظلك الهياكل والكهـ ... ـان عند الشروق رأد الغياب
عبدوا الشمس سادرين وضجوا ... من رؤى الشمس في غضون السراب
أفغموا بالبخور والعزف قوماً ... في خياشيمهم مكان الصواب
الأهازيج والتمائم تزجي ... مبهمات على فراغ القباب
والنفوس المشوقات إلى الحـ ... ـق حيارى في جسمها والاهاب
خانها العقل خانها العلم خانـ ... ـها الظلم فهانت لتمتمات كذاب
والذي يؤثر الفتون تغالبـ ... ـه على سره وحسن المآب

هات حدث عن سد مأرب والليـ … ـل عباب على سواد العباب
وخرير المياه فيه حبيس … من هدير يصم أذن الروابى
والبقايا من الفنون تراءت … في جدار مروّع مرتاب

* * *

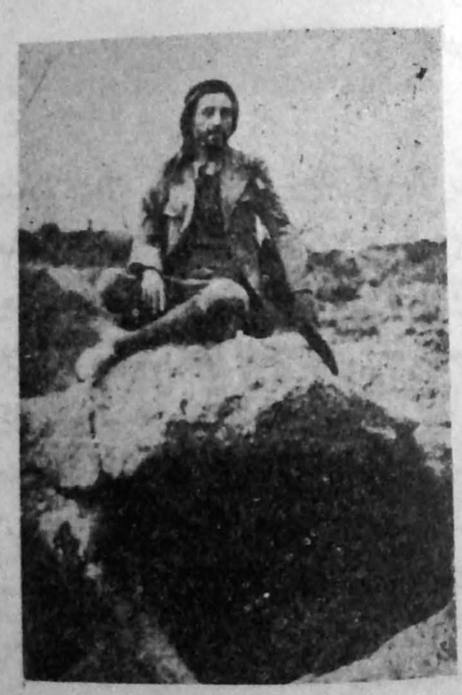
هات حدث عن الإمام أبي أحـ … ـمد والجيش في فسيح الرحاب
وزئير الجنود بالزامل الزجّـ … ـاف بالنار والتماع الحراب
واسأل الله أن يعيد الليالي … مشروقات على سواد اليباب
ويرد التاريخ بعد ارتياب … ويرد الأحباب بعد غياب

* * *

هات حدث ففي الحديث شجون … وعجاب على حديث عجاب
ضقت ذرعاً فرحت تضرب بالأر … ض هصوراً وتزدري بالصعاب
رحت والوجد في فؤادك يزجي … بك في كل مهمه غيّاب
فتعالت بك المراكب في البحـ … ـر ذهاباً ونهنهت في الاياب
يا صديقي إليك مني التحيا … ت وآي الثناء والإعجاب
آية العلم والجهاد بيمنا … ك وظل السيوف حبر الكتاب

الإذن بالسفر إلى مارب

قبل زيارتي اليمن للمرة الأولى في أوائل سنة ١٩٢٧ كنت أطالع بعض ما كتبه الغربيون والشرقيون عن اليمن استعداداً لتلك الرحلة ولكني ويا للأسف لم أجد ضالتي ولا ظفرت بالمعلومات الكافية عن هذا القطر العربي السعيد فعولت على أن أبحث بنفسي عن حال هذه البلاد عندما أصل إليها وطبقت بالفعل هذه الفكرة منذ وطئت قدماي ميناء الحديدة إلى أن غادرتها وكنت أسجل كل يوم مشاهداتي في دفتر خاص وقد نشرت هذه الرحلة في جريدة الجزيرة الغراء.



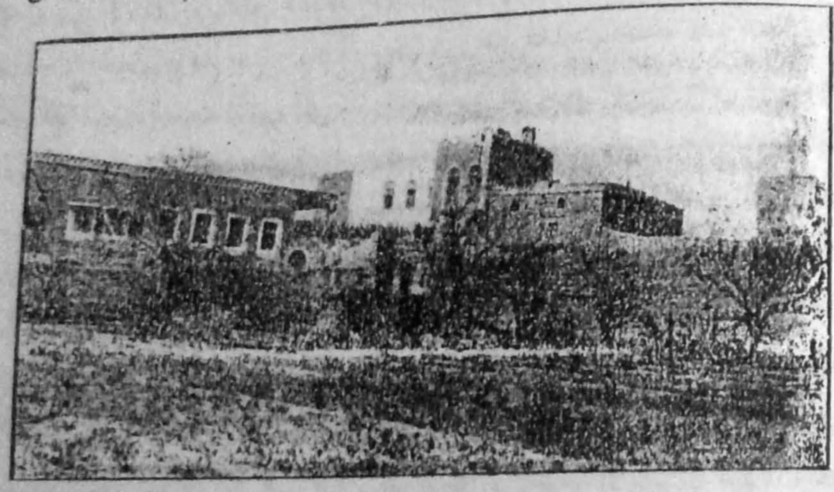
نزيه بك وهو جالس في مقبرة حميرية

وعندما وصلت إلى صنعاء في تلك الرحلة قابلت واحداً من أشراف مأرب وقص علي قصصاً خيالية عند السد وعن مأرب وعن محرم بلقيس وجامع سليمان والكنوز المسحورة والجرف المسكون بالجن إلخ إلخ. وكنت قد طالعت في تاريخ العرب قبل الإسلام للمرحوم جرجي زيدان شيئاً عن هذه الأماكن فتحرك فيّ حب الاستطلاع والاستكشاف للمغامرة والسفر إلى هناك فطلبت من جلالة الإمام أن يسمح لي بزيارة تلك البلاد بصحبة هذا الشريف فقال لي جلالته هذا ليس بالإمكان فسكتّ على مضض وزاد بي الشوق إلى رؤية تلك البلاد ولكن لم يتم لي ما أردت وغادرت صنعاء وفي نفسي غصة لعدم تمكني من القيام بهذه الزيارة.

ثم سافرت إلى اليمن في السنة التالية وطلبت إلى جلالة الإمام أن يأذن لي بالقيام برحلة إلى مأرب فقال ليس هذا بالإمكان لأن أهل تلك البلاد من القبائل البدوية غير المتمدنة ولا يمكن لرجل غريب عن اليمن أن يذهب إلى هناك في الوقت الحاضر ومن البديهي أن كلام الملوك ملك الكلام فلدى هذا الجواب الصريح لم أنبس ببنت شفة ولكني لم أقتنع بهذا الجواب وكنت أرغب رغبة أكيدة أن أذهب على مسؤوليتي ولو أدى ذهابي لفقد حياتي ولكني لم أجسر أن أصارح الإمام بما كان يجول بنفسي وانصرفت من بين يديه حزيناً كئيباً وغادرت اليمن في نفس تلك السنة وأنا على هذه الحال.

وفي السنة التالية زرت اليمن للمرة الثالثة واجتمعت بأحد العمال وكان مركزه قريباً من مأرب وقص علي بعض القصص عن هذه البلاد مما احتدم بي الشوق إلى المغامرة والذهاب إلى هناك مهما أدّى الأمر ففاتحت جلالة الإمام بعزمي فرد طلبي بلطف، فقلت لجلالته إني أذهب على مسؤوليتي وإني مستعد أن اكتب وثيقة بخط يدي أرفع بها كل مسؤولية عن عاتق جلالته وأذكر فيها أني هدرت دمي وأني أنا الساعي إلى حتفي بظلفي ولا يحق لأحد أن يطالب بدمي إذا قتلت أو هلكت ولكن جلالة الإمام رفض هذا الطلب أيضاً وافهمني أنه لا يقبل بشكل من الأشكال أن أمس بسوء وأنا في ضيافته فأذعنت للأمر مكرهاً وغادرت اليمن وفي نفسي شوق لرؤية مأرب.

وغبت في هذه المرة سبع سنوات ثم زرتها للمرة الأخيرة في أواخر سنة ١٩٣٥ وعندما تشرفت بالمثول بين يدي جلالة الإمام في خلوة خاصة أبديت له رغبتي الشديدة بزيارة مأرب هذه المرة فتبسم جلالته ابتسامته المعروفة اللطيفة وأجاب مرحباً وعند سماعي هذه الكلمة طارت نفسي شعاعاً وحسبتني في حلم لا في يقظة وصرت أخلط بكلامي من شدة الفرح فأدرك جلالته سروري وقال لقد خضعت لنا جميع القبائل التي حول مأرب وأدت الرهائن ولكن على كل الأحوال لا يركن كثيراً إلى هذه القبائل فإنها لا تزال على الفطرة الطبيعية ولكن لا



فيلا وحديقتها ببئر العزب في صنعاء مخصصة لضيوف الإمام

بأس من زيارتكم لمأرب هذه المرة. وعندما سمعت هذا التأكيد تضاعف سروري وبدت على وجهي علامات الارتياح الكثير المقرون بالشكر الجزيل وأجبت جلالته أن لساني قاصر عن التعبير بما يجول في نفسي وقلبي من الإعتراف بالجميل، فقال جلالته اننا أدركنا هذا على وجهك ولا حاجة لك إلى الإفصاح أكثر من ذلك وهنا عدت فكررت شكري الجزيل واستأذنت جلالته في الإنصراف وخرجت من دار السعادة وأنا أكاد أطير فرحاً.

وكان ذلك اليوم السابع عشر من شهر شعبان سنة ١٣٥٥ وبعد بضعة أيام ذهبت لزيارة جلالة الإمام واستأذنته أن أذهب لمأرب حالاً حسب الوعد وقبل دخول شهر رمضان فأجابني بلهجة غير طبيعية لا بأس تراجعوا مع العمري،

فانقبضت نفسي لهذا الجواب وادركت في الحال ان في الأمر سراً لأن جلالة الإمام لا يحول مراجعات كهذه إلى العمري إلا عندما يريد أن يتخلص منها بلطف. والعمري هو رئيس ديوان جلالته ورئيس الوزراء والأمناء وبالاختصار هو كل شيء بعد الإمام ويعول عليه جلالته في جميع الأمور الصغيرة والكبيرة وهو في الحقيقة رجل ذكي عالم فاضل محب لإمامه وبلاده ومخلص وأمين له ولها كل الإخلاص.

خرجت من المخيم المنصور وانا منكمش النفس من هذه الإحالة ولكن لا بد من الإذعان في مثل هذه الأحوال وسرت إلى الدار وأنا افكر في ما الذي طرأ على خاطر الإمام حتى اراد أن يصرفني عن هذه الرحلة، فلم أتمكن من حل هذا اللغز وقضيت ليلتي على مثل الجمر وما أن أصبح الصباح حتى ذهبت إلى دار العمري وكانت غاصة بالزوار وأصحاب الأشغال ولكني تمكنت أن أشق طريقي إليها بصعوبة واستأذنت في الدخول عليه فأذنوا وما كادت تقع العين على العين حتى رحب حضرته بي أجمل ترحيب وهش وبش قائلاً حيا الله من قد جاء كيف أنتم بخيرين، طيبين، مستريحين فقلت: الحمد لله على أحسن حال واتمه فقال هل من حاجة ترومون قضاءها، فقلت نعم لقد أمر جلالة مولانا الإمام أن أتحدث إليكم بشأن رحلتي إلى مأرب فقال نعم لقد أمروني بذلك ولكن لا يخفى عليكم ان هذه البلاد لم تدخل في طاعة الإمام إلا حديثاً وأهلها من البدو الرحل والسفر بينهم لأناس غرباء عن الديار لا يخلو من الأخطار فقلت: أنا لا تهمني الأخطار لأني ابن بجدتها منذ نعومة اظفاري واني أقدر أن أتكلم كالبدو وبوسعي أن ألبس لباسهم أو لباس أهل اليمن فلا يدركون حقيقة أمري. ولما رأى مني حضرته هذا الإصرار قال إذاً تذهبون برفقة العامل فقلت وأي عامل هذا؟ فقال عامل مأرب فقد جاء منذ مدة إلى هنا للتداوي لأنه مريض فقلت لا بأس وودعته وانصرفت شاكراً لطفه وحسن ضيافته.

استعلمت من بعض الأصدقاء عن العامل فقيل لي انه كان مصاباً بالملاريا وقد تداوى وشفي منها تماماً وعند حصولي على هذه المعلومات اجتمعت بالقاضي عبد الله العمري مرة ثانية وقلت له ان العامل قد شفي من مرضه ولله الحمد فيا حبذاً لو تأمرونه بلزوم الإسراع في السفر قبل أن يدخل شهر رمضان

فقال (مرحباً ناهي) أي جيد وغبت بضعة أيام ثم أعدت الكرة عليه وسألته إذا كان قد رأى العامل فأجاب بالسلب ولكنه وعدني مرة ثانية بمقابلته فتركته وانصرفت وأنا مغتاظ جداً من هذا الأمر ولكن ويا للأسف ان ما يغيظنا من ضياع الوقت لا قيمة له في نظر أهل اليمن أبداً فهم لا يقدرون الوقت حق قدره وعندهم الشهر واليوم (سع بعض) أي مثل بعضهما ولكن ما العمل وما الحيلة أنا فرد غريب بين أمة كبيرة ولا حول لي ولا طول فاضطررت مكرهاً أن اعتصم بالصبر وآخذ الأمور بالحكمة والتؤدة فدخل شهر رمضان وأنا لم اتحرك من مكاني ولكني لم أيأس ولا قطعت الرجاء وبالرغم من اعتقادي أنه لا يوجد قوة في العالم تخرج العامل من صنعاء في شهر رمضان عدت فذكرت جلالة الإمام بوعده لي بالسفر إلى مأرب فأجاب ألم تتموا شيئاً مع العمري فقلت كلا يا مولاي. إن العمري علق المسألة على العامل والعامل يقول إنه مريض ولا يمكنه السفر في الوقت الحاضر وأما أنا فأرى أنه لا لزوم لسفر العامل معي وفي استطاعتي أن أسافر وحدي أو برفقة جندي واحد. فضحك جلالة الإمام من هذا الكلام وقال غير ممكن لا بد أن نلزم العامل بالسفر معك لأن هذه الرحلة شاقة وأهالي تلك البلاد كما أخبرتك قبلا لا يزالون على الفطرة الطبيعية ولم يروا غريباً في ديارهم ولكن لا بأس من عزمكم أي سفركم) وكان العمري حاضراً الحديث فأشار إليه جلالته بلزوم جلب العامل والاستفسار عن صحته. اطمأنيت قليلاً عند سماعي هذا الأمر وشكرت جلالة الإمام ودعوت له بطول العمر وخرجت من بين يديه مسروراً كأني ظفرت بضالتي المنشودة وعشية ذلك اليوم لم تغمض لي عين وكنت أفكر في نفسي وأنا أتقلب على سريري من جنب إلى جنب بين النائم والصاحي كأني سليمان عليه السلام وكأني سأحظى بلقاء بلقيس ملكة سبأ، ثم يمر بخاطري تخوف جلالة الإمام من هذه الرحلة وتردده في إصدار أمر صريح لها كما هي عادته في مثل هذه الأحوال فتساورني الهواجس والمخاوف وأقول في نفسي لا بد أن جلالة الإمام على حق في تردده وأذكر ما قرأت في بعض كتب التاريخ عن الذين حاولوا الذهاب إلى مأرب من الفرنجة أيام احتلال الترك لليمن فكان نصيبهم الموت بالأمراض أو القتل من قبل أهل تلك البلاد، فأستسلم لليأس وأحاول أن أصرف هذه الرغبة عن ذهني ولكن قوة

خفية داخلية تناجيني وتوحي إليّ بأن لا أقطع الأمل وأن ألح بالطلب فتعود إليّ همتي الأولى وبقيت كل شهر رمضان وأنا على هذه الحالة يوماً أسر ويوماً أحزن وتارة أيأس وطوراً أتشدد فجاء العيد وانقضى بسلام فراجعت العمري وسألته منذا تم بينه وبين العامل فأجابني أنه اجتمع به فوجده قد شفي تماماً من مرضه ولكن يوجد له بعض الأشغال والحسابات لم يتمها مع بيت المال بعد فمتى أتمها يمكنكم أن تسافروا على بركة الله.

تكدرت جداً من هذه المفاجأة الجديدة وعولت على مغادرة اليمن ولكن خطر في بالي فجأة أن أعرض هذه القضية على صديقي الكريم القاضي محمد راغب بك وزير خارجية اليمن وآخذ رأيه فيها لأنه أخبر مني بهذه البلاد وأهلها وقد قضى فيها عشرات السنين فذهبت إليه ذات يوم وكان مريضاً في فراشه فقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها وأعربت له عن استيائي الشديد من هذه الحالة فطيب خاطري وهدأ روعي وقال لي ثق وتأكد أن جلالة الإمام يحبك ويعزك كثيراً وقد سمعته مراراً يثني عليك أعطر الثناء وهو بدون ريب خائف عليك من هذه الرحلة ويعز عليه كثيراً أن تصاب بأذى لا سمح الله وأنت ضيفه وعزيزه فقلت له اني أهذر دمي وليكن جلالته في حل من كل أذى يحصل لي واني أشهدك على قولي هذا وأنت خير الشاهدين فقال سأكتب لجلالته كتاباً وأعرض له فيه القضية كما تريد فقلت أشكرك جزيل الشكر فقال ولكن هل تعلم أن كثيرين من الفرنجة والمستشرقين عزموا على السفر إلى هناك أيام الدولة العثمانية وكانوا يصطحبون معهم بعض الشرفاء من أهالي تلك البلاد وقد غمروهم بالعطايا والأموال ولكنهم بالرغم من ذلك كله كانوا يقتلون من قبل بعض أفراد البدو ولم يعد أحد منهم سالماً سوى غلاذر. قلت نعم أعلم ذلك كله ولا يهمني ان عدت حياً أو ميتاً، فلما رأى مني هذا الإصرار كتب لي رسالة إلى جلالة الإمام بهذا الخصوص.

فأرسلت هذه الرسالة لجلالة الإمام وانتظرت جوابها عدة أيام فلم يردني ولا ورد إلى القاضي راغب بك شيء بهذا الخصوص فاحترت في أمري وصرت أضرب أخماساً في اسداس فلم أتوفق إلى حل هذا اللغز وكان قد انتشر خبر

العزم على هذه الرحلة في أوساط صنعاء وكنت التقي بأناس كثيرين بعضهم يقولون انهم يرغبون الذهاب معي وبعضهم يسألوني متى أريد أن أسافر وهل عدلت عن هذا السفر فكنت أتميز غيظاً لهذه الأسئلة ولا أعلم بماذا أجيب وأخيراً صممت تصميماً شديداً أن أضع حداً لهذه المحاولات فزرت جلالة الإمام والتمست منه أن يأمر بوجوب سفر العامل معي فوراً وترك حساباته وشؤون الخاصة مع بيت المال لبعد عودتنا وأعربت لجلالته أنني مللت من الإنتظار ومن القيل والقال ففكر جلالته هنيهة وبدت على وجهه إمارات الاهتمام وقطب حاجبيه ثم حرك شفتيه وقال بحدة للعمري هيا تموا هذا الأمر واجلبوا العامل وقولوا له أن يوكل وكيلاً ليرى حساباته ويعزم مع نزيه حالاً.

طرت فرحاً لصدور هذا الأمر الصريح من جلالته ونهضت واقفاً فقبلت يد جلالته وشكرته جزيل الشكر واستأذنت بالانصراف وأنا لا أكاد أصدق ما سمعت وما رأيت وما كدت أخرج من بين يديه وأدخل غرفة القاضي العمري حتى أدركني حضرته وقال هيا استعدوا للسفر وبينما نحن بالكلام وإذا بعامل مأرب يدخل علينا فبلغه العمري أمر جلالة الإمام وضرب موعداً للسفر يوم الأحد الموافق ٢٦ من كانون الثاني سنة ١٩٣٦ و٢ من ذي القعدة ١٣٥٤. فأجاب العامل بالسمع والطاعة عند ما تلقى هذا الأمر وقال أنه سيحضر عندي في البيت ليجهز الأشياء التي تلزمنا في هذه الرحلة فأجبت على الرحب والسعة إني بانتظاره في البيت من هذه الساعة وغادرته عند القاضي العمري وسرت إلى الدار فرحاً مستبشراً.

ولم يطل جلوسي في البيت كثيراً حتى جاءني العامل وهو كبسي الأصل نسبة إلى مدينة الكبس واسمه السيد محمد بن حسين الكبسي الهجوة وبعد التحية جلس وإمارات السرور بادية على وجهه فقلت له لقد أضعت وقتاً طويلاً بسبب مرضك وحساباتك فقال اني آسف جداً لهذا الأمر ولكن ليس باليد حيلة فأنا قد شفيت ولله الحمد من الملاريا ولكن أنظر إلى يدي فهي لا تزال ملتهبة فنظرت إلى يده فرأيتها مصابة بالاكزيما المزمنة فقلت يا صاحبي هذا مرض مزمن ولو شئت أن أنتظر لحينما تشفى منه فلا شك أني سأقضي بقية حياتي

بالیمن فضحك كثيراً لهذا الجواب وقال الخيرة بالواقع دعنا نستعد الآن وأخبرني بالأشياء التي تريدها حتى نأخذها معنا من هنا. فقلت: لا أريد شيئاً سوى سلامتك أنا عندي جميع حاجاتي فقال حسناً إذاً استعد إلى بعد الغد صباحاً فستعزم إن شاء الله مبكرين من هنا اكتساباً لبرودة الهواء فقلت أنا حاضر من هذه الساعة فقال حسناً وودعني وانصرف وهو يبتسم لفرحي.



باب الشقاديف قرب سراي الإمام في صنعاء

السفر إلى مارب

وفي صباح الأحد الموافق ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩٣٦ و٢ ذي القعدة سنة ١٣٥٤ نهضت قبل الفجر وأقفلت حقائبي وجلست اتناول طعام الصباح وبينما أنا كذلك وإذا بالخادم يعلمني أن جاويشا أي عريفاً من الجيش جاء يستأذن بالدخول فأذنت له فقال عينت بأمر من جلالة مولانا أمير المؤمنين ان أرافقكم إلى مأرب على رأس قوة كبيرة من الجند للمحافظة وها نحن تحت أمركم الآن والبغال حاضرة للحمل وللركوب فقلت لا أريد سوى بغلة واحدة لركوبي وأخرى لحمل حقائبي وأشرت إلى الحقائب فقال حسناً وفي الحال صاح بالجنود فدخل منهم ثلاثة حملوا الحقائب وشدوها على البغلة بسرعة زائدة وفي هذه الأثناء وصل العامل وقال أصبحتم (أي صبحكم الله بالخير) فأجبنا صبحكم الله بالخير والعافية فقال هل أنتم مستعدون للمشي فقلت على تمام الاستعداد وحوائجي أصبحت على ظهر البغلة فقال هيا باسم الله فخرجنا من الدار وسرنا في الطريق يتبعنا الجند والبغال وفرس العامل وكثير من اصدقائنا المودعين وسار هذا الموكب معنا إلى باب الشقاديف وهنا عاد المودعون أدراجهم فامتطينا بغالنا وسرنا باسم الله. والتفت حولي وإذا أنا بين قوة كبيرة من الجند يبلغ عددها نحو أربعين رجلاً بكامل عددهم فاستغربت من هذا الأمر وسألت العامل: لماذا كل هذه القوة هل نحن ذاهبون إلى حرب؟ فقال لقد أمر جلالة الإمام بخمسة عشر جندياً لمرافقتكم وأما الباقون فهم جنود من جنود مأرب وضابطهم وقد كانوا هنا مأذونين وانقضت مأذونيتهم والآن يعودون إلى مركز وظيفتهم بمأرب فقلت حسناً وسرت فرحاً مستبشراً وكانت طريقنا تسير إلى جانب الجبال أي جبال نقم فَبراش فالرَيْد شرقاً بشمال إلى أن وصلنا إلى أسفل وادٍ يقال له وادي السرّ ومن هذا اتجهت شرقاً تماماً. ويقال للبلاد الواقعة بين صنعاء ووادي السرّ بلاد بني الحارث وبعد اجتيازها دخلنا في بلاد حشَيش وجبالها بركانية سوداء وأما جبال وادي السرّ وما يليها من الجبال إلى جهة الشمال فجبال كلسية وبينها جبل مشهور جداً في اليمن ويقال له الغراس يجلبون منه الأحجار الكلسية إلى صنعاء فيحرقونها ويصنعون منها ما يسمونه القص أي الكلس ويجلبون منه أيضاً المرمر

الذي ينشرونه الواحاً دقيقة ويستعملونها عوضاً عن الزجاج وقد شاهدت في أول وادي السر طبقات كثيرة من الحديد في عرض الجبال في كل مكان ولا شك أن الجبال المحيطة بهذا الوادي تحوي بعض المعادن.



بعض رجال الحرس الذي رافقني إلى مدينة مأرب
وعلى رأسهم يقف شقيق العامل السيد أحمد الكبسي الهجوة

وبينما كنت أفحص بعض الطبقات الحديدية استلفت عملي نظر الجاويش الحاج يحيى المعدني فسألني ما هذا فقلت له هذه طبقة من الحديد ويمكن الاستفادة منها واستخراج حديدها فقال نعم نعم يوجد في اليمن حديد ومعادن كثيرة ولكن أهله لا يهتمون بذلك إلا يسيراً وأردف قائلاً أنه رأى عندما كان بصعدة في قرية يقال لها مَجْذ جبلاً عظيماً من الحديد وأهل هذه القرية جميعهم حدادون يستخرجون الحديد من جبلهم هذا المدعو خُنفَعِرْ ويصنعون منه أدوات كثيرة أو يبيعونه كحديد في البلاد القريبة منهم.

وفي الحقيقة هذا أمر مؤسف جداً فبينما يوجد الحديد في اليمن بكثرة تجدهم يستوردونه من الخارج بكميات كبيرة وينفقون في الحصول عليه أموالاً طائلة. وليس الحديد فقط هو الموجود في اليمن، بل توجد معادن كثيرة غيره ولكن جلالة الإمام مشغول بمهامه الخطيرة عن هذه التفاصيل وحين يوجه إليها

اهتمامه العالي ستعود على البلاد بالخيرات الوفيرة .

وادي السرّ وجبل مصنعة

وشاهدت في الطريق قبل وصولنا إلى وادي السرّ شجراً برياً يشبه ورقه ورق الكباد وزهره أحمر وقيل لي إنهم يستعملونه في صناعة فحم البارود ويستعملونه أيضاً عوضاً عن الكيّ في الإلتهابات إذ يأخذون منه غصنا ويقطعونه إرباً إرباً فتخرج منه مادة بيضاء تشبه الحليب فيضعونها فوق المكان الملتهب الذي يريدون كيه وبعد برهة من الزمان ينفتح وتخرج منه المواد القيحية .

بعد السير زمناً يسيراً في وادي السرّ وصلنا إلى قرية القَمْعة ـ بالقاف المهملة ـ وهي آخر مرحلتنا في اليوم الأول وهي مرحلة صغيرة نحو خمس ساعات ، وضفنا هنا الحاج ناصر بن علي الشاويش وهو أمين صندوق مدينة مأرب وقد أتى إلى بلدته مأذوناً في العيد . وداره أنيقة وجميلة ذات ثلاثة طوابق مبنية من الحجر واللبن وسلمها ـ خلافاً لأكثر مباني القرى واسع ـ ومتقن البناء وكل شيء فيها منظم ومرتب ، ودخلت أنا والعامل والضابط وإثنان من (الجاويشية) إلى صالون الاستقبال وهو غرفة كبيرة مستطيلة طولها نحو ١٢ متراً وعرضها نحو ثلاثة أمتار وهي تشبه في كثير من الأحوال مضافات قرى جبل الدروز في الشام إلا أن نوافذها من المرمر عوضاً عن الزجاج .

وما كاد يستقر بنا الجلوس حتى قدموا لنا طعام الغداء وكان صاحب الدار يخدمنا بنفسه وهذه عادة من عادات العرب الجميلة ، أي أن المضيف لا يجلس مع ضيوفه على الطعام بل يقوم بواجب خدمتهم إلى أن يتموا طعامهم وعندئذ يتناول طعامه مع من يفدون عليه من أهل قريته للسلام على الضيوف والاحتفاء بهم . وكان طعامنا كناية عن خبز مغطوط بالعسل والسمن ولحم مطبوخ بالفلافل والبهارات وحلبة وشعيرية مطبوخة مع البيض على طريقة طبخ المعكرونة وعندما قدموا الشعيرية قال العامل تفضل كل من معكرونة اليمن . فأكلت منها فوجدتها جيدة كثيراً فقلت لا شك أنها شهية كما أن جميع طعامكم في اليمن شهي جداً ولكنكم مع الأسف تكثرون من الفلافل والبهارات وهذا ما لا نستسيغه نحن فقال

عجيب عجيب. فقلت ما هو عجيب فلكل امرىء من دهره ما تعودا فقال صحيح صحيح.

بعد الطعام جلس العامل ومن معنا من الرفقاء في مجلس القات وأخذوا يخذنونه أي (يمضغونه) بكثرة ويدخنون المداعة إلى أن أفسد هواء الغرفة من كثرة الدخان فاستأذنتهم في الخروج إلى خارج القرية والطواف بجبالها فقالوا تفضل إذهب حيثما اردت وامروا بعض رجال القرية وبعض الجنود بمرافقتي فخرجنا جميعاً وطفنا الجبال القريبة للقرية للبحث عن المعادن فلم أجد شيئاً سوى الحديد واكثره من نوع هماتيت ثم أشاروا لي إلى جبل واقع شرقي القرية وقالوا توجد هنالك آثار حميرية فقلت هيا بنا نذهب ونشاهدها وسرنا مسافة عشرين دقيقة تقريباً عن القرية فوجدت بعرض أحد الجبال العالية ويقال له جبل المصنعة كهوفاً حميرية يظهر أنها كانت مقابر للحميريين ولكن لا يوجد على ابوابها أو في داخلها نقوش حميرية ويستعملها الأهلون الآن كملجأ لطروشهم أيام المطر ويوقدون فيها ناراً وصعدت من هذه الكهوف إلى رأس الجبل وهو مربع الشكل تبلغ مساحته نحو ربع كيلو متر مربع وتظهر فيه بعض الخرائب الحميرية (والمواجل) أي خزانات المياه ويبلغ طول الخزان من ثلاثة إلى أربعة أمتار وعرضه نحو متر ونصف متر إلى مترين وشاهدت في هذه الخرائب القديمة بعض أحجار المطاحن المكسرة ورأيت أيضاً أحجاراً من المرمر لا يوجد عليها كتابات بل نقوش وحفر وكأن بعضها كانت تستعمل في بحيرات من الماء. وأبصرت كثيراً من الأحجار الكبيرة وقد كسرها أهل هذه البلاد استعداداً لنقلها لبناء دورهم.

عدنا من جبل المصنعة قرب غروب الشمس ورأيت في طريقي بعض كروم العنب وقد صنعوا لها عرائش من الحجارة لتمتد فوقها والكروم في وادي السر كثيرة وعنبها جيد ويتأخر كثيراً حتى ينضج لأنه في وديان باردة ورأيت أيضاً شيئاً من القضب أي الفصة والحنطة والشعير والذرة وبعض أشجار البلسن أي التين والأثل وغيره من الأشجار غير المثمرة. ومعظم هذه النباتات والأشجار في هذه الجهة تنمو عقراً أي بعلية فلا تشرب الا من ماء الأمطار.

وصلنا إلى الدار عند الغروب وذهبنا إلى مسجد القرية للصلاة فوجدت بالقرب منه خزاناً وبئراً فتوضأنا وصلينا. وبعد تأدية فريضة الصلاة عدنا إلى البيت فتناولنا القشر (أي قشر البن المغلي) وجلسنا هنيهة نتحدث ثم جاءنا العشاء فلم أتمكن من الأكل إلا قليلاً وبعد العشاء سمرنا إلى ساعة متأخرة من الليل ثم قمنا للنوم ولكن لم تغمض لنا جفن أما أصحابي فكان سبب امتناع النوم عنهم كثرة ما خزنوه من القات وأكلوه من الطعام وأما أنا فكنت افكر بمأرب وبلقيس وسليمان عليه السلام ومضى قسم طويل من الليل وأنا على هذا الحال ولم أنم إلا قبيل بزوغ الفجر مدة يسيرة.

وبعد صلاة الصبح مشينا يوم الإثنين الموافق ٢٧ من كانون الثاني من قرية القمعة وهبطنا في طريق ضيقة وعرة إلى قرية آل الوزير وقد بنى هؤلاء السادة ومنهم السيد علي الوزير أمير جيش تعز والسيد عبد الله الوزير عامل التهامة والحديدة وغيرهما من آل الوزير بيوتاً فخمة يصح أن يقال عنها إنها سرايات على طراز بيوت صنعاء ولكنها أكبر منها وأجمل. وآل الوزير أسرة كريمة في اليمن منيعة الجانب ورجالها محبوبون من الجميع وتكثر في هذه القرية الكرمة وقد صنعوا لها عرائش من الحجارة الطويلة والتين والقات والأثل والقضب والبر



السيد عبدالله الوزير عامل الحديدة وفاتح بلاد سبأ وإلى يساره القاضي علي العمري فسليم بك الفاخوري أمير لواء جيش الحديدة

والشعير وفي الحقيقة جميع وادي السرّ مغروس بهذه الأشجار والنباتات وقراه متصلة بعضها ببعض من أوله في قرية القمعة إلى قرب آخره في قرية قاع الصلاحي ويوجد بين هذه القرى الكثيرة بعض القرى اليهودية ويصنع اليهود ههنا الأدوات الفخارية ويتعاطون جميع الأشغال اليدوية من بناء ونجارة وحدادة إلخ. وهيأتهم تدل على أنهم من رجال القبائل وتكثر في هذا الوادي الآبار كثرة عجيبة ويختلف عمقها من ١٢ إلى ١٥ متراً وماؤها كثير وجيد.



نجل السيد على الوزير أمير جيش لواء تعز بين لفيف من أصحابه

ويقع إلى الجهة الشمالية من هذا الوادي جبل صراع وهو في أول بلادهم ويقع إلى جنوب الوادي جبل اللوز من أعمال بلاد خولان وهو مشهور باللوز والبن والقات ويليه من جهة الشرق جبل عطية المشهور بكثرة المراعي ولا يسمح أهله لأحد أن يرعاه إلا بإذن منهم. وتقطن بالقرب منه قبيلة بني عبس.

وقبل أن نصل إلى آخر هذه الوادي شاهدت قرية صغيرة جميع بيوتها مبنية من الطين بشكل يسترعي النظر لعدم دقته وبساطته فصورتها وبعد ما صورتها مشيت فتبعني جم غفير من الأولاد وأخذوا يصيحون على العامل الذي كان ماشياً أمامي بأعلى صوتهم قف وعندما وقف شكوني له قائلين إنني صورت قريتهم ولا شك أنها أعجبتني وسوف ننقلها لمأرب فقلت نعم إن قريتكم جميلة فما اسمها

فقالوا جميعهم يقال لها عيال اقير فقلت أشكركم إن شاء الله متى نقلناها إلى مأرب ننقلكم أنتم أيضاً معها فقالوا لا لا نريد نحن سنذهب إلى صنعاء واخذ أكبرهم سناً يقص على العامل مشاهداته عندما زار صنعاء قبل بضعة أسابيع وما زالوا ماشين معنا مسافة طويلة وهم يسألون العامل عن حقيقة نيتنا بشأن نقل قريتهم إلى أن طمأنهم حضرته بأننا سوف لا ننقلها بل نتركها لهم فشكروه كثيراً وأعادوا أدراجهم فرحين مسرورين.

نقيل شجاع والظبياني[1]

وبعد مسير ساعة من الزمان من قرية عيال أقير وصلنا إلى رأس نقيل يقال له نقيل شجاع ويعلو عن سطح البحر ٢٥٠٠ متر أي أنه أعلى من صنعاء بنحو ٥٠ متراً هبطنا في هذا النقيل نحو ساعة من الزمان وكانت الطريق وعرة للغاية ولولبيّة فاضطررنا أن ننزل عن البغال ونمشي على الأقدام. وجبل شجاع هذا جبل بركاني عظيم حجره أسود أصم وقد أخبرني العامل أن الإمام أحمد بن الحسن الملقب بسيل الليل هو الذي عبّد هذا الطريق عندما غزا حضرموت قبل ثلاث مائة سنة. وعندما هبطنا النقيل ووصلنا إلى آخره في وادي حريب سألني العامل كم هبطنا من رأس النقيل إلى أسفله فأخرجت من جيبي ميزان العلو ونظرت إليه وقلت أربعمائة متر وما كدت أتم عبارتي حتى ظهر أمامنا رجل رث الثياب كبير الهامة قبيح المنظر أسود اللون وصاح بنا ما هذا؟ ماذا تفعلون هنا؟ وما شأن هذا الغريب بينكم. هذه بلادنا لا نريد أن يدخلها غريب ولا أن تفعلوا هنا شيئاً فأجابه العامل بهدوء وتؤدة أنا عامل مأرب وهذا رجل مستخدم في الجيش عند الإمام ونحن ذاهبون إلى مأرب في خدمة الإمام فحملق بي طويلاً كأنه يريد أن يقرأ في وجهي صحة هذه الأقوال وكانت نظراته رهيبة ومخيفة وبندقيته في يده وكأني به لم يعبأ بنا ولا بجميع الجنود التي معنا وقال لي هيا قل من أين أنت فأدركت حراجة الموقف، وبالنظر لسابق معرفتي بالبدو وأحوالهم وعلمي أنهم لا يرهبون غير القوة تجلدت وشددت عزائمي وقلت أنا من بلاد الله الواسعة وذاهب

---

(١) النقيل هو الطريق الوعر في الجبل العالي

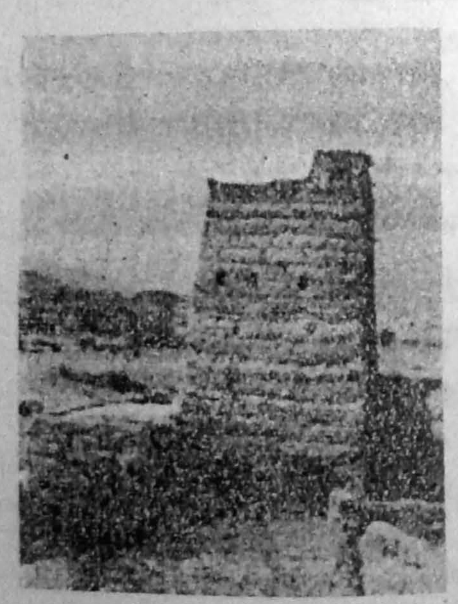
في خدمة الإمام فاذهب بطريقك ولا تتدخل فيما لا يعنيك، وهنا خشي العامل من تفاقم الشر مع هذا الرجل فأتى إليه وقاده بيده وقال هيا سر في طريقك باسم الله. فسكت عندما سمع حقيقة أمرنا وكان يسمع بشدة عاملنا وبأســه فخضع للأمر وسار مكرها وهو يلتفت إلى الوراء ويتمتم كلاماً لم أفهمه. وقد أدركت في اللحظة التي كنت أكلم هذا الرجل سبب تخوف الإمام من قيامي بهذه السياحة الخطرة وقدرت لو أنه كان يوجد مع هذا الرجل بعض رجال من عشيرته أو قبيلته لمـا انتهى الحال بيننا بسلام وبعـدما ابتعـدنا عنـه سألت العـامل من هـو هذا الرجل؟ فقد أعجبت به وقـدرت رجوليتـه وشجاعتـه. فقال هـذا من قبيلة بني ظبيان المشهورة بسطوتها وبأسها وشجاعتها ولم تدخل في طاعة الإمام إلا منذ زمن يسير وقد أدخلها جلالته في طاعته بالسياسة لا بالحرب لأن عددها عـظيم وبلادها وعرة ورجالها كما رأيت شجعان متوحشون، فقلت الله يحفظ الإمام لا شك أنه يعرف من أين تؤكل الكتف وكيف يجب أن يعـامل النـاس والقبائـل، ومشينا وقتاً طويلاً والعامل يحدثني عن بعض حروب بني ظبيان مع جيرانهم من القبائل.

وادي حريب

وشاهدت في هذا الوادي الذي هبطنا إليه وأخذنا نسير فيه من أسفل نقيل شجاع ويقال له وادي حَرِيْبْ كثيراً من النباتات الغريبة ذات الروائح الزكية ومنها نبات يقولون له الضُرْوُله رائحته (أروماتيكية) تشبه رائحة زيت التربنتينا ويستعمله الأهلون في أمـراض الكبد والكلي وذلـك بـأخـذ شيء من غصـونـه فيغلونهـا ويشربونها ومنها نبات يسمونه فُحِيّهْ وله رائحة أرومـاتيكية زكيـة ويطبخـونه مـع الحلبة أو يضيفونه إلى اللبن الرايب كالنعناع ومنها نبات يقولون له شاه الترنج وله رائحة عطرية جميلة ورأيت شيئاً كثيـراً من الأشجار غيـر المثمرة ويقـولون لهـا العِلْبْ والدَوْمْ والبشر والأثب ويصنعون منه الفتيل للبنادق العربية القديمة والسُمُر إلى غير ذلك.

ووادي حريب يوجد فيه عدة قرى صغيرة وبعيدة بعضها عن بعض وقد مررنا

أثناء مسيرنا فيه بقرية البديع الأعلى ووالبديع الأسفل وغيرهما ويوجد حول هذه القرى شيء قليل من الأشجار المثمرة كالكرمة والبلس ويوجد من النباتات شيء يسير من القضب والشعير والحنطة وبالقرب من البديع الأعلى رأيت غيلاً صغيراً (أي نبعاً صغيراً) يقال له غيل البديع وقد شربنا منه وصلينا عنده واسترحنا قليلاً بجانبه. وبعد مسير تسع ساعات تقريباً وصلنا إلى آخر رحلتنا الثانية وحطينا رحالنا في قرية اللكمة. وعند وصولنا إلى القرية رأيت جمهوراً كبيراً من الرجال تجمعوا في أولها وما كادت تقع عينهم على العامل حتى نادوا بأعلى صوتهم يا مرحباً وساروا أمامنا إلى أن وصلنا إلى دار كبيرة فتقدم أحد الرجال من العامل وقال هيا انزلوا فحولنا عن بغالنا ودخلنا الدار خلفه وهي حسب العادة الدور الأول للحيوانات والدور الثاني للسكن وصعدنا إلى الدور الثاني في سلم لولبي مظلم ودخلنا غرفة مستطيلة فسيحة هي المضافة ولاحظت أن لها عدة نوافذ ولكنها صغيرة فجلس العامل وأصحابي وأخذوا في الحال يدخنون المداعة (النرجيلة) وأما أنا ففضلت النزول والطواف في القرية وحولها وأبديت رغبتي هذه لصاحب الدار فأوفد معي واحداً من أهل القرية فطفت فيها قليلاً ودورها تزيد على العشر قائمة إلى أسفل جبل فوق ضفة الوادي ورأيت في هذا الجبل عروقاً من (الكورتز) وشاهدت بعض الأحجار وفيها نوع براق من الحديد وهو ما



أحد المنازل بالطريق
وليس فيه نوافذ بل كوات

يسمونه بذهب المجانين. ورأيت حول القرية حقولاً جميلة غرسها اصحابها بنا وشعيراً وحنطة ويسقونها من ماء الآبار.

عدت إلى الدار من هذه الدورة كما يسمونها باليمن أو بالجولة كما نسميها نحن فوجدت العامل قد أخرج مصباح اللوكس الذي جلبه لنا معه ليشعله لأن وقت الظلام قد دخل وحيث أنه كان حديث العهد باستعماله كلفني أن أشعله وأخذ جمهور الحاضرين من الرجال والأولاد الذين تجمعوا بالمضافة من أهل القرية لتحية الضيوف يراقبون حركاتي ويراقبون ماذا أفعل باللوكس ولما أشعلته ورأوه يضيء المكان فجأة خافوا كثيراً وبعضهم فرّ إلى خارج المضافة وبعضهم ابتعد عني بعيداً واخذوا يستعيذون من الشيطان الرجيم. وأما صاحب الدار المدعو الشيخ علي الجحيزأ فقد سبق له ورأى اللوكس في صنعاء لذلك أخذ يخفف روعهم ويدعوهم إلى الدخول ثانية ويفهمهم بأنه ليس سوى مصباح كبير يولع بالكاز كغيره من المصابيح وبعد هنيهة عاد القوم الواحد بعد الآخر وهم ينظرون إليه نظرات ملؤها الخوف والعجب.

وبعد هنيهة جلبوا لنا العشاء وكان حنطة مسلوقة ومدقوقة دقاً ناعماً (تشبه الكبيبة الشامية) ويدعونها الهريش ووضعوها في وسط المضافة ودعانا رب البيت للقيام للطعام فقمنا وغسلنا أيدينا الواحد تلو الآخر داخل إناء أعد خصيصاً لهذه الغاية ثم جلسنا حول المائدة وهي بساط مدّ على الأرض ووضعت فوقه الهريش وما كدنا ننتظم بالجلوس حتى جاء رب البيت ومعه بعض الغلمان يحملون مرق اللحم والسمن وقال بصوت عال يا مرحباً حيّ الله من قد جاء وصبّ مرق اللحم فوق الهريش ثم صب فوقهما السمن فأخذت لقمة من هذا الطعام الذي لم يسبق لي أن أكلته وذقتها بفمي فوجدتها لذيذة للغاية ولا أعلم هل كانت حقيقة لذيذة إلى هذا الحد أم أن الجوع هو الذي جعلني أستطعم بها كذلك ولكن على كلا الحالين أكلت كما يقولون بالخمسة والكف لأننا ما أكلنا شيئاً وقت الظهر رغبة منا في عدم التوقف لأن مرحلتنا كانت طويلة وبعيدة. وما كدنا ننتهي من أكل الهريش حتى دخل علينا رب البيت وخلفه بعض الغلمان يحملون عدداً من الذبائح المطبوخة وطرحها رب البيت أمامنا ثم أخذ يقطعها قطعاً قطعاً

وعندما انتهى من عمليته مد العامل يده إلى أحد هذه الأطباق ورفع منه قطعتين كبيرتين واعطاهما إلى رب البيت قائلاً : هذه حصة الطباخات أي النساء اللواتي طبخن الذبائح ، وهذه عادة شائعة عند العرب في هذه البلاد فالذبيحة من حق الضيف وصاحب البيت يطبخها كاملة ولا يأخذ منها شيئاً ولذلك يقدم الضيف نصيب النسـاء اللواتي طبخنها قبل أن يأكل منها أحد. ثم بعد انتهاء هذه المراسيم التي لا بد منها صار صاحب البيت يوزع على الحاضرين اللحم إلى أن وزعه جميعه وأخذ القوم وكان عددهم يزيد على الخمسين يلتهمون هذه اللحوم فمنهم من كان يقطعها باسنانه ومنهم من كان يبتلعها بلعاً ومنهم من كان يمص العظم مصاً ومنهم من كان يدقه دقاً على ركبتيه ليخرج المخيخ من داخله ، ودام أكل اللحم على هذا الشكل نحو ربع ساعة من الزمن.

الجباة والمخاوف

بعد الانتهاء من حفلة أكل اللحم غادر المضافة بعض أهل القرية وأتى دور القشر فجلبوا لنا منه شيئاً كثيراً وأخذ جميع الحاضرين يتقشرون (أي يشربون القشر) ويسمرون إلى ساعة متأخرة من الليل ودار بيني وبين صاحب الدار حديث طويل عن الهواء ومنافعه والبرد ومضاره وكان السبب في ذلك أني جلست بجانب الكوة الصغيرة وفتحتها وأخذت أستنشق من الهواء الطلق الذي يدخل منها رأساً فاعترض رب البيت على عملي وقال هذا مضر جداً بالصحة ويجلب البرد، والبرد الله يدّ بنا العافية (أي يعطينا) هو سبب سبعة وسبعين مرضاً فقلت: لا . أظن ثمانية وسبعين فقال لا دين الله هكذا يقولون، وقولهم صحيح فقلت له البرد لا يضرني لأن بلادنا باردة فقال وأين بلادك فقلت الشام فقال وهل بردها أشد من بردنا فقلت نعم إن بردها أشد من برد صنعاء لا بردكم ويهبط عندنا الثلج مراراً أيام الشتاء وتتجمد المياه الساكنة فتعجب لذلك كثيراً وسكت. ولاحظت أن المضافة مملوءة بالكُتّان (أي البق) فأيقنت أني سوف لا أنام هذه الليلة فقلت لصاحب البيت أني أرغب أن أنام فوق السطح فلم يفهم مني معنى السطح وبعد محاولة طويلة بشتى الأساليب أفهمته ما هو السطح وأفهمني أنهم يقولون له الجباة فقلت حسناً اني أريد أن أنام فوق الجباة فقال لا هذا غير ممكن فالبرد

القاء محاضرة عن البرد فأعدت أقوالي بانه لا شديد وهو مضر جداً وعاد إلى المضافة لكثرة الكتان، فقال وأين كيسك لم لا يضرني واني لا أقدر أن أنام في الكيس فقلت له لم أتعود على النوم بالأكياس فأخذ يفهمني منافع النوم تنام في الكيس بالأكياس وأنها تقي الإنسان من شر البرد ولا يدخلها الكتان ولا الناس (أي البعوض) ولا غيرهما من الحشرات وقدم لي كيساً من عنده فقلت لا يمكنني ان أنام فيه بل أفضل النوم على الجباة فتدخل العامل حفظه الله بالأمر وقال له أن البك معود على النوم في الهواء والبرد وهما لا يضرانه فافرشوا له فوق الجباة كما يريد ولما سمع صاحب البيت كلام العامل وهو بمثابة الأمر أذعن له وصعد أمامي إلى الجباة فصعدت خلفه وسررت كثيراً عندما وجدت أن للسطح سوراً من الطين بني في الجهات الأربع إلى علو متر ونصف تقريباً ووجدت فراشاً غليظاً قد مد إلى الأرض فخشيت أن يكون مملوءاً بالكتان فقلت لرب البيت لا لزوم للفراش واكتفيت بعباءتي (وبطانياتي) وجل ما كنت أتمناه هو أن يتركني الناس لأنمتع بخلوة خاصة لنفسي في ربوع الطبيعة الجميلة ولذلك تناومت عندما مد لي (البطانيات فأدرك رب البيت ذلك وقال لا شك أنكم تعبتم من السفر وتريدون النوم والإستراحة وهو ذا نحن نستأذنكم وأشار إلى بعض رجاله الذين رافقونا إلى الجباة بالنزول فنزلوا وحمدت الله على نزولهم، فأطلقت لفكري العنان هنيهة وإذا بشقيق صاحب البيت المدعو محمد الجحيزأ يأتي لعندي وهو يسحب غلاماً من يده ويقول مساكم الله بالخير والعافية فقلت مكرهاً أسعد الله مساءكم فقال لا بد أنكم تعرفون دواء لأخي الصغير هذا وأشار إلى الغلام فقلت وماذا أصابه فقال أنه يبرد ويسخن كل يوم وفي أكثر الأحيان يبدأ البرد معه نحو العصر ويسخن إلى الليل ولا تذهب عنه السخونة إلا بعد أن يعرق كثيراً فأدركت أن الولد مصاب بالملاريا فأخرجت بضع حبات من الكيناء وأعطيته إياها قائلاً له فليشرب كل يوم ثلاث حبات منها فشكرني كثيراً على ذلك وظننت لأول وهلة أنه سيفارقني ويذهب في سبيله ولكنه لم يفعل فقلت له لا شك أن البرد سيضر بالغلام فخذه إلى الدار فقال للغلام هيا اذهب فذهب الغلام وبقي هو جالساً عندي فاستعذت بالله من هذه الزيارة غير المرغوبة في مثل هذا الوقت ولكني تمسكت بالصبر فقال أتريدون الذهاب إلى مأرب فقلت نعم فقال وماذا

تفعلون هناك فاحترت في أمري وماذا عساني ان اجيب فقلت ذاهبين في خدمة جلالة مولانا الإمام فقال الله يحفظ الإمام كانت هذه البلاد متوحشة وأهلها دائماً يقتتلون ويذبح بعضهم بعضاً ذبح النعاج ولكن منذ دخلها الإمام صار الذئب والغنمة مع بعضهما أي مثل بعضهما الله يحفظ الإمام فقلت امين فقال ومأرب كانت أيضاً حالتها أشر من حالة بلادنا ولكن منذ فتحها ابن السيد[1] أمن الناس على أنفسهم وعلى أموالهم ولكن بعدما ذهب العامل سيدي محمد الذي معكم إلى صنعاء تغيرت نفوس الأهلين لانه وكل شقيقه احمد وأحمد صغير ولا يعرف مداراة الناس ويشدد عليهم كثيراً ولذلك تجدهم الآن مستائين ولكن ما دام سيدي محمد قد حضر فلا شك أنه سوف يحسن إليهم ويستعطفهم ويطيب نفوسهم . ما سررت كثيراً من هذه الأخبار التي تدل على احتمال وقوع ثورة لأني لا أرغب أن تحصل ثورة وأنا هناك لا لأني أخشى الثورات وأخاف من الاصطلاء بنيرانها بل لأني أرغب أن أشاهد الآثار. تناومت أمام هذا الضيف الثقيل الذي نقل إليّ أخباراً أزعجتني وأبعدتني عن أفكاري الأولى وخيالاتي وأحلامي في هذه البلاد فشعر بذلك وقال أي هيا نستأذنكم صار وقت النوم فقلت بأمانة الله وحراسته وإلى اللقاء صباحاً إن شاء الله.

ذهب محمد في سبيله وعدت أنا لخيالاتي وأول ما خطر لي هو عدم رغبة جلالة الإمام للسماح لي بالقيام بهذه الرحلة وقلت في نفسي لا شك أن جلالته كان على صواب في تخوفه من دخولي هذه البلاد لأني في الحقيقة كنت ألاحظ أثناء الطريق أن جميع المارة من نساء ورجال وأولاد كانوا لا ينظرون إليّ بعين الرضى وها هو ذا محمد شقيق صاحب البيت يظهر لي ارتيابه من زيارتي ويفهمني بأن البلاد ليست هادئة بل مضطربة وقد يحدث ما لا تحمد عقباه. ظللت وقتاً طويلاً تنتابني أفكار مزعجة ومقلقة ولكني قد الفت المغامرات والمخاطر منذ نعومة أظفاري لذلك كنت أطرد هذه المخاوف بقولي لنفسي مهما يحصل معي من الأخطار لا أظنه سيبلغ عشر معشار الأخطار التي اجتزتها بحياتي ولا بد من القيام بهذه الرحلة واتمامها مهما أدى الأمر.

---

(١) يعني عبد الله الوزير إذ يقولون لآل الوزير بيت السيد.

وبعد قليل استسلمت إلى سلطان الكرى ونمت نوماً هادئاً إلى طلوع الفجر وقد انهضني من رقادي البرد لأنه في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل يشتد في هـذه البـلاد الجبليـة النـائيـة ولكني بقيت متمـدداً في مكـاني أراقب النجـوم والكـواكب وأفكر في الأدوار التي مـرت على هذه البـلاد في عهد الحميـريين وبعدهم وكم طوت من أنـاس وشعوب لا يعلم عـددها إلا الله وأفكـر في ذاتي فأقول من أنا ؟ ومن أين أتيت ؟ وإلى أين مصيري ؟ ولدى هذه الأفكار والرموز التي حار في حلها عقل الإنسان رأيت نفسي صغيراً حقيراً لا أدرك من سر هذه الحياة لا قليلاً ولا كثيراً، فوحدت الله الواحـد القهار وحمـدته على هـداه إيانـا بالدين الحنيف وشكرته لبعثته النبي محمد ﷺ ونهضت من الفـراش فتوضـأت وصليت الصبح بقلب مفعم إيماناً وشكراً.

الدهون بالسليط والسمن

وبعد صلاة الصبح نزلت إلى المضافة فوجدت السيد محمد العامل جالساً يتقشر ويدخن مداعته (شيشته) فتقهويت معه وجلب لنا رب الـدار ما تيسـر من الطعام للصبوح (أي للترويقة أو كسر الصفراء) فتناولنـاه بشهية زائـدة وأردنا أن نستأذن ونمشي وإذا برب البيت يأتي ويقول لي أيـه هيا تفضلوا وتـدهنوا فقلت وبماذا أتدهن ؟ فقال لي العامل إن العادة في هذه البلاد أنهم يكـرمون الضيف العزيز بشتى وسائل الإكرام وفي جملتها أنهم يدهنونه بالسليط والسمن ويكحلونه بالكحل ويزينون عمامته بالرياحين وغيرها من النباتـات ذات الرائحـة الطيبـة. فقلت لرب البيت اني أشكرك جزيل الشكر على هذا الإكرام وحيث أني ما ألفته في حياتي أرجوك أن تعفيني منه واني أكتفي بأخذ بعض الغصون من الريحان، فقال لا هذا غير ممكن لقد جاريناك بعدم أكلك اللحم وسايرناك في النوم بالجباة إلخ . فصار من الواجب عليك أن تطاوعنا وتدعنا ندهنك بـالسليط والسمن كما هي العادة عندنا. فاعتذرت ثانية ونظرت إلى العامل مستنجـداً فغمزني بـطرف عينه فعلمت أن صاحب البيت يـداعبني ويمازحني ومن اللطيف عنـد اليمانيين عمـوماً أنهم يميلـون للمزاح والـطرب ويحبون النكتـة كثيراً بمـا فيهم حضـرة صاحب الجلالة الإمام فقد سمعته مراراً يمزح مع بعض كبار رجاله وخواصه.

في الطريق إلى صرواح

سرنا صباح الثلاثاء الواقع في ٢٨ من كانون الثاني من قرية اللكمة ووجهتنا صرواح وقد رأيت في الطريق بعض اليهود فقلت للعامل: هل يوجد يهود في هذه الجهات، أم هؤلاء مسافرون ؟ فقال: يوجد يهود ههنا وأشار إلى قرية قريبة يقال لها الحرجة وهي آخر قراهم في المشرق. وتأملت هيأتهم فرأيتهم لا يفرقون على غيرهم من رجال القبائل بشيء ولولا طول فوديهم (أي سوالفهم) لما قدر الإنسان أن يفرق بينهم وبين البدو وهذا شيء طبيعي، لأنه انقضى على وجودهم في هذه البلاد ألوف من السنين وقريتهم الحرجة كغيرها من القرى في هذه البلاد مبنية أساساتها من الحجارة ودورها الأول والثاني والثالث من اللبن (الطين) ولكنها أصغر قليلاً من بيوت المسلمين.



يهود يغزلون الصوف

وكانت طريقنا تسير في نفس الوادي الذي هبطنا إليه في أسفل نقيل شجاع ولكنه أخذ يتسع هنا شيئاً فشيئاً، وقد جرف السيل كثيراً من الأموال (أي الأراضي الزراعية) القائمة إلى جانبيه وخرب بعض حقول البن والحنطة والشعير

التي تكثر في أطرافه. ودوامنا السير شمالاً بشرق في هذا الوادي إلى مسافة ساعة نصف تقريباً وكنا نشاهد في أطراف الجبال مما يعلو السائلة كثيراً من الأشجار غير المثمرة كالسمر والسدر ويقولون له علبْ أيضاً ورأينا في السائلة بعض النباتات ذات الروائح العطرية الجميلة ويقولون لها عِنصيفْ وحرمل، ورأينا أيضاً شيئاً كثيراً من العوسج الذي يحرقونه ويصنعون منه الكحل، وما زلنا نسير شمالاً بشرق إلى أن وصلنا إلى قرية بني ربيح حيث قابلنا بالقرب منها شيخان من شيوخها وبعد تحيتهما للعامل وتقبيل يديه وركبتيه دعوه للضيافة عندهم هذا اليوم ولكنه اعتذر إليهم فساروا معنا مسافة طويلة وكانوا ينظرون إليّ شزراً ويتكلمون مع الجند عني كلاماً لم أسمعه ولم يتنازلوا أن يحيوني أو يسلموا عليّ وبقوا سائرين معنا إلى نقطة يتحول الطريق فيها إلى الشرق تماماً. وهنا ودعوا العامل وانصرفوا بعد أن هدوه إلى الطريق. وقد أدركت في هذين اليومين فائدة وجود العامل معي واعترفت لنفسي بأن جلالة الإمام كان مصيباً في إصراره عليّ بلزوم السفر برفقة العامل، وبديهي أن رب البيت أدرى بالذي فيه فجلالة الإمام منذ نعومة أظفاره وهو يحارب القبائل المتوحشة التي ما خضعت لبشر سواه منذ ألوف السنين فهو أدرى بها وبطبيعة حالها أكثر من كل إنسان. وبعد ذهابهما سألت أحد الجنود الذي اشترك معهما في الحديث ماذا كانا يقولان له ؟ فأجابني أنهما ارتابا في أمري وتعجبا من مجيئي إلى هذه البلاد ومن سماح جلالة الإمام لي بالوصول إليها في حين لم يسمح لأحد غيري أن يدخلها.

سارت طريقنا إلى الشرق تماماً عدة ساعات بين تلال بركانية منخفضة فيها سيول صغيرة شاهدنا فيها أشجاراً ليست مثمرة لا تصلح إلا للوقود وشاهدنا رجماً (أي كوماً) كبيراً من الحجارة معترضاً في الطريق وقال لي العامل هذا مكان فيه قتيل ويسميه البدو رزيم وعلى مسافة يسيرة منه رأيت مقبرة كبيرة فعجبت لأمرها لأنه لا يوجد بقربها مدينة أو قرية كبيرة وسألت أحد الرفاق ما السر في وجود هذه المقبرة هنا ؟ فأجاب أن هذه المقبرة تخص قبيلة جهم التي تقطن في بيوت من الشعر بهذه الجهة، وينقلون الأموات إليها من مسافة يومين لأن أرضها رخية وجيدة (أي طرية أو رخوة) ولا يفنى فيها الميت حالاً، بل يبقى زمناً طويلاً.

وكنا بين حين وآخر ننزل عن ظهور البغال ونمشي على الأقدام تحريكاً لأرجلنا وبينما كنا ماشين قلت للسيد محمد ان بلاد اليمن غريبة جداً فكأني بها سلسلة واحدة من الجبال من أولها إلى آخرها واني أتعجب كثيراً لعدم وجود سهول متسعة فيها، فقال لا تعجب يا صديقي واسمع القصة الآتية، فقلت تفضل، فقال لما عجز الترك أيام الدولة العثمانية عن اخضاع اليمن استدعى أحد ولاتهم العقلاء بعض عظماء صنعاء وسادتها وقال لهم: مابالكم تسيئون إلى الدولة العلية في حين تحسن هي إليكم وتمنحكم الوظائف وتبني لكم المدارس والمستشفيات وتقدم لكم المعاشات إلخ. اني وايم الحق احترت في أمركم هذا فهل لأحد منكم أن يبين لي هذا السر لعلي أتمكن من إصلاح الخطيئات؟.



قصر من قصور صرواح يقف أمامه عامل مأرب السيد محمد الهجوة الكبسي يحيط به بعض الجنود ورجال القبائل

فأجابه أحدهم: لا تعجب من أمر هل اليمن ولا تحتر واستمع إلى ما أقوله لك بانتباه: إن أهل اليمن في سابق الزمن قد حيرو الله سبحانه وتعالى فخلق لهم في كل بقعة (أي مكان) جبلاً ليقهرهم والأفضل لكم أن تسعوا للتفاهم معهم وأن لا تأخذوهم بالقوة والعنف فانهم لن يطيعوكم ما دام فيهم رمق من الحياة. وفي الحقيقة أني لاحظت أنا شخصياً هذه الحقائق ووجدت اليمانيين لا يمكن أن يخضعوا للقوة بل يقابلون القوة بالقوة ولو هلكوا. وبينما نحن نسير وإذا بنا

نسمع بوقاً من أمامنا فتعجبت من هذا البوق وسألت العامل ما الخبر ؟ فقال اني أرسلت إلى مارب كتاباً وعرفت وكيلي باننا سنحضر في هذا اليوم لكي يرسل لنا قوة من مارب. فقلت ليس لنا حاجة إلى قوة إضافية فجندنا يكفي لمقابلة جيش كبير. فقال ليس الغرض مقابلة جيش بل المقصود الاستقبال وجلب بعض الحجات فأدركت أن في الأمر سراً وأنه لا يريد أن يبوح به فسكت كأني اقتنعت من هذا الجواب وداومنا على المسير إلى أن وصلنا إلى الجنود فوجدت نحو عشرين جندي (وجاويشهم) وجميعهم قد نيلوا ثيابهم ونفشوا شعورهم وطلوها بالسليط والسمن وهيأتهم تدل على النشاط والقوة والبأس وبعد أن أدوا التحية العسكرية حسب الأصول تقدموا إلى العامل فرداً فرداً وقبلوا يديه وركبتيه وكان راكباً على فرسه فكان يهش لهم ويسألهم عن صحتهم وأحوالهم، وداومنا السير على هذه الحالة عدة ساعات سائرين بين آكام وجبال منخفضة إلى أن وصلنا إلى سهل مدور تحيطه الجبال من جهاته الأربع فيظهر كأنه بحيرة ويدعى قاع صرواح، وتبلغ مساحته نحو عشرين كيلومتراً مربعاً ورأيت فيه بعض الأراضي مغروسة ذرة ودِجرَة وهو نبات يشبه الفاصوليا الحمراء وقبل أن نصل إلى آخره شاهدنا خربة صرواح وهي مدينة حميرية قديمة يسكنها العرب القحطانيون وما كدنا نقبل عليها حتى رأيت جموعاً من الأهلين يخرجون منها مسرعين نحونا. ولما أقبلنا عليهم اصطفوا صفاً عسكريا وحيونا بإطلاق البنادق والصياح يا مرحباً. ثم أخذوا ينشدون بعض الأناشيد الوطنية على ضرب الطبول. ولما وقف العامل أقبلوا عليه واحداً بعد واحد فقبلوا يديه وركبتيه ثم ساروا أمامنا ينشدون ويرقصون بالبنادق والخناجر إلى أن وصلنا إلى القرية، وفي الحقيقة تأثرت تأثراً عظيماً من هذا الاستقبال الوطني العربي الصميم وحييت الاستقلال والحرية في وجوه هؤلاء الناس البسطاء وفضلت حالتهم الأولية هذه على حالتنا في البلاد التي وقعت تحت الإنتداب وقد تمكنت من الحصول على بعض أناشيدهم وكانت كما يلي وهي بطبيعة الحال موجهة إلى السيد محمد الهجوة عامل مأرب. وهي من نظم صابح بن عبد الله العيّال :

سيدي حضر والله يغيب كل شر   والجوهرة والسعد فوقه والقبول
فإن عقدت الشور فأنتم الخبر   وأنها المحاضر ما يخليها تطول

غيره أيضاً من نظم صالح العيّال:

يا مرحباً حيا بسيدي ما شنت[1] أمزان[2] السحابة

جده علي ذي[3] هزّ مرحب بالسيف في عهد الصحابة

أما طريقة القاء هذا النشيد فانها رهيبة جداً تستفز الشعور وتبعث الحماسة في الرؤوس أكثر من حدي الدروز وأهازيج العرب عندنا في سوريه. وفي الحقيقة أن هيأة هؤلاء الناس عندما كانوا ينشدون نشيدهم أصبحت هيأة مرعبة تدل على أقصى درجات البسالة عند الإنسان والذي كان يزيد في رهبة منظرهم رؤوسهم المنفوشة الشعور وأجسادهم شبه العارية من اللباس خلا من مئزر في الوسط أو ثوب مردّن وكانت تفوح منهم رائحة السليط والسمن ممزوجة مع رائحة عرق أجسادهم فتشكل مزيجاً يفوق الفلور دامور والأودي كولون برائحته الزكية!! ويشمها الإنسان من مسافة عشرين متراً أو أكثر فيظن نفسه بمعصرة زيت. وبينما كنت أسير وسط هذا الجمع المتحمس كنت أنقل نظري من وجه رجل إلى وجه آخر وأتأمل في هذه الوجوه العربية الصافية الدم التي لم يدخلها دم أجنبي فكانت هيأتهم قريبة من بعضهم البعض لأنهم جميعاً عائلة واحدة ودمهم واحد ويقولون لأهل هذه الجهة عرب جهم وهم قحطانيو الأصل. وجوههم جميلة سمراء محروقة بالشمس، واجسامهم معتدلة مفتولة، وقوامهم جميل لا سمنة فيه ولا نحولة، والبستهم جلود الغنم أو الأثواب الشيت المردنة ولكنها من تراكم السليط والغبار أصبحت سوداء لا بيضاء ونساؤهم أجمل من رجالهم وقوامهن نحيل كالسمهري وأجسامهن معتدلة وصورتهن لطيفة وبشرتهن نحاسية لامعة وآية الصحة والعافية بادية عليهن بأظهر معانيها والبستهن الأثواب المردنة السوداء والزرقاء المزينة بالأزرار المعدنية البيضاء، واكثرهن يتمنطقن بأحزمة من الصوف من شغلهن فتبرز نهودهن وتبدو أعضاؤهن بشكل يثير الإعجاب والتقدير.

سرنا في وسط هذا الجمع من العرب الأقحاح في أول مدينة من مدن

---

(١) هطلت ،
(٢) جمع مزنة ،
(٣) الذي

بلقيس الخالدة نشاهد هنا وهنالك بعض بقايا القصور الحميرية العجيبة التي كانت مضرب الأمثال ومحط الرحال وكنت أشاهد العواميد الحجرية المربعة المنقوشة بالكتابة الحميرية بين هذه الأطلال فأخال نفسي في هذا الموكب الخليط من الجنود ورجال القبائل المدججين بالسلاح أني رسول سليمان عليه السلام إلى صاحبة هذه الديار وكانت تمر أمام مخيلتي باللحظة الواحدة ألوف من صور التاريخ القديم المدفون تحت سنابك خيولنا فأسبح الله الواحد القهار الذي قهر عباده بالموت وأحمده سبحانه وتعالى إذ أتاح لي أن أرى بعيني رأسي ان هذه الدنيا زوال وكل ما عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.



بعض العمدان في مدينة صرواح وقد وقف أمامها عامل مأرب السيد محمد الكبسي الهجوة

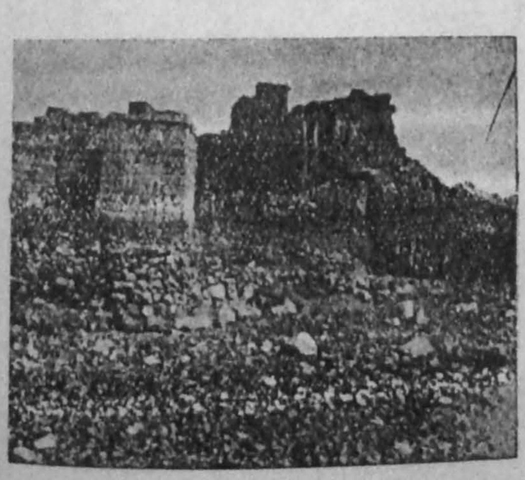
مدينة صرواح

وصلنا في نهاية مسيرنا إلى بقايا قصر عظيم من قصور حمير في الجهة

الجنوبية من المدينة ودخلناه دخول الفاتحين بين الأناشيد وضرب الطبول وقد تأثرت تأثراً عظيماً من جميع ما شاهدته وسمعته فنسيت تعب الطريق وعناءه وأخطاره. وقادنا رب هذا القصر ويدعى صالح بن محمد الجهمي من آل دحيرج إلى داخله فرأيت فسحة مربعة مساحتها نحو مائتي متر مربع ويحدها من جهاتها الأربع جدران عظيمة مبنية من الحجر البركاني المائل إلى البياض ومنحوتة نحتاً جميلاً ودقيقاً، وقد أقام البدو إلى جانب هذه الجدران غرفاً صغيرة وكبيرة بعضها معدة لسكناهم وبعضها لبهائمهم. فاخترنا الفسحة إلى الجهة الجنوبية وهنا دخلنا في ممر ضيق من البناء الجديد وتسلقنا سلماً لا يزيد عرض درجاته على الخمسة سنتيمترات وعددها ١٢ درجة إلى الدور الثاني في القصر وهو مؤلف من غرفة صغيرة واحدة طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف متر، وقد بناها محمد بن صالح الجهمي فوق جدار القصر القديم وجعل لها باباً علوه أربعون سنتيمتراً وعرضه عشرون سنتيمترا وفتح فيها نافذة واحدة طولها عشرة سنتيمترات وعرضها خمسة. وبني أقارب محمد هذا غرفاً كثيرة على هذا الشكل فوق جدران القصر القديمة فشوهوها تشويهاً بشعاً.

وضعنا حوائجنا في هذه الغرفة الصغيرة أنا والعامل والضابط وجلسنا قليلاً طلباً للراحة وإذا بجماهير الكتان أي البق تهاجمني من كل فج عميق وأخذ السيد محمد والضابط وبعض الرفاق يدخنون مداعتهم في هذه الغرفة الضيقة فصعد الدخان كالضباب وكاد يحجبنا بعضنا عن بعض فرأيت أن الأفضل لي أن أنسحب من هنا بانتظام وحيث أن الغروب كان قريباً خرجت من القصر إلى المسجد للوضوء والصلاة وأمر العامل جاويشاً وخمسة من الجنود أن يرافقوني ففهمت من إرسال هذا الحرس معي أن ساعة الخطر قد دنت ولكني لم أعبأ بها ولا اهتممت لها وخرجت بين جموع البدو الذين كانوا لا يزالون واقفين خارج القصر فشق لي الجند الطريق بينهم فكانوا ينظرون لي بأعين ملؤها الحذر والاحتراس وسرت إلى المسجد وهو واقع على مسافة يسيرة إلى جنوبي المدينة. وتبعنا واحد من أقارب رب القصر وجلب معه دلواً وحبلاً طويلاً فأخرج لنا ماء من بئر المسجد وهي بئر حميرية قديمة عمقها ٣٥ متراً وقد أكلت الحبال

في جدرانها عدة سنتيمترات، ولا يوجد غير هذه البئر في هذه الأرض فيستقي منها سكان هذه المنطقة ويأتونها من مسافة ست ساعات. وبعدما صلينا المغرب خرجنا من المسجد فتقدم مني رفيقنا البدوي وقال كيف وجدت هذا الماء فقلت انه مالح قليلاً ولكنه جيد فقال هذا أفضل ماء في هذه البلاد وهو مبارك وله حارس من قديم الزمان. فقلت وأين هو اني لا أراه هنا الآن ؟ فقال: لا يمكنك أن تراه لأنه لا يخرج على الناس إلا قليلاً. فقلت: وهل هو أنسي أم جني ؟ فقال لا بالله حنش كبير أسود سع (أي مثل) هذا العمود وأشار إلى عمود ضخم قائم في جانب المسجد. فقلت عجيب عجيب لو كان عندنا لقتلناه، فقال الله الله لو قتله أحد ينشف البئر حالاً. فضحكت من هذا المنطق الغريب ولكني لم أبد اعتراضاً وعدت إلى القصر مع دخول الظلام وصعدت تواً إلى غرفتنا في الدور الثاني فوجدت الرفاق كما تركتهم يدخنون الشيشة ويخزنون القات وبعد التحية جلست بينهم بصعوبة وأخذت أستمع إلى أحاديثهم وقد بدأها صاحب القصر قائلاً إنه سمع عن أبيه عن جده أن صرواح مهجَّرة من قديم الزمان فقلت وما معنى مهجرة. قال أي محرمة ومؤمنة فكل من يدخلها يكون آمناً ولا يقع فيها قتل ولا سرقة ولا جريمة من الجرائم وإذا ارتكب أحد جرماً ما فلا يمسونه بسوء مادام بداخلها ولكنه متى خرج منها فيحق لأهلها أن يجازوه بنسبة جرمه. وضرب لنا مثلاً على ذلك قال: ان واحداً من الناس سرق قليلاً من الذرة في حياة جدي فحكموا عليه بأن يؤدي حصاناً بدلاً عن سرقته ولكنه كان فقيراً لا يملكك حصاناً فخرج من



قرية الحرَجة وهي آخر قرية من قرى اليهود في شرق اليمن وتظهر في أبنيتها النوافذ الصغيرة

المدينة خلسة دون أن يؤدي الحصان فتبعه جد صالح وقتله شر قتلة. ويستنتج من هذه القصة أن هذه المدينة كانت حقيقة مهجرة أي مقدسة لوجود هيكل من هياكل الآلهة التي كان يعبدها الحميريون كالشمس أو سواها فيها. وآثار البنايات الضخمة والعظيمة موجودة فيها بكثرة وقد يكون أحدها هيكلاً أو معبداً أو ما أشبه والله أعلم.

ثم سألت صاحب القصر كم عدد نفوسكم؟ فقال نحن وولد عمنا نعد نحو مائتي مقاتل. فقلت وأين هم ولد عمك؟ فقال بعضهم في هذه الخربة الثانية الواقعة على مسافة يسيرة إلى الجنوب وبعضهم بالحصون القائمة في هذا القاع أي السهل وبعضهم في بيوت من الشعر وهم موزعون بين الجبال والوهاد. فقلت وما هي مواردكم للحياة؟ فقال: عندنا الماء والغنم والجمال والبقر والخيل ونغرس قليلاً من الذرة والشعير والحنطة في قاع صروح أيام الأمطار. فقلت هل تعرف القراءة والكتابة؟ فقال: سامحك الله من أين لي ذلك نحن ما كنا نعرف نصلي قبل دخول جلالة الإمام لبلادنا. فقلت ألا يوجد بينكم من يقرأ ويكتب، فقال يوجد واحد أو اثنان فقط. فقلت لاحظت أن صاحبك الذي ذهب معي إلى المسجد لم يصل. فقال نعم ان العرب عندنا يصلون قليلاً ولكن شنطلب من جلالة الإمام (أي سنطلب يستعملون للتسويف الشين بدلاً من السين) أن يرسل لنا مرشداً ومعلماً. فقلت لا شك أنكم تحسنون بذلك صنعاً فقال العامل: نعم لقد عرضت هذا لجلالة مولانا الإمام ووافق جلالته على إرسال مرشد ومعلم ولا شك أنهما سيصلان قريباً. فقلت وكيف حال الأمن عندكم؟ فقال بظل جلالة الإمام صرنا بأمان واطمئنان وأما قبل ذلك فما كنا نجسر أن نخرج من بيوتنا إلا جماهير غفيرة خشية الغزو والقتل. وانظر إلى دورنا اننا لا نجسر أن نفعل لها شبابيك كبيرة خشية رمي أعدائنا بالرصاص من الخارج ولذلك نكتفي بكوة أو كوتين صغيرتين وباب صغير. وفي الحقيقة أني شاهدت في هذه البلاد أن حجم الشبابيك أي النوافذ وعددها هما إشارتان لوجود الأمن وعدمه وفي اثناء هذا الحديث دخل علينا رجل ذو لحية كثيفة وشعر طويل مسترسل على الاكتاف ومطلي بالزيت والسمن وقال السلام عليكم فأجبنا

وعليكم السلام ورحمة الله فوجه خطابه إلى العامل قائلاً: والله دالحين وصلت إلى الخربة فعلمت بتشريفكم فاتيت اولاً للسلام وثانياً للرجاء أن تضيفونا غداً إذ ليس من الحق ولا من أصول الضيافة أن تضيفوا ابن عمي ولا تضيفوني فنظر العامل إليّ ليأخذ رأيي فأشرت نفياً لاني أريد الوصول إلى مأرب سريعاً فقال له: لا يمكننا أن نقضي كل النهار عندكم ولكننا سنتناول طعام الغداء ونسير على بركة الله فقال الأمر أمركم ولكن والله ظلمتمونا بهذا العمل يا سيدي فأجاب العامل لا كفى كفى فهي الغداء فقط عندكم غداً إن شاء الله فسكت الرجل واستأذن وانصرف وبعد خروجه قال لي العامل هذا هو من أبناء عم صاحبنا ومضيفنا صالح بن محمد الجهيمي ويدعى عبيد بن مسعود بن طعيمان ويرى أنه من العار عليه أن لا نضيفه ونضيف ابن عمه فقط فقلت أمرنا لله نتناول الطعام كما اشرتم عنده ونسير بإذن الله .

كنت طيلة السهرة أقتل الكتان حولي وعلى يدي وأردت مراراً أن أترك القوم واخرج للخارج ولكن رأيت أن هذا العمل يتنافى مع الذوق السليم فاحتملت لدغ الكتان في سبيل المحافظة على الذوق وأخيراً نظرت إلى ساعتي فرأيتها بلغت الثالثة عربية أي نحو التاسعة افرنجية فقال لي العامل لا شك أنك ناعس، فأتاني الفرج وقلت للحال نعم إني ناعس وتعبٌ أيضاً وسوف أستأذنكم وأترك لكم هذه الغرفة وأنام فوق الجباة (أي السطح) كالأمس فقال الأمر أمرك إفعل ما تريد وللحال قلت للجندي المختص بخدمتي واسمه حسين صالح البيحاني افرش لي هذه البطانيات يا حسين في الخارج وتبعته في الحال إلى السطح وكان السطح بطبيعة الحال بنسبة الغرف ضيقاً للغاية ولكن يحيطه سور من الجهات الأربع ففضلته على الغرفة واستلقيت على ظهري طلباً للنوم ولكن الكرى حرم على أجفاني في أول الليل لأن أعصابي كانت متهيجة جداً مما رأيت وسمعت في هذه البلاد العجيبة. فتارة كنت أفكر في غرابة عادات هؤلاء الناس وكرههم للغريب وطوراً كانت ترن كلمات القاضي راغب بك في أذني وأتذكر قوله انه لم يدخل أحد هذه البلاد ويخرج منها حياً وأحياناً يخطر في بالي مقتل المستشرق الألماني بركار ورفيقه الماركيز دبيبوزي قنصل إيطاليا في المخا في وادي الدور

بينما كانـا يحاولاون الـذهاب إلى مـأرب وأخيراً طـردت جميع هـذه الهواجس وفكرت في قول مضيفنا أن صرواح مهجّرة ولا يمكن للقوم أن يمسوا أحداً بسوء داخلهـا وأخذت أبحث بين النجـوم عن نجمة القـطب والـدب الأكبـر والـدب الأصغر فلم أعثر عليها ولكن تحولت أفكاري من الأوهام إلى الحقـائق وصرت أفكـر في العصور والأجيـال الطويلة التي مرت على هذه الخـرائب وأفكر في أصحابها الذين بنوها وما آلت إليه حالهم فأستعظم عمـل الإنسان والآثـار التي يتركها بعده وهو ذلك المخلوق الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً وقد سبحت مخيلتي في عالم الخيال والأبدية حائرة شـاردة لا تستقر على حـال ولا تحل لغزاً واحداً من ألغاز هذا الكون العظيم وتجاه هذا العجز الظاهر خـررت إلى الأرض ساجداً راكعاً مقراً بعزة الله وقدرته وحامداً إياه على العقل الذي وهبنا إياه لندرك الغث من السمين وهاأنذا أسجل هذه المذكرات وقلبي مملوء إيماناً بعظمة الله وقدرته لا إله إلا هو يحيي ويميت وهـو على كل شيء قـدير . قـال تعالى «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وبعد أن قضيت وقتاً طويـلاً في الهواجس بين صـاح ونائم استـولى عليَّ سلطان الكرى ونمت نوماً هادئاً إلى آخر الليل وعندما صحوت من رقادي نحو الصبح وجدت العامل قد أمر بوقوف حرس يحرسني كل الليل فشكرته على هذه العنايـة وهذا الاحتياط في سري وقلبي.

نهض العامل وسائر الرفاق فتوضأنا جميعاً وصلينا الصبح حاضراً ثم عاد كل منا إلى مكانه أما العامل والرفاق فقد ناموا ثانية وأما أنا فبقيت جالساً إلى أن سطع نور النهار فوقفت إلى جانب سور السطح وسرحت بصري في قاع صرواح ومـا يحيط به من الجبال واستدعيت أحد رجـال القريـة وأخذت أسـأله عن الجبـال واحداً بعد واحد مبتدئاً من الشرق حيث استلفت نظري جبلان عظيمان يبدوان عن بعد للناظر أحدهما أسود بـركاني والآخـر أبيض كلسي فسألت الـرجل عن اسمهما فقال ان الجبـل الأسود الممتـد من الشرق إلى الغـرب والداخـل في الجبل الأبيض يقال له الأشقري والجبل الأبيض الممتد من الجنوب إلى الشمال يقال له هبلان ويكثر فيه البلس والرمان والعنب والذرة والشعير والحنطة وجميع

هذه الأشجار والنباتات تنمو (عقراً) أي بعلية وأما الجبال التي في الجهة الغربية فيقال لها المحجزة. شكرت الرجل على معلوماته هذه وصرفته وصرت أراقب أهل القصر وهم يخرجون الطروش من زرائبها ويسرحونها مع الأولاد إلى القاع والجبال وشاهدت النساء منهمكات بعجن الدقيق وغلي القشر للضيوف وإعداد طعام الصبوح (أي الفطور) وبينما أنا منهمك بمراقبة هذه الأمور وإذا بصبية حسناء تخرج من كنها وتجلس على السطح القريب مني وتأخذ في غزل الصوف بمغزل يدوي وقد أعجبني منظرها فأخذت آلة التصوير أريد تصويرها وما كدت أفتح الآلة وأديرها نحوها لألتقط صورتها حتى شعرت بي في اللحظة الأخيرة فشردت للحال صائحة مستغيثة فما كان مني إلا أني وجهت آلة التصوير نحوها ونحو الذين خرجوا لنجدتها وأفهمتهم أن هذه آلة صماء لا يحصل منها ضرر لأحد فضحك الجمهور منها ولم يعبأوا بصراخها.

وبعد هنيهة خرج العامل من غرفة النوم فتناولنا القشر والصبوح أي طعام الصباح ونزلنا من معقلنا في الدور الثاني إلى باحة القصر فجاء الناس زرافات زرافات يقبلون يدي العامل وركبتيه ويهنئونه بسلامة الوصول وأما أنا فانتهزت هذه الفرصة ودخلت في كثير من غرف الدور الأرضي للقصر فوجدت فيها أحجاراً كثيرة صغيرة وكبيرة عليها نقوش حميرية كثيرة فنقلت بعضها ثم خرجنا من القصر إلى الخارج وأخذنا نفحص بقاياه القائمة إلى اليوم فدهشت كثيراً من انتظام بنائها ومن الرسوم والنقوش المختلفة المرسومة والمكتوبة حول جدرانه في الجهات الأربع ولا شك عندي أن هذا القصر كان من القصور المشهورة في اليمن وقد قرأت في الاكليل بعض الأشعار التي يصف بها ناظمها حال هذا القصر كما وصلت إلى مسامعه يوم وضع قصيدته وهي من نظم عامر بن أحمد بن يزيد القشبي وها هي بنصها:

والبهاليل من سلالة خولا ... ن أولو العزم والفعال الأديب
ملكوا الملك ألف شهر ومدوا ... فوق صرواح بيت ريح الجنوب
فإذا دار دارت الريح فيه ... مستديراً بسمكة المنصوب
بتخاشيب ركبت فيه أزواج ... يتألا بأحسن التخشيب



قصر صرواح الجنوبي

فترى القصرى مستديراً لجنبيـ ـه رخام يدور بالتثقيب

لقد شاهدت هذا القصر قائماً إلى هذا التاريخ وبابه كما يذكر الشاعر في الجنوب وعلى جدرانه الجنوبي والشرقي والشمالي يوجد نقوش حميرية وبناؤه الباقي إلى هذا اليوم مستدير كما يذكر الشاعر وبناء جميع القصور الباقية في صرواح مستدير ولكن الرخام المتقوب الذي يشير إليه الشاعر لا وجود له في هذه الأيام ولا شك أن البدو قد كسروه وبنوا به بيوتهم كما هي عادتهم.

ويظهر من هذه الأبيات أن أهل صرواح كانوا يعتنون بتهوية بيوتهم وهم محقون في ذلك لأن صرواح حارة وخصوصاً أيام الصيف فلا بد والحالة هذه من استعمال بعض الأساليب التي تخفف من حرارة الجو ويفهم من هذه الأبيات أنهم كانوا يحركون الريح في قصورهم بتخاشيب ركبت فيها أزواجاً وأظن هذا الوصف يطابق كل المطابقة المروحة الكهربائية أو ما يشابهها التي نستعملها نحن في هذا العصر.

وجاء في الإكليل في الجزء الثامن عن صرواح ما يأتي:

من مآثر اليمن صرواح وهي ما بين مأرب وصنعاء ولا يقاس بصرواح شيء من هذه المحافد (أي محافد اليمن وقصورها التي ذكرها واحداً بعد واحد) غير

أن صوتها بعيد في أشعار العرب وقد بقي منها قايم وخولان تقول ان سعد بن خولان لماخرج من مأرب تملك بهـا وقد ذكرها شعراؤهم. أنشدني جعفر بن كـافور المراني نفيس بن ساعـدة بن عمرو بن عـدي بن مالـك بن الـدغـاء بن النمر بن وايلة بن الـطمـان عـوف منـاد بن يقـدم بن أقصى بن دعمى بن أياد بذكر ملوك اليمن ومواضعها شعراً:

قـد كنت أسمع بـالزمـان ولا أرى ... أن الـزمـان يـطيق نتف جنـاح

فأراه أسرع فيّ حتى أصبحت ... بيضامتون عوارضي ومساحي

وأنا القريضة بيضة في قومه ... هيهات كم ناوحت من أرواح

صافحت ذا جدن وأدرك مولدي ... عمرو بن هند تبقى بالرّاح

والقيل ذي يزن رأيت مكانه ... قد كان حرم عنه شرب الراح

وسمعت بالملك بن قطرة قاعداً ... بالحنو بين دكادك وبطاح

ورأيت بالحنوين حنواً منعجاً ... حلف الندا شمَّر أبا الصباح

والفـارسي بـذي الجنيبـة زرتـه ... في نعمـة وغـضـارة وطـمـاح

وجذيمة الوضاح خبرني أبي ... عنه فتى بجذيمة الوضاح

برك على انحا هاتك عرشه ... وعلى أذينة سالب الأرواح

وعلى الذي كانت بموكل داره ... بعض الجياد وكل أجرد شاح

وعلى الملوك النازلين بمأرب ... من كل أبيض ماجد نفاح

وعلى الذي ملأ البلاد بخيله ... شهران مثل شقيقه المصباح

وعلى الذي لبثت سلحين برهة ... وعلى ابن عمر أخا صرواح

وملوك ناعط قد سمعت حديثهم ... طرقوا بقاصمة الظهور رداح

وإذا عددت معاشراً لم أحصهم ... من حامل مقلاً ومن جحجاح

أفبعد أملاك فنوا من حمير ... نرجـو الفلاح ولات حين فلاح

وقال علقمة:

مـن يـا مـن الـحـدثـان بـعـ ... ـد مـلوك صـرواحَ ومـأرب

وقال عمرو بن النعمان أخو سعد بن سعد خولان:

لبلقيس كان الملك في أرض مأرب ... وراثـة أجـداد كـرام المعـاطس

خربة صرواح

هذه هي النقوش الحميرية المكتوبة حول جدران هذا القصر وقد نقلتها بخط يدي نقلاً كما وجدتها وقد سقطت بعض الحجارة من مكانها الأصلي ولكنها لا تزال فوق الأرض

لقد اوتيت من كل شيء واعطيت ... من الملك مالم يعط عمرو بن خالس
فأورثه عمرو الندا ابن اذينة ... وخولان في أعلا رفيع المجالس
فمد على صرواح توتى مهابة ... مما ورثها سعداً زمام الفوارس
أقام بها سبعين حولاً محرّماً ... جباية خرج بين رطب ويابس
وأورثها سعد بنيه ولم يكن ... كمثل بنيه عند طعن الحوالس
لنا الفخر فيها والصميمة في العلا ... وحسن جناب وطيب المغارس
أبونا الذي داخ العراق بخيله ... ورابت له ما بين حمص وفارس

وقال سعد بن عمرو أخو بني مالك بن زيد بن أسامة بن زيد بن الربيعة :

فمن مثلنا في الناس إذا بان سبقنا ... دواوين في صرواح تبنى وتنشر
أقمنا بها والناس عنها تفرقوا ... فانجد قوم في البلاد وأوغر
إلينا جميع الناس تهوى وفودهم ... وكان لنا فيها العزيز المجمهر
وصرواح كانت دار جدي ووالدي ... وفي عش منا ملوك تجبَّر

رسوم صرواح والبدو

طفنا حول هذا القصر ونقلت النقوش المكتوبة عليه ثم أخذنا نجول بين خرائب المدينة فاحصين مدققين فوجدنا أن القسم الأعظم منها مدفون تحت الأنقاض ولكن يبدو منه أربعة أو خمسة قصور فخيمة بعضها بالشمال وبعضها بالغرب وهي مبنية بناء متقنا وقد أشار لنا البدو إلى واحد منها في الجهة الشمالية قائلين انه حكي لهم والله أعلم أن هذا القصر كان لبلقيس وكان فيه عرشها واسمه إلى هذا اليوم قصر بلقيس ولكني أرى أن هذه النظرية بعيدة عن الصحة لأسباب كثيرة أولها وأهمها أن عاصمة هذه البلاد كانت في مأرب وثانيها أنه بالرغم من فخامة هذا البناء وضخامته وبقاء قسم كبير من جدرانه ومعالمه سليمة إلى هذا الوقت فلم أجد فيه أو حوله نقوشاً حميرية فلو كان حقيقة للملكة وكان عرشها فيه لكتبوا عليه كتابات كثيرة كما هي العادة في مثل هذه الظروف والأحوال وتأملت كثيراً في بقاياه فوجدته مقسوماً إلى قسمين شمالي وجنوبي ويقوم بينهما ممر ضيق عرضه نحو متر وربع متر ورأيت في الجهة الجنوبية انقاض سلم واسع مبني من الحجر الكبير البركاني المائل إلى البياض ويظهر أن

الباب كان في هذه الجهة وشاهدنا في الخربة كثيراً من بقايا العمدان الحجرية الكبيرة بعضها قائم إلى هذا اليوم وبعضها محطم وساقط إلى الأرض ويوجد على اكثرها نقوش حميرية متعددة ويتبادر لي أنه كان يوجد بالقرب من هذه الأعمدة معبد للشمس وليست هذه الأعمدة إلا بقايا الممرين التي توصل إليه كما هي الحالة في هيكل بلقيس بمدينة مأرب مما سيدركه القارىء بعد قليل.



بقايا أحد القصور أو سرايا لحكومة صرواح القديمة ويقال له قصر بلقيس

ويوجد أيضاً في الجهة الغربية بناء آخر عظيم يشبه بعض الشبه ما يسمونه قصر بلقيس المار ذكره من حيث ضخامة البناء واتقانه ولم يبق منه غير الجدران الخارجية وقد بنى البدو فوقها عششاً صغيرة على نمط العشة التي مر ذكرها لسكناهم ولكني شهدت فيه خزاناً صغيراً للماء طوله نحو مترين ونصف متر وعرضه نحو متر واحد وبينما كنا نتجول في هذا القصر جاء بعض شبان القرية وحيوا العامل ثم استأذنوا بأن يرقصوا أمامنا فأذن لهم وصاروا يرقصون أزواجاً على ضرب الطبل رقصاً رشيقاً يشبه من بعض نواحيه رقص الفالس عند الفرنجة.

بعد اختتام حفلة الرقص سرنا من هذه الخربة مشياً على الأقدام إلى الخربة الثانية لنتناول طعام الغداء على مائدة شيخها الذي دعانا في الليل وسار أمامنا

اهل الخربة الأولى يرقصون ويشدون اناشيد مختلفة. وأثبت ههنا نشيداً منها لما فيه من الإشارة الى تصويري نعرش بلقيس وهي الحق ان ذلك يدل على نباهة البدوي وذكائه ومقدرته على شق الأسماء لاشياء لا يعرفها ولم يرها من قبل:

سيدي محمد بن حسين أدنٌ الحكم تنقل تصاوير اليمن وأهـل الهنـود
قد صوروا بلقيس بالشنتة رسم والأرض باتفنى وربي بالوجود

وبديهي ان البدوي الذي نظم هذين البيتين ما رأى في حياته آلة التصوير ولا سمع باسمها ولكنه رآها في يدي موضوعة داخل شنتتها فاطلق عليها اسم شنتة للحال ونظم أبياته في ساعته. سرنا في هذا الموكب إلى منتصف الطريق بين الخربتين وهنا وافتنا جموع الخربة الثانية ويقال لهم آل ضعيمان وكان يتقدمهم شيخهم عبيد بن مسعود بن ضعيمان فتقدموا من السيد محمد فرداً فرداً وقبلوا يديه وركبتيه ثم ساروا أمامنا ينشدون النشيد التالي من نظم الشيخ محمد بن محسن بن ضعيمان.

حيّا بعاملنا ومن جاء معه ما حنحن الراعد وما شن السحاب
احنا عى رايه ومملوكين له ونمضي أمره في غواء وصواب

وعندما سمع جنودنا هذه الأناشيد أخذتهم الحماسة أيضاً فأنشدوا زاملهم أي نشيدهم المعروف على ضرب البوق وهو:

يا طير يا عازم على أرض الله وبلغ سلام
بلغ سلامي للإمام والسيف ذي[1] هزْ الجبال

وعندما سمعت هذه الأناشيد المثيرة للنفس شعرت أن كل شعرة من شعر رأسي وقفت على طرفها فكادت ترمي العقال والكوفية عنه وطرت بذاكرتي إلى أيام الثورة السورية عندما كنا نلتهب بلظاها فحييت أشبال الشام وأسود بني معروف وكادت الدموع تنهمل من عيني مدراراً وشعرت بهذه اللحظة بين دموع الفرح والسرور بلذة غريبة لا تدانيها لذة ألا وهي لذة الإستقلال والحرية، ومن غريب المصادفات أنني لما كنت أفكر في هذه الساعة بأهلي ووطني وأبكي على

---

(١) أي الذي هز الجبال إشارة إلى ولي العهد أحمد سيف الإسلام

حريتهم واستقلالهم كانوا يتسابقون في بلاد الشام من اقصاها إلى اقصاها في مدنها وعواصمها وسواحلها وقراها إلى بذل نفوسهم رخيصة على مذابح الحرية والاستقلال فحيا الله أهل الشام صغارهم وكبارهم شبانهم وشاباتهم وليثقوا ان أمة شعارها المفاداة والتضحية لا بد أن تنال مناها رغم أنف المنافقين والخائنين والمستعمرين .

وصلنا الخربة على ضرب الطبول والأبواق وانشاد الأناشيد ودخلنا إلى دار عبيد بن مسعود وهي دار من البناء الجديد وصعدنا إلى غرفة اسمح لنفسي أن أسميها بالدور الثاني بالرغم من أنها هي الغرفة الوحيدة في هذا الدور وبابها صغير ارتفاعه ٤٥ سنتمتراً وأما النوافذ فلا أثر لها أبداً بل هناك كوة صغيرة لا يتجاوز قطرها ثلاثة سنتمترات وأما سقف هذه الغرفة فمصنوعة من العيدان الرقيقة والنباتات وفي الحق أني خلت نفسي في غرفة من غرف الأطفال الصغار التي يبنونها للتسلية في أوقات فراغهم وبعد أن جلسنا قليلاً وشربنا القشر[١] حسب العادة خرجت إلى السطح وتأملت هذه الخربة فوجدتها مبنية من الحجارة وأكثر أحجارها منقولة البنايات القديمة من حميرية وعليها نقوش كثيرة ثم نزلت من السطح وخرجت خارج الدار يصحبني نفر من الجند فطفت حقول الذرة وكانت يانعة مع أن الفصل فصل شتاء والبرد هنا على أشده ولكن شتاء هذه البلاد يعادل صيف سورية، والغريب أن الذرة والحنطة والشعير تنمو عقراً من غير سقي ويكفيها أن تشرب مرة واحدة لتؤتى أكلها وقد رأيت سكة الحراثة وهي صغيرة جداً لا يزيد طولها على سبعة سنتيمترات وروى لي البعض أن مزروعاتهم هنا تعطي أكلها إذا جاءتها الأمطار مرتين في الموسم الواحد عوضاً عن المرة الواحدة .

عدت إلى الدار بعد هذا الطواف اليسير وما كاد يستقر بي الجلوس حتى جاء الطعام وكان مؤلفاً من حلبة وهريش ولحم وقد جلبوا الحلبة والهريش أولاً ثم جاء دور اللحم أخيراً فوزعه رب البيت على المجتمعين فأكلوا هنيئاً مريئاً ثم مسحوا زفرة أيديهم وبعد الفراغ من الطعام ردد القوم لصاحب الدار قولهم كثر خيرهم ويخلف عليهم. ثم جلسنا لنتقهوى وأخذ العامل وصحبه يدخنون

---

(١) من عادة أهل اليمن أن يشربوا قشر القهوة بعد غليه وهو لذيذ وفيه مادة عطرية وسكرية خاصة.

المداعة وقال لي العامل إن هؤلاء العرب كرماء جداً ويحسبون حساب ضيوفهم قبل نفوسهم وتجد الواحد منهم مهما كان فقيراً يقدم لضيفه كل ما يستطيع تقديمه ويحرم نفسه من اللحم ويقدمه للضيف وفي سنوات المحل تجدهم يبيتون على الطوى ويخزنون الزاد والطعام لضيوفهم ولا يمسونه مهما كان الحال. فقلت اني آمنت بذلك أمس واليوم لأني شهدت مضيفنا يوم أمس يذبح ثلاثة كباش واليوم عندما خرجت إلى الدار رأيت خمسة كباش مذبوحة وملقاة على الأرض وهذا شيء مشهور عن العرب فلا يقدر أن يجاريهم فيه أحد.

وقد تضايقت من الجلوس في الغرفة فخرجت ثانية وأخذت أطوف بين بيوت هذه القرية فرأيت بعض النساء يغزلن شعر الماعز وصوف الغنم وإلى جانبهن بضعة رجال يحبكون الغزل على أنوال خشبية بسيطة شدوها إلى الأرض فيصنعون منه ما يسمونه دُفى وبجاد وفراش أي شقاق لبيوت الشعر وبسطاً للجلوس ورأيت في القرية بعض النساء يضعن على وجوههن نصف برقع أسود مزين بالأزرار البيضاء ويضعن في أعناقهن عقوداً من الودع والخرز الملون وفي معاصمهن أساور من المخلص أي الفضة وفي أرجلهن خلاخيل من المخلص الفضة أيضاً فسألت أحد الرجال أين يصيغون هذه الحلى من المخلص فأجابني في مأرب وقد استلفتت نظري بعض الأساور لأني رأيت في مصر وسورية بعض نساء الفرنج يلبسن مثلها تقريباً.

وبينما كنت عائداً إلى الدار رأيت العامل قد خرج وخرج القوم خلفه وأخذوا يقبلون يديه وركبتيه وهو يرد تحيتهم بلطف ووداعة وفي الحق هذه عادة غريبة عند هؤلاء العرب الصناديد وأنا واثق أنهم لا يقبلون يدي العامل تزلفاً إليه أو خوفاً منه لأنهم قوم لا يفهمون معنى الزلفى ولا يهابون الموت أو يرهبون الردى وما دفعهم لهذه المظاهر سوى احترامهم لنسب هذا السيد الشريف الذي ينتمي لسيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ ولكني الوم السادة ومن حذا حذوهم في اعطاء يدهم لغيرهم لتقبيلها وأخص السادة باللوم لأن سيد البشر جدهم الأعظم صلوات الله عليه كان يكره هذه العادة وينهى عنها وجدير بهم أن يحذوا حذوه.

المرحلة الأخيرة إلى مأرب

في نحو الساعة السابعة أي الواحدة بعد الظهر في يوم الأربعاء ٢٩ كانون الثاني ركبنا من خربة صرواح وهي آخر مرحلة من مراحلنا قاصدين مأرب ودعا العامل شيخ جبل هيلان المدعو صالح بن سعيد النظما ليرافقنا في الطريق لأنه خبير بأراضي هذه البلاد واسمائها. وسرنا باسم الله جنوباً بشرق مسافة يسيرة ثم تحولت طريقنا إلى الشرق تماماً ورأيت إلى جنوبنا سلاسل جبال بركانية عظيمة آخذة بعضها برقاب بعض فسألت الشيخ صالحاً عن اسمها. فقال لي القريبة منا العجازم والتي تليها جبال بني ظبيان، ومياه السيول في هذه الجبال تنضم إلى مياه السيول التي تأتي من صرواح وتسيل جميعها في سائلة واحدة يقال لها سائلة مَلح إلى أن تصب في السيل العام الذي يذهب إلى مأرب. وكأني بالشيخ صالح أدرك ما هو القصد من رحلتي فكنت إذا سألته سؤالاً مما له علاقة بالسيول والمياه والسد إلخ كان يجيبني عليه أجوبة مطولة مفيدة.

سارت طريقنا شرقاً بوادٍ فسيح بين جبال واطية بركانية مسافة ساعة ويقولون له قاع الحقيل وخرجنا من هذا القاع فدخلنا مكاناً يقال له المحفى وهو في الحقيقة تتمة للقاع ولكنهم فرقوه عنه وسموه المحفى لأن أرجل المخلوقات التي تمشي فيه تحفى أو تهرأ لكثرة ما فيه من أحجار وهذه الأحجار هي نتيجة موجة بركانية رقيقة طغت على هذا السهل ولما بردت تركت هذه الأحجار البركانية الصغيرة السوداء خلفها. وقد رأينا في هذا القاع وما يحيط به من الجبال والوديان أعشاباً كثيرة وطروشاً عظيمة وأعطاني صالح بن سعيد عشبة يقال لها زقيقاء وهي ذات زهر جميل له رائحة عطرية ذكية. وفي الحق أن معظم الأعشاب هنا لها رائحة ذكية. ودامت الأراضي على هذا الشكل إلى أن وصلنا إلى قرب سائلة «ذنة» وقد رأيت بعض الكتاب الأقدمين والمجددين يكتبونها أذنة وهذا خطأ فأهل البلاد يقولون لها «ذنة» وليس أذنة، ولهذه السائلة أهمية عظيمة لأنها هي مجمع السيول لجزء كبير من سيول بلاد اليمن وتصب فيها جميع السيول التي تأتي من جهة الغرب أي من ذمار ويَريم وجهران وبلاد الحدى وبلاد خولان وبلاد مراد وقيفة وتصب فيها أيضاً السيول التي تأتي من الشمال من بلاد جهم

ويقال لها سيل القطوطة وتصب فيها أيضاً السيول التي تأتي من الجنوب ويقال لها سيل الجوبة وتجتمع جميع مياه هذه السيول في شبه بحيرة كبيرة مساحتها عشرات الكيلومترات تحيط بها الجبال والوديان من جميع الجهات وهي مرتفعة من جهة الشمال والغرب والجنوب ومنخفضة من جهة الشرق حيث تصب في وادٍ ضيق بين جبلين يقال لهما جبل بلق الايمن وبلق الأيسر وهما في الحقيقة جبل واحد ولكن السيول قد افتتحت فيه وادياً ضيقاً فقسمته إلى جبلين. ويسمى فم هذا الوادي بباب الضيقة، وكأني بهم سموه ضيقة لضيقه إذ لا يبلغ عرضه اكثر من مائتي متر وهو أول مجرى من مجاري الماء لخزان سد مأرب الحقيقي لانه يجوز لنا مجازاً بأن ندعي أن شبه البحيرة الكبيرة التي تجتمع فيها السيول من الجهات الثلاث يسمى خزاناً أيضاً وقد خصصت فصلاً خاصاً لبحث هذا الخزان والسد وسيأتي ذكره قريباً. وقد وصلنا إلى باب الضيقة ليلاً منهوكين من التعب فرأينا من الأفضل لنا أن نقضي ليلتنا ههنا بالقرب من الماء بين شجر الأثل الجميل الذي يكثر بهذا الوادي فوضعنا أحمالنا ومدوا لنا وسائدنا فوق الرمال واخذ الجند يجلبون من الحطب كميات وافرة استعداداً للإصطلاء بالليل ثم توضأنا وصلينا وجلسنا بعيداً عن النار التي أوقدها الجند ولكن العامل حفظه الله كان يبرد كثيراً وبالرغم من أنه كان يلبس عدة أثواب بعضها فوق بعض ويلبس فوقها جميعاً فروة من فراء اليمن ويسمونها (كركاً) شكا من البرد وأمر بإشعال نار بالقرب منا فقلت لا، أبعدها عني واجعلها بقربك فقط فقال حسناً. ومن الغريب في أمر أهل اليمن أنهم يخافون من البرد كثيراً. قضينا سهرتنا على نور القمر والنار ثم أخذ الرفاق يستعدون للنوم فخلعوا جميع ثيابهم ودخلوا في أكياسهم وبعد برهة وجيزة صاروا يغطون في النوم غطيطاً. والنوم بالأكياس عادة منتشرة في جميع اليمن من أقصاه إلى أقصاه. ، وقبل هذه الرحلة لم أدرك سرها وأما في هذه الرحلة فأيقنت بفائدتها من وجهين على الأقل الوجه الأول أنها تحول دون لذع البعوض والكتان الموجود في كل مكان، والوجه الثاني أنها تحصر حرارة جسم الإنسان داخل الكيس فيبقى طول ليله دافئاً وأما ضررها من جهة التنفس فلا شك فيه ولكن يظهر أن القوم اعتادوا على هذه الحال.

نام القوم طول ليلهم إلا أنا فلم يغمض لي جفن إلا قليلاً فكيف أنام وأنا على باب سد مأرب وعلى قاب قوسين أو أدنى من مدينة بلقيس العظيمة ؟ وما برحت منذ عشر سنوات أحلم بهذه الزيارة وتتشوق نفسي إليها وكنت كل الليل أتخيل تخيلات غريبة وأرسم في ذهني صوراً عجيبة للسد ومجاريه ومارب وقصورها وبلقيس وعرشها ووإلخ . وودت لو كان لي جناح الهدهد فأسبق الرفاق لمارب، وما كاد ينبثق الفجر حتى أيقظت الرفاق من نومهم فأخذوا يخرجون من أكياسهم واحداً بعد واحد وكان منظرهم مضحكاً للغاية، وبعد هنيهة نهض العامل وأمر باشعال النيران فأشعلوها في الحال وأخذنا نستدفىء حولها. وقد شعرت في هذه الساعة ببرد يسير يتسرب إلى جسمي فأشرت إلى الخادم حسين أن يصنع لي شاهياً فصنع فشربنا الشاهي واصطبحنا أي أكلنا الصبوح وصلينا وانبعثنا على بركة الله، وكانت طريقنا تسير في نفس سائلة «ذنة» التي يزداد عرضها كلما سرنا لجهة الشرق إلى أن يبلغ في منتصفها نحو ٥٠٠ متر وهي تشكل ههنا شبه دائرة ثم تعود فتأخذ في الضيق إلى أن تصل إلى آخر الوادي بين الجبلين إلى نقطة قال لي دليلنا صالح سعيد أن اسمها مربط الدم (أي الهر) وهي المكان الذي بنوا فيه السد وقد أطلقوا عليها اسم مربط الدم على رواية صالح سعيد لأن أهل مأرب عندما شعروا بأن السد سوف يخرب ويكون سبب خرابه الجرذان ربطوا عدداً كبيراً من القطط إلى جانب السد ليحولوا دون ظهور الفئران ولذلك سموا المكان بمربط الدم. وقد طالعت في كتب عربية كثيرة وفي بعض الكتب الفرنجية أن من جملة أسباب خراب السد هو ظهور الجرذان حوله وثقبها فيه ثقوباً كثيرةً لسكناها، وأني أثبت ههنا قصة طريفة عن كيفية خرابه اطلعت عليها في أحد الكتب القديمة ليرى القارىء صعوبة الحصول على معلومات صحيحة في هذا الخصوص.

جاء في الجزء الأول من حياة الحيوان للعلامة الشيخ كمال الدين الدميري بحث مطول عن سد مأرب في الصفحة ٢٥٨ وقد لخصت منه ما يلي قال:

ذكر بعض المفسرين أن الخلد هو الذي خرب سد مأرب وذلك أن قوم سبأ

كانت لهم جنتان (بستانان) عن يمين من يأتيها وشماله. قال الله تعالى لهم وكلوا من رزق ربكم واشكروا له، أي على ما انعم به عليكم، وكانت بلدتها طيبة لا يرى فيها برغوث ولا بعوض ولا عقرب ولا حية ولا ذباب وكان الركب يأتون وفي ثيابهم القمل وغيره فإذا وصلوا إلى بلادهم ماتت وكان الإنسان يدخل البستان والمكتمل على رأسه فيخرج وقد امتلأ من أنواع الفواكه من غير أن يتناول منها شيئاً بيده فبعث الله لهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فأعرضوا وقالوا ما نعرف لله علينا من نعمة، وكان لهم سد بته بلقيس لما ملكتهم وبنت دونه بركة فيها إثنا عشر مخرجاً على عدد أنهارهم فكان الماء يقسم بينهم على ذلك، فلما كان من شأنها مع سليمان عليه الصلاة والسلام ما كان مكثوا مدة بعدها ثم طغوا وبغوا وكفروا فسلط الله عليهم جرذاً اعمى يقال له الخلد فنقب السد من أسفله فهلكت أشجارهم وخربت أرضهم. وكانوا يزعمون في عملهم وكهانتهم أن سدهم ذلك تخربه فأرة فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة فلما جاء الوقت الذي أراد الله تعالى أقبلت فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت في الفرجة التي كانت عندها وحفرت فلما جاء السيل وجد خللاً دخل فيه حتى قلع السد وفاض على أموالهم (أي أراضيهم) فأغرقها ودفن بيوتهم بالرمل.

وروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ووهب وغيرهما أنهم قالوا: كان ذلك السد بنته بلقيس وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء أوديتهم فأمرت بواديهم فسد بالعرم وهو السد بلغة حمير فسدت بين الجبلين بالصخر والقار وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض وبنت من دونه بركة ضخمة وجعلت فيها إثني عشر مخرجاً على عدد أنهارهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء وإذا استغنوا عنه سدوها فإذا جاء المطر اجتمع إليه ماء أودية اليمن.

ونقل الإمام أبو الفرج بن الجوزي عن الضحاك أن الجرذ الذي خرب السد كان له مخالب وأنياب من حديد وأن أول من علم بذلك عمرو بن عامر الأزدي وكان سيدهم وقد رأى في المنام كأنه انبثق عليه الردم فسال الوادي فانطلق نحو الردم فرأى الجرذ يحفر بمخالب من حديد ويقرض بأنياب من حديد إلخ.

وفي العرم أقوال كثيرة قيل هو المسناة أي السد قاله قتادة، وقيل هو اسم الوادي قاله السهيلي، وقيل اسم الخلد الذي خرق السد، وقيل هو السيل الذي لا يطاق. وأما مأرب فبسكون الهمزة اسم لقصر كان لهم وقيل هو اسم لكل ملك كان على سبأ كما أن تبعاً اسم لكل من ولى اليمن والشحر وحضرموت قاله المسعودي. واسم سبأ عبدشمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، قيل انه أول من سبى فسمي سبأ، وقيل انه أول من تتوّج من ملوك اليمن.

وفي الحديث «قال رجل يا رسول الله أخبرني عن سبأ أكان رجلاً أو امرأة أو أرضاً فقال ﷺ كان رجلاً من العرب وله عشرة أولاد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وانمار وحمير وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان» انتهى.

أما أنا فأقول لا شك أن تفاسير هذه الأسماء كما ذكرها الكتاب الأقدمون تحتمل الصدق والكذب ولكن ستظهر الحقيقة إن شاء الله متى تمكنت أن أقف على قراءة الأسانيد الكثيرة التي نقلتها وجلبتها معي من تلك البلاد، وقد نقلت الجميع من أماكن ثابتة معلومة، لا من أحجار مبعثرة هنا وهنالك. فقد نقلت نحو ثلاثين نقشاً من السد وحده، ولا شك أنه يوجد بينها أسماء من بنوا هذا السد وعنوا بأمره، لأنه في ظني ليس من عمل ملك واحد، بل من عمل عدة ملوك.

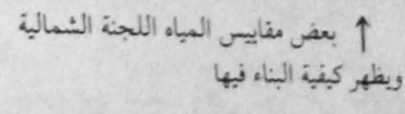
ورأينا عند مربط الدم، بعض الآثار الباقية من السد، وهي كناية عن مخرج الماء من الجهة الجنوبية، وسيأتي ذكرها بالتفصيل قريباً، لأني درست هذه الخرائب بالتدقيق درساً وافياً بعد وصولي إلى مأرب. وأما يوم مرورنا بها فاكتفيت بخطفة بصر فقط، ورأيت على مسافة يسيرة إلى شرقي السد آثار بناء مربع ضخم يظهر أنه كان مختصاً بحراس السد والماء.

وتابعنا سيرنا فمررنا بما كانوا يسمونه قديماً الجنة الشمالية، وشاهدنا فيها بقايا مجاري الأنهر القديمة التي كانت تسقيها وهي مبنية مما يسمونه بالقضاض أي الحجر والسمنت، ومرتبة ترتيباً هندسياً بديعاً، وشاهدنا بقايا البساتين،

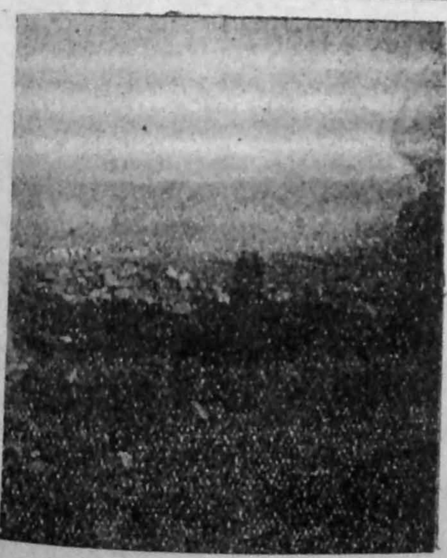
ويختلف حجمها بعضها عن بعض، فمنها الكبير ومنها الصغير ومنها الوسط، وأما توزيع المياه عليها فعلى نمط واحد أي يجري من الأنهر بقنوات صغيرة وفروع متعددة، يختلف اتساعها بنسبة اتساع البستان الذي تسقيه. وأما نوع التربة فمن التراب الأحمر الدلفاتي السميك وفي الوقت الحاضر لم أر بهذه الجنان أشجاراً ولا نباتات، لأن مياه السيول بعد خراب السد أصبحت أوطى منها فلا تصلها، والأمطار هنا لا تهطل إلاّ نادراً، وإن هطلت فرذاذاً، لذلك يعول الزراع على الأراضي القريبة من سائلة ذنة فيغرسونها

وعندما اقتربنا من مارب قابلنا جموع الأهلين آتين للسلام على العامل،





↑ بعض مقاييس المياه اللجنة الشمالية ويظهر كيفية البناء فيها



← بعض خرائب مارب وأطلالها

وكان سلامهم عليه باطلاق الرصاص، ولعمر الحق ان هذا أجمل سلام يدل على البأس وعزة النفس، وكانت الجماهير تزداد كلما اقتربنا من المدينة، وكانوا ينتظمون في صف واحد ويسيرون أمامنا وينشدون بعض الأناشيد الوطنية، وقد تمكنت من الحصول على بعضها، والى القارىء الكريم خلاصتها.

يا مرحباً بالعامل المشهور — والأرض قد هي لك مطيعة
حيًا بعاملنا وذي[1] جانا معه — يا ضاح[2] وادينا في العَدرَا الظلام
مأرب يرحب والحكومة رحبت — والأرض فوق الجِيدْ[3] تضرب لك سلام
يا مرحباً يا الكبسى أثناء عشرة ماءة — يا مَرْدمَ[4] الوادي وقُفْله والسِراج
يَلْعِد[5] ذي مروي[6] المشارق كلها غيره — من سطوتك خلّا[7] المغازي بن عجاج
حيا بعاملنا وراعي الشام ذي جانا معه — متوكلة[8] وادي سبأ بأمر الامام
الحمد لله قد سعدنا يوم جتنا الذُيويله — بجاه مولانا سعدنا يا كرام

ومن دواعي الأسف أن قراءة هذه الابيات ليست كسماعها، فهي لا تحتوي على معان وبيان، وأوزانها ليست مضبوطة، ولكن اذا سمعها المرء تنشد من ذلك الجمع المخيف يطرب منها كل الطرب، وتستولي على مشاعره وعواطفه، وتستفز فيه الشجاعة والبطولة، وتعروه رعدة حماسية حتى ولو كان رعديداً جباناً:

في مدينة مارب

وصلنا الى مارب، ودخلناها بين ضرب الطبول والاناشيد، وقد مررنا بأطلال المدينة القديمة، إلا أني لم أنتبه إليها كثيراً، لأني كنت منصرفاً بكليتي إلى مراقبة هذا الجمهور المتحمس لرؤية عامله، وكنت أراقب الناس فرداً فرداً لأفهم هل هذه المظاهر مظاهر تقليدية فقط، أم هي ناشئة عن شعور حقيقي، فأدركت غايتي عندما ترجلنا عن بغالنا في باب دار الحكومة اذ تزاحم الناس

---

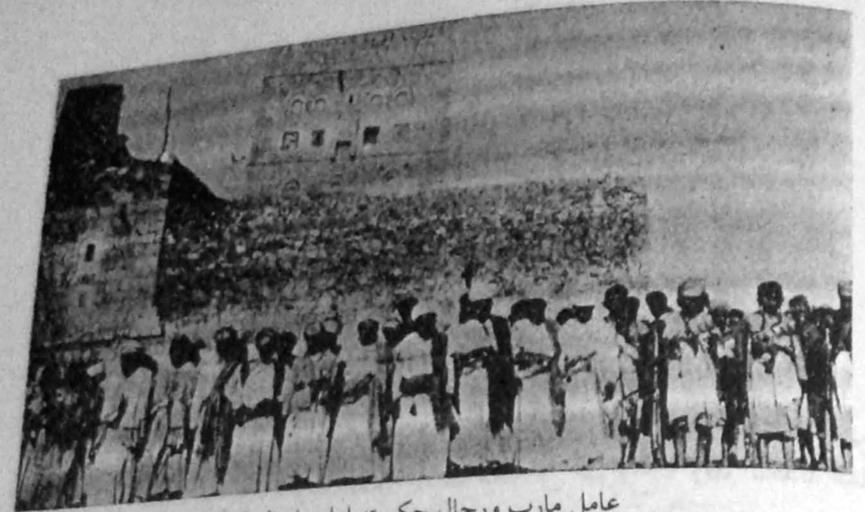
(١) الذي
(٢) سراج
(٣) الجبل
(٤) زاوية أو سند
(٥) يا من نعتمد به ونعول عليه
(٦) ساقي
(٧) جعل الرجل المشهور بالغزو يتركه
(٨) نواب الإمام وكلاؤه بناء على أمره.

تزاحماً على العامل منقطع النظير، ووجوههم تطفح بشراً وفرحاً، والقوا بأنفسهم عليه، وصاروا يقبلون يديه وركبتيه وما عاد منهم فرد واحد إلا بعد ما قبل يده وركبته.

دخلنا دار الحكومة، وهي واقعة إلى جنوبي المدينة الحديثة وعلى مسافة خمسين متراً منها وبناؤها على طراز بناء دور صنعاء، ومؤلفة من ثلاثة أدوار فصعدنا بادىء الامر إلى الدور الثالث في درج لولبي مظلم فيه عدة ثقوب صغيرة تستعمل كرمايات عند الحاجة. وبعد أن غسلنا أيدينا ووجوهنا وتوضأنا وصلينا نزلنا إلى الدور الأول وفيه صالون كبير قد اتخذه العامل مكتباً له، وهو مبني بناء لا بأس به، وفيه وله الحمد نوافذ كبيرة متعددة يدخل منها النور والهواء بصورة كافية للتهوية، دخلنا هذا المكتب وفتحنا نوافذه وجلسنا يهنىء بعضنا بعضاً بسلامة الوصول، وفي الحال امتلأ المكان بالذباب الذي صار يهاجمنا مهاجمة عنيفة، والذباب هنا كثير جداً على ما فهمت ويكثر في أيام البرد ويموت في أيام الحر، وهذا بعكس البلاد الباردة، وقد انزعجت في الحقيقة منه كثيراً، وأخرجت منديلي وصرت أطرده عن وجهي فما كان من شقيق العامل إلا أن ألقى إليّ بمنشة كانت بين يديه فدهشت لما وجدتها ذنب ثور. وقد أخذ كل واحد من الحاضرين منشة من هذا النوع، وأخذ يدفع بها عن نفسه الذباب.

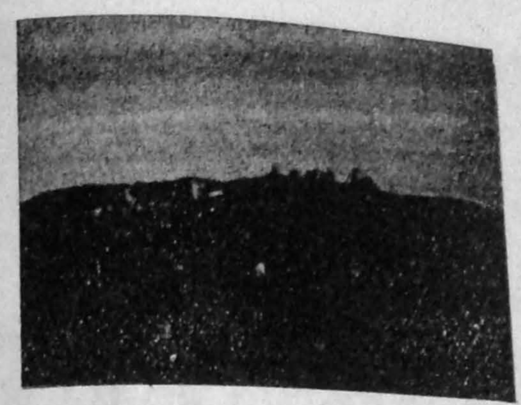
وبعد جلوسنا ههنا نحو ساعة من الزمان جاءنا خادم العامل وقال: ان الغداء جاهز فتفضلوا، وللحال تبعناه إلى الدور الثاني حيث مدوا سماطاً على الأرض ووضعوا فوقه كثيراً من الصحون والاطباق، فجلسنا حول السماط، وأخذنا نلتهم الطعام التهاماً لأنه كان جيداً، ولأننا كنا جياعاً. وكان مؤلفاً من الحلبة والمكرونة والأرز واللحم والحلوى المسماة بنت الصحن، وهذه أكلة جيدة لم أذقها قبلاً، فسألت العامل عن تركيبها. فقال: هي مصنوعة من عجين الحنطة والبيض والسمن والعسل.

وبعد الطعام عدنا إلى مكتب الحكومة، وقد اتخذناه صالوناً لجلوسنا ولاستقبالنا كل المدة التي أقمناها بمارب، وأخذ العامل وأخوه وصحبه يدخنون المداعة ويخزنون القات، ومع أن القات غير موجود هنا فهم يجلبونه من الجبال



عامل مارب ورجال حكومته امام دار الحكومة

مع القوافل التي تأتي يومياً لابتياع الملح، ولكنه في كثير من الاحيان يصل يابساً لطول الوقت فلا يمكنهم مضغه، فيدقونه في أجران خاصة ثم يمضغونه، ولكن هذه المرة كان العامل قد جلب معه كمية كبيرة وبقيت محافظة على شيء من طراوتها لأنهم حزموها جيداً، وقد فرح الموظفون بها كثيراً، وأخذوا يخزنون هذا اليوم بشهية زائدة. وأما أنا فوجدت أن أفضل طريقة لي هي الهرب، فاستأذنت بالخروج، وخرجت إلى أطلال المدينة فألقيت عليها نظرة سطحية، وأدركت من أطلالها أنه كان لها سور محيط بها من الجهات الأربع، وقد ألحق العامل بي بعد خروجي نحو عشرة جنود للمحافظة، وفي الحق ان هؤلاء الجنود كانوا يزعجونني ويفسدون عليَّ تأملاتي بأسئلتهم الكثيرة التي تشبه أسئلة الأولاد الصغار، ومن العجيب في اليمن أنه كلما جاءهم رجل غريب يعتقدون أنه مهندس أو حكيم. وقد دعيت بهذا الاسم، وانتشر خبر مجيئي إلى مارب بعد وصولنا فوراً، وصار الناس يتساءلون لماذا جاء هذا المهندس؟ فبعضهم قال إن جلالة الامام أرسلني لكي أفتش على الكنوز والآثار المدفونة. وبعضهم قال لا، بل هو مهندس بناء جاء لكي يهندس داراً للحكومة، وبعضهم قال: لا. بل هو مهندس طرقات جاء لينظر الطريق ما بين صنعاء ومارب، وبعضهم قال: لا. بل هو يعرف أين توجد المعادن وخاصة الذهب وفي استطاعته أن يشم الأرض



جزء من اطلال مارب

فيعرف منها أين الذهب موجود، وقد قص عليَّ هذه الاخبار والروايات التي شاعت عني عقيب وصولنا دليلنا الذي جلبناه معنا من صرواح، وقد اتخذته عيناً لي لأعرف ماذا يقال عني وماذا يبيت لي في الخفاء لاكون على بينة من الأمر. بقيت أتجول برهة بين هذه الأطلال فرآنا جمهور من الأهلين وأخذوا يراقبون حركاتنا عن بعد لعلهم يقفون على حقيقة أمرنا.

عدنا إلى دار الحكومة وكان المساء قد أمسى فتوضأنا وصلينا وتعشينا ودخلنا إلى المكتب فعاد القوم إلى التدخين والتخزين وعدت إلى التفكير في ما رأيت وما سمعت في ذلك النهار وأخذت أدون هذه المذكرات. فقال لي العامل غداً سنخرج إن شاء الله إلى ما يسمونه محرم بلقيس فقلت وما هو هذا المحرم فقال: يحكون والله أعلم أن بلقيس كانت تخرج إلى خارج المدينة كلما فاجأها الحيض فتقضي مدته في هذا المحرم ثم تغتسل وتعود إلى المدينة. فقلت لا بأس من الخروج إلى هناك غداً أما الآن فإني أستودعكم الله سأذهب إلى النوم، وصعدت حالاً إلى الغرفة التي خصصت لنومي في الدور الثالث وكانت الساعة نحو الثالثة عربية أي التاسعة زوالية وما كدت أستلقي على ظهري في الفراش حتى أخذت أسمع قرع الطبول في الدور الأول وعقبه مارش الإمام، وفي جميع أنحاء اليمن يقيم الجند في معسكراتهم وثكناتهم في الساعة الثالثة حفلة تدوم نحو ربع ساعة يقرعون الطبول ويختمونها بنشيد الإمام وهو كما يلي:

عند الشروع أقم نصره يا قايم النصر يا الله

يالله عليك بالجماله يا جميل العوايد قايم النصر يالله



بعض شيوخ البدو ورجال القبائل بمارب فوق أطلال مدينتهم
وقد أتوا للسلام علينا

وما كاد الجند ينتهون من نشيدهم حتى استسلمت للكرى ونمت نوماً عميقاً ولا أظنني تقلبت في تلك الليلة لا يمنة ولا يسرة لأني كنت تعباً من السفر ولم أنم في الليلة الماضية إلا يسيراً وعند الصبح صحوت من رقادي على قرع الطبول وعلى ذكر الجند التسابيح التالية:

يا الله رضاك يا الله رضاك وأرض علينا بالرضا يا الله رضاك يا الله رضاك يا الله رضاك والعفو والرضا منك يا الله رضاك.

واحنا طلبنا عظيم الشأن كريمان يا فاتح أبوابه
يا الله المطلوب وافتح لنا بابك
يا الله المطلوب وافتح لنا بابك
يا الذي ما تمشي أقدامنا إلا بك
يا الذي ما تمشي أقدامنا إلا بك
سهل النيات يا عدل يا والى

وهذه أيضاً عادة جميلة في الجيش اليماني فأينما كان الجنود ينهضون عند الصبح وينشدون التسبيحة المارة الذكر ولكني بينما كانوا يسبحون ما فهمت كلمة واحدة منها إنما سألت أحدهم صباحاً ماذا كنتم تقولون عند الصبح فأعادها



وادي ذنه بالقرب
من مدينة مارب وسدها

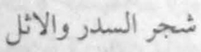
على مسامعي فدونتها لفوري بمذكراتي.

وبعد تأدية فرض صلاة الصبح وتناول الصبوح نزلت من غرفة النوم إلى المكتب فجاءني صالح سعيد واخبرني أن أشراف المدينة في هرج ومرج يتكلمون عني كثيراً ولا يرغبون أن أخرج إلى خراباتهم وفي نيتهم أن يحادثوا العامل بهذا الموضوع، فقلت له ومن هم هؤلاء الأشراف؟ فقال هم سادة من نسل الحسن رضي الله عنه وينتسبون إلى آل سعود. فقلت وهل تعني جلالة الملك عبد العزيز بن سعود؟ فقال كلا ليس لهم صلة أو نسب بالنجدي ، بل هم كما قلت لك سادة أشراف. فقلت وهل هم كثيرون؟ فقال كلا ولكنهم يملكون معظم هذه الأراضي والخرائب، ولهم أبناء عم كثيرون في الجوف، فقلت حسناً فانصرف الصديق وبقيت في المكتب لوحدي أفكر في أمر هؤلاء الشرفاء وإذا بالعامل يدخل وبعد التحية جلس قائلاً كيف همتكم اليوم الا نعزم أي نذهب إلى محرم بلقيس؟ فقلت نعم لا بأس من عزمنا فأمر باعداد البغال ودخل عليه أحد الحجاب فهمس في اذنه كلمات لم أسمعها فقال العامل لا بالله فليدخلوا، فدخل ثلاثة رجال لابسين أثواباً نظيفة بالنسبة إلى أثواب غيرهم، ومتمنطقين بالجنبيات وبعد التحية وتقبيل الأيادي مع الركب همس أحدهم حديثاً باذن العامل فنهض العامل وخرج معهم الى باحة الدار وبعد عشر دقائق عاد إليَّ وهو يبتسم فأيقنت أن الحديث كان بشأني وأن هؤلاء الأشخاص من الأشراف، فقلت لا شك أن هؤلاء الرجال أتوا موفدين إليك من قبل الأشراف ليحتجوا على مجيئي إلى هنا فقال وكيف عرفت ذلك؟ فقلت بلغني أمرهم هذا

الصباح فأجاب أن هؤلاء الناس بسطاء وعلى الفطرة ولم يروا كل مدة حياتهم رجلاً غريباً يدخل بلادهم وقد استهجنوا أمرك وجاءوا مستعلمين عن مهمتك ومحتجين على تجول صالح سعيد معك بصورة دليل، وقد توهموا انك جئت لتعين الحدود بينهم وبين جيرانهم من قبيلة صالح فأفهمتهم انه لا علاقة لك بتحديد الحدود وانك رجل مسلم من أعيان الشام، وصديق عزيز على الإمام، وموظف من موظفيه، أوفدك جلالته لتشاهد هذه البلاد وتأخذ بعض رسومها ليراها جلالته، فلم يعترضوا على ذلك بل قالوا انهم يريدون أن تأخذ معك في تجولاتك أحدهم بصفة دليل وسموا لنا الشريف عبد



شجر الخمط
بالقرب من محرم بلقيس بمارب



شجر السدر والاثل



الله وتستغنى عن صـالح سعيـد، فقلت حسناً. فقـال وقـد وعـدوني أنهم سيحضرون بعد ظهر هذا اليوم مع وفد من شيوخ قبيلة عبيدة ورجالهـا الأشداء للسلام علينا والتحدث إلينا فبوسعك أن تتحدث إليهم بعد الظهر لتطمئن نفوسهم، فقلت هذا حسن جداً انه لنعم الرأي، والأفضل أن لا نخرج هذا الصباح إلى المحرم بل ننتظر إلى الغد، ولكنه حفظه الله رأى أن في عدم خروجنا ـ وخاصة بعد أن أمر باحضار بغالنا ـ مظهراً من مظاهر الضعف فقال لا بالله نخرج ولكن لا نأخذ صالح سعيد الظما معنا بل نأخذ معنا الشريف عبد الله، فقلت الرأي رأيكم.

وبعد هنيهة خرجت برفقة العامل وأخيه وأحد أبناء عمه الموظف عنده اسمه أحمد بن علي الكبسي وهو شاب في مقتبل العمر خفيف الروح للغاية ولا تفارق النكتة شفتيه، وكان كل مدة اقامتي بمارب يضحكنا كثيراً بنكاته المستحبة. ورافقنا حرس كثير من الجند والضباط، وخلت نفسي كأني سائر إلى ساحة حرب لا إلى نزهة ومشاهدة الآثار، وما كدنا نبتعد عن دار الحكومة يسيراً حتى اعترضتنا سائلة ذنة ويبلغ عرضها أمام القرية نحو ٣٢٠ متراً ويختلف هذا العرض ببعض الأماكن عن بعض. ويمكن القول على وجه التقريب انها لا تقل عن ٣٠٠ متر ولا تزيد على ٣٥٠ متراً. وينمو فيها الأثل بكثرة عظيمة، ويوجد إلى جانبه في بعض الأماكن قليل من السدر. وقد جاء في القرآن الكريم في سورة سبأ ما يؤيد ذلك «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور. وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين. فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لأيات لكل صبار شكور».

بنور هذه الآيات كنت أستهدي وعلى ضوئها كنت أسير لأن المعلومات التي ذكرت فيها هي جميع ما يمكن للباحث المحقق أن يعول عليه في بحوثه

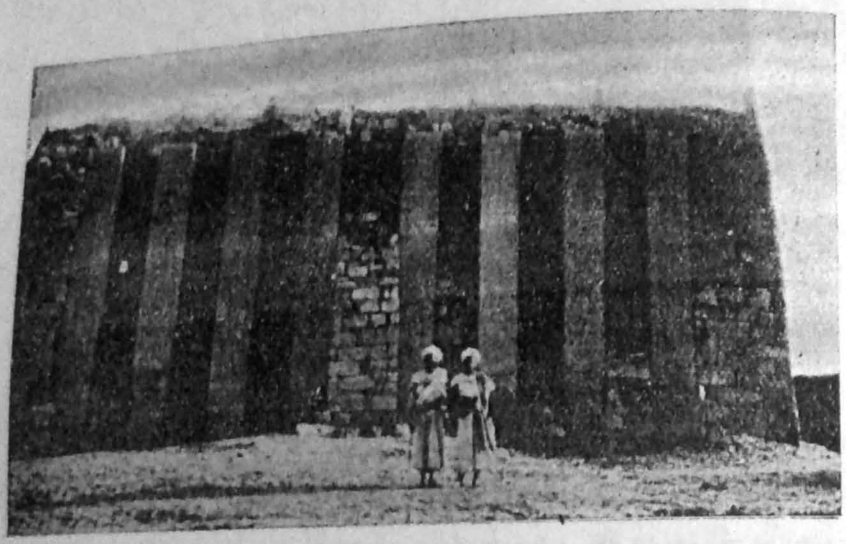
وتحقيقاته عن هذه البلاد، وأما ما ذكر في الكتب القديمة عن هذه البلاد فلا يعتد به ولا يعول عليه لما فيه من الخلط والخرافات، وقد ثبت لي قوله تعالى «وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل» وقد رأيت بعيني رأسي خرائب هاتين الجنتين أي البستانين وبقايا الدور التي كانت فيهما ورأيت أنه لا يوجد فيهما شيء من الأشجار المثمرة وخلافها وكل ما رأيته فيهما هو الخمط والأثل والسدر وأما الأثل فإنه موجود بسائلة ذنة بكثرة عظيمة. وإذا دخل المرء بينه يخال نفسه في احراج كبيرة ويوجد بين الأثل سدر قليل أي يوجد بين كل الف شجرة أثل شجرة سدر واحدة، ويوجد أيضاً في هذه السائلة وإلى جوانبها لمسافات يسيرة الخمط وهو ما يسمونه بالأراك وله ثمر يؤكل ولونه أحمر يشبه حب العدس ويجففه الأهلون ويأكلونه كالزبيب وهو حلو الطعم وطيب الرائحة. وشهدت أيضاً صدق هذه الآيات من حيث البناء إذ ان هاتين الجنتين اللتين تبلغ مساحتهما نحو ٨٠ كيلو متراً مربعاً كانتا كأنهما مدينة واحدة البستان بلصق البستان، ومن البديهي أن هذه البساتين كانت مأهولة بالسكان وكان البناء فيها آخذاً بعضه برقاب بعض ولكن عندما بدلهم الله بجنتيهم جنتين دمر جميع هذه البساتين والمساكن والمدن وصار بين مدينة مارب وأقرب مدينة إليها كصرواح مثلاً مسافة عشر ساعات إلى الغرب وبينها وبين مدينة براقش وهي إلى الشمال نحو ١١ ساعة، فصدق الله العظيم في جميع هذه الآيات، وصدق رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

ويوجد إلى جنب هذه السائلة أي فوق ضفتها الشرقية حقول خصبة تزرع على مياه السيول وتزرع فيها الذرة والشعير والحنطة والجلجلان أي السمسم. سرنا من السائلة إلى الجنوب فمررنا على مسافة كيلو مترين منها بمخفر جديد بناه جلالة الإمام بعد دخول جنوده إلى مأرب ويحيط به بعض بيوت الأشراف المبنية من الطين ولا وجود للنوافذ فيها وهؤلاء الأشراف كانوا دوماً يحارب بعضهم بعضاً. وعلى مسافة يسيرة من المخفر إلى الجهة الجنوبية أخذت أشاهد بقايا بعض الأبنية وبعض مجاري المياه إلى أن وصلنا إلى محرم بلقيس أو بالأصح هيكل الشمس. وسيأتي ذكره بالتفصيل في فصل خاص بعد قليل لأنه

من البديهي أنه كان من الصعب جداً عليّ أن أقف على جميع المعلومات التي أريدها في يوم واحد لذلك زرت المحرم عدة زيارات وفي كل مرة كنت أدرس منه قسماً، وتمكنت أخيراً من ضم جميع هـذه المعلومات بعضهـا إلى بعض والفت منها فصلاً واحداً سيأتي ذكره. وبينما كنت في هـذا النهار أنقـل بعض النقوش المكتوبة على المحرم جاءني الشريف عبد الله الذي كلم العامل بشأني صباحاً وقال نحن عاتبون عليك كثيراً لأنك اصطحبت معك صالح سعيد يوم أمس عندما خرجت لتشاهد خرائب مارب فصالح سعيد هذا رجل غـريب عنا وخصم لنا وبيننا وبين عشيرته اختلاف على الحدود وقد علمنا أنه كان يكلمك بشأن الحدود وأنك ستعرض ذلك على جلالـة مولانـا الإمام حين عـودتك إلى صنعاء فقلت له انك على خطأ يا هذا فأنا مـا أتيت لأحدد حـدوداً ولا علم لي بالاختلافات التي بينكم وبين عشيرة صالح ولو كنت أعلم ذلك لما جلبته معي وما دمتم أنتم موجودين فاني أكون مسروراً جداً إذا كان يرافقني منكم كل يـوم واحد فقال نحن رهن الإشارة فاخبـرونا كلمـا أردتم أن تذهبـوا إلى مكان لكي نـذهب معكم فقلت بارك الله فيكم. ومـا كاد يـذهب من قبلي الشـريف حتى سمعت نشيد بدو آتين من الجهة الشرقية وقد ملأوا الفضاء باصواتهم وأصوات بنادقهم وكان بعضهم يركبون الهجن أزواجاً وبعضهم يركبون الخيـل فقلت لا شك أن الساعة الرهيبـة قد دنت وأن هؤلاء القـوم ما جـاءوا إلا لقتلي فأخـذت مسدسي بيدي ووقفت إلى جانب أحد العواميد بالجهة المعاكسة لهم ولكنهم لما وصلوا إلى عندنا ورأوا القوة الكبيرة التي كانت ترافقنا من الجند وأبصروا العامل عن بعد هرعوا إليه وتظاهروا أنهم إنما جاءوا للسلام عليه والله أعلم.

عدنا للدار من نفس الطريق وكان الـظهر قـريباً فتنـاولنا طعـام الغداء حين وصولنا وأسرعنا بـالوضـوء وكان اليـوم يوم جمعـة فخرجنـا للصلاة بـالمسجد، والعادة في جميع أطراف اليمن أن يخرج العمال يوم الجمعـة للصلاة بمـوكب رسمي وكان موكبنـا هذا اليـوم مؤلفاً من فـرقة حـرس العامـل وجميع مـوظفي الحكومة فسرنا على نفيـر البوق وقـرع الطبـول من دار الحكومـة إلى المسجد نمشي رويداً رويداً، ومع أن المسافة لا تستغرق ثلاث دقائق فقد قطعناها في ربع

ساعة، وعندما وصلنا إلى قرب المسجد وجدنا ثلة من الجيش مصطفة هنالك ويقابلها جمهور من الرجال والأولاد من الأهلين فدخلنا بين هذين الصفين فأدوا التحية للعامل ثم دخلوا بعدنا إلى المسجد. ويدعون هذا المسجد بمسجد سليمان زاعمين أنه من بنائه ولكن الحقيقة غير ذلك فهو من بناء أحد الشرفاء ويرجع تاريخ بنائه إلى نحو مائة سنة بحسب تقديري. وقد بناه هذا الشريف بين بعض العمدان القديمة فظهرت هذه العمدان في البناء من جهة القبلة أي الشمال فظنه الناس أنه من بناءسليمان.



مسجد سليمان بمأرب

وبعد تأدية فرض الصلاة عدنا إلى دار الحكومة في نفس الموكب وما كاد يستقر بنا المقام حتى جاء رسول للعامل يخبره بأن شيوخ قبيلة عبيدة سيصلون قريباً للسلام عليه فأجابه حسناً وخرجنا إلى فوق سطح المكتب لنشاهد الشيوخ حين وصولهم وبعد هنيهة أقبلوا علينا بعضهم فوق ظهور الصافنات وبعضهم فوق الركاب وعندما اقتربوا من دار الحكومة ورأونا فوق السطح أخذوا ينشدون أناشيدهم ويطلقون العيارات النارية في الهواء ويتسابقون على ظهور الجياد ويلعبون العاباً تسر الأبصار ودامت حفلة لعب الخيل والطراد نحو نصف ساعة ثم نزل القوم من فوق خيولهم وهجنهم وأقبلوا علينا للسلام إلى باحة الحكومة فتواردوا علينا الواحد بعد الواحد وكانوا يقبلون يدي العامل وركبتيه ثم يجلسون أمامنا ولما اكتمل

عددهم أخذ العامل يقدمهم لي مبتدئاً بعميدهم وشيخ مشايخهم علي بن حسن بن معيلي والشيخ علي بن حسن بن جلال والشيخ مبخوت بن عوض العرادة والشيخ صالح بن علي بن جراذان والشيخ أحمد بن سعيد بن غرّيب والشيخ علي بن سيف بن عقار، ودخل بعدهم الأشراف يتقدمهم عميدهم الشريف



الأمير الشريف
حسين بن عبد الرحمن
وهو عميد أشراف آل سعود بمأرب

الأمير حسين بن عبد الرحمن والشريف محمد بن عبد الرحمن عمه والشريف قائد بن حسين والشريف أحمد بن حسين والشريف عبد الله بن صالح بن حيدر والشريف عبد الله بن حسين.

وبعدما جلسوا جميعاً القيت فيهم خطاباً شرحت لهم فيه أحوال المسلمين وما أصابهم بعد الحرب العظمى وقصصت عليهم كيفية استيلاء الاجانب على بلادهم والمعاملة السيئة التي يعاملونهم بها وقارنت بين هذا الحكم وحكم الإمام المبني على قواعد الدين الإسلامي والشريعة المحمدية فكانوا يصغون إليّ بانتباه زائد، وإذا اشكل عليهم شيء من كلامي كانوا يطلبون إلى العامل أن يوضحه لهم، وعندما اتممت حديثي انبرى لي شريف مسن هو عم الأمير واسمه الشريف محمد بن عبد الرحمن وقال: يا أخا العرب لا تنظر إلى ثيابنا الرثة وأطمارنا البالية وتظن أننا جهلاء بلهاء لا نعرف من أمر الدنيا شيئاً بل أعلم

حفظك الله أن هذا الفقير إليه تعالى الذي يكلمك لقد ذهبت إلى صنعاء أيام الدولة العثمانية وقابلت الولاة والمستشارين واطلعت على نواياهم نحو بلادنا فما سمحنا لهم بالدخول إليها أبداً وهم مسلمون مثلنا ونحن دائماً وأبداً مستعدون أن نهرق آخر نقطة من دمنا في سبيل بلاذنا ووطننا، وأني أزيدك علماً بأن هذه البلاد منذ عهد سبأ وحمير إلى العهد الأخير لم يدخلها ملك أو فاتح ولا دخلت في طاعة أحد، ولكن عندما فسدت حالنا في المدة الأخيرة وقمنا نقتتل وصار الأخ يذبح أخاه والعم يذبح ابن أخيه رأينا من المستحسن أن نلتجيء إلى جلالة الإمام لينقذنا من هذه الورطة فذهبنا إليه خاضعين وللنجدة طالبين ولولا علمنا أن جلالته ـ الله يحفظه ـ لم يطع دولة أجنبية ولا أدخل أجنبياً إلى بلاده وهو محافظ على الدين والعرض والشرف والشريعة لما استنجدنا به. ثم قال واعلم اني قد ذهبت إلى حضرموت وعدن والمحميات ورأيت بعيني كيف يعامل الأجنبي المسلمين وعجبت كثيراً من خضوع أهل هذه البلاد له والله إحنا ما نخضع أبداً.

فأجبته على هذا الخطاب البديع قائلاً اعلم يا صاحبي أن الأثواب الرثة والبالية لا تعيب صاحبها، وقد جاء في الأمثال عندنا أن الفرس الأصيل لا يعيبه سرجه، وأنا أحترمكم كل الأحترام وأعلم حق العلم بأن هذه الأثواب البالية تستر تحتها قلوباً حية نابضة ووصيتي إليكم ما دمتم قد دخلتم في طاعة الإمام أن تبقوا محافظين على أوامره ونواهيه عملاً بالآية الكريمة «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» وشاء العامل أن يكون هذا السلام مسك الختام فتحرك في مكانه فأدركت قصده للحال فقلت والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته فأجابوا وعليكم أفضل السلام وبادروا في الحال إلى وداع العامل فقبلوا يديه وركبتيه حسب العادة ثم أقبلوا نحوي وأخذوا يسلمون علي بيديهم حسب التحية المتعارفة بينهم ووهي بأن يصافح الرجل الآخر باليد ثم يسحبها بلطف ويحرك شفتيه عن بعد إشارة التقبيل، وهذا هو سلام العرب الصحيح منذ ألوف السنين.

خرج القوم من عندنا وأنا أفكر فيهم مطرقاً إلى الأرض، فقال العامل ما



الشيخ علي بن معيلي
شيخ مشايخ قبيلة عبيدة

بالك ساكتاً لا تتكلم ؟ هل أعجبك حديث هؤلاء الرجال ؟ وكيف وجدتهم ؟ فقلت اني أفكر فيهم تفكيراً عميقاً اني أحببت كل شيء فيهم اني أحببت هيئاتهم التي تدل على الدم الصافي الذي لم يدخله دم غريب، اني أحببت طلاقة ألسنتهم وفصاحتهم، اني أعجبت بقلوبهم البيضاء النظيفة التي تدل على الطهارة وحسن النية، واني أحببت صراحتهم وجرأتهم وقد أعجبت كثيراً بسلامهم، فقال نعم لا شك أن هؤلاء الناس لا يزالون محافظين على الفطرة والبساطة فقلت ثق وتأكد أن الخير كل الخير في الفطرة والبساطة فالذي يتمسك بهما لا يعرف الكذب ولا الاحتيال ولا النميمة فهنيئاً لهؤلاء القوم بعاداتهم السليمة المجردة عن مظاهر المدنية الفارغة.

قمنا من مكاننا ودخلنا إلى المكتب فشرعت المداعات وأحضرت القهوة والقات وأخذ الرفاق وهم العامل وأخوه ونسيبه السيد أحمد وبعض الموظفين يحدثونني عن العرب وعاداتهم في هذه الجهات ومما قالوه انهم كرماء وفرسان ويكرمون الضيف وإذا وعدوا وفوا وإذا استجيروا أجاروا وإن انتدبوا لعمل قاموا به خير القيام ولا يغدرون ولا يمكرون ولا يسرقون ولا ينهبون ولكنهم كانوا يقتتلون ويتغازون ومنذ دخلوا في طاعة الإمام تركوا جميع العادات الرديئة وأخذوا

يعودون إلى التمسك بالشريعة الإسلامية وإلى القيام بجميع الفروض الدينية. فقلت وهل يدفعون الضرائب والزكاة بطيبة خاطر؟ فأجاب العامل نعم انهم يؤدون ما عليهم من تلقاء أنفسهم دون مطالبة. وقال السيد أحمد ان لهؤلاء القوم عادات اجتماعية غريبة، فقلت وكيف ذلك؟ فقال انهم يصطحبون النساء معهم في الحروب فيحملن الزاد والماء ويتقدمن إلى المهادنة إذا وقعت الغلبة فقلت وكيف يفعلن ذلك؟ ولمن يتركن بيوتهن وأطفالهن؟ فقال إذا رأت النساء بأن قومهن قد أصيبوا بالفشل وأن خصومهم سيتغلبون عليهم ففي الحال يطرحن بأنفسهن بين المتقاتلين فإذا رآهم الأعداء على هذا الحال يكفون عن القتال ويعودون من حيث أتوا. وأما بخصوص بيوتهم فالبركة في الكلاب انهم يتركون الكلاب لحراستها وإذا كان لهن أطفال صغار يرضعون فانهن يحملنهم معهن، وأما إذا كانوا لا يرضعون فانهن يتركنهم في البيوت بعد ربطهم بالحبال ويضعون أمامهم طعاماً وماء وفي أحيان كثيرة يغبن ثلاثة أو أربعة أيام مع رجالهن وأولادهن على هذه الحال. وأما رجالهن إذا ذهبوا إلى الغزو وطال غيابهم وجاعوا فانهم يأكلون لحم الجمال نيئاً إذا كانت لديهم جمال يمكن الاستغناء عنها وإذا كان ليس معهم أن يستغنوا عنها فانهم يعمدون إلى عرق في أنف البعير فيقطعونه فينزف منه الدم فيأخذونه في وعاء ويغلونه ويشربونه وإذا عطشوا فانهم يشربون الماء المتجمع في كروش الجمال بعد ذبحها وإذا أدركهم الليل وناموا بين الرمال فانهم يحفرون حفراً في هذه الرمال الدافئة من حرارة الشمس ويدخلون إليها فيطمرون أنفسهم إلى رقابهم كسباً للحرارة المتجمعة في هذه الرمال من حرارة الشمس بالنهار وإذا وجدوا الحنظل وهم جياع فانهم يأخذون بزره ويدقونه ويأكلونه.

وبينما نحن في هذا الحديث جاء بعض الأشراف وشيخ مشايخ قبيلة عبيدة علي بن معيلي فوجدت الفرصة مناسبة للاستفهام عن القبائل بين صنعاء ومأرب فسألت شيخ عبيدة كم عدد نفوسكم؟ فلم يدرك قصدي وقال العامل انهم لا يحصون النفوس ولكن يمكن معرفة عدد الرجال المقاتلين فقلت حسناً كم عدد رجال قبيلة عبيدة المقاتلين؟ فأجاب الشيخ ١٥٠٠ من الرجاجيل أي الرجال



عامل مأرب داخل سراي الحكومة يحيط به بعض شيوخ القبائل وبعض أشراف مأرب

الذين يعول عليهم، فقلت وكم هو عدد الأشراف ؟ فقال أميرهم مائة سيد محارب في مأرب ولهم أقارب وأرحام كثيرة في الجوف . فقلت وما هي أسماء القبائل التي مررنا ببلادها من صنعاء إلى مأرب أو كم هو عدد رجالها المقاتلين وبعد بحث طويل بين المجتمعين توصلت إلى الحصول على الجدول التالي الذي أبين فيه اسم القبيلة وحدودها وعدد رجالها المقاتلين بالترتيب مبتدئاً بصنعاء.

بنو الحارث: مساكنها في شعوب مما يلي صنعاء وتمتد أراضيها إلى طرف بلاد بني حشيش في قرية الفرس وعدد رجالها المقاتلين ثلاثة آلاف.

بنو حشيش: من الفرس إلى بلاد الشرفة وعدد رجالها المقاتلين أربعة آلاف.

نِهْم: من رأس نقيل شجاع في الشمال إلى الجوف بالشرق وإلى بني جبر بالجنوب وعدد رجالها المقاتلين ستة آلاف.

بنو جبر: من أسفل نقيل شجاع إلى بلاد خولان في جهة الجنوب وإلى أشراف مأرب بالشرق وعدد رجالها المقاتلين ثلاثة آلاف.

الأشراف وعبيدة: ان أراضيهم متصلة ومشتركة فيما بينهم وتمتد من حدود

بني جبر في الغرب إلى حدود قبيلة الكُرب بالشرق وعدد رجالها المقاتلين الفان.

الكُرَب: من حدود عبيدة إلى أطراف حدود قبيلة الصيعر إلى الشرق الجنوبي من مأرب وعدد رجالها المقاتلين ثلاثة آلاف.

الصَّيْعر: تمتد أراضيها إلى أراضي المشقاص شرقاً بجنوب وعدد رجالها المقاتلين ثلاثة آلاف.

المشقاص: من الصيعر إلى البحر شرقاً بجنوب. وأراضي هذه القبائل الثلاث الأخيرة أي الكرب والصيعر والمشقاص يحدها من الجنوب بلاد حضرموت ومن الشمال الربع الخالي. ولم تدخل هذه القبائل الثلاث في طاعة الإمام إلا منذ سنة ونصف سنة تقريباً ولكنهم لم يعطوا رهائن بل اعطوا وجههم وهذا أعظم من الرهينة في عرف العرب وعاداتهم. ومنذ أعطوا وجههم امتنعوا عن الغزو وكانوا في أكثر الأحيان يغزون البلاد النجدية. وعددهم ٦٠٠٠.

قبيلة مراد: إلى الغرب الجنوبي من مأرب وعدد رجالها المقاتلين أربعة آلاف.

حريب بيحان: إلى جنوب مأرب وعدد رجالها المقاتلين الفان.

نَهْدْ: جنوب الكُرَب وتحدهم بلاد حضرموت وعدد رجالهم المقاتلين ألف وخمسمائة.

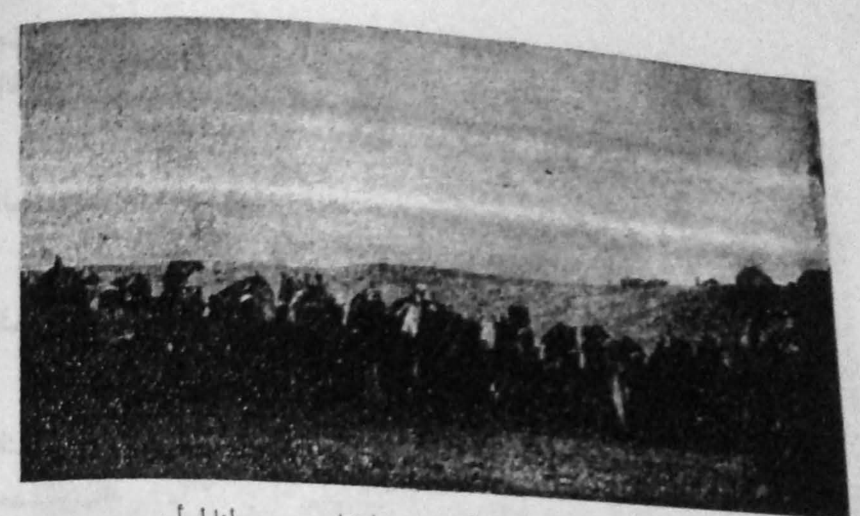
هِمَام: جنوب الكرب وتحدهم حضرموت.

دَهَم: شمال مأرب بشرق وعدد رجالها المقاتلين عشرة آلاف.

أشراف الجوف: شرق بشمال من مأرب وعددهم خمسمائة.

خولان: غرب مأرب ومنهم بنو ظبيان وعددهم ستمائة وألف وأما جميع خولان فعددهم يربو على عشرة آلاف وهم مؤلفون من عشائر عديدة وأفخاذ كثيرة.

ولم أنته من كتابة أسماء هذه القبائل إلا وشعرت أن روحي قد بلغت التراقي من دخان المدائع (الشيشة) وكثرة الذباب وكان الوقت قبيل الغروب فاستأذنت



بعض رجال القبائل وأشراف مأرب يستقبلوننا حين وصولنا لمأرب

القوم وخرجت من المكتب إلى خارج دار الحكومة طلباً للهواء النقي فتبعني بعض الجنود والخادم حسين البيحاني فمشيت وإياهم إلى طرف السائلة وقال لي أحد الجنود ـ وكان مصاباً برمد في عينه ـ ألا يوجد عندك دواء للعيون ؟ فقلت نعم يوجد عندي ومتى عدنا للدار سأقطر لك منه إن شاء الله فقال إن شاء الله.

فقلت يظهر أن الرمد والمرض هنا كثير بسبب الذباب فقال الجندي نعم يا سيدي ان الرمد هنا كثير بسبب الرياح الشديدة التي تحمل الرمال والأقذار إلى العيون لا بسبب الذباب، وأما المرض فلا وجود له أبداً وقد أقمت نحو سنتين في هذه البلاد فما مرضت ولا رأيت واحداً من إخواني الجنود الذين يبلغ عددهم نحو خمسمائة مريضاً ولا رأيت أحداً مات من الأهالي سوى امرأة عجوز ، ولو قسنا مأرب مع صنعاء لوجدنا المرض بصنعاء أكثر فهنالك كل يوم نرى جنازة أو جنازتين فقلت له ولكن لا تنس أن عدد سكان صنعاء سبعون ألفاً وعدد سكان مأرب سبعمائة فقال نعم هذا صحيح ولكن المرض هنا غير موجود. وفي الحقيقة أن الجندي كان على حق إلى حد بعيد فيما يقول فالأمراض في مأرب غير منتشرة وفي ظني أن ذلك يعود إلى سببين: الأول أشعة الشمس المحرقة والهواء الناشف والثاني أن الوفيات في الأطفال كثيرة جداً فلا يعيش إلا القوي الذي عنده مناعة ذاتية لمقاومة جميع أنواع المكروبات وبديهي أن الذي هذا

حاله يقاوم الأمراض كثيراً. وما أردت أن أطيل الحديث في حفظ الصحة مع الجندي لأنه لا يتراجع عن آرائه فرأيت من الأوفق أن أحول البحث إلى العاديات فقلت له هل وجدتم شيئاً من العاديات والأصنام في هذه الخرائب؟ فأجاب: نحن الجنود لم نجد أصناماً بل بعضنا كانوا يجدون أفصاصاً كلما جاء سيل قوي وجرف بعض التراب من الخرائب وأما الأهلون بالقديم فقد كانوا يحفرون في هذه الخرائب وفي الترب ويستخرجون أصناماً ونحاساً وحديداً وأحجاراً مكتبة ولكن جلالة الإمام منذ دخل هذه البلاد أمر بمنع الحفر فلا يجسر أحد الآن أن يحفر ولا أن يظهر شيئاً من العاديات لأن الحكومة تصادرها حالاً فقلت حسناً وعدت أدراجي إلى دار الحكومة ولما دخلتها دخل خلفي الخادم حسين البيحاني وقال لدي أمر مهم أريد أن أطلعك عليه في خلوة فقلت حسناً وأخذته وصعدت إلى غرفة النوم وسألته أن يقص عليَّ أمره فقال: كنت هذا الصباح ماشياً في مدينة مارب وإذا بامرأة تدعوني فقلت لها ماذا تريدين فقالت انها تريد أن تكلمني في مسألة سرية فقلت مرحباً فسارت أمامي وسرت خلفها إلى دارها فقالت لي أخبرني بعض خبرتك (أي أصحابك) بأنك خادم المهندس فقلت لها نعم وماذا تريدين منه؟ فقالت أنها تريد أن تقابلك وتسر لك مسألة مهمة فقلت لها قولي لي وأنا أبلغه ما تريدين فرفضت وقالت هذا غير ممكن اني أريد أن أكلمه بنفسي وفي هذا البيت أيضاً فقلت هذا شيء لا يصير والمهندس لا يجيء إلى هنا فقالت بلغه ذلك وأرجوه أن يحضر والمسألة فيها فائدة كبيرة للجميع. وها أنذا قد بلغتك الرسالة وما أنا إلا رسول إليك فإن شئت أن تذهب إليها فأنا رهن إشارتك وإن شئت أن لا تذهب فالأمر أمرك فقلت ناهي أبقي الأمر مكتوماً إلى الغد فسوف ننظر فيه.

ذهب البيحاني وكان المغرب قد أذن فتوضأت ونزلت إلى المكتب فوجدت الرفاق قد انتهوا من القات والتخزين فصلينا المغرب ثم صلينا العشاء جماعة وتعشينا وجلسنا نطالع بعض الصحف التي كنت قد جلبتها معي ونتحدث في السياسة الدولية ثم انضم إلينا بعض الموظفين كأمير المفرزة واسمه علي اسماعيل من أب والقاضي عبد الرحمن اليوسفي من الهجرة وعلي بن حزام

معلم الأولاد وغيرهم ودخل أيضاً علينا الجندي الذي رافقني بعد العصر وطلب إليّ أن أقطر له في عينه فقطرت فيها وقطرت أيضاً لأمير المفرزة وللقاضي عبد الرحمن وكان كلاهما مصاباً بالرمد أيضاً ومن الغريب أنهم جميعهم شفوا من قطرة واحدة ويظهر أن السر في ذلك هو مناعتهم الطبيعية من جهة وعدم استعمالهم للأدوية من جهة ثانية.

وعندما قدم لي العامل القاضي عبد الرحمن اليوسفي قال هذا الرجل من الهجرة وكان الرجل الوحيد في هذه البلاد الذي يعرف القراءة والكتابة قبل دخول جلالة الإمام وقد درس على أبيه فقلت وماذا تعنون بأنه من الهجرة ؟ فقال يعني هاجر من بلاده الأصلية وتوطن في هذه البلاد ودخل على أهلها فلا يقاتل ولا يقاتل ويحترم البدو الهجرة كثيراً ويمتثلون لارشاداتهم وفي أحيان كثيرة يتدخلون بين البدو وهم يقتتلون فيمنعون القتال ويصلحون بينهم. فقلت لا شك أن وجودهم رحمة ويا حبذا لو كانوا كثيرين، فقال القاضي هم ولله الحمد كثيرون وموزعون بين العرب فقلت وماذا يفعل القاضي في هذه الايام فقال العامل لقد وظفناه كاتباً على الملح. فقلت وأين يقيم الآن فقال له بيت من القديم في البلد وهو قاطن فيه فقلت وكم عدد سكان المدينة ؟ لقد بلغني أنه نحو سبعمائة ؟ فقال نعم لا يزيدون على ذلك، فقلت وهل هم أصليون هنا ؟



القاضي عبد الرحمن اليوسفي
وهو من الهجرة

فقال كلا انهم خليط من قبائل متعددة وأكثرهم تجار ملح فقال وهل هم زيود ام شوافع فقال الأكثرية المطلقة من الشوافع ولكن يوجد بينهم قليل من الزيود.

وأدركت أني قد أكون أكثرت في الأسئلة وأن القوم يريدون أن يتكلموا في بعض شؤون الحكومة الخاصة وكانت الساعة بلغت نحو الثالثة فاستأذنتهم في الإنصراف للنوم وانصرفت، وفي الحقيقة كنت ناعساً ومتعباً فصعدت لغرفة النوم وكان أحد الخدام يحمل لي المصباح فما كدنا ندخل الغرفة حتى استيقظ الذباب من رقاده على نور المصباح وأزعجني كثيراً لأنه يهاجم الإنسان بكميات كبيرة وكان في نيتي أن أكتب شيئاً من المذكرات قبل النوم ولكن الذباب حال دون ذلك ففضلت أن أطفىء النور وأنام لأتخلص منه فنفذت هذه الفكرة ولكن النوم ابتعد عن عيوني وصرت أفكر في مشاهدات هذا النهار وخاصة بالمرأة التي تريد أن تقابل المهندس مقابلة سرية خاصة في بيتها. فكرت طويلاً بأمرها لعلي أهتدي إلى حل لغزها فلم أتمكن وخرجت عن دائرة العقل إلى دائرة الخيال ومرت بذهني ألوف من الأوهام وفي جملتها أن الأشراف قد نصبوا لي هذه المكيدة ليبطشوا بي ويستريحوا مني لأنهم كما ذكرت سابقاً ما كانوا مسرورين من هذه الزيارة، وتوهمت أيضاً أن هذه حفيدة بلقيس وستهديني إلى كنوز بلقيس وعرشها وجاءت هذه الأوهام مطابقة لأحلامي بالطريق وأخيراً استسلمت للنوم ولم استيقظ من رقادي إلا عندما أخذ الجنود يتلون تسابيح الصبح، ونمت نوماً هادئاً مستريحاً لأن الله سبحانه وتعالى يبتلي ويعين ففي الطريق كانت جيوش الكتان تهاجمنا وتحرمنا الرقاد وأما في مأرب فلا وجود للكتان أبداً ولكن الذباب حل محل الكتان فالحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

السد والكنز المخبوء

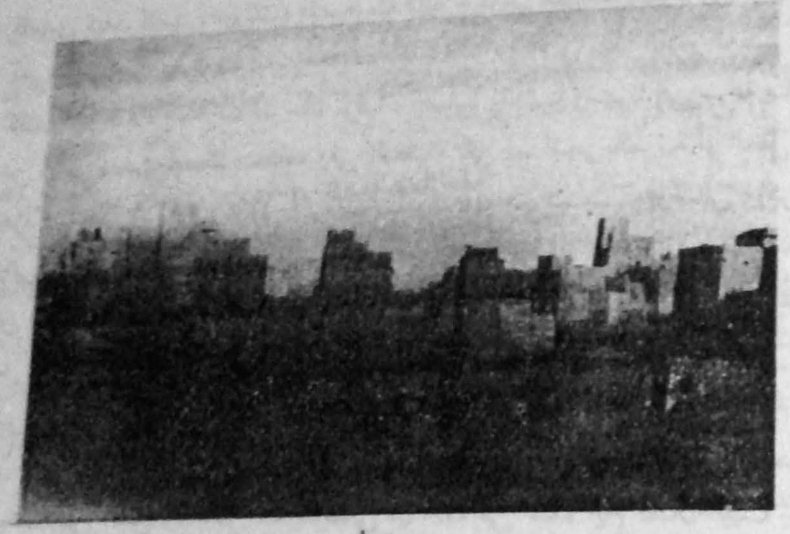
وبعد الصلاة نزلت إلى المكتب فلم أجد به أحداً وكنت أول الواصلين وبعد مدة أخذ الرفاق يتوافدون الواحد بعد الواحد وأخيراً جاء العامل وبعد السلامات والتحيات في مثل هذه الأحوال سألني حضرته إلى اين أريد أن أذهب في هذا النهار فقلت له إني أريد أن أبدأ في أبحاثي بصورة منتظمة وأمسك

الشموط كما يقولون من رأسه ليهون حل العقد. والشموط هنا السد ومجاري المياه، لذلك أريد أن أبدأ العمل منه فقال: لك ما تريد وأما أنا فالرجاء أن تقيلني من الخروج معك هذا النهار لأني أريد أن أنظر في شؤون الحكومة فقلت حسناً وأمرت بجلب البغلة وحرسي الخاص الذي أوفده معي جلالة الإمام من صنعاء وعندما أتوا خرجت من دار الحكومة وامتطيت البغلة وتوكلت على الله وسرت في طريق السد وكنت أفكر في الطريقة التي يجب أن أتبعها في هذا البحث كل مدة الطريق وفي الحقيقة أني تحيرت باديء الأمر كثيراً لأني كيفما سرت في هذه الأرض وهي الأرض الواقعة على شمال السد والمتصلة بمدينة مأرب كنت أرى آثار بناء وخرائب ومجاري مياه، ومن البديهي أن هذه الأراضي هي المشار إليها في القرآن الكريم بالجنة الشمالية فليس من المستغرب أن تكثر فيها الخرائب. بحثت ساعات متعددة بين هذه المجاري والخرائب لارى كيف توزعت وكيف تجري فلم ينفعني بحثي هنا شيئاً وأخيراً يممت وجهي شطر السد وقبل أن أصل إليه بمسافة كيلومتر ونصف كيلو متر تقريباً عثرت على المكان الذي كانت تجري المياه إليه من السد وتنقسم فيه. وكان هذا أول اكتشاف من اكتشافاتي المهمة فبقيت طيلة نهاري ههنا أقيس مخارج المياه مخرجاً مخرجاً وأعين اتجاهاتها وأنقل النقوش الحميرية المكتوبة عليها. ولشدة فرحي أتى الظهر ولم أشعر به وعرض عليَّ الشريف عبد الله وبعض الجند الطعام فقلت لست بحاجة إليه الآن وواصلت العمل دون طعام أو شراب إلى العصر فاحتج الجنود وقالوا انهم عطشوا كثيراً فعدنا إلى المدينة مارين بطريقنا في منتصف الجنة الشمالية التي كانت تجري فيها الأنهار فتحييها وقد ظهر لي أنه بعدما دهم سد العرم هذه البلاد وتهدمت من أركانها وحمل شيئاً كثيراً من بناياتها وأحجارها إلى حيث لا يعلم مقرها غير الله عاد فترك خلفه عندما كان يهبط بالتدريج طبقة سميكة من الطمي والتراب الدلفاني الناعم لا يقل سمكها عن المترين ولكن لا يستفاد منها في الوقت الحاضر ولا يوجد فيها لا شجر ولا نبات لأن الله سبحانه وتعالى غضب على أهلها فحول جنتهم من جنة كانت تجري فيها الأنهار وفيها من كل كل فاكهة زوجان إلى أرض بلقع لا ماء فيها ولا حياة تنعق على أطلالها البوم والغربان. سرنا من مقاسم المياه إلى المدينة مسافة ساعة و٤٥ دقيقة بين هذه

الخرائب وتمتد الجنة الشمالية إلى ما يلي مأرب مسافة نحو ١٥ دقيقة فيكون طولها مسافة مسيرة ساعتين أي نحو عشرة كيلومترات وعرضها مسير ساعة وربع ساعة أي نحو خمسة كيلو مترات فتكون مساحتها نحو خمسين كيلومتراً مربعاً ويليها إلى جهة الجنوب الجنة الثانية الواقعة على يمين السد ومساحتها نحو ثلاثين كيلومتراً مربعاً فتكون مساحة الجنتين نحو ثمانين كيلومتراً مربعاً.

وصلت إلى دار الحكومة وأنا منهوك من التعب والعطش والجوع وثيابي ووجهي ورأسي امتلأت بالرمال فغسلت وتوضأت وصليت ثم تناولت الطعام ونزلت إلى المكتب فوجدت العامل وسائر الرفاق يدخنون المداعة ويخزنون القات فسلمت عليهم وجلست بينهم وقتاً يسيراً ثم خرجت قبيل الغروب إلى المدينة واصطحبت معي واحداً من الجنود والخادم حسين فقط وقلت لحسين هيا بنا فلنذهب إلى دار المرأة علنا نكتشف سراً مهما وقد قيل في الأمثال الغربية «فتش عن المرأة فهي أصل كل بلاء» وقد تكون أيضاً أصل بعض الخير وعسى أن تكون صديقتنا هذه من الفئة الثانية لا الأولى. قادني حسين إلى الدار وعندما وصلنا إليها وجدت صاحبتها بالباب فسلمت عليها فردت السلام بأحسن منه فمدت يدها مصافحة، وهذه أول مرة أصادف امرأة باليمن تمد يدها إليَّ بالسلام فصافحتها فقالت أهلاً ومرحباً حي الله من قد جاء، هيا تفضل، وأما أنت يا حسين ويا العسكري فلا تدخلان وانتظرا عندكما لبينما يخرج المهندس. احترت من هذه الجرأة وصرت أفكر ماذا يكون وراءها، ودخلت في أثر المرأة غير مبال بشيء ودخل خلفي غلام صغير لا يتجاوز سنه العاشرة ولما رأته المرأة نهرت فيه وقالت هيا أخرج يا ولدي إلى عند العسكر فامتثل الغلام الأمر وصعدت هي أمامي في سلم لولبي مظلم إلى الدور الثاني فصعدت خلفها بصعوبة وكدت أقع مراراً فأدركت مني ذلك ومسكتني بيدي وقادتني إلى الدور الثاني وعندما وصلنا إليه قالت هوذا ههنا ههنا وأشارت إلى غرف كثيرة صغيرة وكبيرة نعم ههنا ههنا الكنز، فدهشت من كلامها وقلت وأي كنز تعنين يا حرمة ؟ وما شاني وشأن الكنوز في بيوت الناس. فقالت: لا هذا البيت بيتي والكنز كنزي ولا أريد أن يعلم به أحد . فخطر لي أن هذه المرأة مصابة بمس بعقلها

قصدي بلهجة المستغيث أتوسل وأردت النزول من حيث أتيت فحالت بيني وبين مكان هذا الكنز فقلت يا حرمة أنا لا إليك أن لا تكسر بخاطري وأن تنبش لي مكان هذا الكنز فقلت يا حرمة أنا لا أعرف شيئاً عن الكنوز وكفى افسحي لي الطريق دعيني أعود من حيث أتيت فقالت لا، لا يمكن هذا أنت تعرف أين الذهب موجود بالشم هكذا يقول جميع الناس عندنا. واسمع ما أقول لك. كان زوجي رجلاً غنياً كبيراً يكتز المال والذهب وقبل أن تدركه المنية أمرني وأمر جميع أهل البيت أن تخرج إلى الخارج وأغلق جميع الأبواب وبقي بالبيت وحده وقال لا تأتوا إلا حينما أدعوكم فامتثلنا لأمره لأننا كنا نخشى بأسه وشدته ومع أنه كان على فراش المرض فبندقيته كانت إلى جانبه لذلك اضطررنا أن نمتثل للأمر ونخرج وكان الوقت قبل الظهر فأذن الظهر ومضى وهو لم يدعنا وصار العصر وانقضى ولم يدعنا وأقبلت الشمس على المغيب ولم يدعنا لذلك قرعنا الباب الخارجي فلم يجاوبنا شددنا القرع كثيراً فلم يأبه لنا وأخيراً قررنا أن نفتح الباب بالقوة فعالجناه إلى أن كسرناه ودخلنا وصعدنا إلى هذا الدور فوجدنا زوجي ممدداً على فراشه وقد مات فقامت قيامتنا عليه وفي اليوم التالي واريناه التراب وفتشنا على الذهب الذي كان عنده فلم نعثر عليه فأدركنا أنه إنما أخرجنا من البيت حتى لا نراه وهو يخفي الذهب والآن أرجوك أن تشم هذه الجدران وهذه الغرف وتخرج الكنز فأكدت لها أني لا أعرف أين يوجد الذهب ولا أحد في الدنيا يمكنه أن يشم رائحة الذهب فلم تصدقني وقالت دين الله أني أعطيك نصفه وأعطي بيت المال حقه فأقسمت لها دين الله أني لا أعرف أين هذا الذهب مخبوء ولو كنت أعرف أين مكانه لهديتها إليه حالاً فاقتنعت في آخر الأمر بصدق كلامي ونزلت أمامي في السلم وقادتني كما يقود الناس الأعمى. وما كدت أخرج من الدار حتى حمدت الله وشكرته الذي أنجاني من هذه الورطة وقصصت القصة على حسين والجندي اللذين كانا ينتظراني بفروغ صبر ولكن هما أيضاً لاماني على عملي وقالا ما بش خوف ولو أنك أخرجت هذا الكنز لكنت استفدت وأفدت بيت المال ولا شك أن جلالة الإمام كان يسر لذلك كثيراً وعبثاً حاولت أن أفهمهما أنه ليس بوسعي أن أعرف أين الذهب موجود ولكنهما لم يصدقاني.



مدينة مارب

عدت إلى دار الحكومة ماراً وسط مدينة مارب وأنا أتعثر في ثياب الفشل وخيبة الأمل وهزأت من نفسي عندما كنت بالطريق أفكر ببلقيس وعرشها وكنوزها وأحلم بالليل أحلاماً غريبة عنها وها هي بدت لي في اليقظة حفيدة من أحفاد بلقيس ناهزت العقد الرابع من العمر تهديني إلى الكنز وتطلب إليَّ أن اكشفه وأتقاسمه معها وكأني بها تريد أن تجربني وتمتحن مقدرتي وعلمي ولكن خاب ظنها وظني ولله در من قال * ما كل ما يتمنى المرء يدركه * وأخبرني الخادم حسين في الطريق أن هذه المرأة غنية وغنية جداً بالنسبة إلى أهل مارب ولها تجارة كبيرة وتتعاطاها بنفسها ولا تعتمد على أحد وقد دفعت هذه السنة عشوراً أي عشراً على أموالها وتجارتها ألف ريال إلى بيت المال وهذا مبلغ جسيم بالنسبة إلى حالة هذه البلاد وثروتها ولكن بالرغم من هذا الغنى فهي بخيلة ومقترة على نفسها وأولادها وأراد الكثيرون أن يتزوجوا منها بعد وفاة زوجها فرفضت، وقد أدركت من بخل هذه المرأة شدة حرصها لاكتشاف كنز زوجها فالغني لا يشبع من طلب المال وقد قيل في الأمثال منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال وهذا القول يصح تماماً على هذه المرأة البخيلة.

عندما وصلت إلى الدار ودخلت على العامل والأصدقاء بالمكتب سألني

العامل كيف كانت (دورتك) فقصصت عليه حكايتي مع هذه المرأة من أولها إلى آخرها فضحك وضحك القوم معه ضحكاً شديداً وهنأوني بهذا الفتح العظيم ولما كان وقت صلاة المغرب قد حان توضأنا وصلينا وتعشينا وسهرنا إلى ساعة متأخرة من الليل نبحث أبحاثاً مختلفة وفي الحقيقة أني لم أشعر بالغربة أو الملل بين هؤلاء السادة الأكارم وكانوا جميعهم يسعون جهدهم لتسليتي وإرضائي وإكرامي واني أسجل لهم ههنا مزيد الشكر والمنة. وكنت حسب العادة أول من أنسحب من المكتب وصعدت للنوم فقضيت ليلتي على أحسن حال وفي الصباح نهضت قبل التسابيح فتوضأت ثم صليت ونزلت إلى المكتب وكنت أول الواصلين إليه فشربت الشاهي وإذا بالرفاق يتوافدون الواحد بعد الواحد وجاء العامل اليوم في أول الجميع وسألني أين أريد أن أذهب ؟ فقلت إلى السد لأني ما أتممت البحث يوم أمس ولا أظن أنه بوسعي أن أتمه في عدة أيام فقال البيت بيتك والأهل أهلك والأرض أرضك والديار ديارك فافعل ما بدا لك فشكرته كثيراً وطلبت إعداد البغلة والحرس ولما أتوا خرجت خارج دار الحكومة وإذا بالشريف عبد الله بن حسين رفيقي ودليلي بالأمس قد حضر لأني أخبرته مقدماً بأني سأخرج هذا النهار إلى السد ثانية سرنا على بركة الله وكان الملل يعرو الحرس الذي جاء معي من صنعاء فأخذوا يتساءلون عن يوم عودتنا فبعضهم كان يقول بعد العيد والبعض يقول لا قبل العيد لكي نلحق العيد في صنعاء ونبتاع كباشاً للتضحية ولباساً للعيال وكان هذا الكلام موجهاً لي إلا أني تجاهلت ولم أجب لأني ما كنت أعلم في الحقيقة متى سنعود ثم سأل الواحد منهم الآخر كم اليوم بالشهر العربي وكنا في اليوم الرابع من شهر شباط سنة ١٩٣٦ فأجابه لا أعلم لكننا خرجنا من صنعاء في تشرين وقال الآخر لا بل في كانون أول وأجاب ثالث لا في كانون الثاني ووقع بينهم خلاف كبير على الشهر فقال رابع لماذا هذا الاختلاف لا فرق كبير بينكم شهر طالع أو شهر نازل (سع) أي مثل بعض. لم أتمالك من الضحك عندما سمعت هذه النتيجة اللطيفة ولكن في الحق أن الجندي الأخير نطق بالصواب فشهر طالع أو شهر نازل لا قيمة له في اليمن أبداً لأن الوقت ليس نقداً عندهم كما هو عند جميع الأمم. وفي أثناء الطريق كان بعض الجنود ينادوني يا عمي والبعض الآخر يا أبي. ضحكت جداً من هذا الأمر

وأدركت بأن علامات الكبر قد بدت عليَّ ومن البديهي أن الإنسان لا يرغب أن تظهر عليه علامات الشيخوخة ولكن الحمد لله وحده وسبحانه في ملكه فلا يبقى على ما هو إلا هو.

وبينما نحن سائرون على هذا المنوال وإذا بالشريف عبدالله بن حسين وهو الذي اختار نفسه كدليلي ورفيقي يدنو مني ويقول كيف وجدت بلادنا ؟ فقلت لا شك أنها كانت بلاداً جميلة فقال: نعم هي جميلة ومتسعة ولا يعرف عنها أحد شيئاً ولم يدخلها أجنبي غير رجل واحد نصراني جلبه سيدي (أي جده) من صنعاء أيام الترك بعهدته وكفالته ليزور هذه البلاد ولكن العرب ما كانوا راضين عن هذه الزيارة وكاد يقع بينهم وبين الأشراف ما لا تحمد عقباه لأنهم أرادوا أن يقتلوه وهو ضيفنا وهذا عيب كبير عند العرب فلو قتلنا عن آخرنا لا نسمح لأي كان أن يمس ضيفنا ما دام فينا رمق من الحياة. فقلت وما إسم هذا الرجل فقال كلارز. فقلت وهل بقي عندكم مدة طويلة ؟ فقال: نعم. بقي نحو شهر من الزمن ولكنه ما تمكن أن يخرج إلا قليلاً وكانوا يلبسونه ثياباً عربية. فقلت وكيف تمكنوا من إعادته إلى صنعاء فقال أخرجوه في الليل خفية وسارت معه فرسان كثيرون ورجاجيل متعددون منايا الأشراف. فقلت بارك الله فيكم وغيرت هذا



الشيخ علي بن حسين البحري
شيخ مشايخ بلاد الجوبة

الحديث وسألته بعض الأسئلة عن السد ومقاسم المياه فلم يجبني عليها بل أخذ يخبرني بأن جميع هذه البلاد والأراضي التي تليها كلها ملك الأشراف وقد أذن جدودهم إلى البدو أن يدخلوها ويرعوا فيها وما كانت هذه الأمور تهمني وكنت أحتال عليه فأحوله عنها وأسأله بعض الأسئلة التي تهمني فكان لا يقدر أن يجيب عليها جواباً صحيحاً وفي الحق انه رجل ثرثار لا يهمه شيء إلا الكلام عن نفسه وعن حروبه مع أخوته وأبناء عمه وانضمام قبيلة عبيدة إلى أبناء عمه ومحاربتها له ولمن بقي موالياً له من الأشراف وقد تضايقت كثيراً من هذه الأحاديث ولكنني كنت مضطراً أن أصغي إليه وألاطفه وأجامله وأتظاهر بأني مسرور من حديثه وأخيراً وصلنا إلى مقاسم المياه وأتممت المقاييس ونسخت بقية النقوش ثم سرنا في مجرى الماء إلى أن وصلنا إلى مخرجه في السد وقد خصصت فصلاً بذلك سيجيء ذكره فيما بعد وقضيت كل هذا النهار هنا كالأمس وأنا أنسخ النقوش وأهتم بأخذ المقاييس وفي المساء عدنا إلى الدار بعد أن أنهكنا التعب وحسب العادة قضينا السهرة في المكتب وجاء لزيارة العامل الشيخ علي بن حسين البحري شيخ مشايخ بلاد الجوبة الواقعة لغرب مأرب وعندما رآني استل خنجره واراد قتلي قائلاً من هذا الغريب وماذا يفعل ههنا اننا لا نسمح للغرباء بالقدوم إلى بلادنا فأفهمه شقيق العامل من أنا ولاطفه كثيراً وأخذ يتحدث إليه أحاديث كثيرة إلى أن هدأ روعه فكلمته بدوري وآنسته كثيراً وقدمت له بعض الحلوى فأكل منها ولكنها لم ترضه وقال: هذا عوف عوف أي رديء ونحن لا نأكل غير اللحم اللحم فقلت حسناً جداً وتمكنت بعد ذلك الصداقة بيننا وصورته وفي الصباح نزلت مبكراً إلى المكتب وجاءني السيد أحمد وقال أين تريد أن تذهب هذا النهار فقلت إلى السد أيضاً وأريد أن أصعد إلى رأس جبل بلق لأقيس علوه فقال وأنا خبيرك اليوم (أي رفيقك) فقلت حسناً جداً وبعد هنيهة خرجنا بطريقنا إلى السد وكان السيد أحمد يركب حماراً كثير النهيق فأخذ يزعجنا بالطريق بصوته المنكر ولما كان السيد من أصحاب النكات اللطيفة ابتدأ يصرف لنا نكتاً كثيرة وفي جملتها قال ألا يوجد دواء للنهيق ؟ فقلت لا أعلم. ثم سألته إذا كان متزوجاً فقال الحمد لله لست متزوجاً لأني لا أملك المهر ولو ملكت المهر لما تزوجت أيضاً لأن النساء طلباتهن كثيرة ولا حد لها وأنا ليس بوسعي أن أقوم بها ولكن لو

وجدت لي زوجة صغيرة مثل الساعة أضعها في جيبي فأخرجها عند الحاجة وأعيدها إلى مكانها بعد قضاء الحاجة لما تأخرت عن هذا الزواج. فقلت لا بد أن الكثيرين يشاركونك في هذا الرأي خارج اليمن وأما في اليمن فلا أظن أحداً يشاركك فيه لأن الرجل يتزوج بامرأتين أو ثلاث أو أربع فلا يمكنه أن يرضى بواحدة. فقال صحيح صحيح. وسمع السيد أحمد واحداً من الجنود يسأل صاحبه ماذا وجدتم أمس بتنقيبكم في مأرب عساكم وجدتم ذهباً أو أفصاصً فأجاب كلا لم نعثر على شيء فأجاب ثالث لا عثروا على أشياء كثيرة وإن شاء الله سوف لا نعود من مأرب إلا وجيوبنا ملأى بالذهب، فأجابه السيد أحمد لا بالله بالكثان (أي البق) فضحكنا كثيراً كل الطريق على هذا المنوال وعندما وصلت إلى السد أخرجت درجة الإرتفاع (العلو) من جيبي لاسجل منها الإرتفاع ثم نصعد إلى الجبل لأخذ ارتفاعه ولكن مع الأسف وجدتها تكسرت فأسفت لذلك أسفاً كثيراً ولكني في الوقت نفسه سررت لانها لم تنكسر قبل وصولنا لمأرب.

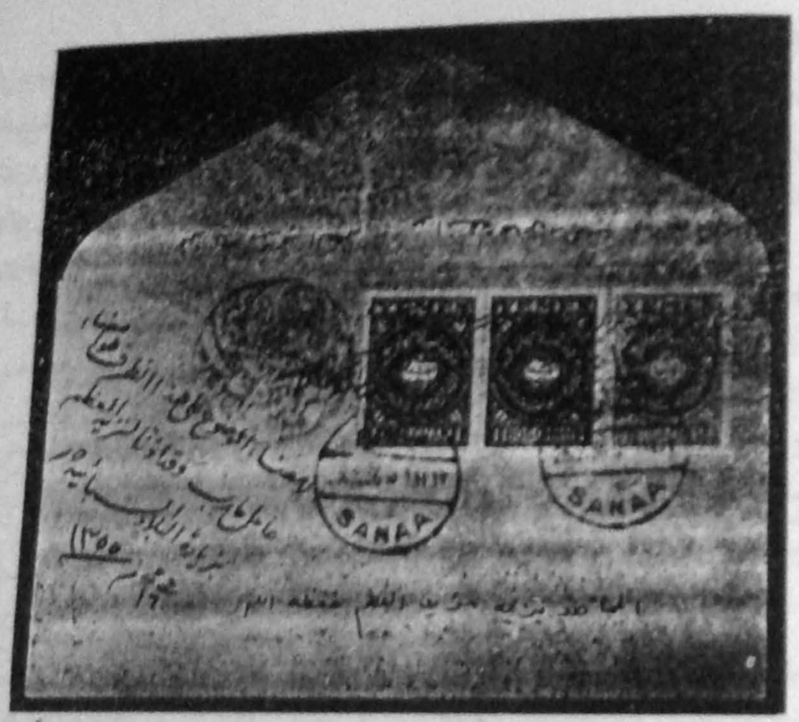
اضطررنا بعد هذه الكارثة أن نغض الطرف عن الصعود إلى الجبل وذهبنا هذه المرة إلى مخرج الماء في الجهة الجنوبية فأخذت المقاييس ونسخت الكتابات الحميرية التي وجدتها وهي ههنا قليلة بالنسبة إلى مخرج الماء في الجهة الشمالية ثم بذلت جهدي في تتبع مجرى الماء من السد إلى الجنة اليمنى وبعد مشقة طويلة تمكنت من إيجاد بعض الأثار الطفيفة التي استدللنا منها على مجرى المياه ولكن مع الأسف لم نجد في هذه الجهة المقاسم كما وجدناها في الجهة الشمالية، ولكننا وجدنا المجاري بعدما تقسمت ورأينا مكاناً متسعاً بين السد وهذه المجاري وقد خربه السيل تخريباً عظيماً فقلب سافله أعلاه. وفي نظري أن هذا المكان كان محل تقسيم المياه وقد تتبعنا هذه المجاري إلى مسافة بعيدة فوجدناها تصل إلى قرية يقال لها مِرْوِث ويجتازها إلى الجنوب لمسافة طويلة وشاهدنا ههنا أيضاً آثار البساتين والحدائق القديمة وفي ظني أن مروث هي الجنة التي عن يمين السد والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم ومأرب هي الجنة اليسرى وقد جاء في سورة سبأ «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن

يعين وشماله. وأطلال هذه المدينة البادية للعيان لهذا التاريخ يسيرة ولكن لا شك أنها كانت مدينة كبيرة ويستدل على ذلك من كمية الماء التي تأتيها ومن الرمال التي تذرها الرياح عليها فتغطيها وقد خصصت لها بحثاً مطولاً سيأتي ذكره فيما بعد.

قضيت عدة أيام في مدينة مأرب في ضيافة العامل وكنت كل يوم أخرج إلى السد أو إلى أطلال صرواح باحثاً مدققاً وفي هذه الأثناء أصبت بمرض الدوسنطاريا ولازمت الفراش نحو خمسة أيام ذقت خلالها الموت أشكالاً وألواناً في بلدة لا طب فيها ولا دواء ولكني كنت من باب الحيطة أحمل معي بضعة أمبولات (إبر) من الأمتين فاضطررت أن أطب نفسي بنفسي وأعمل الأبر بيدي وقد بدأ التحسن يظهر عليّ منذ حقنت بالأبرة الثانية وفي اليوم الخامس تنفست الصعداء وتخلصت من هذا الداء الفتاك فحمدت الله كثيراً. وبعدما تحسنت صحتي غادرت مأرب عائداً إلى صنعاء عن طريق خولان.

حضرة المكرم نزيه بك المؤيد العظم المحترم حرسه الله تعالى
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته قد تناولنا كتابكم الكريم المعبر
عن وصولكم الى مارب بسلامة وسررنا بذلكم ونهنئكم بدوام
ارتياح البال وصلاح الحال والله المسئول ان يعينكم على
ما فيه رضاه ويصلح الشان والسلام تاريخه ١٢ ذي القعدة [illegible]
و[illegible] باحتفظتم ولا بد من نجاح القصد
بعلائكم واعلامكم وان شاء الله يكون اعترافنا
بالآثار والعلاوة التشييد

صورة زنكوغرافية لكتاب جلالة الإمام



وبعد وصولي إلى مارب أرسلت لحضرة صاحب الجلالة الإمام كتاباً مقتضبا ذكرت لجلالته فيه شيئاً عن رحلتي وعن اجتماعاتي بشيوخ البدو وكلامي معهم وخطبي فيهم فأتاني جواب من جلالته نصفه الأول من خط العلامة الكبير القاضي عبد الكريم المطهر الكاتب الأول في الديوان الملكي ونصفه الثاني من خط يد جلالة الإمام بالذات وأني أثبته ههنا بالزنكوغراف كما أثبت صورة بعض الغلافات التي أرسلتها من مارب وإلى القارىء الكريم حكايتها: لما كان لا يوجد مصلحة بريد في مارب كتبت بعض الرسائل (وفي جملتها رسالة لصاحب الجلالة المرحوم الملك فؤاد الأول وأرسلتها لجلالته بواسطة كبير الأمناء) ووضعت عليها طوابع بريد يمنية وأرسلتها إلى صنعاء مع نجاب خاص وضعها في دائرة البريد وقد كتب عامل مارب على الطوابع ما يلي: لعدم وجود شعبة بريد بمارب صار إرساله (أي الكتاب) مع نجاب ليضعه ببريد صنعاء.

٢٠ ذي القعدة سنة ١٣٥٤

وأخذت من صاحب السعادة سعيد ذو الفقار باشا جواباً على هذه الرسالة

وأنا بصنعاء وإليك نصه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد رفعت إلى المسامع العلية الملكية ما تضمنته رسالتكم التي بعثتم بها من مأرب في ١٨ ذي القعدة مع طوابع البريد الملصقة على غلاف تلك الرسالة فكان لـذلك جميـل الأثر وحسن القبول لدى حضرة صـاحب الجلالـة مولاي الملك المعـظم واني أتشرف بإبلاغ ذلك إلى حضرتكم مع الشكر السامي.

تحريراً في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٥٤

وعندما أتيت إلى صنعـاء أخذت الـرسائـل التي أرسلتها لنفسي من دائـرة البريد ورجوت جلالة الإمام أن يصـادق لي على أن هذه الـرسائـل أرسلت من مأرب وعلى توقيع عامل مأرب فأمر جلالته بالمصادقة فكتب كاتبه الأول القاضي عبد الكريم المشروحات التالية. الإمضاء الموضوع على هذا الظرف هو إمضاء عامل مأرب وقد أذنا لنزيه العظم بزيارة البلاد السبأيـة حرر في ١٦ محـرم سنة ١٣٥٥ وختمه بخاتم جلالة الإمام.

سد العرم أو سد مأرب

على مسافة ١٤٥ كيلومتراً تقريباً إلى الشرق الشمالي من صنعاء، تجتمـع سيول اليمن الغربية التي تأتي من بـلاد ذمار ويـريم وجهران والحـدى وخولان وبلاد مراد وقيفه وغيرها ويقال لها سيل ذنـة من السيل الـذي يأتي من الشمـال ويقال له سيل القطوطة والسيل الذي يأتي من الجنـوب ويقال لـه سيل الجـوبة وتؤلف جميع هذه السيول شبه بحيـرة كبيرة مستـديرة مـرتفعة من جهـة الغرب والشمـال والجنوب ومنخفضـة في جهة الشـرق حيث تسيل جميعهـا شرقـاً في مجرى سيل واحد يطلق عليه أسم أكبرها أي اسم ذِنَّة وتدخل جميعها في فرجة كبيرة أي وادٍ كبير في جبل يقال له بلق فتقسمه إلى جبلين الشمالي ويقال له جبل بلق قطوطة أو بلق الأيسر (ويقال له قطوطة لأنه يلتقي بعد مسافة يسيرة من وادي ذنة بجبل بركاني أسود يدعى قطوطة ويقال له الأيسر أيضاً لأنه واقع على يسـار الآتي إلى مأرب من الجهة الغربية) والجنوبي ويطلق عليه اسم بلق الواسط أو بلق الأيمن لأنه واقع على يمين الآتي إلى مأرب وتدعى الفرجة بي الجبلين بباب

الضيقة وتبلغ سعة هذه الفرجة أي هذا الوادي أو الباب في أوله نحو ٢٠٠ متر وهذا هو مدخل الماء إلى خزان (أي ماجن) سد العرم الحقيقي. ويزداد اتساع هذا الوادي بين البلقين كلما سار الإنسان إلى جهة الشرق إلى أن يبلغ عرضه في منتصفه نحو ٥٠٠ متر ثم يأخذ في الضيق إلى أن يبلغ نحو ١٧٥ متراً في مخرجه بآخر الجبلين بمكان يقال له مربط الدم وهو المكان الذي بني فيه سد العرم وقد أطلقوا على هذا المكان أسم مربط الدم لأنه يقال ـ والله أعلم ـ أن أهل سبأ عندما شعروا بغضب الله عليهم راجت بينهم إشاعة بأن الجرذان ستخرب سدهم ولذلك جلبوا دمما كثيرة أي قططاً كثيرة وربطوها إلى جانب السدحتى تفترس الجرذان عند ظهورها وتمنعها من تخريب السد. وأما طول هذا الخزان من مدخل الماء بين الجبلين أي من باب الضيقة حتى مخرجه عند مربط الدم فيبلغ مسافة ساعة كاملة أي نحوأربعة كيلو مترات تقريباً وآثار المياه بأطراف الجبل بادية للعيان كيفما سار الإنسان وعندما كان يملأ هذا الخزان بالمياه كان يغمر الطريق بالوادي ولذلك عبد أهل سبأ طريقاً حجرياً في الجهة الشمالية من جبل بلق قطوطة الأيسر ليتمكنوا من اجتياز هذا الوادي. ويكثر فيه في الوقت الحاضر شجر الأثل وهو الشجر المعروف بالطرفة ولا وجود للسدر فيه مطلقاً ههنا.

وجبل بلق هو جبل بركاني كبير يبلغ علوه نحو ٤٠٠ متر ويمتد من الجنوب إلى الشمال ويتصل بجبل هيلان العظيم في الشمال وهذه الجبال هي سلسلة واحدة طويلة ممتدة إلى جانب الربع الخالي من جهته الغربية وتركيبها واحد وتبدو عند بعد بيضاء بالنسبة إلى الجبال البركانية السوداء التي تحيط بها فيخالها الإنسان لأول وهلة كلسية ولكنه متى وصل إليها تظهر بأنها بركانية ويسير إلى جانب الربع الخالي مسافات طويلة. وقال لي بعض البدو أنها تمتد حتى أراضي الحجاز وتتصل بجبال السرات.

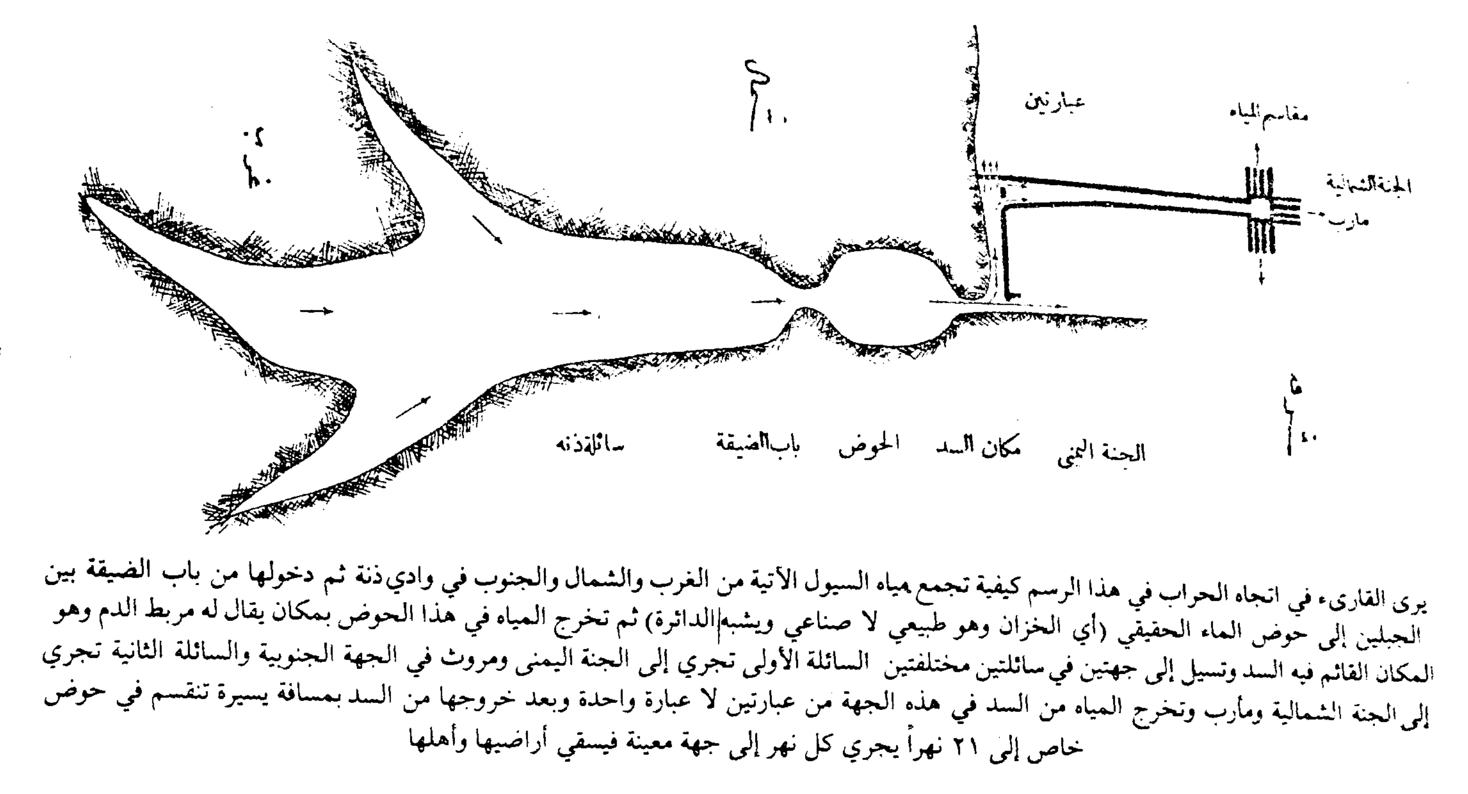
والسد قائم كما ذكرت سابقاً في آخر الجبلين من الجهة الشرقية في مكان يقال له مربط الدم ولكن سيل العرم لم يبق له أثر ههنا غير مخرج الماء وهو كناية عن جدار مبني بالتوازي إلى جانب جبل بلق الأيمن وفيه مخرج واحد للماء أي (عبارة) واحدة قائمة إلى جانب الجبل تماماً وعرضها ٤٥٥ سنتمتراً (أي أربعة

متر ونصف متر وخمسة سنتمترات) وجدارها الواحد هو كناية عن صخرة عظيمة في جنب الجبل وعليها بعض النقوش أي الكتابة الحميرية وإلى القارىء صورة أحد هذه النقوش مع ترجمته في الصفحة التالية وجدارها الثاني هو جدار عظيم مبني من الحجر المنحوت ويبلغ عرضه في جنب العبارة ١٣ متراً وربع ويقوم خلفه جدار ثان هو بغلة العبارة وطوله نحو ٨٠ متراً وأما ارتفاعه فلم أتمكن من أخذه بالضبط لأن السيل قد جرف الأرض أمام هذا المخرج فأصبح من المتعذر قياسه تماماً ولكنه يبلغ على وجه التقريب نحو ١٣ متراً. وهذا الجدار أو البغلة كان ولا يزال قائماً وراء السد من الجهة الجنوبية على زاوية قائمة للأرض والسد وأما السد نفسه فكان مبنياً على زاوية منفرجة ويمتد من الجنوب إلى الشمال مسافة ٦٥٠ متراً حيث ينتهي بعبارتين تخرج منهما المياه إلى الجنة الشمالية أما ارتفاع السد في نفس وادي ذنة وعرضه فلم أتمكن من معرفتهما لأن السيل لم يبق من معالمهما إلا شيئاً يسيراً بالقرب من العبارتين الشماليتين وسوف يأتي ذكرهما فيما بعد.

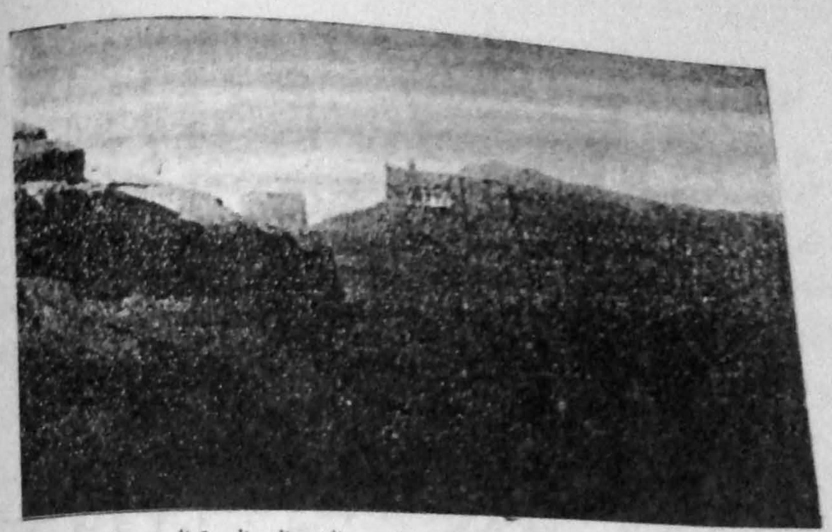
نقش يؤمن بن سمعين في العبارة على جدارها القائم في نفس الجبل

يثَع أمرْ بايِنْ بن اسموعة ينوف حاكم سبأ ثقب الحجر الرخامي في حوض حَبابِض في الجهة الشمالية. ترجم لي هذه العبارة الدكتور غلوبز في برلين وهو من المستشرقين الواقفين على اللغة الحميرية.

والآن أعـود إلى مخرج المـاء في الجهة الجنـوبية فـاقـول أن جـدار هـذا المخرج مبني من الحجارة البـركانيـة الكبيرة المنحـوتة نحتـاً جميلاً وفي نفس العبارة بلغ طول بعض الحجارة مترين وربع متر وبغلة العبارة المشار إليها مبنية بشكل مستغرب فبعض أحجارها متداخل بعضها في بعض كما يدخل المفتـاح في القفـل والبناء متقن إلى حـد بعيد ولا يمكن للمـرء أن يدخـل بين الحجـر والحجر إبرة ويظهر أنهم كانوا يستعملون في البناء مادة تشبه الأسمنت تضع بين الأحجار. والغريب في أمر هذا البناء أنه لا يزال قائماً إلى هذا اليوم، كما كان



يرى القارىء في اتجاه الحراب في هذا الرسم كيفية تجمع مياه السيول الآتية من الغرب والشمال والجنوب في وادي ذنة ثم دخولها من باب الضيقة بين الجبلين إلى حوض الماء الحقيقي (أي الخزان وهو طبيعي لا صناعي ويشبه الدائرة) ثم تخرج المياه في هذا الحوض بمكان يقال له مربط الدم وهو المكان القائم فيه السد وتسيل إلى جهتين في سائلتين مختلفتين السائلة الأولى تجري إلى الجنة اليمنى ومروث في الجهة الجنوبية والسائلة الثانية تجري إلى الجنة الشمالية ومأرب وتخرج المياه من السد في هذه الجهة من عبارتين لا عبارة واحدة وبعد خروجها من السد بمسافة يسيرة تنقسم في حوض خاص إلى ٢١ نهراً يجري كل نهر إلى جهة معينة فيسقي أراضيها وأهلها



مخرج المياه (أي عبارة العبارة) التي تسيل من السد إلى الجنة الجنوبية
والجدار الواحد هو كناية عن الجبل

قبل ألوف السنين حتى كأن البنائين لم يخرجوا منه إلا منذ بضعة أيام لا منذ بضعة ألوف من السنين. وقد رأيت في الأحجار المبنية منها أرض العبارة ثقوباً كبيرة يظهر لي أنها مكان عمدان حديدية كانت تستعمل كباب متحرك يفتح ويغلق بحسب الحاجة إلى المياه.

وتسيل المياه من هذه العبارة أو المخرج في مسيل خاص بني في جانب جبل بلق الأيمن إلا أن السيول جرفته أيضاً غير أني تمكنت بصعوبة زائدة وببذل وقت طويل من تتبع هذا المجرى إلى مسافة يسيرة من العبارة ثم غاب عن نظري مرة واحدة ولكني تتبعت الجهة التي كان يسيل في اتجاهها إلى أن وجدته ثانية بعد أن تقسم إلى ستة مجار وأما المكان الذي تقسم فيه هذا التقسيم فغير ظاهر للعيان لأن السيل قد جرفه. وتسيل هذه المجاري الستة متوازية نحو الجنوب والجنوب الشرقي ويوجد ههنا أي على مسافة ساعة وربع من مأرب إلى الجنوب الغربي ، آثار خرائب مدينة صغيرة يقولون لها مِرْوِث. وتمتد هذه الخرائب من مروث إلى مسافة بعيدة في الجهة الجنوبية ويقولون أنه كان يوجد بالقرب من هذه المدينة وإلى جنوبها مدينة كبيرة يطلقون عليها إسم مدينة النحاس

وقد طغت عليها الرمال فغطتها واني أعتقد بأن هذا القول صحيح لأني شاهدت مجاري المياه الستة المار ذكرها تسيل إلى تلك الجهة. ولا شك أنه كان يوجد ههنا حقول وبساتين كثيرة لأن هذه الجهة هي الجهة اليمنى. وقد جاء في القرآن الكريم «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال» والذي يحملني على الاعتقاد بوجود مدينة كبيرة في هذه الجهات أمران أولهما هذه الآية وثانيهما المياه التي تأتي إلى هذه الجهة فجميع المياه التي تخرج من العبارة الجنوبية (واتساع هذه العبارة ٤٥٥ سنتمتراً) تأتي إلى هذه الجهة ومجاريها كما ذكرت لا تزال بادية للعيان إلى يومنا هذا، ومن البديهي أن لا تسيل هذه الكمية العظيمة من الماء إلا إلى مدن ومزروعات وعليه فاني اعتقد اعتقاداً جازماً بوجود مدينة كبيرة في هذه الجهة قد تكون مروث وقد تكون مدينة النحاس أو كلتاهما والله أعلم.

ويظهر تأثير سيل العرم في هذه الجهة بشكل يدهش الأنظار فبعد أن جرف الأراضي الزراعية الأصلية والمباني وكثيراً من مجاري المياه عاد فترك خلفه طبقات عظيمة من الرواسب الرملية والترابية تبدو في بعض الأماكن بالقرب من جبل بلق الأيمن كالشعاب والتلال. ومما زاد الطين بلة أنه بعد تدمير هذه البلاد بالسيول طفت الرمال عليها وغطت قسماً كبيرا منها. ويكثر في هذه البلاد الأعاصير والزوابع فتحمل الرمل من مسافات قريبة وتذريه في كل مكان ولكن بالرغم من ذلك كله فلا تزال بعض الخرائب الحميرية بادية للعيان هنا وهناك بشكل يسترعي النظر ويثبت الاعتقاد الجازم بوجود مدينة أو أكثر في هذه الجهة. أما اتساع هذه الجنة أي طولها من الغرب إلى الشرق باستقامة مدينة مأرب فيبلغ نحو ساعة وربع ساعة أي ستة كيلومترات تقريباً وعرضها من الجنوب إلى الشمال نحو ساعة أي خمسة كيلومترات فتكون مساحتها نحو ٣٠ كيلو مترا مربعاً، وهذه الجنة تبدو اليوم للباحث أصغر من الجنة الشمالية لأن الرمال كما ذكرت سابقاً قد طغت عليها من الجهة الجنوبية ولم يبق في وسع المرء أن يحدد المكان الحقيقي الذي كانت تمتد إليه في هذه الجهة ولذلك فتقديري للمساحة هو نسبي ولكن يجب أن لا يغرب عن بالنا في الوقت نفسه أن كمية الماء التي

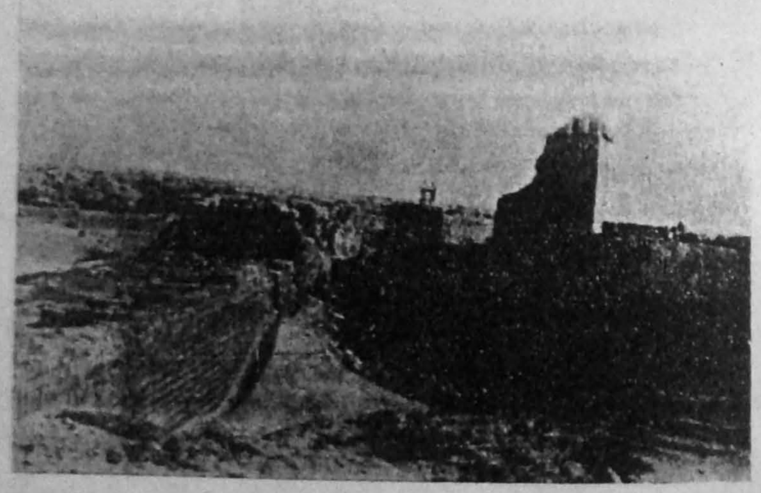
تسيل إلى هذه الجنة هي أقل بكثير من كمية الماء التي تسيل إلى الجهة الشمالية وهذا مما يعزز النظرية السابقة بأن هذه الجنة هي أصغر من الجنة الشمالية.

وفي الوقت الحاضر يوجد سائلة ذنة مما يلي السد إلى حدود مأرب أي ضمن الجنتين أشجار كثيرة من الأثل ولا يوجد بينها إلا شيء يسير جداً من السدر يعني لا يوجد إلا سدرة واحدة بين الألف أثلة وهذا مصداق لما جاء في الآية الكريمة بسورة سبأ «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل» وقد شاهدت أيضاً الخمط وهو ينمو نمواً جيداً حول مأرب وفي الأراضي الواقعة بينها وبين عرش بلقيس ويطلق عليه أيضاً اسم الأراك ويصنعون منه السواك وله ثمر أحمر يأكله الناس ويشبه حب العدس الصغير الأحمر وطعمه حلو. والخمط تأكله الماعز والغنم والجمال.

وقد شاهدت في سائلة ذنة بالجهة الشرقية على بعد ثلاث مائة متر تقريباً من عبارة الماء الجنوبية أساس بناء قديم مربع ويخيل لي أنه كان مسكناً لحراس سد الماء ويدعونهم ههنا إلى هذا اليوم (حوامي) الماء أي حماته ويروون عنهم قصصاً غريبة وفي جملتها أنهم كانوا ينتشرون من السد إلى حضرموت بصورة دوريات وحراس وكانوا ينقلون الأخبار بسرعة زائدة وذلك بأن ينادي الحارس الواحد على الآخر ويقول له بلغ فلاناً ما هو كذا وكذا وقيل والله أعلم أن زوج أحد الملوك ولدت له مولوداً في المساء بمأرب بينما كان هو بحضرموت فلم يصبح الصباح إلا علم بولادة زوجه وذلك عن طريق حوامي الماء الذين نقلوا الخبر في ليلة واحدة رغم أن المسافة بين مأرب وحضرموت تبلغ نحو خمسة أيام.

ويوجد بالقرب من خرائب مِرْوِث بعض الحصون الجديدة بناها العرب والشرفاء من أهل مأرب لسكناهم وهم يغرسون حولها إلى جانب السائلة الذرة والشعير والحنطة والجلجلان ومن العجب العجاب أن هذه المزروعات تنموا نمواً عظيماً إذا شربت ولو مرة واحدة وذلك من ماء السيل لا من ماء المطر لأن الأمطار

في هذه البلاد لا تهطل إلا نادراً وإن هطلت فكميتها يسيرة جداً ولذلك يعول الأهلون في زراعتهم على السيل فإذا جاءهم السيل غرسوا ما أمكنهم غرسه من الأراضي التي حولهم ولا توجد لديهم أدوات زراعية وقد رأيت سكة الحراثة التي يحرثون بها الأرض وهي لا تزيد على بضعة سنتمترات، وبالرغم من هذا كله يحصدون زرعاً جيداً وقد رأيت شعيرهم أبيض ناصعاً وهو يشبه حبة الصنوبر بحجمه وكثيراً ما يحصدون من غرس واحد موسمين أو أكثر وذلك بنسبة السيول. وبديهي والحالة هذه أن الحميريين كانوا يجنون فائدة عظيمة من سدهم وهو في الحق ليس خزاناً فقط بل هو أيضاً وسيلة لرفع مستوى المياه في وادي ذنة أي مستوى الأراضي التي كانت يسقيها وهي أعلى من مجرى السائلة الأصلي في مربط الدم بنحو تسعة أمتار وسيظهر ذلك للقارىء الكريم بوضوح عند منتهى السد في الجهة الشمالية. وهذه الأراضي تصلح لغرس كل شيء من نبات وشجر مثمر وغير مثمر وقد رأيت الجند في مأرب غرسوا بالقرب من بئرها في حديقة صغيرة بسباساً (فليفلة) وقشمى (فجل) وريحاناً فنما البسباس كالشجر لا كالنبات وبلغ طول الواحدة نحو متر تقريباً وكذلك الأمر بالريحان والقشمى فقد كان نموها عجيباً ولا شك عندي بأن هذه الأراضي تصلح لغرس جميع الأشجار المثمرة وغير المثمرة متى توفر الماء لها وذلك لأن اقليمها معتدل



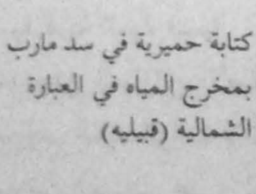
مخرجي (أي عبارتي) المياه التي تسيل من سد مأرب إلى الجنة الشمالية

يميل إلى الحرارة والجفاف اكثر مما يميل إلى البرد والرطوبة وتعلو هذه الأراضي عن سطح البحر ١٣٠٠ متر وهي أوطى من صنعاء بمقدار ١١٥٥ متراً.

أما السد بالجهة الشمالية (أي القبلية) فظاهر للعيان اكثر منه في الجهة الجنوبية وبعض بقاياه لا تزال واقفة الى هذا اليوم كأنها مبنية من عهد قريب وهي كناية عن قطعتين من السد الأصلي وجدارين عظيمين متقاطعين في منتهاه بالجهة الشمالية. وطول القطعة الأولى منهما ٣٥ متراً وطول الثانية ٢٠ متراً وهما مبنيتان من الحجارة البركانية السوداء والبيضاء الصغيرة (دبش) لا على زاوية قائمة من الأرض بل على زاوية منفرجة وبناؤهما مائلاً لا قائماً ولذلك يبدو السد كأنه تل صغير لا كأنه جدار كبير وفي الظاهر أنهم بنوه على هذه الشكل لكي يتحمل ضغط الماء أكثر فأكثر والاغرب من ذلك كله ان هذه الحجارة البركانية الصغيرة (أي الدبش) المبني منها هذا السد العظيم مرصوفة رصفاً كرصف أرض الحدائق عندنا لا مبنية بناء وهي تشبه في تركيبها ما يسمونه اليوم (بالكونكريت) الذي يضعونه في أسس البنايات الحديثة الضخمة ولكن الأولين عوضاً من أن يستعملوا الحصى في كونكريتهم استعملوا الحجارة الصغيرة التي يبلغ حجم الواحدة منها حجم جمجمة الأنسان. وقد بذلت جهدي لأرفع حجراً واحداً من هذه الأحجار فلم أتمكن لأنها أصبحت جميعها قطعة واحدة (كالبيتون) المصبوب صباً فنياً ويظهر أنهم قد استعملوا في رصفها على هذا الشكل نوعاً غريباً من أنواع السمنت الذي كان معروفاً عندهم.

ويقوم الى جانب هاتين القطعتين الباقيتين من السد بناء حجري ضخم منحوت نحتاً جميلاً وهو كناية عن جدارين متقاطعين الأول منهما عضادة ضخمة فيها عبارتان (أي مخرجان للماء) قائمتان الواحدة إلى جانب الأخرى ويفصل بينهما جدار صغير (أي بغلة) عرضها أربعة أمتار وربع متر وعرض العبارة الأولى ثلاثة أمتار وعرض العبارة الثانية ثلاثة أمتار ونصف متر وتعلو هاتان العبارتان عن مجرى الماء في سائلة السد تسعة أمتار وقد استرعى نظري في العبارة الثانية نقش حميري غريب هو كناية عن أربعة حروف كبيرة نافرة نقشت في جدار العبارة الأيمن وإلى القارىء صورته في الصفحة التالية.

أما الجداران المتقاطعان فكلاهما مبني من الحجر البركاني الكبير المنحوت نحتاً متقناً والجدار الأول الذي فيه العبارتان بيضاوي الشكل تقريباً وقطره من آخر السد حتى العبارة الأولى يبلغ ٣٢ متراً وهو ممتد من الجنوب الى الشمال وسمكه يختلف في بعض الأماكن عن بعضها وقد بلغت في بعض الجهات عشرين متراً. والجدار الثاني الذي يعارض هذا الجدار يمتد من الغرب الى الشرق وطوله ١٤٥ متراً وبناؤه كبناء الجدار الأول من الحجر البركاني الكبير المنحوت وينتهي هذا الجدار بجبل بلق غرب العبارات وطوله من عبارة السد الى الجبل ٦٠ متراً وطوله من عبارة السد إلى أوله في الجهة الشرقية ٨٥ متراً وقد شاهدت في قسمه الغربي بعض مجاري الماء وبعض الثقوب المستديرة ويظهر أنها كانت الأماكن التي تضع فيها الأبواب المتحركة لكي تنظم كمية الماء التي يجب أن تدخل في العبارتين وعدد هذه الأبواب ستة



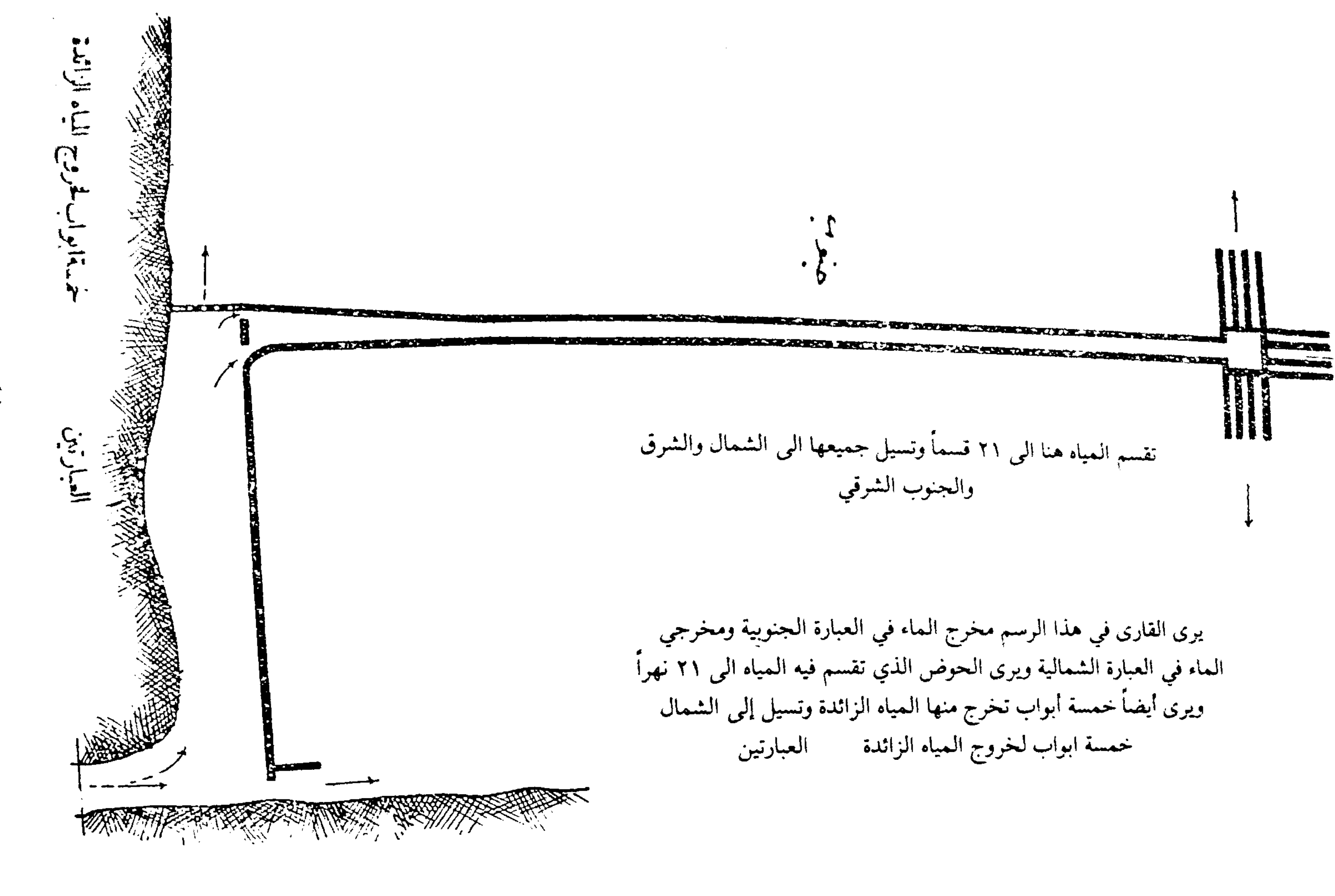
كتابة حميرية في سد مارب
بمخرج المياه في العبارة
الشمالية (قبيليه)



وعلى مسافة قريبة منها على زاوية قائمة من عبارة الهد الثانية ويقوم الباب الأول وعرضه ١١٥ سنتيمتراً والباب الثاني وعرضه ٦٤٠ سنتمتراً والثالث ١٢٠ سنتمتراً والرابع عرضه ٢٩٥ سنتمتراً والخامس ٣٤٢ سنتمتراً والسادس ٥٣٠ سنتمتراً. وتسيل المياه من هذه الأبواب الى الجهة الشمالية (أي القبلية) ولا يوجد بقايا لسائلاتها ولا آثار في الأراضي التي كانت تسقيها لأن سيل العرم قد جرف هذه الأراضي الى حيث لا يعلم مقرها إلا الله ولا يظهر في هذه الجهة أيضاً شيء من الخرائب الحميرية بل بالعكس تظهر آثار السيول وقد تركت خلفها أكاماً من الرواسب هنا وهنالك. وقد طغى السيل الى مسافة بعيدة عن السد في أرض جبلية بركانية وبعد انخفاضه ترك خلفه في هذه الأراضي البركانية السوداء تلالاً كبيرة من الرمل والتراب الأصفر الذي يظهر للباحث من مسافات بعيدة.

ويتبادر الى ذهني أن أهل سبأ كانوا عندما تشتد السيول أيام المطر وتطغى المياه على السد بكميات كبيرة كانوا يفتحون جميع الأبواب أو بعضها وذلك بنسبة كمية المياه فتسيل المياه المتراكمة الى الجهة الشمالية ويخف الضغط عن السد وعن العبارتين الأصليتين وبديهي أن هذه الأبواب المتحركة لم تصنع إلا لتصريف المياه الزائدة لا للري لأن المياه اللازمة لري الجنة الشمالية تخرج من العبارتين المبنيتين على زاوية قائمة من هذه الأبواب وتسيل في سائلة خاصة الى الجهة الشرقية حيث توجد الجنة الشمالية وعرض هذه السائلة خلف العبارتين ٢٨ متراً ونصف متر وعلوها بالميل تسعة أمتار وعلوها القائم ٧٨٠ سنتمتراً. وبعد أن تجتاز هذه السائلة مسافة ١٠٠ متر تقريباً تضيق فيصبح عرضها ١٤ متراً في سطحها وهي مبنية أيضاً على نفس طريقة السد من الأحجار البركانية الصغيرة المرصوفة رصفاً متيناً وجداراها مائلان وقد بلغت عرض المسافة من أعلى نقطة في الجدار الواحد إلى أعلى نقطة في الجدار الثاني ١٨ متراً أي ان عرض السائلة ليس متساوياً في مجراها وفي أعلاها وذلك بديهي لأن الجدارين كما قلت سابقاً مبنيان بناء مائلاً لا قائماً وقد بلغ هذا الميل في كل جدار مترين.

وتجري هذه السائلة الى مسافة ١١٦٥ متراً من السد شرقاً حيث تقسم تقسيماً فنياً جميلاً في مقاسيم خاصة تسيل سبعة منها الى الشرق والشرق


جنوب
تقسم المياه هنا الى ٢١ قسماً وتسيل جميعها الى الشمال والشرق
والجنوب الشرقي
يرى القارى في هذا الرسم مخرج الماء في العبارة الجنوبية ومخرجي
الماء في العبارة الشمالية ويرى الحوض الذي تقسم فيه المياه الى ٢١ نهراً
ويرى أيضاً خمسة أبواب تخرج منها المياه الزائدة وتسيل إلى الشمال
خمسة ابواب لخروج المياه الزائدة
العبارتين
العبارتين
خمسة ابواب لخروج المياه الزائدة

الجنوبي وسبعه تسيل الى الشمال وعدد مجهول يسيل الى الجنوب ولم أتمكن من اكتشافه كاملاً لأن السيل خربة وترك جزءاً منه هنا وهنالك واليك بيانها بالترتيب مبتدئاً من الجنوب الى الشمال . المجرى الأول يسيل إلى الجنوب الشرقي وعرضه ٧ أمتار ونصف متر وعلو مجراه عن الأرض ثلاثة أمتار و٣٠ سنتمترا. وعرض الجدار بينه وبين المجرى الثاني ١١٠ سنتمترات . وأظن أن هذا المجرى يصل إلى عرش بلقيس.



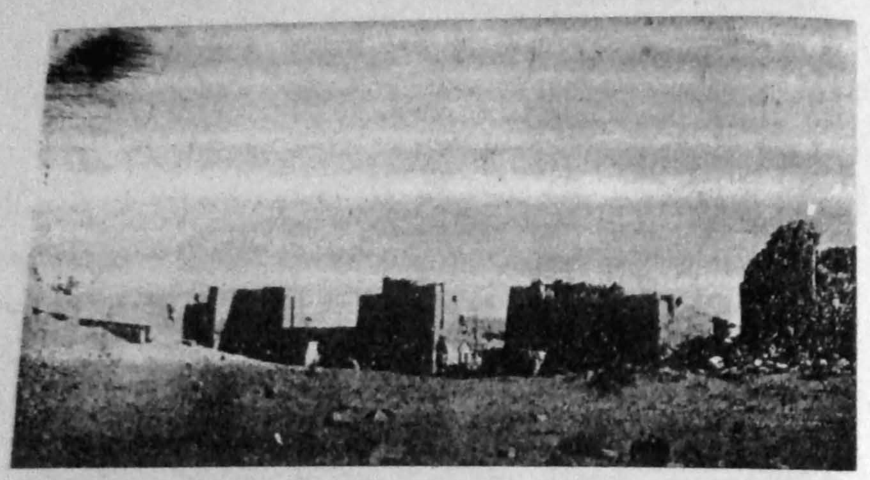
بعض مقاسم المياه في الجهة الشمالية أي القبلية وتسيل المياه منها الى مارب والى قسم من الجنة الشمالية والى محرم بلقيس في الجنوب

المجرى الثاني يسيل إلى الشرق بانحراف جزئي إلى الجنوب وعرضه ٣٧٥ سنتمتراً وارتفاعه ٤ أمتار وعرض الجدار بينه وبين المجرى الثالث ١٤٥ سنتمتراً.

المجرى الثالث ويسيل إلى الشرق وعرضه ١٤٥ سنتمتراً وارتفاعه متران وعرض الجدار بينه وبين المجرى الرابع ١٠٥ سنتمترات .

المجرى الرابع عرضه ٣١٥ سنتمتراً وجدرانه متهدمة .

المجرى الخامس عرضه ثلاثة أمتار وعرض الجدار بينه وبين المجرى السادس ٢٤٥ سنتمتراً وهو مبني من الحجر البركاني الضخم . وبعد هذا المجرى توجد عضادة قوية مبنية من الحجارة الكبيرة وعرضها ٦١٢ سنتمتراً .



بعض مقاسم المياه في الجهة الشمالية أي القبلية وتسيل المياه منها إلى مارب وإلى الجنة الشمالية

المجرى السادس وعرضه ٢٩٥ سنتمتراً ويسيل شرقاً وعرض الجدار القائم بينه وبين المجرى السابع ٣٥٠ سنتمتراً.

والمجرى السابع وعرضه ٣٢٠ سنتمتراً ويسيل شرقاً.

وإلى جانب هذه المجاري الشرقية يوجد مجار شمالية (أي قبلية) مبنية على زاوية قائمة من المجرى الشرقي السابع وعددها أيضاً سبعة مجار وإليك بيانها بالترتيب: -

المجرى الأول وعرضه ٢٤٥ سنتمتراً وبنيت إلى جانبه للغرب عضادة قوية جداً وعرضها ١٩ متراً وارتفاعها في الوقت الحاضر ثلاثة أمتار ولكن أساساتها مردومة بالرمال وأظن أنها كانت قبلاً أعلى من ذلك.

المجرى الثاني وعرضه ١١ متراً.

المجرى الثالث وعرضه ٥ أمتار ولكن جدرانه متهدمة انما مجراه ظاهر.

المجرى الرابع وعرضه ٧٩٠ سنتمتراً وجدرانه متهدمة.

المجرى الخامس وعرضه ١٤٥ سنتمتراً وجدرانه متهدمة.

المجرى السادس وعرضه ٨٩٠ سنتمتراً وجدرانه متهدمة.

المجرى السابع وعرضه ١٥٥ سنتمتراً وجدرانه متهدمة.

وإلى جانب المجاري الشرقية وعلى زاوية قائمة منها يوجد بعض المجاري الجنوبية ولكن السيل والبدو قد خربوها فلا تظهر في نفس المقاسم غير أنها تظهر على بعد مائة متر إلى جنوبي هذه المقاسم واني لم أتمكن من ضبط عددها لأن معالم أكثرها قد اندرست ولم أشاهد غير مجريين باقيين إلى اليوم ولكن بحسب الظاهر من بناء هذه المقاسم يجب أن تكون سبعة كالمجاري الشرقية والجنوبية والله أعلم.

أما بناء هذه المقاسم والمجاري فعلى شكلين: المجاري الكبيرة مبنية من الحجارة البركانية المنحوتة والصغيرة مبنية من الاحجار البركانية السوداء ومحشو بينها شيء من اللبن الاسود الكبير المصنوع بقوالب خاصة من الرمل والحصى البركانية الناعمة ونوع من أنواع السمنت وهذا اللبن قوي جداً فبالرغم من ألوف السنين التي مضت على صنعه لا يزال قوياً وقد أردت أن أكسر قطعة منه فلم أفلح.

ويوجد في جميع مقاسم المياه نقوش حميرية عديدة ويوجد أيضاً في الجدارين الكبيرين من السد المار ذكرهما نقوش حميرية كثيرة ويوجد أمام عبارتي السد في الجهة الشمالية إلى جانب بلق الايسر عمودان كبيران مبسطان عليهما نقوش كثيرة هي بدون شك تاريخ هذا السد العظيم وكيفية تقسيم مياهه ولكن واحداً منهما قد كسره العرب إلى قطعتين وأما الثاني فلا يزال سليماً.

وزبدة القول أن السبب في بناء هذا السد هو أولا الاحتفاظ بمياه السيول التي تجري إلى هذه الجهات في فصلي الأمطار أي بالخريف والصيف وخزنها إلى أيام الجفاف في الشتاء والربيع وثانياً رفع الماء في سائلة ذنة إلى مستوى الأراضي القائمة حولها وحول مدينة مارب في الجهتين الجنوبية والشمالية لأن هذه الأراضي أعلى من مجرى السائلة عند مربط الدم أي عند السد بنحو تسعة أمتار ولولا هذا السد لا يمكن للمياه أن تصلها.

ويبلغ طول الجنة القبلية من مربط الدم أي من السد في الغرب إلى ما يلي مدينة مارب بالشرق مسافة ساعتين أي نحو عشرة كيلو مترات تقريباً وعرضها من الجنوب إلى الشمال نحو ساعة أي خمسة كيلو مترات فتكون مساحتها نحو ٥٠ كيلو متراً مربعاً. ومارب قائمة في آخر هذه الجنة الشمالية ويجري الماء إليها من العبارتين الشماليتين.



بواقي سد الجفينة وقد وقف فيه شقيق عامل مارب السيد احمد الهجوة الكبسي وإلى جانبه ابن عمه السيد احمد وبعض الجنود

سد الجفينة

روى لي بعض البدو وأنا في مارب بأنه يوجد إلى الشمال الغربي من مدينة مارب جدار كبير لا يعلمون ما هو ويوجد فيه بعض النقوش الحميرية فذهبت ذات يوم لزيارة هذا الجدار لأرى ما هو فكانت دهشتي عظيمة عندما رأيت نفسي أمام سد صغير لم يتخرب منه إلا جزء يسير وهو بسيط جداً في هندسته. ويبعد عن مقاسم المياه للجنة الشمالية نحو ٥ دقيقة وهو واقع إلى جهة الشرق الشمالي.

وهذا السد كناية عن جدار طوله نحو ٢٠٠ متر ممتد من الغرب إلى الشرق أي بعكس سد مارب الممتد من الجنوب إلى الشمال وتسيل المياه نحوه من

جهتين الجهة الأولى من الشمال الغربي في سائلة طبيعية تأتي مياهها من الجبال الغربية الشمالية والجهة الثانية من الجبال الشمالية لمدينة مارب وتسيل هذه المياه في سائلة اصطناعية مبنية في أسفل الجبل بشكل معوج وجدران هذه السائلة وبنيانها ليس متقضاً بل هو مبني من الحجارة البركانية الصغيرة واللبن الاصطناعي المعمول من السمنت وتقسم المياه عند هذا السد إلى أربعة أقسام قسمان يسيلان إلى الجهة الشمالية وقسمان يسيلان إلى الجهة الجنوبية وعرض العبارات الشرقية كما يلي:

العبارة الأولى عرضها ٢٨٠ سنتمتراً والثانية ٢٥٠ سنتمتراً.

والعبارات الجنوبية كما يلي الأولى ١٥ متراً و١٥ سنتمتراً وقد تهدم شيء قليل منها ولكن أسسها لا تزال ظاهرة والثانية وعرضها ٢٥٠ سنتمتراً. وتسيل مياه هذا السد إلى مدينة مارب وجنتها.

مارب

لقد اختلف العلماء والمؤرخون والمفسرون في معنى أسم مدينة مارب (بالهمزة الساكنة) فمنهم من قال إنها مشتقة من الارب ومنهم من قال إنها أسم أحد الملوك الحميريين الذي بنى هذه المدينة ومنهم من قال إنها مركبة من كلمتين حميريتين ماء ورب ومعناهما الماء الكثير وأنا أرجح أن هذا التفسير هو أقرب إلى الصواب من غيره. وأما أهل البلاد فيلفظونها بدون همزة وأهل اليمن يكتبونها بدون همزة أيضاً ولذلك اتبعتهم في كتابتها في هذه الرحلة لأنهم أدرى بدارهم منا ومن غيرنا.

وتقع مدينة مارب على مسافة ١٦٥ كيلو متراً إلى الشرق الشمالي من مدينة صنعاء وتقطع القوافل هذه المسافة في طرق غير معبدة في نحو خمسة أيام. ويحيط بمدينة مارب من جهاتها الأربع أراض زراعية كان يطلق عليها قديماً أسم الجنتين الشمالية والجنوبية ويحدهما من جهة الغرب جبل بلق وسد العرم ومن الشمال سلسلة جبال منخفضة متصلة بسلسلة جبال هيلان الشامخة ومن الشرق رمال الربع الخالي ومن الجنوب رمال الربع الخالي أيضاً وتعلو عن سطح البحر

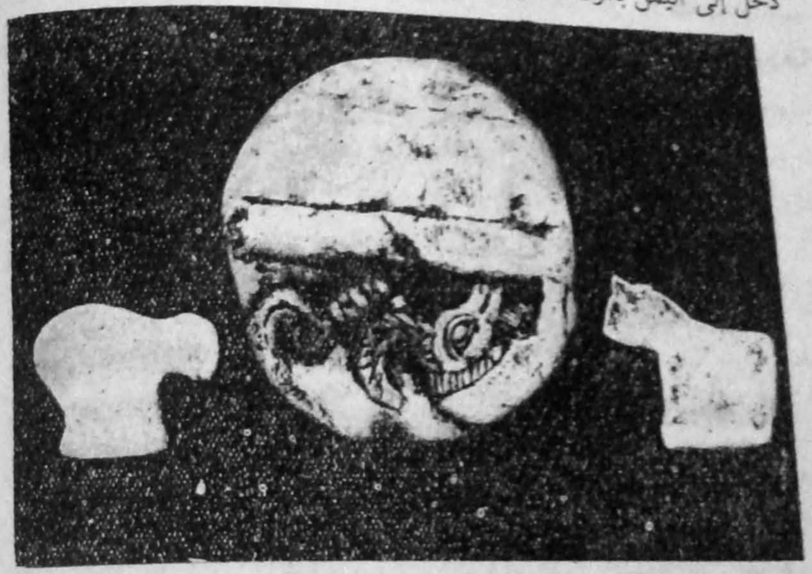
١٣٠٠ متر واقليمها حار وجاف ولا تهطل فيها الأمطار إلا نادراً وإنما ينزل الرذاذ أحياناً وتكثر فيها أيام الربيع والصيف الرياح والعواصف الشديدة ويكثر فيها أيام الشتاء الذباب والكتان (أي البق)

وتبدو اطلال المدينة للقادم إليها من جهة السد أي من الجهة الغربية كأنها شبه دائرة وهذا مما يحمل المرء الغير محقق لأول وهلة على الاعتقاد أنها شبه دائرة ولكنه متى وصل إليها وشاهد بقاياها يتبدد هذا الوهم ويظهر له سورها الحجري الضخم المبني من الحجارة البركانية المائلة إلى البياض والمنحوتة نحتاً دقيقاً ويرتفع هذا السور على وجه الأرض في الوقت الحاضر نحو نصف متر فقط وهو ليس دائرياً كما قال بعضهم بل مربعاً ولكن يوجد فيه احديداب ونتوء في أماكن عديدة.

وقد وقع المستشرق الالماني كلازر في هذا الخطأ وهو الرجل الاجنبي الوحيد الذي تمكن من زيارة هذه البلاد وذكر في كتابه أن مدينة مارب مدورة ونقل بعض أقواله المرحوم جورجي زيدان في كتاب العرب قبل الإسلام، ولا ألوم كلازر في خطئه لأنه لم يتمكن كما ذكر لي بعض المتقدمين في السن ممن رأوه عند وصوله إليها أن يطوف ويجول في المدينة وأطرافها كثيراً لأنه وقع اختلاف شديد بين شيوخ العرب من الشرفاء الذين جلبوه على عهدتهم وبين شيوخ قبيلة عبيدة الشديدي البأس والذين ما كانوا راضين عن هذه الزيارة فاضطر الرجل أن يبقى شبه سجين معظم المدة التي قضاها في ضيافة الشرفاء ولما عاد من رحلته أخرجه الشرفاء من مارب ليلاً وألبسوه ألبسة بدوية خشية أن يبطش به رجال عبيدة الاشداء.

وقد ذكر لي أحدهم أن عدة أشخاص من الفرنجة قتلوا أثناء محاولتهم الوصول إلى مارب وذكر لي بعض الخبراء من يمانيين وغير يمانيين أن عدة أشخاص من المستشرقين قتلوا في اليمن وهم يحاولون الطواف فيه والوصول إلى مارب وفي طليعتهم المستشرق الالماني بركار فقد قتل بوادي الدور بالقرب من مركز العدين أيام الدولة العثمانية وقتل معه أيضاً الماركيز ديبوزى قنصل ايطاليا في المخا. وقتل أيضاً مستشرق فرنسوي في طريق مارب وكان يلبس

البسة عربية وذلك في زمن الوالي توفيق باشا سنة ١٣١٨ رومية وقتل أيضاً مستشرق الماني آخر أيام أحمد فيضى سنة ١٣٢٠ بينما كان يحاول الوصول إلى مارب وقتل أيضاً رجل انكليزي خرج من جهة ميدي ولم يعرف المكان الذي قتل فيه وعندما سئلت الدولة العثمانية عنه لم تجب جواباً مفيداً لأن هذا الرجل دخل إلى اليمن بدون اذن وجاء من البحر بسنبك خفيف.



صورة بعض التماثيل وقد عثرت عليها في مارب مع بعض الناس

ويرتفع سور المدينة في الوقت الحاضر على ما ذكرت نحو نصف متر ولما وصلت إليه طفت حوله في جهاته الأربع وقد عثرت على اسسه بتمامها في الجهة الشمالية والغربية وأما في الجهة الجنوبية فقد طغى عليه سيل العرم بعد أن هدم السد ولم يحمل السور فقط بل حمل أيضاً جزءاً كبيراً من المدينة يبلغ عرضه نحو ١٥٠ متراً وطوله نحو ١٥٠٠ متر وكذلك الأمر في الجهة الشرقية فقد أخذت السيول قسماً من السور وأما القسم الباقي فيظهر هنا وهنالك بصورة غير منظمة ومما زاد في الطين بلة أن الأهلين نقلوا شيئاً كثيراً من أحجار السور وبنوا بها بيوتهم ومدينتهم الحديثة. وهو مبنى من الحجارة الضخمة ويبلغ طول الحجر في بعض الاماكن أكثر من متر ونصف متر وعرضه نحو نصف متر وبناؤه

في غاية الضبط ولا يمكن للانسان أن يدخل إبرة بين الحجر والحجر ويظهر أنهم كانوا يستعملون في بناءهم مادة تشبه السمنت ان لم تكن السمنت بعينه ويصنعون من هذه المادة أيضاً لبناً قوياً أكبر من اللبن الذي نصنعه نحن من السمنت في عصرنا هذا وقد شاهدت شيئاً كثيراً منه في مختلف الابنية وفي بقايا السد نفسه وهو اسود اللون خشن الملمس لأن الرمل المركب منه هو رمل بركاني خشن لا رمل مائي ناعم. وقد تمكنت بعد بذل جهود جهيدة من أخذ طوله وعرضه في الجهات الأربع وهذا بيانهما.

يبلغ طول السور الغربي الممتد من الجنوب إلى الشمال نحو ٧١٥ متراً تقريباً وأقول تقريباً لأني لم أتمكن من معرفة النقطة المضبوطة التي كان ينتهي إليها قبل خرابه ولكني قدرتها تقديراً من بعض آثار البناء الظاهرة في السائلة إلى هذا اليوم ومن البديهي أن هذه السائلة لم تكن موجودة أيام حمير ولكن بعدما خرب السد وتهدمت المدينة صارت مياه سيل ذنه التي كانت تصل إلى السد فقط تسيل إلى جنوب المدينة وافتتحت سائلة جديدة يبلغ عرضها في الوقت الحاضر ٣٠٠ متر أمام المدينة ويزيد هذا العرض الى ٣٥٠ متراً في بعض الاماكن. وقد شاهدت في السور الغربي فرجة كبيرة على جانبيها نقوش حميرية ويغلب على ظني انها كانت بوابة. ويتصل جدار هذا السور الغربي بجدار السور الشمالي بزاوية قائمة ظاهرة للعيان ظهوراً جلياً وهذا مما ينفي نظرية كلازر بان المدينة كانت مدورة اذ من البديهي انه يتنافى وجود زاوية قائمة مع وجود الدائرة.

ويبلغ طول السور الشمالي الممتد من الغرب إلى الشرق ١٧٤٠ متراً وهو ظاهر بتمامه وقد شاهدت فيه كثيراً من النقوش الحميرية وأظن أن الباب كان قائماً في منتصف هذه النقوش ورأيت في أوله من الجهة الغربية ولجهة الشرقية نتوأين ظاهرين وهما بحسب ظني بقايا بناءين مدورين كانا يستعملان كمخفرين للحرس المناط به المحافظة على المدينة كما هي العادة في جميع المدن المسورة في اليمن وهذا أيضاً مما حمل كلازر على الاعتقاد بان المدينة مدورة.

ويبلغ طول السور الشرقي الممتد من الشمال إلى الجنوب ٧٧٠ متراً تقريباً

ولم اشاهد فيه كتابة حميرية ولا بوابة ولكن يغلب على ظني أنه كان يوجد ههنا بوابة أيضاً دون مقبرة المدينة في الشرق خارج السور وليس من المعقول أنهم إذا أرادوا الخروج لدفن موتاهم أنهم يدورون حول المدينة بالميت لكي يخرجوه إلى المقبرة.

ويبلغ طول السور الجنوبي وهو لا وجود له في الوقت الحاضر (ولكني خمنته تخميناً من بقايا السور الغربي والسور الشرقي وبعض الاساسات الظاهرة في سائلة ذنه) نحو ١٥٠٠ متر تقريباً. ولا أعلم إذا كان يوجد فيه بوابة أم لا إنما يغلب على ظني أنه كان يوجد فيه بوابة أيضاً لان الجهة الجنوبية هي المخرج إلى ما يسمونه محرم بلقيس وهو في الحقيقة معبد للشمس. أما كلازر فيقول أنه كان للمدينة بابان فقط ولكني لا أعتقد بصحة هذا القول بل أرى أنه يوجد للمدينة أربعة أبواب وقد شاهدت اثنين بعيني واستدللت على الاثنين الآخرين من وجود المقبرة ووجود حرم بلقيس خارج مدينة مارب.

ومتى اجتاز الانسان أسوار المدينة ودخل إلى خرائبها وأطلالها لا يمكنه أن يتبين شيئاً من قصورها ومعابدها ومبانيها العظيمة التي ترنم بها الشعراء قبل الإسلام وخاصة عرش بلقيس وقصر سلحين ومسجد سليمان إلخ لأن جميع هذه الأبنية أصبح عاليها سافلها فلا يرى الإنسان كيفما سار غير خرائب متصلة بعضها ببعض وإنما يتبين بصورة واضحة في منتصفها تقريباً ميداناً واسعاً بيضاوي الشكل وهو بدون شك كان سوقها الكبير الذي كانت تأتيه القبائل للبيع والشراء والمقايضة كما هي العادة في جميع بلاد اليمن وجزيرة العرب إلى يومنا هذا.

ويوجد في الجهة الجنوبية من هذا الميدان أو السوق سلسلة من الاعمدة الفخيمة ممتدة إلى مسافة بعيدة فيظهر منها أنه كان يوجد ههنا بناء عظيم قد يكون معبداً أو قصراً لأحد الملوك والأمراء ويوجد إلى الجهة الشمالية الشرقية من هذا الميدان شيء كثير من الأعمدة المتوسطة الحجم والكثيرة العدد إلى حد يستلفت النظر وبعضها لا يزال قائماً وبعضها مكسر وملقى على الأرض وعلى كل حال فان هذه الأعمدة تدل أيضاً أنه كان يوجد ههنا بناء كبير قد يكون دائرة حكومية أو قصراً أو ما أشبه ذلك ويقوم إلى سائر أطراف هذا الميدان كثير من

الاعمدة موزعة هنا وهناك ويظهر أن أطراف هذا الميدان كانت الحي الأنيق في المدينة ودليلي على ذلك كثرة العمدان الموجودة هنا وقلتها في سائر أطراف المدينة. ويظهر في بعض الاماكن أساسات بنايات ضخمة جرف السيل عنها بعض الردم تعلوها آكام من التراب محت مراسمها ومعالمها فلا يمكن للمرء أن يعرف ما هي ولا كيفية هندسة بنائها ولكن لو أجريت بعض الحفريات ورفعت هذه الأتربة المتراكمة فلا شك ان كثيراً من هذه القصور والبنايات الفخمة تظهر للعيان بحالة حسنة كما هو الحال في السد.

وجميع هذه الأبنية مبنية من الحجر البركاني المائل إلى البياض والمنحوت نحتاً جميلاً ودقيقاً والبناء على غاية من الضبط ويظهر فيه السمنت أو ما يشبهه في كل مكان ويظهر أن معظم البناء كان يقوم على أعمدة مربعة ذات أربعة أوجه ولم أر إلا شيئاً يسيراً من العمدان المدورة. وهذه العمدان والأحجار الكبيرة مقطوعة جميعها من جبل بلق القريب من المدينة. وقد شاهدت في بعض الأماكن أحجاراً من المرمر وعليها نقوش وكتابات ولا شك أن هذه الحجارة الكبيرة قد نقلت من أماكن بعيدة عن مارب لأن جبل بلق وما يحيط به من الجبال الغربية لا يوجد فيها مرمر بل تبعد الجبال التي يوجد فيها المرمر مسافة ثلاثة أو أربعة أيام عن مارب. وقد احترت في كيفية نقلهم لهذه الحجارة الكبيرة من مسافات بعيدة ولا يعقل أنهم نقلوها على الحيوانات لأنها ثقيلة جدا فقد بلغ طول بعضها ثلاثة أمتار وعرضها متراً فلا بد والحالة هذه انه كان يوجد لديهم بعض الوسائط لنقل الأثقال.

ويوجد في أقصى المدينة من الجهة الشرقية تل كبير بنى فوقه الاهلون في الوقت الحاضر مدينتهم على أساسات بناء ضخم ربما كان حصناً أو معبداً للشمس في الزمن القديم والله أعلم. ويوجد في أسفل هذا التل من الجهة الغربية مسجد يقولون له في الوقت الحاضر مسجد سليمان ولكنه في الحقيقة لا يمت لسليمان بنسب وانما هو مسجد حديث العهد بناه واحد من الشرفاء منذ وقت قريب لا يتجاوز مائة عام. وقد بني جداره الشمالي بين بعض الأعمدة الحميرية القديمة فظنه الناس قديماً وصاروا يطلقون عليه أسم سليمان ظناً منهم

أنه بني أيام الاعمدة ولكنه على وجه التحقيق لم يُبن أيام بناء الأعمدة لأن بناءه حقير وجديد. وتوجد بالقرب من هذا المسجد بئر حميرية قديمة هي بئر القرية الآن وبئر الصادي والغادي وعمقها ٥٠ متراً وماؤها جيد وجدرانها مبنية من الحجر وقد قطعت الحبال جوانبها من كثرة الاستعمال.

هذه هي الاشياء والخرائب الحميرية التي يشاهدها الانسان في نفس مدينة مارب ولكني قرأت في بعض الجرائد والمجلات العربية والافرنجية أوصافاً غريبة لهذه الخرائب لا تتفق مع الحقيقة في شيء. وفي جملتها طالعت في جريدة الفاريتي الفرنسوية (Variétés) التي تصدر في القاهرة في عددها المؤرخ ٢٧ مايو سنة ١٩٣٤ وغيره من الأعداد صوراً خيالية وخارطة وهمية وضعهما الطياران مالرو وكورنيليون مولنيير لمدينة مارب وذكرا فيها أسماء أماكن وقصور ومساحات وحجرات وأبواب إلخ لا تظهر للعيان للمتأمل عن كثب وان هي إلا من بنات أفكارهم واختراعهم وهي بعيدة عن الصحة بعد الأرض عن السماء، ولا يؤبه لها أو يعتد بها. وكل ما قيل أو يقال عن هذه المدينة إنما هو رجم بالغيب ليس إلا. فإذا لم ترفع الأتربة المتراكمة فوق بقايا البناء فتظهر القصور والمساند فلا يمكن أن يعرف شيء من حقيقتها وقد فتشت كثيراً في هذه الأطلال لعلي أجد أثراً لقصر بلقيس أو عرشها فلم أعثر على شيء من ذلك ولكني وجدت حجراً كبيراً من المرمر أثناء تفتيشي وعليه بعض الكتابات الحميرية الطويلة ربما تؤدي قراءتها إلى معرفة شيء عن البناء القائم فوق هذا الحجر.

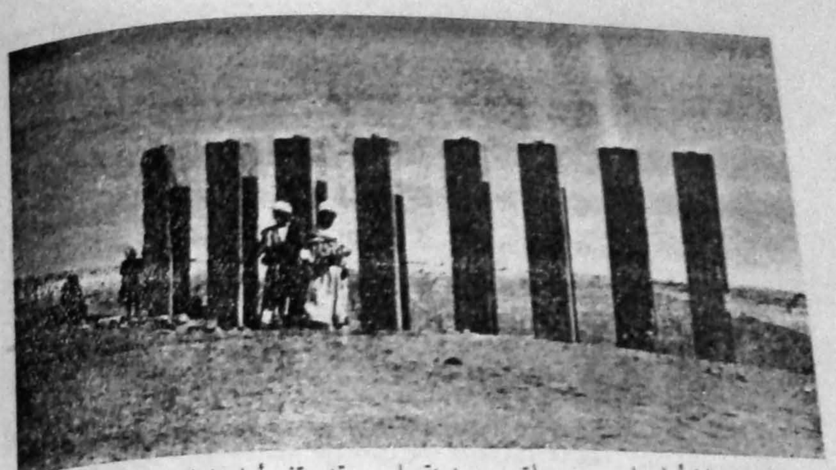
محرم بلقيس

وقد قيل لي أثناء تفتيشي وسؤالي عن قصر بلقيس أنه يوجد مكان قريب من المدينة يقولون له محرم بلقيس وقد يكون قصرها فزرته ذات يوم صباحاً وإذا بي أمام معبد للشمس مبني على شكل دائرة ويبعد عن مارب مسافة ٤٥ دقيقة أي أربعة كيلو مترات وهو واقع إلى الجنوب الغربي من المدينة وعلوه عن سطح البحر ١٣٠٠ متر وأول شيء تبيناه منه هو ثمانية أعمدة مربعة من الحجر البركاني ذات أربعة أوجه عرض اثنين من وجوهها ٧٤ سنتمتراً وعرض الاثنين الآخرين



محرم بلقيس أو هيكل الشمس وقد وقف فوقه عامل مارب وبعض الجنود ورجال القبائل

٧٠ سنتمتراً وأما ارتفاعها فغير معلوم لأن قسماً كبيراً منها غائص في الرمال. وأما الظاهر منها فوق الرمال فيبلغ علوه نحو ثلاثة أمتار ويظهر أن هذه الاعمدة كانت قائمة في باب المحرم من الجهة الشرقية مقابلة للشمس ويلي هذه الأعمدة الثمانية إلى الجنوب أربعة أعمدة قائمة على بضعة أمتار من جدار المحرم وهي أصغر من الأولى ومربعة أيضاً وعرضها ٥٠ سنتمتراً و٤٤ سنتمتراً لكل وجهين ولا ريب عندي أنه كان يوجد غير هذه الأعمدة أعمدة أخرى. وهذه الأعمدة هي من الاحجار البركانية البيضاء. والمسافة بين هذين الصفين من الأعمدة وهي نحو عشرة أمتار كانت بدون شك رواقاً يؤدي إلى المدخل وخلف هذه الأعمدة الأربعة يوجد فرجة متسعة هي الباب ولكني لم أتمكن من قياسه بالضبط لأن جداريه قد تهدما وإنما يمكنني أن أقول إن اتساعه كان ١٢ متراً على وجه التقريب. ونفس المحرم أو الهيكل مبني بشكل دائرة قطرها من الداخل بدون الجدران ٧٢ متراً و١٥ سنتمتراً وعرض الجدار ٣ أمتار و٦٠ سنتمتراً وهي مبنية من الحجارة الكبيرة وقد بلغ طول بعضها ١٧٥ سنتمتراً وعرضها ٣٥ سنتمتراً. ومعظمها من الحجارة الكبيرة المنحوتة نحتاً دقيقاً. وأما علو المحرم القائم إلى هذا اليوم فيختلف بنسبة الرمال الطافية عليه وقد بلغ أعلى مكان أربعة أمتار. ويظهر أنه كانت توجد نقوش حميرية حول جميع الجدار ولكن البدو اقتلعوا



عمدان أمام باب محرم بلقيس بمدينة مارب وقد وقف أمامها العامل وأخوه

كثيراً من هذه الحجارة الكبيرة المكثبة وكسروها قطعاً صغيرة ونقلوها إلى أماكن مختلفة فبنوا بها حصونهم ودورهم، وقد شاهدت بعض الشظايا المكسرة هنا وهنالك وعليها بعض الكتابات الحميرية ورأيت أيضاً شيئاً كثيراً من الكتابة الحميرية ظاهرة حول الجدار في الجهات الأربع، ففي الجدار من جهة الجنوب رأيت حجراً واحداً منقوشاً عليه كتابة حميرية. وأما في الجدار الشمالي فقد رأيت صفين من النقوش الحميرية الصف الواحد فوق الصف الآخر وفي أولهما رسم سيف وقد وقعت بعض الاحجار من هذه النقوش الممتدة حول الجدار إلى الأرض فكسرها البدو. ويلي هذين الصفين صف مفرد ثان يمتد مسافة يسيرة وقد اقتلع البدو معظمه.

هذه ترجمة النقوش الحميرية الموجودة في الجدار الشمالي لهيكل الشمس وقد ترجمها لي المستشرق الالماني الدكتور شلوبز

(النقش الأول) تبع كرب . . . وتر ويثع أمربا ين بن ذامر يدع بن مارم كرس للاله المقاه جميع الجدار المبني فوق هذه النقوش والسور والبروج

(النقش الثاني) ومما قاله له بشأن ابنه عندما نصبه يكرب مالك وتر قائداً عاماً، وعندما حكم سبأ والقبائل وحارب كاتبان مدة خمس سنوات وقد أنقذ

المقاه (أي الاله) جميع بلاد سبأ وقبائلها ورجالها الذين قادهم في حرب مدينة تهارجب كل سنة للدفاع عن سبأ وقبائلها واخيراً حقق السلم ما بين

مارب وكاتبان ويثع أمر باين وسبأ وضعوا ثقتهم به .



عمدان قريبة من محرم بلقيس وهي بدون شك بقايا قصر عظيم قد يكون قصر بلقيس أو غيره وقد وقف أمامها عامل مارب وبعض رجال حكومته

وتصل الرمال في الوقت الحاضر إلى جنوب الهيكل وشرقيه وتمتد منه إلى أن تصل إلى سائلة ذنة فيحملها السيل معه كلما اشتد ويوجد بين هذه السائلة الواقعة في الوقت الحاضر إلى شمال المحرم وبين المحرم نفسه خرائب عديدة ويكثر فيها الفخار المكسر وهو غليظ الحجم وقوي جداً ولونه يميل إلى الحمرة وأهم هذه الخرائب المحيطة بالمحرم هي خربة كبيرة طغى عليها الرمل بكثرة ولكن لا يزال يبدو منها ستة عمدان مصفوفة صفاً واحداً وممتدة من الشرق إلى الغرب على خط مستقيم وهي مربعة ذات أربعة أوجه ىنان منها عرض كل منهما ٨٢ سنتمتراً، وأثنان منها ٦٤ سنتمتراً وعلوها في الوقت الحاضر نحو خمسة أمتار ولا أعلم كم يغوص منها في الرمال والعمود الأول من جهة الشرق مكسور نصفين أحدهما واقع إلى الأرض والثاني قائم إلى جانب رفاقه وعليه بعض النقوش

الحميرية وقد وجدت بين هذه الخرائب بقايا مجاري المياه آتية من مقاسم المياه في الجهة الشمالية من السد وتصل هذه المجاري إلى محرم بلقيس. وهذا مما يدل على أن المحرم أو الهيكل وما حوله من البنايات كانت تابعة إلى الجنة الشمالية. ويغلب على ظني أن قصر بلقيس وعرشها كانا في هذه الجهة واعتقد أن هذه العواميد الستة الضخمة هي من بقايا قصر بلقيس المعروف بقصر سلحين وأنا على شبه اليقين بأن هذه الملكة العظيمة ما كانت تقطن مع شعبها في نفس مدينة مارب بل كانت تقطن في هذا القصر بالقرب من الهيكل التي كانت تعبد فيه الشمس ولكن هذا لا يمنع أنه كانت لها قصور عديدة في نفس المدينة تتردد إليها في بعض الأحيان كما هي عادة الملوك والملكات فإنهم لا يكتفون بقصر واحد بل يبنون قصوراً كثيرة يقطنون في كل منها مدة من الزمن وذلك بحسب الأقاليم والفصول وقد قرأت في غير واحد من الكتب القديمة ان ملوك حمير كانوا يتنقلون من جهة إلى أخرى في الشتاء والصيف والخريف والربيع.

هذا ما كان من شأن اطلال هذه المدينة العظيمة. وأما تاريخها وتاريخ أهلها فلم يتوفق أحد لدرسهما درساً صحيحاً وكل ما وصل إلينا عنهما هو نتف يسيرة جاءت في كتاب «الإكليل» لأحمد حسن الهمداني وهي لا تشفي الغليل ولا يثق بها كل الوثوق وقد تمكن بعض المستشرقين من الحصول على شيء يسير من الكتابات الحميرية بعضها قديم وبعضها جديد زورها يهود صنعاء جرأ للربح ولكنها لا تكشف الغطاء عن تلك المدينة الحميرية العظيمة.

ولم تستطع منذ آلاف السنين دولة من الدول ان تدخل البلاد السبئية وتفتحها عنوة وبالرغم من عظمة تركيا وبأسها وإقامتها في اليمن نحو ٣٠٠ سنة فلم تتمكن في يوم من الأيام من دخول مدينة مارب مع أنها كانت تدفع رواتب وعطاءات إلى أشرافها وشيوخها وكانت ترجوهم أن يرفعوا العلم العثماني فوقها فكانوا يأخذون المعاشات ويهزأون منها فتارة يرفعون العلم وأحياناً ينزلونه وذلك حسبما شاءوا وشاءت أهواؤهم.

ومضى على جلالة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن منذ تبوأ العرش مدة طويلة لم يتمكن خلالها من دخول مارب بالرغم من حنكته ودهائه

وبأسه وقدرته على اخضاع جميع القبائل فقد بقي أهل جميع البلاد السبئية محتفظين باستقلالهم وعاداتهم إلى زمن قريب ولكن عندما دبت عوامل التفرقة والبغضاء بينهم وصاروا يقتل بعضهم بعضاً بصورة فظيعة أي صار ابن العم يقتل عمه والأخ يقتل أخاه ولم يعد بوسع واحد منهم أن يخرج من حصنه إلا ليلاً عندئذ تمكن جلالة الإمام من التدخل بينهم وذلك ان فريقاً منهم التجأ إلى جلالته وطلب معونته انقاذاً للبلاد والعباد مما هم فيه من التخاذل والشرور فما كان من جلالته إلا أنه لبى استغاثتهم وسير السيد عبد الله الوزير على رأس قوة عظيمة من الجند النظامي وغير النظامي فدخل البلاد عنوة بعد ان قاومه الاهلون مقاومة عنيفة قرب السد وقتل في هذه المصادمة خلق كثير من كلا الطرفين ولكن تمكن الوزير في نهاية الأمر من الاستيلاء على مارب وجميع البلاد التي حولها وما كاد يستقر في المدينة حتى قدمت عليه رجالات العشائر ومشايخها وقدموا خضوعهم له وسلموا إليه عدداً كثيراً من الرهائن علامة الطاعة والأذعان. وبنى سيادته في الحال داراً للحكومة وقشلاقاً عسكرياً للجند وعدة مخافر في المدينة نفسها وفي اطرافها ومنذ ذلك اليوم إلى عهدنا هذا والأمن مستتب تمام الاستتباب.

ومعظم أهل هذه البلاد من سكان بيوت الشعر ولكنهم يبنون احياناً حصوناً لسكناهم وهذه الحصون لا نوافذ لها غير فتحات صغيرة فتحت في بعض الجدران لاطلاق الرصاص منها لا لدخول الهواء وأبوابها صغيرة للغاية فلا يمكن للمرء أن يدخلها إلا حبواً على قوائمه الأربع. وبينما كنت في طريقي من صنعاء إلى مارب لاحظت أنني كلما اقتربت من مارب كنت ارى أن نوافذ البيوت وأبوابها تصغر تدريجاً إلى أن تغيب النوافذ قبل الوصول إلى مارب بمسافة يسيرة دفعة واحدة ولا يبقى غير الأبواب الصغيرة ولذلك كنت اقدر درجة الأمن في البلاد التي أمر بها من حجم نوافذها وعددها.

ومن غريب عادات أهل هذه البلاد أنهم لا يترحمون على الرجل إذا مات حتف انفه إنما يترحمون عليه إذا قتل قتلاً ولكنهم لا يدفنون القتيل بلحد بل يطرحون فوقه كوماً عظيماً من الحجارة في المكان الذي يُقتل فيه دون غسل أو صلاة. وقلما يموت منهم رجل موتاً طبيعياً ويندر أن تنظر رجلاً لا يوجد في

جسده عدة جروح.

ويبلغ عدد سكان مدينة مارب في الوقت الحاضر نحو ٧٠٠ بعضهم سادة أشراف ينتسبون إلى آل سعود (غير آل جلالة الملك عبد العزيز) ويقال لهم سادة لأنهم حسنيون وبعضهم خليط من سكان حضر موت ومن رجال قبائل عديدة ومعظمهم تجار ملح يشترون الملح الذي تجلبه عشيرة عبيدة من جبلها بالصافر على بعد ثلاثة أيام من مارب ويبيعونه إلى رجال القوافل الذين يأتون من داخلية اليمن لهذه الغاية. ويوجد أيضاً نفر من الناس يقال لهم هجْرَه وهؤلاء الناس لا يقاتِلون ولا يقاتَلون لأنهم هاجروا من بلادهم والتجأوا إلى هذه الديار فصاروا دخلاء عليها وكثيراً ما يصلحون بين المتقاتلين ويوقفون القتال بوساطتهم لأن جميع القبائل تحبهم وتحترمهم.

أما مدينة مارب الحالية، لا بل قرية مارب، فهي كناية عن مائة منزل تقريباً أساساتها مبنية من الحجر ودورها الأول والثاني والثالث مبنية من الطين ويسمونه خلب بشكل مضحك غير منتظم وداخلها مظلم لأن نوافذها صغيرة جداً لا يزيد طول أكبرها عن ثمانية سنتيمترات وعرضها ستة سنتيمترات وغرفها مبنية بدون نظام أو ترتيب وسقوفها من الخشب والخلب وتقوم هذه الدور على رابية يبلغ علوها نحو ٥٠ متراً ولا تزال أساسات البناء الحميري ظاهرة فيها وقد بنى الأهلون بيوتهم فوق هذه الأساسات القديمة.

وتحيط قبيلة عبيدة بمدينة مارب وهيكل بلقيس وهي قبيلة عربية قديمة تدعي أن نسبها يتصل بصافر الحميري ولا تزال محافظة على عادات وحشية للغاية ويبلغ عدد رجالها المحاربين نحو ١٥٠٠ رجل جميعهم على الفطرة الطبيعية ولا يوجد بينهم رجل واحد يعرف القراءة والكتابة وأكثرهم عراة لا يلبسون سوى أطمار يسترون بها عورتهم ويرخون شعورهم وذقونهم ويطلونها بزيت السمسم فتفوح منهم رائحة هذا الزيت الممزوج بعرق أجسادهم إلى مسافات بعيدة. وهم كرماء للغاية يحسبون حساب ضيفهم قبل أنفسهم وإذا جاءهم أقل الناس يذبحون له الذبائح ويدهنونه بالزيت والسمن زيادة في اكرامه وما كنت أتخلص من بين أيديهم إلا بشق النفس.



صورة بعض التماثيل والآلهة
وقد يكون المقاه في جملتهم
عثرت عليها في مارب مع بعض الناس

وكان رجال هذه القبيلة يعيشون على الغـزو والسلب والنهب، قبل دخـول جيوش جلالة الإمام الى مارب، وأما الآن فقد أخذوا يشتغلون بنقل الملح من جبل الصافر إلى مارب وبغرس بعض الأراضي الصالحة للزراعة. ومن غرائبهم أيضاً أنهم يقولون للشرق حدرا لأن أرضهم بالجهة الشرقية منحدرة، ويقـولون للغرب علوا لأن أرضهم في هذه الجهـة عاليـة، ويقولـون للجنوب المشرق، وللشمال القبلة، لأن الكعبة واقعة إلى شمالهم. وقبل دخول جلالة الإمام ما كانوا يعرفون الصلاة ولا الصيام ولا شيئاً من الفروض الإسلامية، ولكن جلالة الإمام اهتم بشأنهم وأرسل مرشدين ومعلمين فلقنوهم أصول الدين وتعاليمه، وبنوا لهم مدرسة للأولاد وفيها الآن نحو ثلاثين طالباً.

وقد اجتمعت بشيخ مشايخ هذه القبيلة، ويقال له علي بن حسن بن معيلي، وعندما رآني لأول وهلة نفر مني ووضع يده على جنبته (سكينـه) هامـا بقتلي، ولكن العامل أفهمه أني رجل عربي صديق للامام مسلم مؤمن موحد بالله فاطمأن قليلاً، ولكنه كان ينظر إليّ شزرا، فآنسته ولاطفته وقطرت له في عينه التي كانت ملتهبة بقطرة كانت معي، ومن الغريب أنها شفيت في يوم واحد فجاءني ثـاني يوم شاكراً معتذراً على ما بدا منه من الجفاء نحوي فشكرته على هذا العطف، وتمكنت بين وبينه الصداقة فصار يزورني دائماً. وقد جرى بيني وبينه مرة حديث طويل أثبته هنا لأنه يدل على عقليـة الرجـل. وهو طـويل القـامة ضخم الجثة

حنطي اللون أبيض الاسنان أسود العينين مفتول الساعدين جميل الصورة بدت
هياته على البطولة والشجاعة، ولا تفارق الابتسامة اللطيفة ثغره عندما يتكلم.
ولما كانت قبيلة عبيدة تملك ملح جبل الصافر وهو جبل عظيم من الملح الحلو
الجيد يبعد عن مـارب نحو ثـلاثة أيـام إلى الشرق الجنوبي، بادرني حضـرته
بالسؤال. هل يوجد ملح في بلادكم؟ فقلت نعم يوجد عندنا بالقرب من مدينة
دمشق مملحة. فقال: وهل هو حالي، أي حلو الطعم. فقلت كلا: فيه مـرارة
يسيرة. فضحك ضحكة الظافر المفتخر إلى أن بـدت نواجـذه البيضاء الجميلة
وأردف قـائلاً: وهـل هو أبيض كملحنـا؟ فقلت: كلا. فيـه شيء من السمرة.
فقهقه وقال لا يوجد ملح في الدنيا مثل ملح جدنا صافر بن قحطان. فقلت لـه
مداعباً: لا بل صافر بن حمير، وليس ابن قحطان، فأجاب هو، هـو. أي وهو
كذلك، وأطرق مفكراً. ثم سألني وأين تقع بلادك الشام هذه؟ فقلت ألم تسمع
بالشام. فقال كلا: فقلت هي إلى شمال الكعبة. فقال: هل يوجد بيننا وبينكم
بحر؟ فقلت: لا يوجد بيننا وبينكم بحر، ويمكننا أن نذهب من هنا إلى الشـام
بـراً. فقال: إذا أنتم شمالي بلاد النجدي يعني جلالـة الملك ابن سعود فقلت
نعم. فقال: وهل أنتم أصحاب واياه أم قوم؟ فقلت نحن لا نملك من أمر بلادنا
شيـئاً، وأصحاب البلاد الحقيقيون هم الفـرنسويـون، وهم أصحـاب كثيـر مع
النجدي. فقال: ومن هم هؤلاء الـذين تعني؟ فأفهمتـه بصعوبـة زائدة من هم
الفرنسويون وما هي صداقتهم مع جلالة أبن سعـود فعجب من هذه الصـداقة.
وقال: كان يجب عليه أن لا يصادقهم وأن يغزوهم كما يغزو القبائل العربية غير
المدينة معه. فقلت هذا غير ممكن، لأن الفرنسويين أقوى منه وعندهم عسكر
كثير، وليس بوسع أبن سعود محاربتهم فسكت، ولكنه لم يقتنع بهذا الجواب
غير المنطقي في عرفه. وبعد قليل قال إذاً أنتم تحت حكم الفرنسـويين فقلت
نعم. فقـال: وكيف حكمهم؟ فقصصت عليه سيـرتنـا معهم وحـروبنـا وايـاهم
فغضب وقال: ألا يوجد عندكم بدو؟ فقلت نعم: فقال إلى أي القبائل ينتسبون.
فقلت: إلى الرولة وعنزه وبني صخر وشمـر والحديـديين وو. فقال: وهل هم
كثيرون فقلت نعم؟ فقال نحن نسمـع بعنزة ونعلم أنهـا قبيلة كبيرة وذات بـأس
فلماذا لم تحارب معكم الفرنسويين؟ فقلت لأن شيخها صديق للفـرنسـويين ولا

يحاربهم، بل يتناول منهم الزلط أي الدراهم، فقال بخ بخ، وقطب حاجبيه وتمتم بعض الشتائم التي لم أفهمها. ورأى إلى جانبي نوراً كهربائياً (ببل) فقال: وما هذا؟ فقلت فانوس كهربائي وأضأته أمامه فخاف منه وتراجع إلى الوراء فأطفأته حالاً فعاد إلى مكانه وأخذه مني بيده وصار يتأمله وأضاءه مراراً متعجباً ومتسائلاً كيف يشعل؟ وما هو سره؟ فلم أتمكن من تفهيمه سر البطاريات والكهرباء وقلت ذلك أمر عسير لا أعلمه أنا إنما يعرفه الذين صنعوه.

ثم سألني كم سنة صار لي باليمن في خدمة جلالة الإمام فقلت نحو ١٢ سنة ولكني أذهب إلى بلاد مدخل، أي البلاد الخارجية ثم أعود، فقال: وكيف وجدتم حكم جلالة الإمام فقلت لا شك أنه الملك المسلم الوحيد المستقل بذاته وببلاده استقلالاً تاماً لا تصل إليه يد أجنبية من وراء ستار، وهو يحافظ على الإسلام والمسلمين ويرعى رعيته بعين عنايته، ويحكم فيما بينهم وفقاً للشريعة الإسلامية الغراء، ولا بد أنكم شعرتم بتحسن أموركم الدينية والدنيوية منذ دخولكم في طاعته. فأجاب أي والله إننا قبل دخول جلالة الإمام هذه البلاد كنا دائماً نقتل بعضنا بعضاً، ولا نجسر على الخروج بالنهار خارج قلاعنا أو بيوتنا، ولا نسافر إلا قوافل كبيرة لا تقل القافلة عن مائة رجل، وأما اليوم فالولد أو الحرمة تسافر من أقصى بلادنا إلى أقصاها فلا يعترضهما معترض وهما أمينان على حياتهما ومالهما والله يحفظ الإمام. فقلت يجب أن تبقوا محافظين على هدوئكم وسكينتكم وتطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم عملاً بما أنزل في الآية الكريمة، فقال صحيح صحيح، صواب صواب. وكنت أحياناً لا أفهم بعض كلماته كما أنه كان يشكل عليه فهم بعض كلماتي فأدرك ذلك بذكائه الفطري وقال نحن عرب ولكننا لا نتفاهم جيداً أليست اللغة العربية واحدة في كل الدنيا؟ فقلت كلا ان لكل بلاد بعض الاصطلاحات والألفاظ الدخيلة على اللغة العربية الأصيلة، وهذا مما يجعل التفاهم بين أبنائها البعيدين بعضهم عن بعض عسراً. فقال: ماذا تقولون للحصان. فقلت: حصان وفرس. فقال: نعم. وماذا تقولون للجمل. فقلت: جمل الركوب نقول له ركاب أو هجين وجمعه هجن. فقال: تمام فقلت: وجمل الحمل نقول له رحول فلم يدرك هذا اللفظ.

وقال لا بالله جمل. ثم قال: وماذا تسمون ما يوضع فوق الجمل لركوبه فقلت حداجه فلم يفهم ذلك أيضاً وقال: لا بالله ذهاب. فقلت له: لا شك أنه يوجد اختلاف في اللغة العربية في جميع أقطار الجزيرة، وذلك لأن العرب لم يحافظوا على لغة القرآن أي العربية الفصحى. فلو حافظوا عليها لما وجدت هذه الاختلافات فقال صحيح. ولكن البدو عندنا لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون القرآن ولم يدخلوا في طاعة أحد منذ ألوف من السنين إلى أن أدخلهم الإمام أخيراً في طاعته، والله يحفظ الإمام. ثم سألته عن الربع الخالي وهل قطعه بزمانه، لأن الصافر جزء منه ورماله ممتدة إلى مارب(والشيخ علي هو صاحب الصافر ويعلم عن الربع الخالي أكثر من جميع الناس) فقال: أنا لم أقطعه. فقلت: سمعت أن بعض عربكم قطعوه. فقال: نعم مرة من قديم الزمان ذهب غزو كبير وغاب نحو تسعين يوماً وقطعه، ولكنهم كانوا يحملون ماء كثيراً وأخفوه بين الرمال في ذهابهم ليستعينوا به في ايابهم. فقلت له: احلب لي واحداً من هؤلاء الغزاة. فقال: جميعهم ماتوا وأضاف أنه لا يمكن قطعه من جهة مارب، بل يمكن ذلك من جهة البحر أو من جهة الجبال. ثم سألني إذا كنت حقيقة مهندساً أم لا؟ فقلت: كلا. فقال: ألا تعرف أين الذهب. فقلت كلا: فقال: ولماذا أتيت إلى هذه البلاد؟ فقلت: إن جلالة الإمام يحب أن يرى هذه البلاد، وقد أمرني أن آخذ له بعض الرسوم ليراها، وطلبت إليه أن يسمح لي بأخذ رسمه فقال مرحباً. ثم ودعني وانصرف إلى أهله. وقد نشرت رسمه في الصفحة ٩٦.

تاريخ مارب

جاء في الجزء الثامن من الاكليل عن مارب ما يلي:

ذكر مارب وهي مسكن سبأ الذي قال الله فيه «لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور» وهي كثيرة العجائب والجنتان عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان والغامر العافي وكذلك السَّام في كتب أصحاب الشروط في شراء الأرضين بغامرها وإنما عفتا لما انكسر السد فارتفعا عن مستوى السيول. وقال الحسن الهمداني وجدت

في احداهما عريق[1] أراك وفي أصله جذع نخلة أسود قد كست باقية السوافي فقال بعض من كان معي لا أظنه إلا من بقايا نخل الجنتين، وما أحسب أنه بقي من العصر القديم. وأما مقاسم الماء من مداخل السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالامس ورأيت بناء أحد الصدفين باقياً وهو الذي يخرج منه الماء قائماً تخاله على أوثق ما كان ولا يتغير إلى أن يشاء الله عز وجل وإنما وقع الكسر في العرم، وقد بقي من العرم شيء مما يحاذي الجنة اليسرى ويكون عرض أسفاً خمسة عشر ذراعاً قال تبارك وتعالى «فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل» قيل الخمط الاراك والأثل الطرفا والسدر المعروف العرح وهو العلب وجمعه علوب والواحد علبة، ومن أمثال العرب في الرجل المنيع الجانب وهو رجل لا يناش عليه ولا يتخلف أثله ودومه وهو الدوم وحملة البلق والكنان وبها من الاراك ما ليس ببلد ومن الحمام المطوق في الاراك ما يجل عن الوصف، وكان السيل يجمع من اماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن وقد ذكرناها مع انكسار السد في بعض كتبنا وفيها يقول الاعشى:

ففي ذاك للمؤتسى أسوة	ومارب قفا عليها العرم
رخام بناه له حمير	اذ جاء ماؤهم لم يرم
فاروي الحروث وأعنابهم	على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك في غبطة	فحارمهم حارف منهزم

ويقول بعض العلماء ان بانيه لقمان بن عاد بن الكبير وبعضهم يقولون بانيه حمير والأزد بن الغوث من عصب كهلان.

وقال أبو الطحان يذكر مارب:

أماتوا ماربا ما كان أحصنه	وما حواليه من سور وبنيان

(يدل هذا البيت على أن سور مارب كان حصيناً وكان حواليه بنيان وقد

---

(١) تصغير عرق، والعرق الشرش

شاهدت هذا بعيني ويخيل لي أن ظن غلاستر بـان مارب كـان يحيط بها سـور دائري قول هراء وليست الدائرة التي ظنها أنها السور غير الحصون التي كـانت مقامة في هذا السور) هذه مطالعتي أنا (نزيه).

وقال علقمه

مـن يـامن الـحـدثـان بـعـد	مـلوك صـرواح ومـارب

وكان لمارب قصر سلحين والهجر والقشيب.

وقال علقمة والذي بنى القشيب ذي يزن.

وقال الهمداني:

بـل أين من قبلهم بمـن ذكـر	أهل القشيب ذي النهي والهجر
وأهـل صرواح وضهـر وهكر[1]	بـددهم ريب الزمـان عن قـدر

وقال خلف:

لن تدفع الأحراس عن رب مارب	منيتـه ومـا حـواليـه من قصـر
يـرقـا إليهـا تـارة بعـد هجعـة	يا من أمر كان أمرت على سير

وقال لسموّل:

ان امـرأ أمن الحوادث جـاهـل	يـرجو الخلود بضـارب بقـداح
من بعد عادي الدهر ومأرب	ومقاول بيض الوجوه صباح
مـرت عليهم آفـة فكـأنـمـا	عـفت عـلى آثـارهم لـمتـاح

وفيها يقول الهمداني:

وجنتـا مـارب من بعـد ذا مثـل	والعرش فيها وسد وسط واديها
مـا بين طودين لا دار ولا كثب	وجرية السد طول الدهر يسقيها
كـأنها حين يهـوى من مثاعبهـا	كواهل الصهب اذ دفت هواديها
وتـارة ان تعـالى المـاء عـاريـة	جدر مجصصة نـالت سواريهـا
تسقى بهـا جنتاهـا ثم بعدهمـا	مسافة الخمس موصولاً ليـاليهـا

(١) أسماء بلاد

تغدوا النواصف بالأطباق تملؤها — من كل فاكهة بالكف تحفيها
وليس يمنع نفساً أن توافيها — منها عجائبها إلا ثمانيها
وعرشها شاهق من فوق أعمدة — من الرخام سواقيها تحاذيها
حروفها لنواحي البئر مرهفة — إذ العيون بطول السحب يهميها
فلو يقابل منها حرفها دقلاً — أو لينه كاد ذاك الحرف يبريها
في طول عشرين بعد العرض كاملة — حصن بليغ طويل الباع يحويها
وفوقها مثلها والعرش منتصب — من فوقها وخرير الريح يدويها
فليس منظرها إلا لمضطجع — من علوها قد يكاد الغيم يخفيها
متى تظل بها أملاك ذي يمن — تظل تخترق الأرواح يلهيها
فاخلقت بلباس الدهر جدتها — تظل صادحة فيها تغفيها
ولا يحيط باحداهن ما قدرت — من بعد خمس حسيساً في كراسيها
ورأسها قبلة كالنجم بيضتها — ومقنع الرأس كرهاً من تنائيها
وحولها الطير وسط الجو عاكفة — ولابس الحلة الشوهاء يلهيها

وقال علقمة ذو جدن:

ومنا الذي دانت له الأرض كلها — بمارب يبني بالرخام ديارا

وأعمدة العرش السفلى قيام الى اليوم لو اجتمع جيل على أن يصرعوا واحدة منها لم يقدروا لأن كل عمود منها نقر له في الصفا ثم القم سفله ثم صب بينهما القطر ويسمى قصر بلقيس سلحين.

قال علقمة ذو جدن:

لو رأيت القشيب بعد بهاء — خاوياً هُدّ بعضه فوق بعض
وأقاويل مارب قد تولوا — بعد عقد الامور منهم ونقض

وقال علقمة أيضاً:

ابعد غمدان حين أمسى — يسفي به المور والرياح
يا عين سلحين فاندبيه — إذ هاض من أهله الجناح

وقال أيضاً:

وقصر سلحين قد عفاه — ريب الزمان الذي يريب

تعوى الثعالب في قراها ما في مساكنها عريب

وقال تبع :

ومارب قد نطفت بالرخام وفي سقفها الذهب الأحمر

ويقال ان مارب ومريب قبيلتان من العرب العاربة .

وقال علقمة :

اولا ترين وكل شيء للبلا سلحين خاوية كأن لم تعمر

واما قول الناس ان الشياطين كتبت في نقش مساند اليمن بين سلحين: سلحين تسعة وتسعين خريفاً وابال[1] وبين صرواح مراح وبنون بوحاضه ابدين وهند وهنيدة وسنعه امجاله بقاعه وتلقما بريده ولولا صارح بتهامه لاثرنا بالبون علامه .

فانما هذا الكلام لبعض حمير وإنما هويبين بينون بحروبينون وبنوبنين سوفتين وشوافيق برحامه، ويقول معنى قوله بنينا بينون نحن وأولادنا وأولاد أولادنا حتى فني منا كثير وبنينا آفيق بعلا البنا على النصب التعب .

وقال تبع يصف مارب :

اولدتني من الملوك ملوك كل قيل متوج صنديد

ونساء متوجات كبلقيس وشمس اكرم بها من جدود

ملكتهم بلقيس عشرين عاماً باولى قوة وباس شديد

ولها جنتان تسقيهما عيـ ـنان فارا بسدها المسدود

لا تبالي ان لا ترى غيث فيها جاءها السيل من مكان بعيد

عرشها طوله ثمانون باعاً كللته بجوهر وفريد

وبدر قد قيدته وياقو ت وبالتبر ايّما تقييد

فلو ان الخلود كان لحي باحتيال وقوة وعديد

او بملك لما هلكنا وكنا من جميع الانام اهل الخلود

---

(١) هذا نقش حميري وتفسيره بعده.

وقال محمد بن خالد كانت الملوك تسكنها (أي تسكن مارب) وحيناً تسكن صنعاء فاذا أرادوا الخلوة خرجوا إلى المقلاب بغيمان وحينا تكون بمارب في قصر سلحين فاذا حانت خلوتهم خرجوا منه إلى المذوب في غمدان مارب، وحينا يكونون بظفار في ريدان فاذا حانت خلوتهم كانوا باضرعه.

فايدة:

جاء في حاشية على بعض النسخ ما لفظه: سئل رسول الله ﷺ عن سبا أبلد هو أم رجل أو امرأة فقال هو رجل ابو العشرة سكن اليمن منهم ستة والشام أربعة فاليمانيون كنده ومذحج والازد وإنمار وحمير والاشعريون، والشاميون لخم وجذام وغسان وعامله وفي مسند عن بينون نقش بالحميرية.

بين بينون بحر وبنون ... وبنو بنين سوفتين
وبينون قصر حميري قديم ... وثنين افيو رحامه ابدين

ويقول الاعشى في سد مارب:

كفى ذاك للمؤتسى اسوة ... ومارب قفا عليها العرم
رخام بناها لهم حمير ... اذا جاء ماؤهم لم يرم
فأرووا الحروث وأعنابهم ... على ساعة ماؤهم ينقسم

ويقال انه يوجد بمارب كنز قد كنزته الفتاة بلقيس وسوف تظهره الجنه وبهذه المناسبة أقول ذكروا لي أنه يوجد جرف في إحدى شعاب جبل بلق الأيمن وهذا الجرف مسحور وفيه كنز عظيم قد يكون كنز بلقيس أو غيرها ولكن لم يتمكن أحد أن يدخله ويصل إلى بابه الأخير أي السابع لأن الجن تطفىء السراج، وتظهر تارة بمظهر حنش عظيم وطوراً بشكل حيوان غريب له أذنان كبيرتان يضع أذنه الواحد تحت رأسه حين ينام ويضع أذنه الثانية فوق جسده كغطاء، وأحياناً تظهر بمظهر حيوان عظيم له عنق طويل وشكله مرعب ومخيف فزرت هذا الجرف بنفسي فوجدت جميع ما كتب عنه لغوا وحقيقته أنه مغارة تأوى إليها الخفافيش وعلى ممر السنين ملأتها بزبلها فصارت تفوح منها الروائح الكريهة ولا يجسر بدو هذه البلاد من الدخول إليها. وهذا هو الجرف المسحور الذي طالما عللت نفسي باكتشافه اثناء الطريق.